



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية



بمبوحث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرحمة

في خطاب النبي ﷺ مع المخالف وأثرها على المدعوين

إعداد:

د. مصطفى بن عبد الرحمن البار



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد:

المبحث التمهيدي

أهمية البحث:

تتأكد وتزداد أهمية الخطاب المتسم بالرحمة، وتأثيره عندما يكون مرتكزاً على قيم وتوجيهات ربانية، التي من المتوقع أن يسعى بقدر الإمكان للامتثال والعمل بها الدعاة والمثقفون؛ لمحاولة تحقيق تواصل فعال يفضي إلى التقارب والتأثير الإيجابي على المدعويين، بمختلف شرائحهم وتوجهاتهم من جهة، والإسهام في معالجة ما قد يحدث من ممارسات خاطئة، وسلوكيات وأفعال مجانبة للصواب، وتصحيح ما يروج له من مفاهيم مغلوطة، تنهزم الإسلام وأتباعه بالعنف والقسوة وفقدان الرحمة من جهة أخرى.

وبالإمكان الإشارة إلى أن حاجة الناس اليوم للعودة إلى الماضي بمعينه الصافي، والنهل من معطيات التراث الإسلامي الأصيل، واستخلاص نماذج يقتدى بها، لا تقل بل تفوق أهمية عن الحاجة إلى معطيات الحضارة المعاصرة، بإنجازاتها وإبداعاتها المتنوعة.

وفي سيرة نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله ﷺ القدوة الحسنة، فقد رأى الناس وقتئذ تلك الصفة الرائعة مطبقة في شتى جوانب حياتهم، وبالإمكان أن يراها ناس اليوم حال حرصهم على التعرف عليها، والتأسي بها، وللمشاركة في معالجة ما تمت الإشارة إليه، ولأهميته، والحاجة إليه، فقد تم اختيار هذا الموضوع تحت عنوان: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وأثرها على المدعويين، حيث سنتطرق إلى عدد من النقاط المشار إليها في خطة البحث.

مشكلة البحث:

إن التدريب على اختيار الأسلوب المناسب المتسم بالرحمة عموماً في مخاطبة الناس، وإرشادهم، والتواصل معهم في مختلف الظروف والمواقف من ناحية، والسعي لمعالجة ما يخالفه وينافيه من خطاب القسوة، والتوتر، والعنف، ومجانبة الآداب المعتبرة مع المخالفين والمناوئين وغيرهم من ناحية أخرى؛ يعد من الأمور المهمة، والجديرة بالملاحظة والبحث والتقييم، وخاصة ما يتعلق بجانب الرحمة مع المخالف.

الدراسات السابقة:

من خلال التتبع والبحث لم أجد دراسة مستقلة تناولت هذا الموضوع «الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وأثرها على المدعويين» على الوجه الموجود في هذا البحث، وإنما توجد العديد من الدراسات والأبحاث المهمة في بابها، ومنها ما يلي:



• الرحمة في حياة الرسول ﷺ^(١)، حيث جاء الباب الأول عن الرحمة في رؤية الرسول ﷺ، وتضمن ثلاثة فصول، أحدها الرحمة في الكتاب والسنة، والباب الثاني عن رحمته ﷺ بالمسلمين، وضمنه خمسة فصول عن: الرحمة بالضعفاء، بالمخطئين، بالأمة في جانب العبادات، بعموم الأمة، والفصل الأخير رحمته ﷺ بالمسلمين حال الموت وبعده، وجاء الباب الثالث عن رحمته ﷺ بغير المسلمين، وضمنه ستة فصول: نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية، رحمته بغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، في تجنب الحرب، في أثناء الحرب، بالأسرى، والفصل الأخير: رحمته ﷺ بزعماء الأعداء، ثم الباب الرابع: شبهات وردود، والباب الخامس والأخير: رؤية غير المسلمين للرحمة.

• مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ^(٢)، وتضمن ثمان محاضرات قيمة ومتنوعة، أبرزت من خلالها صفة الرحمة في شخصيته ﷺ بأسلوب علمي أكاديمي.

• الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ^(٣)، وجاءت في ثلاثة فصول، الأول: وصايا الرسول ﷺ القولية والعملية المتصلة بالرحمة، والثاني: آثار وصايا وتطبيقات الرسول ﷺ في الناس من حوله، والثالث: نتائج الدعوة إلى التراحم وتطبيقها عملياً....

• الرسول ﷺ الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين^(٤)، وتضمن مقدمة واثنًا عشر عنواناً، تطرق فيها إلى إنسانيته ﷺ في الإحسان إلى

(١) الرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ. د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

(٢) مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، محاضرات: د. سارة آدم، إعداد: أ. د. زيد العيص، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

(٣) الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، أ. د. حصة الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط: الأولى، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

(٤) الرسول الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين، د. صالح الزهراني، دبيونو للنشر، الأردن، ط: الأولى، ٢٠١١ م.

غير المسلمين، أدب الدعوة، أدب الجوار، أدب الحوار، بث الأمن، العدل، التواضع، الأمانة، الصلة الاجتماعية، تقدير الكرامة الإنسانية، والحادي عشر: إنسانية الرسول ﷺ في الرحمة بغير المسلمين، وأخيراً: إنسانية الرسول ﷺ في الوفاء مع غير المسلمين. وسوف تتم الاستفادة منها بمشيئة الله في الجوانب ذات العلاقة بموضوع الدراسة الحالي

أهداف البحث:

يهدف البحث بصفة رئيسة إلى:

أولاً: التعريف بجوانب الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف أيًا كان، وآثار ذلك.

ثانياً: إبراز تعامله ﷺ مع مختلف الظروف والمواقف الحياتية، والتي من المحتمل أن يمر بها الدعاة والمسلمون عمومًا في أي وقت وزمان.

ثالثاً: محاولة تقديم دراسة تبرز الخطاب المقرون بالرحمة، وأثره في نشر الإسلام، والمساعدة في تصحيح وتكوين الصورة الذهنية الصحيحة عنه وعن أتباعه.

رابعاً: السعي لتزويد المكتبة بالبحوث المؤصلة، وليكون لبنة ضمن بقية ما سيقدم من أبحاث في هذا المؤتمر المهم عن الرحمة في الإسلام، وبخاصة خلال هذه الفترة.

منهج البحث

تعد هذه الدراسة من الدراسات النظرية، وسيتم بمشيئة الله التعامل مع المادة العلمية لهذا البحث، وفق المنهج العلمي المتبع في مثل هذه



الدراسات، والذي يستخدم المنهج الاستقرائي والاستنتاجي، بحيث يتم حصر الجزئيات والوقائع وفحصها، ودراستها بواسطة الطريقة الاستقرائية، والاستنتاجية لتنظيم المعلومات المتوافرة في قالب معين، لمساعدة الباحث على استنباط نتائج صحيحة، تزوده بالحلول والمقترحات^(١).

التعريف بمفردات عنوان البحث:

• الرحمة: مفهوم الرحمة في اللغة يدل على الرقة والرأفة^(٢) والعطف والمغفرة، فيقال رحمه: إذا تعطف عليه ورق له^(٣) وتأتي الرحمة بمعان أخرى: كالنبوة، والإسلام، والرزق، والغيث...^(٤) والمعنى المراد في هذا البحث هو ما يدل على العطف والرأفة، والمغفرة والرقة، كما سيتضح لاحقاً بمشيئة الله ﷻ، مع الإشارة إلى أن الرحمة لا تقف من الناحية العملية عند حدود الشعور بذلك، بل تتجاوزها إلى العمل بما تقتضيه، ولذا عرفت الرحمة بأنها صفة تقتضي إرادة إيصال الإحسان والخير والمصالح للناس^(٥).

- (١) كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، عبد الوهاب أبو سليمان ٦٤، دار الشروق، ط: السادسة، ١٤١٦هـ، وانظر: المدخل إلى إعداد البحوث والرسائل الجامعية في العلوم الاجتماعية أ. د. عبدالله الوليعي، ٣٥، توزيع مكتبة جرير، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ، والمدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، د. صالح العساف ٢٠٤، شركة العبيكان للطباعة والرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.
- (٢) وقيل: إن الرأفة أخص وأرق من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، بينما قد تقع الكراهة للمصلحة في الرحمة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٧٦/٢، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية بيروت، ط: د، ١٣٩٩هـ، ولسان العرب، ابن منظور ١١٢/٩، دار صادر بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.
- (٣) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٩٨/٢، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ط: د، ١٣٩٩هـ، ومختار الصحاح، الرازي ١٢٠، تحقيق: يوسف محمد، المكتبة العصرية الدار النموذجية بيروت، ط: الخامسة، ١٤٢٠هـ، ولسان العرب، ابن منظور ٢٣٠/١٢، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي ١١١١، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- (٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/٢٣٢٠.
- (٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٤٧، تحقيق: صفوان الداودي، دار

- خطاب: الخطاب الكلام، يقال: خاطبه في الأمر: حدثه بشأنه^(١) وفي القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقيل في تفسيره بأنه: «الكلام المخلص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس... وقيل: هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل، ولا إشباع ممل، كما جاء في وصف كلام الرسول ﷺ»^(٢) وهو المراد في هذا البحث.
- المخالف: المخالف والمخالفة أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر في قوله أو حاله، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه بعد ما نهاه عنه، سواء كانت مخالفة تضاد أو لفظ وتنوع^(٣) وسواء عن طريق الخطأ المقصود أو غير المقصود، وهو ما يشمله البحث.
- أثر: الأثر يأتي بمعنى النتيجة والعلامة، وهو الحاصل من الشيء^(٤) وسيتم في ثنايا هذا البحث بمشيئة الله ﷻ، الإشارة إلى بعض النتائج والآثار الإيجابية على المدعويين من المسلمين وغيرهم، وكيف أثر ذلك في مواقفهم.

-
- (١) القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ، وكتاب التعريفات، الجرجاني ١١٠، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ.
- (٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون) ٢٤٣/١، دار الدعوة، ط: د، ت: د، والقاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، د. سعدي أبو جيب، ١١٨، دار الفكر- دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ، وإستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبدالهادي الشهري ٣٤، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.
- (٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢٦/٥، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ١٧٣/٢١، ٣، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦٢/١٥، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ.
- (٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩٠/٩، والمفردات، الراغب ٢٩٤، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي ٥٥٢، وفقه التعامل مع المخالف، د. عبدالله الطريقي ١٦ ١٧، دار الوطن الرياض، ط: الأولى ١٤١٥هـ.
- (٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ٩، والمفردات الراغب الأصفهاني ٦٢.

• المدعوين: المدعو من توجه إليه الدعوة ويخاطب بها، وهو الإنسان عموماً^(١) والمراد به هنا المدعو من المسلمين وغير المسلمين في العهد النبوي.

خطة البحث:

المبحث الأول: الإشارة إلى أهمية ومكانة الرحمة في الإسلام، ويتضمن:

أولاً: الإشارة إلى ما ورد من نصوص الرحمة في الكتاب والسنة.
ثانياً: الإشارة إلى أن الأمر بالرحمة والإحسان لا يتعارض مع النهي عن الموالاة.

المبحث الثاني: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المسلمين، ويتضمن:
أولاً: رحمته ﷺ ورأفته في خطابه للمتكلم في الصلاة.

ثانياً: رحمته ﷺ في خطابه للأعرابي وما حصل منه في المسجد.
ثالثاً: رحمته ﷺ في خطابه وتوجيهه بمراعاة أحوال الناس بشأن إطالة الصلاة.

رابعاً: رحمته ﷺ في خطابه للنفر الذين أرادوا التشديد على أنفسهم.

خامساً: رحمته ﷺ في خطابه مع المخالف في نهار رمضان.

سادساً: رحمته ﷺ في خطابه لمن طلب التطهير من الذنب.

(١) انظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان ٣٧٣، مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة، ١٤٢١هـ، والمدخل إلى علم الدعوة، د. محمد البيانوني ٤٢٤١ و ١٦٩، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثالثة، ١٤٣٤هـ، والأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع المعاصر، د. عبدالرحيم المغذوي ٥٧٤ ٥٧٦، دار الحضارة للنشر والتوزيع الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.

سابعاً: رحمته وحلمه ﷺ في خطابه بمن آذاه بالفعل والجفاء في المخاطبة.

المبحث الثالث: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع غير المسلمين، ويتضمن:

أولاً: رحمته ﷺ في خطابه وشفقته بالمخالفين، وحرصه على هدايتهم.

ثانياً: رحمته في خطابه ﷺ مع ثمامة بن أثال ونتائج ذلك.

ثالثاً: رحمته ولطفه ﷺ في مخاطبة ومحاورة السائل المشدد في طرحه، ونتيجة ذلك.

رابعاً: رحمته ﷺ في خطابه مع أبي سفيان وأهل مكة يوم الفتح.

خامساً: رحمته ﷺ بعيادته الغلام اليهودي ودعوته إلى الإسلام.

سادساً: رحمته ﷺ في موقف وفاة عبد الله بن أبيّ.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

قائمة المراجع والفهرس



المبحث الأول بيان أهمية ومكانة الرحمة في الإسلام

أولاً: الإشارة إلى ما ورد من نصوص الرحمة في الكتاب والسنة:

من خلال ما ورد من نصوص مستفيضة عن الرحمة في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة يتضح بجلاء مكانة وأهمية هذه الصفة العظيمة، ومدى اعتناء الإسلام بها أيما اعتناء، وحثه عليها، فقد سمي الله ﷻ ووصف بها نفسه في غير موضع من كتابه الكريم، فهو الرحمن الرحيم، ودعاه بها أنبيأؤه ورسله ﷺ، كما وصف ﷻ بها نبيه محمداً ﷺ، وأمر الناس بالعمل بها، بل ورد التوبيخ والتوجيه لمن لم يتصف ويعمل بها، مما يؤكد أهميتها، وضرورة اعتناء العلماء والدعاة بها، ومسيس الحاجة لمزيد من السعي لمحاولة جعلها واقعاً معاشاً في حياة الناس اليوم كما كانت في عهد سلف الأمة، بما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم والبشرية عموماً بالخير والآثار الإيجابية من ناحية، وبما يساهم في نشر دعوة الإسلام السمحة، وتقبل تعاليمها، ومعالجة وتصحيح ما قد ينشأ من سلوكيات ومفاهيم مخالفة من ناحية أخرى.

ويكفي إبرازاً لهذه المكانة، أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فقد قضى ﷻ أنه رحيم بعباده، يقبل منهم التوبة والإنابة، وإقبال المتولين عنه

إليه، ولا يعجل عليهم بالعقوبة^(١) فهو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاحة]^(٢) وهو الحنان ذو الرحمة الرحيم بعباده^(٣) وقال ﷺ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقوله ﷺ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [ص: ١٥٦]، فرحمته ﷺ الواسعة تشمل جميع الخلق^(٤) وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله ﷻ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»^(٥).

كما حرص أنبياء الله ورسله ﷺ على طلب رحمته ﷻ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى في دعاء آدم وزوجه ﷺ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفُرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفي نوح ﷺ: ﴿وَلَا تَعْفُرْ لِي وَتَرْحَمْتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وعن موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، كما قال ﷺ عن نبيه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَقْبَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأخبر أنه أرسله ﷻ رحمة للعالمين، فقد جاء ﷻ بالرحمة لكافة الخلق فيما تضمنه القرآن الكريم^(٦)

- (١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٧٣/١١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٩٥/٦، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ٢٧١/٢، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- (٢) وللاطلاع على مواضع ذكرهما في القرآن الكريم منفردين أو مقترنين، بالإمكان مراجعة بحث تناول هذه الجزئية بشيء من التفصيل: رحمة الله ﷻ أسبابها وآثارها، د. مسفر الغامدي ١٨٥ و٢٠٧ و٢١٣، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٤٥ ربيع الأول إلى جمادى الثانية ١٤١٦هـ، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء المملكة العربية السعودية.
- (٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٥٣/١، ولسان العرب، ابن منظور ١٢٨/١٣، ومختار الصحاح، الرازي ٨٣ و١١٥.
- (٤) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي ٧٢/٥، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، ومحاسن التأويل، القاسمي ٢٢٢/٤، تحقيق: محمد السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.
- (٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، سعة رحمة الله ﷻ... ٢١٠٨/٤ رقم ٢٧٥١، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: د، ت، د، وانظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: «بل هو قرآن مجيد...» ١٦٠/٩ رقم ٧٥٥٣، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- (٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٨٥/٥، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ٢٥١/٤، دار الفكر بيروت، ط: د، ١٤١٥هـ.



حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء]، وقد بين ذلك ابن جرير الطبري رحمته في تفسيره، حين قال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي رُوي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمداً رحمته رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم»^(١).

رحمة لهم في الدين والدنيا؛ لأن ما بعث به رحمته سبب لإسعاد البشرية، وموجب لصلاح دنياهم وأخراهم^(٢) «أما في الدين فلأنه رحمته بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله رحمته محمداً رحمته حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا العناد والاستكبار... وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه»^(٣).

وقد بين رحمته أنه نبي الرحمة، الذي بعثه الله بها، ومن ذلك تسميته لنفسه بأسماء منها قوله رحمته: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ... وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»^(٤).

فقد كان رحمته رحيماً بأُمَّته كافة، ومن ذلك رحمته بالمخالف منهم، فعلى سبيل المثال أنه «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ

(١) جامع البيان، الطبري ٥٥٢/١٨، وانظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ٧٢٥، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي ٣٢٠/٣، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٦٢/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٣/٤ و٣٥٠/١١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩٣/٢٢، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ٦٨٧/٥، دار الفكر بيروت، ط: د، ت: د.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، في أسمائه رحمته ١٨٢٨/٤ رقم ٢٣٥٥.

لَعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثَتْ رَحْمَةً»^(١) كما كان رحيمًا شفيقًا على المخالفين له في أشد المواقف، التي تعرض فيها للأذى، لدرجة أنه ﷺ يأتيه ملك الجبال، وهو مهموم على وجهه الشريف من شدة ما لاقاه منهم، فيختار الرحمة عوضًا عن الانتقام والعذاب، فقد جاء عن جبريل عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ... إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ»^(٢) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٣).

قال ابن حجر رحمته الله: «وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه ﷺ وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَأْمُرَهُمْ لَأُطِيقَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»^(٤).

ولذا جاء التوجيه من المصطفى ﷺ أيضًا بالحث على رحمة الناس والتحذير من خلاف ذلك، فقد ورد أن الأقرع بن حابس^(٥) أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(٦) وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ، لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٧) فالحديث يدل بمنطوقه على أن

(١) المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ٢٠٠٦/٤ رقم ٢٥٩٩.

(٢) جبلي مكة أبي قبيس والجبل الذي يقابله، سميا بذلك لصلابتهما، وغلظ حجارتهما. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٥/١٢ والنهية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٢/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم أمين والملائكة...، ١١٥/٤ رقم ٣٢٣١.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٢١٦/٦، رقمه: محمد عبد الباقي، صححه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٥) الأقرع بن حابس التميمي، من المؤلفات قلوبهم، حسن إسلامه، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، وقد على النبي ﷺ، وشهد فتح مكة وحنينًا والطائف. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٢٥٢/١ رقم ٢٣١، وأسد الغابة، ابن الأثير ٢٦٤/١ رقم ٢٠٨.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال، ١٨٠٨/٤ رقم ٢٣١٨.

(٧) المرجع السابق، كتاب الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال، ١٨٠٩/٤ رقم ٢٣١٩.



اللَّهُ لا يرحم من لا يرحم الناس، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله^(١). وبيّن «العلماء أن هذا عام يتناول رحمة الأطفال وغيرهم»^(٢).

بل تجاوز الحث على الرحمة التي دعا إليها الإسلام، البشر إلى الحيوان، فهذا رجل غفر له لرحمته وسقياه لكلب^(٣)، وتلك امرأة دخلت النار لحبسها هرة^(٤).

وقد علق ابن بطال رحمته الله بقوله: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان»^(٥).

وسيتضح المزيد من الأمثلة والتطبيقات العملية للرحمة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالف من المسلمين وغير المسلمين، وآثار ذلك من خلال المبحث الثاني والثالث، وقبل البدء بذلك أختتم المبحث الحالي بشيء من الإيضاح للجزئية التالية.

ثانياً: الإشارة إلى أن الأمر بالرحمة والإحسان لا يتعارض مع النهي عن المبالاة:

إن التعامل بالرحمة والإحسان مع الناس عامة بما هو من مكارم الأخلاق وفضائلها أمر مطلوب ومرغب فيه، ولا سيما إن كان لغير المسلمين لدعوتهم

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعدي ١٨٨، تحقيق: عبد الكريم ال دريني، مكتبة الرشد، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٧٧/١٥.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب السلام، فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ١٧٦١/٤ رقم ٢٢٤٤.

(٤) انظر: المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي ٢٠٢٣/٤ رقم ٢٦١٩.

(٥) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٢١٩/٩، تحقيق: أبو تميم بن إبراهيم، مكتبة الرشد الرياض، ط: الثانية.

إلى الإسلام وبيان محاسنه، ولا تعارض بينه، وبين ما ورد من النهي عن الموالاة، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَيُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) [المتحنة]، وقد بين ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرؤهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم»^(١) وعن أسماء^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ»^(٣) فأمرها ﷺ بالقبول والإكرام»^(٤).

وقد ذكر القرافي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الفرق بين قاعدة بر أهل الذمة، وقاعدة التودد لهم» حيث أشار إلى ما يؤكد جانب الرحمة والإحسان بقوله: «الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبايان ملتبان، فيحتاجان إلى الفرق...»، ثم ذكر أمثلة من مكارم الأخلاق في التعامل معهم، كقوله: «وأما ما أمر به من برهم ومن غير مودة باطنية، فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم، والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة... والدعاء لهم بالهداية... فإن ذلك من مكارم الأخلاق» ثم قال في نهاية ذلك: «وبالجملة

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢٣/٢٢٣.

(٢) أسماء بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة، زوج الزبير بن العوام، وأخت أم المؤمنين عائشة، من أوائل من أسلم من الصحابييات، كانت تسمى بذات النطاقين، عمرت حتى بلغت المائة، وكانت من آخر المهاجرات وفاة، توفيت سنة ٧٣هـ، انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٧/٧ رقم ٦٧٠٥، تحقيق: علي معوض وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٢٨٧/٢ رقم ٥٢، تحقيق: بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، ١٦٤/٣ رقم ٢٦٢٠.

(٤) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرمانى ١١/١٤٥، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثانية، ١٤٠١هـ.



فبرهم والإحسان إليهم مأمور به، وودهم وتوليهم منهي عنه، فهما قاعدتان: إحداهما محرمة والأخرى مأمور بها»^(١).

وكما تمت الإشارة إلى الفرق بين الرحمة وحسن التعامل والتودد غير المشروع، تجدر الإشارة هنا إلى أن استخدام القوة المشروعة في مواطنها المحددة شرعاً، هي كذلك نوع من الرحمة بالخلق، حيث بالإمكان أن يرى من واقع السيرة النبوية العطرة، كيف أن القوة المشروعة تحمي الرحمة، وبأن الرحمة تهذب القوة، وتحاصر فيها مظاهر الشر والقسوة، غير المبررة شرعاً، فهو منهج متوازن، كيف لا، وهو ﷺ الرحيم بأمتة، والأسوة الحسنة لهم، وتم الاكتفاء بالإشارة إلى ذلك، والإحالة أدناه لمزيد من الاطلاع لكونه

لن يتم التطرق لهذه الجزئية في هذا البحث لطبيعة مجاله ومحدوديته^(٢).



(١) الفروق، القرافي ١٤/٣، عالم الكتب بيروت، ط. د.، ت. د.، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٢٣٤/٥ و ٥٢٨/١٠، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٨/٣، تحقيق: محمد مستو وآخرون، دار ابن كثير دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.

(٢) ولمزيد من الاطلاع على هذا الجانب، انظر: على سبيل المثال: شرح السنة، البيهقي ٢١٣/١٣ - ٢١٤، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ، ومفاتيح الغيب، الرازي ١٩٣/٢٢، والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزري ٣١/٢، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ، والرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ. د. راغب السرجاني ١٢٧ ١٣٥ و ٣٦٧، ومظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، إعداد: أ. د. زيد العيص ١٠٩ وما بعدها و ١١٩.

المبحث الثاني

الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المسلمين

من المعلوم أن الإنسان اجتماعي بطبعه، يخالط ويألف ويعيش مع الناس، ويسعى لتكوين علاقات متنوعة، وهو معرض على مر التاريخ، وبحكم بشريته للوقوع في المخالفة، والخطأ المقصود وغير المقصود من جراء وخلال تلك العلاقات الإنسانية.

وسيتم من خلال المبحثين (الثاني والثالث) التطرق بمشيئة الله ﷻ لوقائع وأمثلة متنوعة، يتبين من خلالها كيف كانت الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف من المسلمين وغير المسلمين، والإشارة إلى آثار ذلك؛ محاولة لإعطاء صورة ونموذج واقعي لتلك الحقبة المباركة، وإمكانية التأسي بها من قبل العلماء والدعاة وغيرهم.

وسيكون الحديث في هذا المبحث (الثاني) عن الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف من المسلمين، على ضوء أمثلة ومواقف حياتية متنوعة تبرز من خلالها تلك الصفة العظيمة، وذلك الخلق الكريم، فبشيء من التتبع والاستقراء لسيرته العطرة ﷺ نجده يعطي أروع الأمثلة وأرقاها لأتباعه للتأسي والاقتراد به في هذا السلوك، دون تكلف ولا عناء، وإنما هي الفطرة السليمة وتعاليم الإسلام السمحة.

ولذا نجده ﷺ في عدد من المواقف والأحداث يهم أصحابه الكرام ﷺ



وأرضاهم بالإنكار حرصاً على ما يروونه مخالفاً لما عهدوه وتعلموه، فيأتي خطاب وتوجيه النبي القدوة والرحمة المهداة ﷺ محملاً بالرحمة والشفقة في معالجة تلك المواقف والأحداث، ومما يوضح ذلك ويبينه ما يلي:

أولاً: رحمته ﷺ ورأفته في خطابه للمتكلم في الصلاة:

فهذا أحد الصحابة، معاوية بن الحكم ﷺ يروي ما حصل له عندما تكلم في الصلاة، وشمتم العاطس، وهو خلاف ما يجب أن يكون فيها، وكيف تعامل معه من في المسجد، أثناء الصلاة، وكيف خاطبه النبي ﷺ بعد انقضائها، حتى أثر ذلك في نفسه، وقال ما قال عن رسول الله ﷺ، جاء في الحديث «عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ^(١)، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلَأُ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنَكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْحَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلِحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٢).

فقد وصف الموقف الذي دار بينه وبين من في المسجد ﷺ أجمعين حينما أتى في الصلاة بما يخالف صفتها، بأنهم نظروا إليه نظر المنكر وخذروه^(٣)، بينما كان منه ﷺ بعد انقضاء الصلاة ما يدل على الرحمة والرأفة، فلم يغلظ عليه في الخطاب، ولا استقبله بالعبوس^(٤) وإنما بين ﷺ

(١) معاوية بن الحكم له صحبه، يعد من أهل الحجاز، سكن المدينة، له حديث تشميت العاطس في الصلاة وغيره. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ١٩٩/٥ رقم ٤٩٨١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ١١٨/٦ رقم ٨٠٨٢، تحقيق: عادل عبدالموجود وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد...، تحريم الكلام في الصلاة... ٣٨١/١ رقم: ٥٣٧.

(٣) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٢/٢٧٠، تحقيق: عصام الصباطي، دار الحديث مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.

(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود، الخطابي ١/٢٢١ ٢٢٢، المطبعة العلمية حلب، ط: الأولى، ١٣٥١هـ.

له ما يصلح وما لا يصلح، في الصلاة. ولذا قال ﷺ متأثراً بهذا الموقف: «فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهْرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي...» فهنا اتضح أثر هذه الرحمة على الصحابي الجليل، فقال ما قال في وصف النبي ﷺ.

وفي هذا الصدد يقول النووي رحمته معلقاً على الحديث بما بيّن رحمته رحمته وشفقته وأهمية التآسي به: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله ﷻ له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأتمته وشفقته، عليهم، وفيه التخلق بخلق الله ﷻ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه، واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه»^(١).

ثانياً: رحمته ﷺ في خطابه للأعرابي، وما حصل منه في المسجد:

وشبهاً في كيفية التعامل مع الموقف السابق، ما حصل مع الأعرابي الذي أتى إلى مسجد رسول الله ﷺ فبال في ناحية من نواحيه، فتناوله الناس بأسنتهم، وزجروه، وأنكروا، عليه فعلته المخالفة^(٢)، فنهاهم عن ذلك الصنيع، وتعامل معه بكل رأفة ورحمة، وتمت معالجة ما أحدثه الأعرابي، واستدراكه بغسله بالماء دون انتشاره^(٣) وتعليمه بأسلوب رحيم شفيق ما يصلح وما لا يصلح الإتيان به في بيوت الله ﷻ، فقد جاء أنه: «فَامَّ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسَّرِينَ، وَلَمْ تَبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ»^(٤).

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٠/٥

(٢) انظر: عمدة القاري، العيني ١٢٨/٣.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣٢٧/١، وقد بين العلماء الحكمة من ترك الأعرابي إكمال ما بدأ به، ومنها تحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما، ولزيد من الاطلاع حيال هذه الجزئية بالإمكان مراجعة: شرح صحيح مسلم، النووي ١٩٣/٣، وفتح الباري، ابن حجر ٣٢٣/١، وعمدة القاري، العيني ١٢٧/٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد ٥٤/١ رقم ٢٢٠.



وعند مسلم رضي الله عنه «أنه جاء أعرابي فقام يبُول في المَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَرْمُوهُ دَعْوُهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَدَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»^(١).

وقد أثر ذلك الموقف في الأعرابي وهدى رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، حيث لم يؤنبه أو يوبخه^(٢)، بل خاطبه ﷺ برأفة ورحمة وحسن خلق، كيف لا، وهو كما وصفه الله ﷻ أنه بالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ، وأنه ﷺ على خلق عظيم^(٣).

ومن كمال رحمته ﷺ في هذا الموقف أنه وجه أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم الذين هم في مقام التبليغ عنه بقوله: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَشِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» حيث تم تأكيد هذا الأمر في خطابه ﷺ لهم بالتيسير، وبعده بعدم التعسير، فهو تأكيد بعد تأكيد للدلالة على اليسر قطعاً^(٤).

وكان من رحمته ورأفته ﷺ أنه في شأنه كله، يوجه ﷺ أصحابه وأتباعه من بعده بالتيسير وترك كل عسير^(٥).

ثالثاً: رحمته ﷺ في خطابه وتوجيهه بمراعاة أحوال الناس بشأن إطالة الصلاة:

ومن الأمثلة والنماذج الرائعة أيضاً الدالة على رحمته وشفقته بأمته، ومراعاة أحوالهم ما حدث عندما أتاه آت يشكو ما حصل له من إطالة الإمام

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، وجوب غسل البول وغيره من النجاسات. ٢٢٦/١ رقم ٢٨٥.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٢٥/١.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣٢٧/١، وفتح الباري، ابن حجر ٢٢٥/١، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١٠٩/٢، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء مصر، ط: الأولى، ١٤١٩هـ.

(٤) انظر: عمدة القاري، العيني ١٢٨/٣.

(٥) انظر: حاشية السندي على سنن النسائي، السيوطي ٤٩/١، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.

للصلاة، وتبيينه للرسول ﷺ أنه صاحب عمل؛ يعتريه ما يعتريه من التعب الذي يضعف قدرته على تحمل تطويل الصلاة، فما كان من نبي الرحمة ﷺ إلا أن وجه معاذاً^(١) بما يجب العمل به، ومراعاة أحوال الناس.

فقد جاء في الحديث أنه: «أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ^(٢) وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ - أَوْ النَّسَاءِ - فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَاَ إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَانَ أَنْتَ» - أَوْ «أَفَاتِنُ» - ثَلَاثَ مَرَارٍ: «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»^(٣) ولذا بَوَّبَ البخاري ﷺ لهذا الموضوع باب: «من شكَا إمامه إذا طول».

فالرجل بيّن حاله بأنه صاحب إبل يسقي عليها النخل والزرع، ويعمل بها، فيتعب وينصب، ومن ثم تضعف قواه، فلا يستطيع تحمل تطويل الصلاة^(٤) وهنا ورد توجيه نبي الرحمة ﷺ للصحابي الجليل معاذ ﷺ بمراعاة أحوال الناس، وعدم التفسير والصد عن الدين^(٥)، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك بفعله أيضاً، حين قال: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَاسْمَعْ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَانْجُوزْ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَّةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى

(١) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان عمره لما أسلم ثمانين سنة، أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن، وهو من علماء وفقهاء الصحابة، توفي بالطاعون في الشام سنة ثمانين عشرة، وكان عمره قرابة ثمان وثلاثين سنة. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ١٨٧/٥ رقم ٤٩٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ١٠٧/٦ رقم ٨٠٥٥، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٤٣/١ رقم ٨٦.

(٢) تنثية ناضح، والنواضح: الإبل التي يسقى عليها، انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٨١/٢، وفتح الباري، ابن حجر ٢٠٠/٢، وإرشاد الساري، القسطلاني ٥٩/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من شكَا إمامه إذا طول ١٤٢/١ رقم: ٧٠٥.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٨٢/٤، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٨١/٢.

(٥) انظر: المرجع السابق، وإرشاد الساري، القسطلاني ٦٧/٩، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب ٢٣١/٦، تحقيق: محمد عبدالمقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية، ط:



أمّه»^(١) قال ابن حجر رحمته: «وفيه شفقة النبي ﷺ على أصحابه ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير»^(٢).

رابعاً: رحمته ﷺ في خطابه للنفر الذين أرادوا التشديد على أنفسهم:

إن من رافته ورحمته بأمته ﷺ أن يعلمهم الوسطية، وسلوك الطريق المؤدي إلى تعاليم الإسلام السمحة، دون إفراط ولا تقريط، ويبيدهم عن كل ما من شأنه الإفضاء إلى طريق التشدد، وتصحيح المفاهيم والسلوكيات المؤدية إلى المخالفة، ومن ذلك الرهط الذين رغبوا في التشديد على أنفسهم، ومخالفة هدي رسول الله ﷺ في العبادة وغيرها، فما كان منه ﷺ إلا أن وجههم ومن بعدهم بما يجب أن يكونوا عليه.

ورد في الحديث أنه: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأحشاكم، لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٣)، وجاء في صحيح مسلم رحمته: «أنه قال بعضهم: «لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال ﷺ: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ١٤٣/١ رقم ٧٠٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٠٢/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٢/٧ رقم: ٥٠٦٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب النكاح، استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ١٠٢٠/٢ رقم: ١٤٠١.

فهم قدموا بيت النبي ﷺ مستفسرين عن عبادته، فبدلاً من حسن التأسي والافتداء، وسلوك مسلكه الرحيم ﷺ، تداولوا ما تخيلوه الأفضل بحسب ما قدروه وتأولوه في أنفسهم، فقالوا ما قالوا^(١).

ولكون مثل هذا، المسلك الذي ظاهره التشدد، ومؤداه إلى مخالفة ما جاء به ﷺ من الحنيفية السمحة، حيث إن «الأخذ بالتشديد في العبادة؛ يفضي إلى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلاً، وترك التنفل يفضي إلى إثارة البطالة، وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط»^(٢).

ولذا نجده ﷺ وهو الرحيم حين لقي هؤلاء الرهط فيما بينه وبينهم حذرهم من ذلك؛ رفقا بهم وسترًا لهم^(٣)، وعندما أراد أن ينبه الجميع للتحذير من الوقوع في مثله، قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟»، وفي هذا الصدد قال النووي رحمته الله: «هو موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا، أنه إذا كره شيئاً، فخطب له ذكر كراهيته، ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ فإن المقصود من ذلك، الشخص، وجميع الحاضرين، وغيرهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملاء»^(٤).

وقد بين العلماء أن في هذا الحديث التوجيه لهم، ولمن بعدهم، بالافتداء به ﷺ، وبمن سار على نهجه، وذلك بالأخذ بالتوسط، فقد قال ابن بطال رحمته الله: «وفيه الافتداء بالأئمة في العبادة، والبحث عن أحوالهم، وسيرهم في الليل والنهار، وأنه لا يجب أن يتعدى طرق الأئمة؛ الذين وضعهم الله ليقتدى بهم في الدين والعبادة، وأنه من أراد الزيادة على سيرهم فهو

(١) انظر: ارشاد الساري، القسطلاني ٤/٨، وفتح الباري، ابن حجر ١٠٥/٩، وفيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ٤٩٧/٥، تحقيق: محمد الميرتهي، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠٦/٩.

(٣) انظر: عمدة القاري، العيني ٦٥/٢٠، وفتح الباري، ابن حجر ١٠٥/٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧٦/٩.



مفسد، فإن الأخذ بالتوسط والقصد في العبادة أولى؛ حتى لا يعجز عن شيء منها»^(١).

خامساً: رحمته ﷺ في خطابه مع المخالف في نهار رمضان:

ومن الأمثلة الدالة على رحمته وشفقته ﷺ مع من وقع في مخالفة، وارتكب ذنباً، ذلك الموقف الرحيم، وتلك المعالجة اللطيفة مع ذلك الرجل الذي جاء خائفاً على نفسه، مستفتياً ومقرراً بمخالفته، فما كان منه ﷺ إلا أن تعامل معه وخاطبه برحمة ورأفة.

ورد في الحديث أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ: «فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: «مَا لَكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تَعْتُقُهَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَ: لَا، فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا». قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيَّنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ الْمَكْتَلُ^(٢) - قَالَ: «أَيِّنَ السَّائِلِ؟» فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ» فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرِ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ^(٣) - أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أُنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»^(٤) وعند مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرجل قال معبراً عن حاله وخوفه: «فَقَالَ: احْتَرَقْتُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِمَ» قَالَ: وَطِئْتُ امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ نَهَارًا، قَالَ: «تَصَدَّقْ، تَصَدَّقْ» قَالَ: «مَا عِنْدِي شَيْءٌ...»^(٥).

- (١) صحيح البخاري، ابن بطال ١٦٠/٧، وإرشاد الساري، القسطلاني ٤/٨، وعمدة القاري، العيني ٦٦/٢٠.
- (٢) العرق: المكلت وهو الزنبيل، انظر: شرح السنة، البيهقي ٢٨٣/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٤/١٦٩.
- (٣) اللابتان تشبة لآية، عبارة عن حرتين تكتفان المدينة. والحررة الأرض ذات حجارة سود. عمدة القاري، العيني ٣٣/١١، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/٣٧٨.
- (٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان... ٣٢/٣ رقم ١٩٣٦، واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الصيام، تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان ٧٨١/٢ رقم ١١١١.
- (٥) صحيح مسلم، كتاب الصيام، تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان ٧٨٣/٢ رقم ١١١٢.

فكما هو ظاهر من هذا الحديث الشريف، أن الرجل جاء إلى نبي الرحمة ﷺ خائفاً مترقباً معبراً بكلمات تدل على حاله، كقوله: «هلكت» و«احترقت».

وعلى الرغم من قيامه بما يخالف هذا الشهر الفضيل، والذي هو ركن من أركان الإسلام، نجد الرحمة المهداة ﷺ يرشده ويوجهه برفق ولطف، ثم يضحك ﷺ حتى بدت أنيابه، وقد قيل: «إن سبب ضحكك ﷺ كان من تباين حال الرجل، حيث جاء خائفاً على نفسه راغباً في فداها مهما أمكنه، فلما وجد الرخصة طمع أن يأكل ما أعطيه في الكفارة، وقيل: ضحك ﷺ من حال الرجل في مقاطع كلامه، وحسن تأتية وتلطفه في الخطاب وحسن توصله في توصله إلى مقصوده»^(١) والمعنى متقارب.

وهذا يشير إلى رحمته ﷺ ولطفه في التوجيه والتعليم، فقد قال ابن حجر رحمته في أثناء ذكره لفوائد هذه الحادثة: «وفيه الرفق بالمتعلم، والتلطف في التعليم، والتألف على الدين»^(٢) فرسول الله ﷺ لم يعاقب الرجل عما اقترفه في الشهر الكريم؛ لأن في مجيئه واستفتائه ظهور توبته وندمه عما صدر منه، ولو عوقب السائل لربما كان سبباً في ترك الناس الاستفتاء عند وقوعهم في نازلة، مثل ذلك مخافة العقوبة^(٣).

وقد بوب البخاري رحمته في صحيحه: «باب من أصاب ذنباً دون الحد، فأخبر الإمام، فلا عقوبة عليه بعد التوبة، إذا جاء مستفتياً»^(٤).

سادساً: رحمته ﷺ في خطابه لمن طلب التطهير من الذنب:

ومما يدل على رحمته وشفقته ﷺ وهو الرحيم بأمتة على من اقترف ذنباً يوجب إقامة الحد عليه، تعامله مع الرجل الذي جاء طالباً تطهيره مما

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤/١٧١، وعمدة القاري، العيني ١١/٣٢، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/٢٧٨.

(٢) المرجع السابق ٤/١٧٢، وانظر: عمدة القاري، العيني ١١/٣٤.

(٣) وقد بين العلماء أن ذلك بخلاف ما فيه حد محدود، ولزيد من الاطلاع بالإمكان مراجعة عمدة القاري، العيني ١١/٣٢، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/٢٧٩، وفتح الباري، ابن حجر ٤/١٦٤ ١٦٥.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب من أصاب ذنباً دون الحد ... ٨/١٦٦.



وقع فيه من الزنى، وكذلك الحال في حادثة المرأة^(١). ذلك الحوار، وتلك المخاطبة التي تظهر فيها رحمته ورأفته ﷺ بهما، قبل وبعد إقامة الحد الشرعي عليهما.

فقد ورد أنه جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي ﷺ: مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرب خمراً؟» فقام رجل فاستتكهه، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت؟» فقال: نعم، فأمر به فرجم^(٢).

وجاء عند مسلم رحمته فيما يتعلق بحادثة المرأة أنه ﷺ قال لوليها: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»^(٣) فقد أمر ﷺ بالإحسان إليها رحمة لها^(٤).

فيلحظ أن النبي ﷺ ردد الرجل عدة مرات، ولم يقم عليه الحد، تثبتاً في أمره، ورعاية في ستره، وصيانة لدم المسلم، ورجاء رجوعه عن قوله^(٥).

وكذلك الحال بالنسبة للمرأة، حتى إنها قالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه» فقالت: أراك تريد أن

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ١٣٢٢/٣ رقم ١٦٩٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ١٣٢٤/٣ رقم: ١٦٩٦.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٢٠٥/١١.

(٥) انظر: إكمال المعلم، عياض ٥١٧/٥، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٩٣/١١، وشرح الزرقاني على

موطأ الإمام مالك، محمد عبد الباقي ٢٢٤/٤، تحقيق: طه سعد، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.

تُرِدُّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ»^(١) وقد قيل إن ويح كلمة رحمة^(٢) وهو ما يدل عليه سياق الخطاب أيضاً .

ومع أن نبي الرحمة ﷺ أقام عليهما الحد الشرعي، وحذر أشد التحذير من مثل إتيان هذا الصنيع بقوله: «أَوْ كَلَّمَا أَنْطَلَقْنَا غُرَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَيْبٌ كَنَيْبِ^(٣) التَّيْسِ، عَلِيٌّ أَنْ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَّ ذَلِكَ إِلَّا نَكَلَّتْ بِهِ»^(٤) إلا أنه ﷺ عندما اختلف الناس تجاه ما حصل إلى فريقين ما بين مادح وذام، أتاهم ﷺ وهم جلوس، فسلم عليهم، ثم جلس فقال: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ»، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوْسَعَتْهُمْ»^(٥) وقال ﷺ في المرأة: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوْسَعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»^(٦).

سابعاً: رحمته وحلمه ﷺ بمن آذاه بالفعل والجفاء في المخاطبة:

إن رحمة النبي ﷺ في خطابه مع المخالف شملت أيضاً من آذوه بفعل أو جفاء في أسلوب المخاطبة، بل نجده ﷺ يمنع أصحابه من التعرض لهم بقول أو فعل .

ومما يشير إلى ذلك: «أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ، بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِمَا حَبَّ الْحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرَوْا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطَوْهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا: لَا نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «اشْتَرَوْهُ، فَأَعْطَوْهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قِضَاءً»^(٧).

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ١٢٢٢/٣ رقم ١٦٩٥ .

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٩٩/١١ .

(٣) نبيب التيس: صوته عند السفاد . المرجع السابق ١٩٥/١١ .

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ١٢٢٠/٣ رقم: ١٦٩٤ .

(٥) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ١٢٢٢/٣ رقم ١٦٩٥ .

(٦) المرجع السابق، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ١٢٢٤/٣ رقم: ١٦٩٦ .

(٧) صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون، باب استقراض الإبل ١١٦/٣ رقم: ٢٣٩٠ =



فهذا الأعرابي جرى على عادته من جفاء المخاطبة والإغلاظ في المطالبة^(١).

ولتجاوزه الأدب مع رسول الله ﷺ هم بأذيته أصحابه ﷺ، فمنعهم والتمس له العذر، وأحسن له العطاء^(٢).

وقد وقع أعرب مما ما تمت الإشارة إليه، حين قال أنس بن مالك^(٣).
«كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ
أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ،
قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَقَمْتُ إِلَيْهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ «أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»^(٤) فرسول الله
ﷺ لم يتأثر بسوء أدبه، وجفاء خطابه، ولم يتغير، بل ضحك تلطفاً، ثم
أمر له بعطاء ولم يؤاخذه^(٥).

وفيه دلالة واضحة على كمال رحمته، وما جبل عليه ﷺ من الرحمة،
وشريف الأخلاق، وليتأسى به من بعده في التحلي بمثل هذه الصفات^(٦).

= واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب المساقاة، من استسلف شيئاً ففقد خيراً منه ١٢٢٥/٣ رقم: ١٦٠١.

(١) انظر: عمدة القاري، العيني ٢٣٠/١٢، وإرشاد الساري، القسطلاني ١٥٩/٤، وتحفة الأحمدي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٤٥٥/٤، دار الكتب العلمية بيروت، ط: د، ت: د.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥٦/٥، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤٧/٧، وعمدة القاري، العيني ١٣٦/١٢، والأدب النبوي، محمد الخولي ٢٦٩، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٣هـ.

(٣) أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، كان يتسمى به ويفتخر بذلك، روى عن النبي ﷺ علماً جمعاً، وعن الصحابة، لازم رسول الله ﷺ قرابة عشر سنين، وكانت إقامته بعد النبي بالمدينة، شهد الفتوح، ثم سكن البصرة ومات بها، قيل سنة ثلاث وتسعين، وكان من آخر الصحابة موتاً. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ٢٩٤/١ رقم ٢٨٥، والإصابة، ابن حجر ٢٧٥/١ رقم ٢٧٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٩٥/٣ رقم ٦٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفه قلوبهم ٩٤/٤ رقم: ٣١٤٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، إعطاء من سأل بفحش وغلظة ٧٣٠/٢ رقم: ١٠٥٧.

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان الهروي ١٩٥٥/٥ و٣٧١١/٩، دار الفكر بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠٠/٩، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المناوي ٥٢٢/٣، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦هـ.

(٦) انظر: عمدة القاري، العيني ٢١٢/٢١، وفتح الباري، ابن حجر ٥٠٦/١٠، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣٢١/٥ و١٠٠/٩، وإرشاد الساري، القسطلاني ٢٢٦/٥.

ولعله يتضح بجلاء من خلال الأحداث المشار إليها في هذا المبحث، كمال رحمته وشفقته ﷺ، وكيفية تعامله مع تلك المواقف ومخاطبة أصحابها، مع ملاحظة تنوعها، وأنها وقعت في أهم الشعائر والأمور الخاصة بالمسلمين، كالصلاة، والمسجد، ومفهوم العبادة، وارتكاب ما يخالف صيام شهر رمضان، وما يتعلق بالأعراض، والإغلاظ في مخاطبة النبي ﷺ وأذيته، ومع ذلك نجده ﷺ يخاطب أصحاب تلك المواقف بمنتهى الرحمة واللطف، ويعالجها برحمة شاملة وفق منهج نبوي متوازن. وذلك يؤكد مدى الحاجة للتأسي والاقتراء به ﷺ في تعامله مع المخالف، وما يحدثه ذلك من آثار ايجابية، وبخاصة العلماء والدعاة، المبلغين عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ الساعين لنشر دينه الصحيح؛ استجابة لأمره ﷻ وأمر رسوله ﷺ، ورحمة بالخلق؛ كون تلك الرحمة «من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدتها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله...، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته...، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم»^(١) وهي «رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف... فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلئ قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق...، وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكروه عنهم»^(٢).

وهذا ظاهر في سيرته العطرة ﷺ وما تمت الإشارة إليه من أحداث متنوعة في ثنايا هذا المبحث، والتي هي عبارة عن أمثلة ونماذج، ومع ما

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار، السعدي ١٨٨.

(٢) المرجع السابق ١٨٩.

ذكر فإن رحمته ﷻ لم تقتصر على المخالف من المسلمين، بل هي كذلك مع غير المسلمين، ولمزيد من الإيضاح لهذه الصورة المشرقة، وللحاجة إلى إبراز هذا التكامل والتوازن، فإنه سيشار ويُتطرق إليها باختصار من خلال المبحث التالي.



المبحث الثالث

الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع غير المسلمين

حيث تُطرق في المبحث السابق إلى بيان عظيم رحمته ورأفته ﷺ في خطابه مع المخالف من المسلمين، الذين هم أتباعه وعلى دينه، التي لم تقتصر عليهم، بل تجاوزت إلى أولئك الذين خالفوه في الدين والمعتقد، ومع من ناصبوه وأتباعه العدا، ومارسوا معهم لسنوات أشد أنواع القسوة والعنف والإيذاء، فما كان من الرحمة المهداة للعالمين ﷺ إلا منتهى الرحمة والشفقة، ومما يشير إلى ذلك ما يلي:

أولاً: رحمته ﷺ في خطابه وشفقته بالمخالفين وحرصه على هدايتهم:

فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتْ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»^(١) فهو حريص على اهتداء ودعوة أمته إلى الإسلام، وتجنبيهم ما هو سبب أذيتهم وهلاكهم، وتبييهم بمثل هذا المثال على استشعار الحذر، وخوف التورط في محارم الله^(٢) ومن كمال رحمته وشفقته ﷺ مقابلة أذاهم بالدعوة بالغفران، والاعتذار بأنهم لجهلهم لا يعلمون^(٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ١٧٨٩/٤ رقم ٢٢٨٤، واللفظ له، وانظر:

صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي ١٠٢/٨ رقم ٦٤٨٣.

(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٢٧٧/٩، ٢٧٨، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/١٩٤.

(٣) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ١٦٤/٦ و٧٢/٨، وصحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث

الغار، ١٧٥/٤ رقم ٣٤٧٧، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، غزوة أحد ١٤١٧/٣ رقم ١٧٩٢.



وكما ذكر سابقاً أنه ﷺ كان رحيماً بالمخالفين له في أحلك وأقسى المواقف، التي تعرض فيها للأذى، حتى إنه ﷺ وهو مهموم على وجهه الشريف من شدة ما لاقاه منهم؛ يأتيه ملك الجبال لتعذيبهم، فيختار الرحمة بهم وبأجيالهم عوضاً عن الانتقام والعذاب، ولذا عندما طلب منه ﷺ الدعاء على المشركين وقتئذ، بين أنه لم يبعث لعاناً، وإنما بعث رحمة^(١). وهذا من مزيد رحمته وشفقته على أمته وكثرة حلمه^(٢) ومن ذلك أنه طلب منه ﷺ أن يدعو على دوس، فدعا لهم، فقد ورد «أَنَّ دَوْسًا، قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»^(٣).

وقد علق الكرمانى رَحِمَهُ اللهُ على ذلك بقوله: «فإن قلت هم طلبوا الدعاء عليهم ورسول الله ﷺ دعا لهم، قلت: هذا من كمال خلقه العظيم ورحمته بالعلمين»^(٤) وفي ذات السياق، قال العيني رَحِمَهُ اللهُ: «لا شك أن رسول الله، ﷺ رحمة للعلمين، ومع هذا كان يحب دخول الناس في الإسلام، فكان لا يعجل بالدعاء عليهم ما دام يطمع في إجابتهم إلى الإسلام، بل كان يدعو لمن يرجو منه الإنابة»^(٥) ولا شك أن هذا يدل دلالة واضحة على «كمال خلقه العظيم، ورحمته ورأفته ﷺ بأتمته جزاءه الله عنا أفضل ما جرى نبياً عن أمته»^(٦).

ثانياً: رحمته ﷺ في خطابه مع ثمامة بن أثال ونتائج ذلك:

كان ثمامة رجلاً من كبار بني حنيفة، وقد اتخذ موقفه المبغض لرسول الله ﷺ ودينه وبلده، فأُسر وأُتي به، ورُبط في سارية من سواري المسجد،

(١) انظر: ص ٨ من هذا البحث.

(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٢٧٦/٥، وفيض القدير، المناوي ١١٩/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب الدعاء للمشركين بالهدى لبيتآلفهم ٤/٤٤ رقم ٢٩٣٧، واللفظ له وانظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، من فضائل غفار وأسلم وجهينة ٤/١٩٥٧ رقم ٢٥٢٤.

(٤) الكواكب الدراري، الكرمانى ١٢/١٨٤، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/١٠٨.

(٥) عمدة القاري، العيني ١٤/٢٠٨، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/١٥٢.

(٦) إرشاد الساري، القسطلاني ٥/١١٠.

فكان يرى ويشاهد ما يحدث فيه، وكان رسول الله ﷺ لمدة ثلاثة أيام يخاطبه ويلطفه بقوله: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ تَقْتَلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعَمَّ تَعَمَّ عَلَيَّ شَاكِرٌ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ»^(١) وفي مخاطبة الرسول ﷺ لثمامة وتكرار ذلك قال النووي رحمته: «إن هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير»^(٢) وهو ما حصل، فحين أمر الرسول ﷺ بإطلاقه، ذهب فاغتسل ثم عاد إلى المسجد ليعلن إسلامه، ويبين ما حصل لديه من تغير تجاه رسول الله ﷺ ودينه وبلده حين قال: «يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهِكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ»^(٣).

وقد حسن إسلامه ﷺ ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة، بل إنه منع الحنطة عن قريش حتى يأذن فيها رسول الله، فكتبوا إليه ﷺ يستعطفونه، فوجه ثمامة أن يعيد ما حبسه عنهم^(٤) فيأله من تعامل رحيم يؤدي إلى مثل هذا التأثير.

ثالثاً: رحمته ولطفه ﷺ في مخاطبة ومحاوراة السائل المشدد في طرحه ونتيجة ذلك:

ومما يشير إلى ذلك أنه حين قدم رجل إلى مسجد رسول الله ﷺ وسأل عنه ثم قال: «يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ

- (١) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ١٧٠/٥ رقم ٤٢٧٢، واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد، ربط الأسير وحبسه ... ١٣٨٦/٣ رقم ١٧٦٤.
- (٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٨٩/١٢.
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب وفد بني حنيفة ... ١٧٠/٥ رقم ٤٢٧٢.
- (٤) انظر: المرجع السابق، والكواكب الدراري، الكرمانى ٢١٨/١٠، وإرشاد الساري، القسطلاني ٤٢٣/٦.

الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَشَدُّ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ»^(١) فعلى الرغم من إخلال السائل برعاية آداب الخطاب^(٢) إلا أن النبي ﷺ لم يلتفت إلى ذلك، بل تواصل معه حتى فرغ مما لديه من استفسارات عن شرائع الإسلام، ثم كانت النتيجة أن أعلن إسلامه، وبين مكانته في قومه حين قال: «آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِّنْ وَرَائِي مَن قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بِنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ»^(٣). وقد قيل في فائدة تعريفه بنفسه في نهاية الحوار كونه من المشاهير، أو لأن إيمانه سبب إيمان قومه^(٤).

وقريب من هذا ما حصل مع الرجل الذي اخترط سيف رسول الله ﷺ وقال له من يمنعك مني؟، ثم جلس، وعفى عنه ﷺ ولم يعاقبه^(٥) رجاء إسلامه، وسماع قومه منه بصدق محاسن هذه الأخلاق ما يكون سبباً في إسلامهم وسعادتهم، وقد قيل إنه أسلم، ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير^(٦).

رابعاً: رحمته ﷺ في خطابه مع أبي سفيان وأهل مكة يوم الفتح: من المواقف الخالدة، والصور النادرة الرائعة التي سطرها التاريخ مع الذين أخرجوا الرحمة المهداة ﷺ من بلده، واستعملوا معه وأتباعه أشد أنواع القسوة في المحاربة والإيذاء؛ أن يعاملوا ويخطبوا عند النصر والاقتماد بمنتهى الرحمة، حتى خشي الأنصار ﷺ أن ما رأوه مؤشراً على رأفته ﷺ بقومه، ورغبته البقاء معهم بمكة، فطمأنهم ﷺ وبين مكانتهم، فأقبلوا إليه معتردين بيبكون.

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم... ٢٢/١ رقم ٦٣.

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه، السندي ٤٢٧/١، دار الجيل بيروت، ط: د، ت: د.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم... ٢٢/١ رقم ٦٣.

(٤) انظ الكواكب الدراري، الكرمانى ١٨/٢.

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق... ١١٦/٥ رقم ٤١٣٩.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٢٨/٧، وعمدة القاري، العيني ١٧/١٩٩.

وقريش مغتمة، يترقبون ما يحل بهم، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، ثم قال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتَهُ رَغَبَةٌ فِي قَرَيْتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ^(١) وحين سمع أبو سفيان تلك المقولة أثناء استعراض جيش المسلمين، ومرور كتيبة الأنصار به: «يَا أَبَا سُفْيَانَ، الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ»^(٢) أي أنه يوم حرب لا خلاص منه، ويوم مقتلة عظيمة^(٣) شكى ذلك للرسول ﷺ، وأبلغه بما سمع، فما كان من نبي الرحمة ﷺ إلا أن خطأ تلك المقولة، وخطبه ﷺ بقوله: «وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعْظَمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةُ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ»^(٤). وعلى الرغم مما ألحقه به ﷺ وبدعوته، ومن قدرة جيش المسلمين وقتئذ على المحاسبة والعقاب بل والانتقام، إلا أنه جاء إعلان الأمان والعمو العام للناس سوى نفر قليل، فأضحى ذلك اليوم يوم الرحمة والإعزاز، بدلاً من يوم الحرب والإذلال، وذلك من آثار ونتائج رحمته ﷺ كيف لا! وهو نبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين^(٥).

خامساً رحمته ﷺ بعبادة الغلام اليهودي ودعوته إلى الإسلام:

ورد في الحديث أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض، «فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ «كالمستشير له في طاعة ما أمر به»^(١) فَقَالَ لَهُ: «أَطَعَ أَبَا الْقَاسِمِ،

- (١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، فتح مكة ١٤٠٥/٣ رقم ١٧٨٠.
- (٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ١٤٦/٥ رقم ٤٢٨٠.
- (٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/٨، وإرشاد الساري، القسطلاني ٦/٣٩١.
- (٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ١٤٦/٥ رقم ٤٢٨٠.
- (٥) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٦/٣٩١، وفتح الباري، ابن حجر ٩/٨، والسيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم العمري ٢/٤٧٨ ٤٨١، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، ط: السادسة، ١٤١٥هـ.
- (٦) دليل الفالحين، محمد الشافعي ٦/٣٧٥، اعتنى به: خليل شيحا، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٥هـ.



فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١) فمن شفقتة ورحمته ﷺ عيادته، ودعوته وفرحه بإسلام هذا الغلام الذي شارف على الهلاك، وفي ذلك «إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام»^(٢).

سادساً: رحمته ﷺ في موقف وفاة عبدالله بن أبي:

وكما مر في الأمثلة والنماذج السابقة أن رحمة النبي ﷺ ورأفته في قوله وفعله مع المخالف، أيًا كان توجهه ومعتقده ظاهرة بيّنة، فهذا عبدالله بن أبي الذي نزل فيه قرآن يتلى، وسطرت كتب السير والتاريخ ما أحقه من أذى برسول الله ﷺ ودعوته، ومع ذلك نجد نبى الرحمة ﷺ يتعامل مع الموقف بالرحمة المعهودة، فقد ورد «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي لَمَّا تُوْفِّي، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أَكْفَنَهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ...»^(٣).

وفي هذا الصدد قال الخطابي رحمته: «إنما فعل النبي مع عبدالله بن أبي ما فعل لكمال شفقتة على من تعلق بطرف من الدين، ولتطبيب قلب ولده عبدالله الرجل الصالح، ولتآلف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه، وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح؛ لكان سبة على ابنه وعاراً على قومه، واستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهى فانتهى»^(٤) وقال النووي رحمته: «قيل إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطيباً لقلب ابنه فإنه كان صحابياً صالحاً، وقد سأل ذلك فأجابته إليه...» وفي هذا الحديث بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ فقد علم

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات... ٩٤/٢ رقم ١٢٥٦.

(٢) عمدة القاري، العيني ١٧٥/٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص... ٧٦/٢ رقم ١٢٦٩.

(٤) تحفة الأحوذى، المباركفوري ٣٩٨/٨، وانظر: معالم السنن، الخطابي ٢٩٨/١، وشرح صحيح

البخاري، ابن بطلان ٢٦٣/٣، وفيض الباري، محمد شاه ١٨/٣ ١٩.

ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى فألبسه قميصاً
كفناً...»^(١).

وهكذا فإن «علامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محباً
وصول الخير لكافة الخلق عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول
الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون الرحمة»^(٢).



(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/١٦٧، وانظر: عمدة القاري، العيني ٨/٥٥.

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار، السعدي ١٨٩.

الخاتمة

يتبين من خلال هذا البحث رحمة النبي ﷺ في خطابه مع المخالف، وكيفية معالجته لتلك المواقف والأحداث، مما يعطي دلالة واضحة، ومؤشراً قوياً على ما يتسم به منهج الإسلام من الرحمة، والشفقة في التعامل مع الناس على اختلاف أصنافهم وأديانهم. ويؤكد ذلك ويعززها على سبيل المثال ما حصل مع أهل مكة، فعلى الرغم من شدة وقسوة ما لاقاه وأتباعه منهم، فإنه ﷺ عاد إليهم خلال سنوات منتصراً فاتحاً رحيماً، غير ناقم، ناشراً للرحمة والخير والسلام لمن آذوه وأخرجوه من وطنه.

كما تمت الإشارة إلى أن الرحمة والإحسان وحب الخير للناس عموماً من المسلمين وغير المسلمين مأمور به شرعاً، ولا تعارض بينه وبين التودد المذموم المنهي عنه.

وتبيّن أيضاً من خلال ما رصدته ولاحظته في ثنايا هذا البحث الآثار الإيجابية للخطاب والممارسة العملية الرحيمة على المدعويين، والناس عموماً.

ويظهر أيضاً من خلال ما ورد في هذا البحث من أمثلة ونماذج رائعة، وغيرها في السيرة كثير، أنها ليست مجرد أمثلة بل بالإمكان أن تكون

منهج حياة ومصدر سعادة، ليس للمسلمين فحسب، بل للبشرية ككل، فعظمة هذا التاريخ النبوي، وسيرته العطرة، يجب أن تكون مصدر فخر واعتزاز للمسلمين عامة، ولحملة العلم، والدعاة إلى الإسلام، والمثقفين خاصة؛ بفهمها الفهم المتكامل، وتبليغها بالحسنى.

وأخيراً مما يوصى به في ختام هذا البحث ما يلي:

- أن يبذل علماء الأمة ودعاتها ومثقفها المزيد من الجهد لتأكيد ما يحمله الإسلام من رحمة ورأفة للبشرية جمعاء، ودراسة الظواهر المخالفة لذلك، وما يثار من اتهامه وأتباعه بالقسوة والعنف؛ جراء ممارسات خاطئة غير مسؤولة، أو اتخاذ مواقف سلبية مسبقة دون نظر أو تمحيص، والسعي لمعالجتها وفق منهج علمي رصين.
- إجراء دراسات ميدانية على الخطاب الموجه للمخالف، والتعامل معه في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ومقارنتها بما حصل في العهد النبوي.
- مدى إمكانية إجراء دراسات تقييمية على الخطباء والوعاظ والإعلاميين؛ لرصد طبيعة الخطاب الموجه للمخالف خصوصاً، وما يحتويه من مظاهر الرحمة وخلافها.
- عقد برامج ودورات تدريبية للخطباء والوعاظ، ومن يتولى توجيه الناس والتعامل معهم؛ للإسهام في تعزيز هذه القيم وتحويلها لواقع معاش في حياتهم.
- القيام بأبحاث تخاطب الآخرين بلغتهم، كعقد مقارنات بين الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وما يقابلها في تلك الحقبة وغيرها لدى الثقافات الأخرى.



قائمة المصادر المراجع:

١. القرآن الكريم
٢. الأدب النبوي، محمد الخولي، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٣هـ.
٣. إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبدالهادي الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.
٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي معوض وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
٥. الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع المعاصر، د. عبدالرحيم المغذوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق: عادل عبدالموجود وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
٧. أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة، ١٤٢١هـ.
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار الفكر بيروت، ط: د، ١٤١٥هـ.
٩. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء مصر، ط: الأولى، ١٤١٩هـ.
١٠. بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعدي، تحقيق: عبدالكريم الدريني، مكتبة الرشد، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ

١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.
١٢. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت، ط: د، ت: د.
١٣. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.
١٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ.
١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد شاکر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى: ١٤٢٠هـ.
١٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ.
١٧. حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل بيروت، ط: د، ت: د.
١٨. حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.
١٩. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الفكر بيروت، ط: د، ت: د.
٢٠. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي الشافعي، اعتنى به: خليل شيحا، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٥هـ.
٢١. رحمة الله أسبابها وآثارها، د. مسفر الغامدي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٤٥ ربيع الأول إلى جمادى الثانية ١٤١٦هـ، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء المملكة العربية السعودية.
٢٢. الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، أ. د. حصة الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط: الأولى، ١٤٣٥هـ.



٢٣. الرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ.د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرتة الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.

٢٤. الرسول الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين، د. صالح الزهراني، دبيونو للنشر، الأردن، ط: الأولى، ٢٠١١م.

٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ

٢٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٢٧. السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، د. أكرم العمري، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، ط: السادسة، ١٤١٥هـ.

٢٨. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي، تحقيق: طه سعد، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٩. شرح السنة، البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٠. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبو تميم، مكتبة الرشد الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٣١. صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، رقمه: محمد عبد الباقي، صححه وأشرف على طباعته: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٣. صحيح مسلم، مسلم، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: د، ت: د.
٣٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب، تحقيق: محمد عبدالمقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
٣٥. الفروق، القرافي، عالم الكتب بيروت، ط: د، ت: د.
٣٦. فقه التعامل مع المخالف، د. عبدالله الطريقي، دار الوطن الرياض، ط: الأولى ١٤١٥هـ.
٣٧. فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه، تحقيق: محمد الميرتهي، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ.
٣٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المناوي، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦هـ.
٣٩. القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، د. سعدي أبو جيب، دار الفكر- دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ.
٤٠. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.
٤١. كتاب التعريفات، الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية.
٤٢. كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، عبد الوهاب أبو سليمان، دار الشروق، ط: السادسة، ١٤١٦هـ.
٤٣. الكواكب الدراي في شرح صحيح البخاري، الكرمانى، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثانية، ١٤٠١هـ.
٤٤. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.



٤٥. محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٧. مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية بيروت، صيدا، ط: الخامسة، ١٤٢٠هـ.

٤٨. المدخل إلى إعداد البحوث والرسائل الجامعية في العلوم الاجتماعية أ.د. عبدالله الوليعي، توزيع مكتبة جرير، ط: الأولى، ١٤٣٣هـ.

٤٩. المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، د. صالح العساف، شركة العبيكان للطباعة الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٠. المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد البيانوني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثالثة، ١٤٣٤هـ.

٥١. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد الهروي، دار الفكر بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٢. مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، محاضرات: د. سارة آدم، إعداد: أ.د. زيد العيص، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرتة الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣١هـ.

٥٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٤. معالم السنن شرح سنن أبي داود، الخطابي، المطبعة العلمية حلب، ط: الأولى، ١٣٥١هـ.

٥٥. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون) دار الدعوة، ط: د، ت: د.
٥٧. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ط: د، ١٣٩٩هـ.
٥٨. مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٥٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محمد مستو وآخرون، دار ابن كثير دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
٦٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية بيروت، ط: د، ١٣٩٩هـ.
٦١. نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق: عصام الصبابطي، دار الحديث مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.
٦٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.



الرحمة

في سيرة المصطفى ﷺ

إعداد:

د. خالد بن محمد بن عقيل البداح
أستاذ مساعد بجامعة القصيم



المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على المبعوث
رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى
يوم الدين.

أما بعد:

فإن من أصول إرسال الرسول الأمين، أن كان رحمةً للعالمين، فقد قال
الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فرحمته شاملة للعالمين، للإنس، والجن، والحيوان، والطير، وقد كان
هذا جلياً في سيرته ﷺ، فكانت رحمته الخاصة بأمته، وذلك بطلبه من
ربه التخفيف عنها، واختباء شفاعته لها، ورحمته بالأقربين، وصحابته
الغُرِّ الميامين.

ورحمته أيضاً في الحرب والأسر، وبالمخالف المعارض، وتعدت إلى
كل حي من حيوان وطير، كل ذلك يرسم أنموذجاً فريداً تقتدي به الأمة
من بعده.

وقد أعرضت في هذا البحث عن الإسهاب والتطويل، وكان التركيز
على ما هو صحيح من النصوص والشواهد، فالصفحات محدودة،
فحري أن تملأ بالمختصر المفيد.

ومن نعم الله عليّ مشاركتي في هذا المؤتمر المبارك، (مؤتمر الرحمة في الإسلام)، وفي محوره الرابع: (الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ).

ولعليّ أجمال أهداف البحث في النقاط التالية:

- الوقوف على نماذج من رحمة الرسول ﷺ بأُمَّته.
- تصنيف رحمة الرسول ﷺ على أنواع الناس وأديانهم.
- رَأخذ الفوائد من مواقف رحمته ﷺ.
- تطبيق خلق الرحمة في حياتنا المعاصرة.

الدراسات السابقة:

- الرحمة وأسبابها في السنة النبوية، إعداد الدكتور: محمود حميد مجبل عبدالله، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد ٩٣ - سنة ١٤٣١هـ.
- الرحمة في حياة الرسول ﷺ، تأليف الدكتور: راغب الحنفي السرقاني، نشر مركز التعريف بالرسول ﷺ ونصرتة - رابطة العالم الإسلامي - الطبعة الأولى - ١٤٣٠هـ.
- الرحمة والعظمة في السيرة النبوية، تأليف: محمد بن إبراهيم الحمد، نشر سنة: ١٤٣٦هـ.
- رحمة للعالمين، تأليف: القاضي محمد سليمان سلمان المنصور فوري، ترجمة الدكتور: سمير عبدالحميد إبراهيم - نشر دار السلام - الرياض - الطبعة: الأولى، سنة: ١٤١٨هـ.
- هل كان محمد ﷺ رحيماً، تأليف: محمد حسام الدين الخطيب، نشر البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة - مسابقة مظاهر

الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ - رابطة العالم الإسلامي،
دمشق - ١٤٢٨ هـ.

- وبحوث عدة، تتناول مفردات فرعية في رحمة النبي ﷺ، منشورة ضمن أبحاث المؤتمر الدولي: نبى الرحمة محمد ﷺ، المنعقد في الفترة ٢٣-٢٥ شوال ١٤٣١ هـ - الموافق ٢-٤ أكتوبر ٢٠١٠م، والذي نظّمته الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

أما المنهج الذي اتبعته في هذا البحث على النحو التالي:

- جمع النصوص والنماذج من سيرة المصطفى ﷺ، وسنته في الرحمة.
- إدراج هذه الصور والنماذج تحت المباحث والمطالب كل بما يناسبه.
- عزو الأحاديث والآثار لمصادرها الأصلية، وإيراد أقوال العلماء على الأحاديث، والترجيح إن لزم الأمر إلى الترجيح.
- أشرح الألفاظ والمصطلحات الغريبة.
- أحل الصور والنصوص، وأذكر الفوائد منها.
- أترجم للأعلام المغمورين الوارد ذكرهم في النصوص.
- جعلت فهارس فنية للبحث في آخره.

أما خطة البحث فقد قسمتها إلى خمسة مباحث، وهي كالتالي:

المبحث الأول: رحمة الرسول ﷺ بأصحابه ﷺ، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بأهل بيته.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بقرابته.

المطلب الثالث: رحمته ﷺ بأصحابه.

المبحث الثاني: رحمة الرسول ﷺ بأمة وطلبه من ربه التخفيف في الشرائع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بأمة وطلبه من ربه التخفيف لها.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بأمة في التكاليف الشرعية.

المبحث الثالث: رحمة الرسول ﷺ بأمة من بعده، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بأمة عند موته.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بأمة يوم القيامة.

المبحث الرابع: رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رحمته ﷺ في حربه.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بالأسرى.

المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالمخالفين.

المبحث الخامس: رحمة الرسول ﷺ بالحيوان والطيور وسائر الخلق، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بالحيوان.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بالطيور.

المطلب الثالث: رحمته ﷺ ببقية المخلوقات.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا: وأسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يتقبله، وأن يرزقني وقارته

العمل والافتداء بالنبي ﷺ وبما ورد فيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المبحث الأول رحمة الرسول ﷺ بأصحابه ﷺ

المطلب الأول رحمته ﷺ بأهل بيته

تتجلى رحمة النبي ﷺ لأهل بيته في حياته اليومية، فقد كان لين الجانب، حسن الخلق، رحيماً ودوداً مع زوجاته؛ ومن تحت يده من خدمه. ولعلي في هذا المطلب أذكر شيئاً من الأمثلة على رحمته ﷺ بأهل بيته على سبيل التمثيل لا الحصر.

أولاً: مساعدته ﷺ لأزواجه بأعمال البيت.

كان النبي ﷺ يقوم بخدمة أهله، فقد سُئِلَتْ ﷺ عنها «مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ»^(١).

وفي رواية ابن حبان عن ﷺ عنها قالت: «مَا كَانَ إِلَّا بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، كَانَ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»^(٢).

وفي رواية: «وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٧٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح، برقم: (٥٦٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد، برقم: (٥٤١)، والترمذي في الشمائل، برقم: (٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم: (٤٩٩٦).

(٣) أخرجه ابن حبان في الصحيح، برقم: (٥٦٧٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٩٢٢).

قال ابن بطال: (أخلاق النبيين والمرسلين عليهم السلام التواضع والتذلل في أفعالهم، والبعد عن الترفه والتنعيم، فكانوا يمتهنون أنفسهم فيما يعين لهم ليسنوا بذلك، فيُسلِّك سبيلهم وتُتَقَف آثارهم، وقول عائشة: (كان في مهنة أهله) يدل على دوام ذلك من فعله متى عرض له ما يحتاج إلى إصلاحه)^(١).

ثانياً: مرافقته ﷺ لزوجه صفية بنت حيي لما خرجت من المسجد.

كان أزواج رسول الله د يزرنه وهو في المعتكف، فربما تأخرت إحداهن في خروجها، فعزَّ على رسول الله ﷺ أن تخرج في الليل لوحدها، فخرج معها ليوصلها.

فمن صفية زوج النبي ﷺ قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرَحَنَ، فَقَالَ لَصَفِيَّةَ بِنْتِ حَيٍّ لَا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكَ، وَكَانَ بَيْتُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ^(٢)، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا^(٣).

قال ابن حجر: (والذي يظهر أن اختصاص صفية بذلك؛ لكون مجيئها تأخر عن رفقتها، فأمرها بتأخير التوجه ليحصل لها التساوي في مدة جلوسهن عنده، أو أن بيوت رفقتها كانت أقرب من منزلها فخشي النبي ﷺ عليها، أو كان مشغولاً فأمرها بالتأخر؛ ليفرغ من شغله ويشيعها)^(٤).

ثالثاً: مراعاته ﷺ لأزواجه ورحمته بهن.

كان رسول الله ﷺ يراعي أزواجه في بعض الأحوال، ويبسر لهن أمورهن،

- (١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، (٢٣٤/٩).
- (٢) المقصود به أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ، ويراد بقوله: (وكان بيتها في دار أسامة)، فسره ابن حجر بقوله: أي الدار التي صارت بعد ذلك لأسامة بن زيد، لأن أسامة إذ ذاك لم يكن له دار مستقلة بحيث تسكن فيها صفية، وكانت بيوت أزواج النبي ﷺ حوالي أبواب المسجد، فتح الباري، (٢٧٩/٤).
- (٣) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٢٠٣٨).
- (٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٢٧٨/٤).

فربما سألته إحداهن شيئاً من التيسير في بعض عبادتهن، أو أمراً من الأمور الخاصة، فيرشدهن للأيسر لهن، ولذلك مواقف كثيرة منها:

شكت أم سلمة للنبي ﷺ مرضاً ألمَّ بها فقالت: شَكَوتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ»^(١).

واستأذنته زوجه سودة بنت زمعة بالدفع من مزدلفة، فعن عائشة عنها فقالت: «كَانَتْ سَوْدَةُ امْرَأَةً ضَخْمَةً ثَبِيْطَةً»^(٢)، فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَفِيضَ مِنْ جَمْعِ بَلِيْلٍ، فَأَذِنَ لَهَا «فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «فَلَيْتَنِي كُنْتُ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنْتَهُ سَوْدَةُ» وَكَانَتْ عَائِشَةُ «لَا تَفِيضُ إِلَّا مَعَ الْإِمَامِ»^(٣).

رابعاً: رحمته ﷺ بولده إبراهيم عند موته.

رحمة النبي ﷺ تتجلى في هذا الموقف، وذلك عند وفاة ولده إبراهيم، فدمعت عيناه وخشع قلبه، فقد ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه هذا الموقف، فقال: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ^(٤)، وَكَانَ ظَنُورًا^(٥) لِإِبْرَاهِيمَ رَيْبِيًّا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ اتَّبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٦).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٤٦٤)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٢٧٦).

(٢) ثَبِيْطَةٌ: بفتح المثناة وكسر الموحدة بعدها مهملة خفيفة، أي: بطيئة الحركة كأنها تنبت بالأرض أي تشبث بها. فتح الباري، (٥٢٩/٣).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (١٦٨١)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٢٩٠)، وهذا لفظ مسلم.

(٤) أبو سيف القين: هو زوج أم سيف مرضعة إبراهيم ولد النبي ﷺ، واسمه البراء بن أوس. الإصابة في تمييز الصحابة، (١٦٧/٧).

(٥) ظنورا: بكسر المعجمة وسكون التحتانية المهموزة بعدها راء، أي: مرضعاً، وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة. فتح الباري، (١٧٣/٣).

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (١٣٠٣)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٢٣١٥).

وفي رواية عند مسلم: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم»^(١).

خامساً: رحمته صلى الله عليه وسلم بمن كان في بيته من الخدم.

أوردت هذا النص في ضمن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن من يعيش في بيت النبي صلى الله عليه وسلم يصبح من خاصته، ولكون الخدم يطلعون على أمور لا يطلع عليها الأبعدون، وقد يقعون في أخطاء فتطالهم الملامة، ومع ذلك لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم أحداً من خدمه أو يعنفهم، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أَفٌّ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا صَنَعْتَ»^(٢).

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته من أزواجه، وخدمه، فقد كان غايةً في الرحمة والرفق، وحسن العشرة، فلم تكن الفضاظة شعاره، بل كان ليناً هيناً رحيماً.

المطلب الثاني

رحمته صلى الله عليه وسلم بقرباته

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم فطرية، فطرها الله صلى الله عليه وسلم في قلبه، لذلك أنزل الله صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣١٤) [الشعراء: ٢١٤] فالرسول صلى الله عليه وسلم كغيره من البشر يحب قرابته، وقد حرص على إسلامهم، فمنهم من استجاب ومنهم من أبى، ومن النصوص الشاهدة على رحمته بقرباته، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣١٤) [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٠٣٨)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٢٣٠٩).

اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنْافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بَنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(١).

بدأ النبي ﷺ بدعوة العشيرة؛ وهي قريش، ثم ببني عبد مناف، ثم صرَّح بأسماء الأقربين، رحمةً بهم وخوفًا عليهم أن تمسهم النار.

ومن الشواهد كذلك، رحمته بعمه أبي طالب وحرصه على إسلامه، فقد روى سعيد بن المسيب، عن أبيه، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ^(٢) الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ^(٣)، وَعَبْدَ اللَّهِ^(٤) بَنَ أَبِي أُمَيَّةَ بَنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمُّ، قُلِّي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بَنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَنْزَعُبُ عَنْ مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٥)؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٢٧٥٣).

(٢) أبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، أبو طالب: والد علي ﷺ وعم النبي ﷺ وكافله ومربيه ومناصره. كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم، ومن الخطباء العقلاء الأباة. وله تجارة كسائر قريش. نشأ النبي ﷺ في بيته، وسافر معه إلى الشام في صباه. ولما أظهر الدعوة إلى الإسلام هم أقرباؤه (بنو قريش) بقتله، فحماه أبو طالب وصددهم عنه، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فامتنع خوفًا من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه، ووعد بنصرته وحمايته، مات قبل الهجرة بثلاث سنوات. الأعلام، الزركلي، (١٦٦/٤).

(٣) أبو جهل: هو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، وكان أبو جهل يكنى أبا الحكم، فكانه رسول الله ﷺ أبا جهل. وكان أبو جهل أشد الناس على رسول الله ﷺ، فقتل الله أبا جهل يوم بدر كافرًا. تهذيب الكمال، المزي، (٢٤٧/٢٠).

(٤) عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ، أمه عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم، وكان عبد الله بن أبي أمية شديدًا على المسلمين مخالفًا مبغضًا، وهو الذي قال: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا أو يكون لك بيت من زخرف، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، ثم أنه خرج مهاجرًا إلى النبي ﷺ، فلقيه بالطريق بين السقيا والعرج وهو يريد مكة عام الفتح، فتلقيه فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فدخل على أخته وسألها أن تشفع له، فشفعت له أخته أم سلمة، وهي أخته لأبيه، فشفعها رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة مسلمًا، وشهد حينئذٍ والطائف، ورُمي يوم الطائف بسهم فقتله. الاستيعاب، (٨٦٩/٣).

(٥) عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحارث: زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب =



حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخَرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الفصل: ٥٦].

المطلب الثالث رحمته ﷺ بأصحابه

أما شواهد رحمته ﷺ بأصحابه كثيرة، ولعلي أذكر شيئاً منها على سبيل المثال، ما روى مالك^(١) بن الحويرث خبره ونفراً من قومه لما قدموا على رسول الله ﷺ، فقال: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اسْتَهَيْنَا أَهْلَنَا - أَوْ قَدْ اسْتَقْنَا - سَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرَنَا، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمَرُّوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(٢).

فلم يفتِ النبي ﷺ أن هؤلاء الشباب يشتاقون لأهلهم، فرفع عنهم الحرج بأن يعودوا إلى أهلهم ويعلموهم أمر دينهم.

= ومقدميهم. مولده في المدينة ومنشأه بمكة. كان عاقلاً، ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة. وهو جد رسول الله ﷺ، وكان أبيض مديد القامة. مات بمكة عن نحو ثمانين عاماً أو أكثر. الأعلام، (٤/١٥٤).

(١) مالك بن الحويرث بن أشيم بن زبالة، أبو سليمان الليثي، صحابي نزل البصرة، مات سنة أربع وسبعين. الاستيعاب، (٢/١٣٤٩)، الإصابة، (٥/٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٣١)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٦٧٤).



فرحم هؤلاء الشباب برجعهم لأهلهم أولاً، ورحم أهلهم برجعهم إليهم وتعليمهم ثانياً .

ومن الشواهد كذلك، ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه من قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فقال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ^(١) فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ. مَهْ^(٢)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ^(٣) دَعُوهُ» فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذْرِ إِنَّهَا هِيَ لَذِكْرُ اللَّهِ ﷻ، وَالصَّلَاةُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ^(٤) عَلَيْهِ^(٥).

وفي رواية أبي هريرة قال: قال الأعرابي: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمَحَمَّدًا، وَلَا تَرَحِّمْ مَعَنَا أَحَدًا. فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ: «لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعًا» يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ^(٦).

ومن الشواهد أيضًا، خبر معاوية^(٧) بن الحكم السلمي رضي الله عنه، وتحدثه في الصلاة، فعنه رضي الله عنه قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرَحِمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَثَلْتُ^(٨)

(١) الأعرابي: قال ابن حجر: حكى أبو بكر التاريخي، عن عبد الله بن نافع المزني، أنه الأقرع بن حابس التميمي، وقيل غيره. فتح الباري، (١/٣٢٣).

(٢) مه. مه: كلمة بنيت على السكون، وهو اسم يسمى به الفعل، ومعناه: أكفف، لأنه زجر. عمدة القاري، (٣/١٢٨).

(٣) تُزْرِمُوهُ: أي لا تقطعوا عليه بوله. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، (٢/٣٠١).

(٤) فشَنَّهُ: أي صبه عليه. شرح النووي على مسلم، (٣/١٩٣).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٠٢٥)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٢٨٥)، وهذا لفظ مسلم.

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٠١٠).

(٧) معاوية بن الحكم السلمي، صحابي كان يسكن بني سليم وينزل المدينة. الاستيعاب، (٣/١٤١٤)، الإصابة، (٦/١١٨).

(٨) وَأَثَلْتُ: الثكل هو فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثكلت وثاكلت. شرح النووي على مسلم، برقم: (٥/٢٠).

أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمِّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي (١) وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّهَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» (٢).

قال الإمام النووي: (فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورافته بأمتة وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلق الله ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب) (٣).

وقال ابن حجر: (وفيه رأفة النبي ﷺ، وحسن خلقه، قال ابن ماجه وابن حبان في حديث أبي هريرة: فقال الأعرابي بعد أن فقهه في الإسلام: فقام إلى النبي ﷺ بأبي أنت وأمي فلم يؤنب ولم يسب) (٤).

هكذا كانت رحمته ﷺ بأصحابه ﷺ، رفيق رحيم وخلق رفيع، والرفق وحسن التعليم والتلطف كلها معانٍ نابعة من الرحمة الفطرية التي فطرها الله ﷻ في نفس نبيه ﷺ.



(١) كَهَرَنِي: أي ما انتهرني. شرح النووي على مسلم، (٢٠/٥).
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٥٢٧).
(٣) شرح النووي على مسلم، (٢٠/٥).
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١٢٨/١٢).

المبحث الثاني

رحمة الرسول ﷺ بأمته وطلبه من ربه التخفيف في الشرائع

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

رحمته ﷺ بأمته وطلبه من ربه التخفيف لها

كان النبي ﷺ رحيماً بأمته، وكان يخشى أن يفرض على أمته التكاليف الشرعية التي كلفتها الأمم السابقة، ولقد استمع لطلب أخيه موسى عليه السلام بطلب التخفيف عن أمته في عدد الصلوات، وقد كان جرّب بني إسرائيل من قبله، وتوافقت مع نفس النبي ﷺ الرحيمة، فعن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به فقال: «... ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتُ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَيْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ^(١)، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ،

(١) وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة: أي مارستهم ولقيت الشدة فيما أردت منهم من الطاعة،

والمعالجة مثل المزاولة والمحاولة. الكاشف عن حقائق السنن، للطيب، (١٢/٢٧٤٦).

فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأَمَرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأَمَرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمِ أَمَرْتُ؟ قُلْتُ: أَمَرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأَسْلَمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتَ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضِيَتْ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»^(١).

المطلب الثاني

رحمته ﷺ بأتمته في التكاليف الشرعية

أما رحمته ﷺ بأتمته في التكاليف الشرعية فكثيرة، فقد كان ينهى أصحابه عن كثرة السؤال لئلا يفرض عليهم تكاليف لا يطيقونها، كما كانت الأمم السابقة، وذلك بكثرة أسئلتهم لأنبيائهم، كما أنه ينهى عن التكلف في العبادة أو أن يتعدى أحد من المسلمين هديه وسنته، ومن النصوص الشاهدة على ذلك:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ، فَيَسْأَلُهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ...»^(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٢٨٨٧)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٢)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٢)، وهذا لفظ مسلم.

اللَّهُ؟ قَالَ: «أَدَوْمَهَا وَإِنْ قَلَّ» وَقَالَ: «اَكْلُفُوا^(١) مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»^(٢).

وعنها عليه السلام، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ^(٣)، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟»
قَالَتْ: فُلَانَةٌ، تَذَكَّرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا
يَعْمَلُ اللَّهُ حَتَّى تَمْلُوا»^(٤).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ
السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْهَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لَزِينَبَ^(٥) فَإِذَا فَتَرَتْ
تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا حُلُوهُ لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»^(٦).

عرف النبي صلى الله عليه وسلم أن الطبيعة البشرية تمل وتضعف مع مرور الوقت،
فكان ينهى أصحابه عن إرهاق النفس بالعبادة لئلا يؤدي ذلك إلى الانقطاع
بالكلية، لذلك أرشدهم إلى أحب الأعمال وهي: أدومها وإن قل.

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ
أَطُولَ فِيهَا، فَاسْمَعْ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَّجُوزْ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَّةٍ أَنْ أَشُقَّ
عَلَى أُمِّهِ»^(٧).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ^(٨) بِنَاصِحِينَ^(٩).

(١) اَكْلُفُوا: أي تحملوا من العمل ما تطيقونه، على الدوام والثبات، لا تفعلونه أحياناً وتتركونه أحياناً.
حاشية السندي على النسائي، (٦٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٤٦٥).

(٣) هي الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي القرشية الأسدية، هاجرت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبايعت، وكانت من المجتهدات في العبادة. الاستيعاب في معرفة الأصحاب،
(١٨١٥/٤).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٤٣)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٧٨٥).

(٥) هي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر الأسدية، أم المؤمنين، كما جزم بذلك الخطيب البغدادي.
الأسماء المبهمة في الأنبياء المحكمه، (٤١١/٦).

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (١١٥٠)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٧٨٤).

(٧) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٧٠٧).

(٨) قال العينى: الرجل، قيل: هو حزم بن أبي كعب، وقيل: حرام بن ملحان، وقيل: حازم، وقيل: سليم.

نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، (٢٥٧/٣).

(٩) الناصح: هو البعير الذي يسنى عليه فيسقى به الأرضون، والأنثى ناصحة، قالها الكسائي، وهي
السانية. غريب الحديث، لابن سلام، (٢٥٧/٣).



وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ - أَوْ النَّسَاءِ - فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكَاَ إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَانَ أَنْتَ» - أَوْ «أَفَاتِنُ»^(١) - ثَلَاثَ مَرَارٍ: «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ، وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»^(٢).

كان الصحابة رضي الله عنهم يسعون في مصالح عيشتهم، فربما حضرت الصلاة فيدخل الرجل فيها وهو يريد الرجوع إلى عمله، وربما أعياه التعب من عمله، فيوافق من يطيل في صلاته فيشق عليه، ولعل هذا الرجل من هذا القبيل، فأوصى رسول الله ﷺ معاذاً بأن يخفف صلاته مراعاةً لأحوال الناس.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً^(٣) ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ^(٤)، فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نَعَمْ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يَفْتَشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «الْقَنِي بِهِ»، فَلَقِيْتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَحْتَمُّ؟»، قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: «صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»، قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْجُمُعَةِ»، قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا» قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ صِيَامَ يَوْمٍ وَاِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً» فَلَيَّيْتَنِي قَبِلْتُ رُحْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ أَنِّي كَبُرْتُ وَضَعُفْتُ^(٥).

- (١) أَفَاتِنُ: بهمة الاستفهام على سبيل الإنكار، ومعناه: أنت منفر، لأن التطويل سبب لخروجهم من الصلاة، وللتكره للصلاة في الجماعة. عمدة القاري، (٢٣٨/٥).
- (٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٧٠٥)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٤٦٥).
- (٣) امرأة: هي أم محمد بنت محمية بن جزء الزبيدي. فتح الباري، (٢٢٠/١).
- (٤) كَنَّتَهُ: الكنة امرأة الابن وامرأة الأخ. النهاية في غريب الحديث، (٢٠٦/٤).
- (٥) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٥٠٥٢)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١١٥٩).



إلزام المرء نفسه عملاً لا يطيقه؛ خاصةً حال كبر سنه يوقعه في الحرج، وتكاليف الإسلام ميسرة لا مشقة فيها، من أجل ذلك دعا النبي ﷺ عبد الله بن عمرو للاقتصاد في العبادة كي لا يخلّ بما عداها من واجبات، ولا يقصر عن ذلك عند الكبر فيلوم نفسه على التقصير في العبادة.

ومن الشواهد على رحمة النبي ﷺ، والتخفيف على الناس في الحج، ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنا ممن قدم النبي ﷺ ليلة المزدلفة في ضَعْفَةِ أَهْلِهِ»^(١).

وفي رواية مسلم قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الثَّقَلِ - أَوْ قَالَ فِي الضَّعْفَةِ - مِنْ جَمْعِ بَلِيلٍ»^(٢).

فهذه النصوص تدل دلالة واضحة على رحمته ﷺ بأمتة في التكاليف الشرعية، وحرصه على أن لا يحمل المرء نفسه من العبادة ما لا يطيق، فتكليف النفس أكثر مما تطيق يتعرضه الملل والانقطاع، والمشقة حال الكبر.



(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (١٦٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (١٢٩٢).

المبحث الثالث رحمة الرسول ﷺ بأمته من بعده

المطلب الأول رحمته ﷺ بأمته عند موته

رحمة النبي ﷺ بأمته امتدت طوال حياته وحال مماته، فأوصاهم وحذرهم، وذكرهم بما فعلت الأمم السابقة بأنبيائها بعد مماتهم، وما ترك شيئاً فيه خيرٌ لأمته إلاّ دعاهم إليه، ولا شراً إلاّ حذرهم منه، ومن النصوص الدالة على ذلك:

• وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ: «الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ^(١).

• وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ، فَقَالَ: «أَتْتُونِي أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٢).

• وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَطْرُونِي،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن، برقم: (١٦٢٥)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٦٧٢٧)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، (٥٢٥/٢)، وإرواء الغليل، (٢٣٨/٧).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٤٤٣١)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٦٣٧).



كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرِيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ،
وَرَسُولُهُ»^(١).

• وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ
اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٢).

ومن تمام حرص النبي ﷺ على أمته، وعدم وقوعهم بما وقع فيه من
سبقهم من الأمم السالفة، حذرهم وأنذرهم، قال ابن عبد البر: (وكان
رسول الله ﷺ، يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله،
الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجدا، كما صنعت الوثنية
بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر)^(٣).

من هذه النصوص والشواهد السابقة، تتضح رحمة النبي ﷺ بأمرته
وحرصه عليها، حتى في حال مرضه الذي توفي فيه يوصي أصحابه من
بعده بما فيه خيرهم، ونجاتهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني

رحمته ﷺ بأمرته يوم القيامة

رحمة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة، يوم يفر المرء من أخيه وأمه
وأبيه وصاحبه وبنيه، ورسول الله ﷺ قائمٌ يقول: «أمتي أمتي»، وادخر
شفاعته لأمرته في هذا اليوم، بل شفع للناس كلهم بعد أن دفعها الأنبياء
عن أنفسهم، ومن الشواهد والنصوص على ذلك:

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٧٣٥٢)، وأبي يعلى في المسند، برقم: (٦٦٨١)، قال الهيثمي: رواه
أبو يعلى، وفيه إسحاق بن أبي إسرائيل وفيه كلام لوقفه في القرآن، وبقية رجاله ثقات. مجمع
الزوائد، برقم: (٥٨٤٦)، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات، وهو في الصحيحين دون
قوله: «لا تجعلن قبري وثنا». إتحاف الخيرة المهرة بزوائد العشرة، برقم: (٢٦٩٨).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (٤١/٥).

فَعَنْ مَعْبُدٍ^(١) بِنِ هَلَالِ الْعَنْزِيِّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،... فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاءُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذِنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخْرَجَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ،...».

فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْتَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذَّنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرِ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيَ فَحَدَّثْتَاهُ بِالْحَدِيثِ،... فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَسَلْ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذِنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَا أَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٢).

(١) معبد بن هلال العنزي، يروي عن أنس بن مالك، روى عنه سليمان التيمي والجريري وأهل البصرة.

قال ابن حجر: بصري ثقة من الرابعة. الثقات، ابن حبان، (٤٢٣/٥)، التقريب، (ص ٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٧٥١٠)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٩٢).



وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، فَوَاللَّهِ لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِي رَجَالٌ، فَلَأَقُولَنَّ: أَيُّ رَبِّ مَنِي وَمَنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بِعَدِّكَ، مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَجَّيْتُكَ مِنَ النَّارِ فَتَعَبَّرْ لَهُ، فَذَكَرْنَاكَ لِلنَّاسِ أُمَّةً حَسَنَةً﴾ [إبراهيم: ٣٦].
الآيَةَ، وَقَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].
[المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عز وجل:
«يَا جَبْرِيْلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبِّكَ أَعْلَمُ، فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَاتَاهُ جَبْرِيْلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: «يَا جَبْرِيْلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ»^(٢).

من الأحاديث السابقة، تبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيشفع للأمم في الموقف، الشفاعة العامة، وسيشفع لأُمَّته الشفاعة الخاصة، وسيقف على الحوض ينتظر ورود أُمَّته عليه، وسيدافع عنهم، وهذا فيه دلالة واضحة على رحمته صلى الله عليه وسلم، وحرصه على أُمَّته يوم القيامة.



(١) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢٢٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢٠٢).

المبحث الرابع رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين

المطلب الأول رحمته ﷺ في حربه

غزا رسول الله ﷺ عدة غزوات لنشر دين الله ﷻ، وكان يوصي أصحابه بأن لا يقتلوا عابداً في معبده، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا وليداً، وكان يدعوهم للإسلام أولاً، وكان يدرأ الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وصلاح الحديبية شاهد على ذلك، وسيرته ﷺ مليئة بالمواقف النبيلة مع خصومه في حروبه، فمن ذلك:

فَعَنْ سُلَيْمَانَ (١) بْنِ بُرَيْدَةَ (٢)، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...» (٣).

(١) سليمان بن بريدة بن الحصيب الأسلمي المروزي، قاضيا، ثقة من الثالثة، مات سنة خمس ومائة، وله تسعون سنة. التقريب، (ص ٢٥٠).

(٢) بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي المروزي، أسلم قبل بدر، ولم يشهدها وشهد الحديبية، فكان ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان من ساكني المدينة ثم تحول إلى البصرة، ثم خرج منها إلى خراسان غازياً فمات بمرور في إمرة يزيد بن معاوية. الاستيعاب، (١/١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (١٧٢١).



وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: وَجِدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، «فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ»^(١).

وَعَنِ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمٌ أَحَدُ أُصَيْبٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةً وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ مِنْهُمْ حَمَزَةٌ، فَمَتَّلُوا بِهِمْ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: لَيْسَ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لِنَرِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ فَتَحَ مَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً»^(٢).

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ»^(٣).

هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ، يعفو عند المقدرة، أي: يعفو ويصفح لما يقدر على عدوه، وليس بعد عداوة مشركي قريش عداوة، فقد آذوه وأصحابه، وكادوا له، وحشدوا ضده، وقاتلوه حتى أظفره الله عليهم، ومع ذلك كله غفر وعفا وصبر.

المطلب الثاني

رحمته ﷺ بالأسرى

كان الرسول ﷺ أقرب للصفح والعفو من العقوبة، وكانت رحمته بالأسرى هي الغالبة في كثير من غزواته، وتتجلى رحمته في فتح مكة لما أمكنه الله ﷻ من قريش، ومن شواهد ذلك:

- (١) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٣٠١٥)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٧٤٤).
- (٢) أخرجه الترمذي في السنن، برقم: (٣١٢٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرک، برقم: (٣٣٦٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
- (٣) أخرجه أحمد في المسند برقم: (٢١٢٢٩)، قال الألباني: وهذا إسناد حسن، رجاله كلهم صدوقون، وفي بعضهم كلام يسير. السلسلة الصحيحة، (٤٩١/٥)، برقم: (٢٣٧٧).

فَعَنَّ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَجَعَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْمَجَنَّبَةِ الْيَمْنَى، وَجَعَلَ الزُّبَيْرُ عَلَى الْمَجَنَّبَةِ الْيُسْرَى، وَجَعَلَ أبا عُبَيْدَةَ عَلَى الْبِيَاذِقَةِ^(١)، وَبَطْنُ الْوَادِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ»، فَدَعَوْتُهُمْ، فَجَاءُوا يَهْرُولُونَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ^(٢) قُرَيْشٍ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «انظُرُوا، إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا»، وَأَخْفَى بِيَدِهِ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَقَالَ: «مَوْعِدُكُمْ الصَّفَا»، قَالَ: فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنْامُوهُ، قَالَ: وَصَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّفَا، وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ فَأَطَافُوا بِالصَّفَا، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ^(٣)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُبَيِّدَتِ خُضْرَاءُ قُرَيْشٍ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ...»^(٤).

وفي رواية قال: ثُمَّ دَخَلَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْكَعْبَةَ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ السَّيْفَ لَا يَرْفَعُ عَنْهُمْ ثُمَّ طَافَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟» فَقَالُوا: نَقُولُ أَخُ وَابْنُ عَمِّ حَلِيمٍ رَحِيمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(٥).

(١) الْبِيَاذِقَةُ: هُمُ الرِّجَالَةُ. وَاللَّفْظَةُ فَارْسِيَّةٌ مَعْرَبَةٌ. وَقِيلَ سَمُوا بِذَلِكَ لِخَفَةِ حَرَكَتِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَيْسَ مَعَهُمْ

مَا يَثْقُلُهُمْ. النَّهْيَةُ فِي الْغَرِيبِ، (١/١٧١).

(٢) أَوْبَاشٌ: أَي أَوْبَاشٌ مِنَ النَّاسِ وَأَوْشَابٌ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ الضَّرْبُ مِنَ الْمُتَرَقِّقِينَ. لِسَانُ الْعَرَبِ، (٢١٤/١).

(٣) أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ صَخْرُ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ الْأُمَوِيِّ، أَبُو سُفْيَانَ، وَأُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ حَزْنِ الْهَالِئِيَّةِ، أَسْلَمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَشَهِدَ حُنَيْنًا. وَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَنَائِمِهَا مِائَةَ بَعِيرٍ وَأَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَجْرَانَ، وَمَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَقَبِلَ بَعْدَهَا، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ وَثَمَانِينَ سَنَةً. الْاسْتِيعَابُ، (٧١٤/٢)، الْإِصَابَةُ، (٣٢٢/٣).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، بِرَقْمٍ: (١٧٨٠).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مَعَانِي الْأَثَارِ، بِرَقْمٍ: (٥٤٥٤)، وَابْنُ أَبِي عَرِينَةَ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى، بِرَقْمٍ: (١٨٢٧٥)، قَالَ الْعِرَاقِيُّ: رَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْوَفَاءِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا وَفِيهِ ضَعْفٌ. الْمَغْنِيُّ



ومن شواهد رحمته بالأسرى، قصة أسرى هوازن، ومجيئهم للنبي ﷺ في شأن السبي، فقد أخرج الإمام البخاري خبرهم فقال: عَنْ مَرْوَانَ (١) بْنِ الْحَكَمِ، وَالْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ (٢)، قَالَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَقَدْ هَوَّازَنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَأْنِيتُ بِهِمْ»، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتَضَرَهُمْ بَضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ» فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَدْنَى مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرفَاؤَكُمْ أَمْرَكُمْ» فَارْجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا (٣).

ومن شواهد عفوه ورحمته بالأسرى، ما جاء في خبر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فكان في خبره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ

عن حمل الأسفار في الأسفار، (ص ١٠٨٠).

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو عبد الملك الأموي المدني، ولي الخلافة في آخر سنة أربع وستين، ومات سنة خمس في رمضان وله ثلاث أو إحدى وستون سنة، لا تثبت له صحبة من الثانية. التقريب، (ص ٥٢٥).

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل ابن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهري، أبو عبد الرحمن، له ولأبيه صحبة، وأمه عاتكة بنت عوف أخت عبد الرحمن ممن أسلمت وهاجرت، وقبض النبي ﷺ والمسور ابن ثمان سنين، وسمع من النبي ﷺ وحفظ عنه، مات سنة أربع وستين. الاستيعاب، (٣/١٣٩٩)، الإصابة، (٩٣/٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٢٣٠٧).

مَنْ بَنِي حَنِيفَةً يُقَالُ لَهُ ثَمَامَةٌ بَنُ أُثَالٍ (١)، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَتَّعَمَ. تَتَّعَمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تَتَّعَمَ. تَتَّعَمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثَمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلِ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاعْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضُ وَجْهٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ،... (٢).

المطلب الثالث

رحمته ﷺ بالمخالفين

كان النبي ﷺ يلاقي من مخالفيه عداءً وإيذاءً شديداً له ولأصحابه، ووصل بهم الحد إلى قتاله والتنكيل بمن يتبعه، ومع ذلك كله لم يبادلهم فعلهم لما قدر عليهم، بل دعا لهم وأمل أن يخرج من أصلابهم من يعز الله به هذا الدين، ومن الشواهد والأدلة على ذلك:

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ

(١) ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عتبة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة الحنفي، أبو أمارة اليمامي، أخذته خيل النبي ﷺ، ثم أسلم وحسن إسلامه، وثبت على إسلامه لما ارتد أهل اليمامة. وارتحل هو ومن أطاعه من قومه، فلحقوا بالعلاء الحضرمي، فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم، فراها عليه ناس من بني قيس بن ثعلبة. فظنوا أنه هو الذي قتله وسلبه فقتلوه. الإصابة في معرفة الصحابة، (١/٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٤٣٧٢).



يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعُقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ^(١) فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي، فَظَنَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ^(٢)؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(٣)».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً^(٤)».

قال المناوي: (لأنه حُشي بالرحمة والرفقة، فاستتار قلبه بنور الله، فرقت الدنيا في عينه، فبذل نفسه في جنب الله، فكان رحمةً ومفرجاً ومأمناً وغيثاً وأماناً، فالعذاب لم يقصد من بعثته)^(٥).

وقدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَيْتُ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ^(٦)».

(١) قَرْنُ الثَّعَالِبِ: بسكون الراء: ويسمى قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة، (ويبعد ثمانون كيلاً عن مكة). معجم البلدان، الحموي، (٣٢٢/٤).

(٢) الْأَخْشَبِينَ: هما جبالان في مكة، جبل أبي قُبَيْسٍ، وجبل وَقَعِيقَانِ. أما أبو قُبَيْسٍ -بضم القاف- فهو من أشهر جبال مكة بل أشهرها على الإطلاق، وهو الجبل المشرف إشرافاً مباشراً على المسجد الحرام من مطلع الشمس، وَقَعِيقَانِ: بضم القاف وفتح المهمله وكأنه تصغير قَعِيقَانِ: هو الجبل الضخم المشرف على المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي، ممتداً بين ثبتي: كدَاء، وكُدَى -بالقصر- بين وادي إبراهيم شرقاً ووادي ذي طوى غرباً. معالم مكة التاريخية، البلادي، (١/٢٠-٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٣٢٢١)، ومسلم في الصحيح، برقم: (١٧٩٥).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢٥٩٩).

(٥) فيض الباري على صحيح البخاري، (٢/٥٧٣).

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٦٣٩٧)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٢٥٢٤).

قال العيني: (وهذا من خلقه العظيم ورحمته على العالمين حيث دعا لهم، وهم طلبوا الدعاء عليهم)^(١).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْرَقْتَنَا نَبَالَ ثَقِيفٍ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا»^(٢).

ومن المواقف في رحمته ﷺ، خبره من الغلام اليهودي، ودعوته له للإسلام في مرضه الذي مات فيه، رحمةً به وشفقةً عليه، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ ^(٣) يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَتَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلَمَ»، فَظَنَّ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: «أَطَعِ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ»، فَاسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(٤).

فهذا الغلام من ولد يهود، وهم من أعداء النبي ﷺ، ومع ذلك حفظ له سابق عهده من خدمته، فعزَّ عليه أن يموت على غير ملة الإسلام، فحرص على دعوته وإنقاذه في آخر رمقٍ من حياته.



- (١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (٢٠/٢٣).
- (٢) أخرجه الترمذي في السنن، برقم: (٣٩٤٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند، برقم: (١٤٧٠٢).
- (٣) قال ابن بشكوال أن اسم الغلام هو: عبدالقدوس. غوامض الأسماء المبهمة، (٦٤٦/٢).
- (٤) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (١٣٥٦).

المبحث الخامس

رحمة الرسول ﷺ بالحيوان والطيرو سائر الخلق

المطلب الأول

رحمته ﷺ بالحيوان

حتى الحيوان له من رحمة النبي ﷺ نصيب، فكان يرشد الناس ويدعوهم للاستفادة منها، وإعطائها حقها من المأكل والمشرب، فكان يربي أصحابه والأمة أجمع على مفاهيم سامية للرحمة بالحيوان، وأنها تحس وتتألم كغيرها، فنهى أن تحمل ما لا تطيق، وعن إجاعتها، وعن ذبحها وأختها تنظر إليها، وعن قتلها صبراً، وعن ضربها، ووسمها في وجوهها، ومن النصوص على ذلك:

ما رواه عبد الله^(١) بن جعفر^(٢)، قال: أرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسْرَرْتُ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرْتُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدْفًا، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ^(٣) فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا»

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي أحد الأجداد، ولدت له أمه أسماء بنت عميس بأرض الحبشة، وهو أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة، وقدم مع أبيه المدينة، وحفظ عن رسول الله ﷺ، وروى عنه، مات سنة ثمانين، وهو ابن ثمانين. الاستيعاب، (٨٨٠/٣)، الإصابة، (٣٥/٤)
(٢) ذِفْرَاهُ: الذفري من البعير أصل أذنه، والذفري من القفا، هو الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن.

الْجَمَلُ؟»، فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنْكَ تَجِيعُهُ وَتُدْبِئُهُ»^(١)،^(٢).

ومن الرحمة بالحيوان، أن لا يتابع عليها السير متابعةً ترهقها، فلا تتمكن من الراحة، ومن شواهد ذلك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخَصْبِ، فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ، فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَإِذَا عَرَسْتُمْ^(٣) بِاللَّيْلِ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهَوَامِّ^(٤) بِاللَّيْلِ»^(٥).

قال النووي في شرح هذا الحديث: (فيه الحث على الرفق بالدواب، ومراعاة مصلحتها، فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار، وفي أثناء السير، فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها، وإن سافروا في القحط عجلوا السير؛ ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير؛ فيلحقها الضرر؛ لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف، ويذهب نقيها، وربما كلت، ووقفت)^(٦).

ومن شواهد الرفق بالحيوان قول الرسول ﷺ: «لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قَطَعَتْ»^(٧).

- يقال: هذه ذفري أسيلة. تاج اللغة، الجوهري: (٦٦٣/٢)، النهاية في الغريب، ابن الأثير: (١٦١/٢).
- (١) تَدْبِئُهُ: أي تكده وتتعبه. النهاية في الغريب، (٩٥/٢).
- (٢) أخرجه أبو داود في السنن، برقم: (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند، برقم: (١٧٥٤)، والحاكم في المستدرک، برقم: (٢٤٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
- (٣) عَرَسْتُمْ: التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة، يقال منه: عرس يعرس تعريساً. النهاية في غريب الحديث، (٢٠٦/٣).
- (٤) الْهَوَامُّ: جمع هامة، والهوام الحيات، وكل ذي سم يقتل سمه. تهذيب اللغة، الأزهري، (٢٤٨/٥).
- (٥) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (١٩٢٦).
- (٦) شرح النووي على مسلم، برقم: (٦٩/١٣).
- (٧) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٣٠٠٥)، ومسلم في الصحيح، برقم: (٢١١٥).



قال الخطابي: (وقال بعضهم: إنما نهى عن تقليدها الأوتار؛ لئلا تختنق بها عند شدة الركض)^(١).

ومن الشواهد، أن لا يتخذ الحيوان، وما فيه الروح غرضاً وهدفاً للرمية، فعن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً»^(٢) (٣).

ومما نهى عنه ﷺ، أن تقتل البهائم والدواب صبراً، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيء من الدواب صبراً»^(٤) (٥).

وكذلك نهى النبي ﷺ عن ضرب الدابة ووسمها في وجهها، فعن جابر ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ، عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه»^(٦).

وعنه ﷺ، أن النبي ﷺ مرَّ عليه حمارٌ قد وسم في وجهه فقال: «لعن الله الذي وسمه»^(٧).

حتى أن رحمته ﷺ تعدت إلى غير ذلك، وهو في حال ذبح البهيمة، فقد روى شداد بن قيس ﷺ قال: «تنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»^(٨).

قال ابن رجب: (والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب:

- (١) معالم السنن، (٢/٢٤٩).
- (٢) غرضاً: والغرض: الهدف الذي يرمى فيه. الصحاح تاج اللغة، الجوهري، (٣/١٠٩٣).
- (٣) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٥٨).
- (٤) صبراً: الصبر للطائر أو غيره من ذوات الروح، يصبر حياً ثم يرمى حتى يقتل. قال أبو عبيد: وأصل الصبر الحبس وكل من حبس شيئاً فقد صبره. ومنه حديث النبي ﷺ في رجل أمسك رجلاً فقتله آخر قال: (أقتلوا القاتل واصبروا الصابر). غريب الحديث، ابن سلام، (١/٢٥٤).
- (٥) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (١٩٥٩).
- (٦) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢١١٦).
- (٧) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (٢١١٧).
- (٨) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: (١٩٥٥).

إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأرجاها من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه^(١).

وقال النووي: (وليرح ذبيحته بإحداد السكين، وتعجيل إمرارها، وغير ذلك، ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى)^(٢).

المطلب الثاني رحمته بالطير

رحمته النبي ﷺ بالطير مرتبطة برحمته بالحيوان، وأفردت بالذكر للتخصيص بعد ذكر العام، ولأنها معرضة للصيد غالباً، فربما صاد الإنسان ما لا حاجة لصيده، ومن شواهد الرحمة بالطير:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمْرَةً^(٣) مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ^(٤)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدِهَا؟ رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»^(٥).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ، النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهَدَّهِدِ، وَالصَّرْدِ»^(٦)^(٧).

- (١) جامع العلوم والحكم، (١/٣٨٢).
- (٢) شرح النووي على مسلم، (١٣/١٠٧).
- (٣) حمرة: هي طائر بعضم العصفور وتكون دهساء وكدراء ورقشاه. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، (١/٣١٦).
- (٤) تَفْرِشُ: يقال تفرش الطائر، إذا قرب من الأرض ورفرف بجناحه. مقاييس اللغة، ابن فارس، (٤/٤٨٦).
- (٥) أخرجه أبو داود في السنن، برقم: (٢٦٧٥)، وأحمد في المسند، برقم: (٣٨٣٥)، والحاكم في المستدرک، برقم: (٧٥٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
- (٦) الصرد: هو طائر ضخم الرأس، أبيض البطن، أخضر الظهر، يصطاد صغار الطير. النهاية في الغريب، (٣/٢١).
- (٧) أخرجه أبو داود في السنن، برقم: (٥٢٦٧)، وابن ماجه في السنن، برقم: (٢٢٢٤)، وأحمد =



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الصُّرَدِ، وَالضَّفْدَعِ، وَالنَّمْلَةِ، وَالْهَدَّهِدِ»^(١).

قال الخطابي: (نهى عن قتل النحلة لما فيها من المنفعة، فأما الهدهد والصرد فنهيه في قتلها يدل على تحريم لحومهما، وذلك أن الحيوان إذا نُهي عن قتله ولم يكن ذلك لحرمة ولا لضرر فيه كان ذلك لتحريم لحمه، ألا ترى أن رسول الله ﷺ قد نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة)^(٢). فلما كان قتلها من قبيل العبث، فلا ضرر منها، ولا يؤكل لحمها؛ نُهي عن قتلها رحمةً بها، والشارع الحكيم أباح الصيد بما فيه منفعه، وصيد ما لا نفع فيه فناءً للنوع.

قال المناوي: (قال ابن العربي: إنما نهى عنه؛ -أي الصرد- لأن العرب تتشأم به، فنهى عن قتله لينخلع عما ثبت فيها من اعتقاد الشؤم لا أنه حرام والأصح عند الشافعي حرمة (والضفدع والنملة والهدهد) قال الحكيم: إنما نهى عن قتلها، لأن لكل واحد منها سالف عمل مرضي، وفي خلقته جوهر يتقدم الجواهر)^(٣).

ولأجل عملها المرضي رحمت ونُهي عن قتلها، وذلك إكراماً لها، فيا له من دينٍ عظيم، حفظ حتى للحيوان والطير سالف عمله الطيب.

المطلب الثالث رحمته ﷺ ببقية المخلوقات

رحمة النبي ﷺ أيضاً لكل المخلوقات، فكان ﷺ ينهى عن الإحراق،

- = في المسند، برقم: (٣٠٦٦)، وصححه الألباني. صحيح الجامع الصغير، برقم: (٦٩٧٠).
(١) أخرجه ابن ماجه في السنن، برقم: (٣٢٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء، (١٦٠/٢)، وصححه الألباني. صحيح الجامع الصغير، برقم: (٦٩٧٠).
(٢) معالم السنن، (٤/١٥٧).
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٦/٣٢٧).

لأنه تعذيب لا ينبغي أن يعذب به إلا الله ﷻ، وهذا من كريم رحمته ﷻ،
ورحم جذع النخلة لما حنت إليه فضمها وسكنها، فيا له من نبي رحيم،
وهذه بعض الشواهد والنصوص في رحمته ﷻ ببقية المخلوقات:

فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
فِي سَفَرٍ، ... وَرَأَى قَرْيَةً نَمَلٌ قَدْ حَرَّقَهَا فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟» قُلْنَا:
نَحْنُ. قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^(١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى
شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا
نَجْعَلُ لَكَ مَنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مَنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
دُفِعَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاخَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ
إِلَيْهِ، تَتَنُّ أَنْبِنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَيَّ مَا كَانَتْ تَسْمَعُ
مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»^(٢).



(١) أخرجه أبو داود في السنن، برقم: (٢٦٧٥)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٨٣٥)، والحاكم في
المستدرک، برقم: (٧٥٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: (٣٥٨٤).

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على ما منَّ به من ختم هذا البحث، بعد أن عشت وقتاً مفيداً مع أقوال ومواقف النبي ﷺ، والتي تجلت بها رحمته بأهله وأصحابه، ومخالفه، حتى الحيوان والطير لها من رحمته حظٌ ونصيب، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يأتي:

- أن رحمة النبي ﷺ رحمة فطرية، فطرها الله ﷻ في نفسه الزكية.
- أن الله ﷻ أرسله رحمة للعالمين، فالرحمة من معالم دعوته.
- رحمة الرسول ﷺ شملت جميع أطراف المجتمع الذي كان يعيش فيه، وكل رحمة كان لها هدف مستقل عن الآخر.
- أن النبي ﷺ كان يربي أصحابه على هذا الخلق العظيم، وأن الرحمة باب واسع للخير والفلاح في الدنيا والآخرة.
- أن أخلاق الرسول ﷺ مواقف وأفعال، لا شعارات لا مكان لها من الواقع، فإذا قال فعل، وهو يرسم طريقاً للخلق النبيل لأصحابه وللأمة من بعده.
- أن رحمته ﷺ تعدت من البشر إلى الحيوان والطير وغيرها من

المخلوقات، وهو مصداق قول الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وأوصي في نهاية هذه الدراسة، أن تُقرأ هذه الأحاديث والنصوص في المساجد والمدارس والمحافل، ويستخرج منها الفوائد والآداب، وتدرس كمناهج في الكليات والمدارس، وترجم إلى واقع ملموس، وأن يربى النشء عليها، فخلق الرحمة من صميم دعوة نبينا ﷺ.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد ابن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٢٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢. الأدب المفرد، تأليف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبدالله البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٣. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، نشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد ابن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٥. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ.
- ٦. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي، الزركلي دمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر -

أيار، مايو ٢٠٠٢م.

٧. تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، نشر: دار الرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبدالله ابن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبدالكبير البكري، نشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ.
٩. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين بن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، نشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١٠. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١١. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تأليف: زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
١٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)،



الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣. حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن)، تأليف: محمد ابن عبدالهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، نشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها: دار الكتاب العربي - بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق).

١٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، نشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

١٦. سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

١٧. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السُّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، نشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١٨. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبدالباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، نشر: شركة مكتبة ومطبعة

١٩. مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي
الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد
عبدالقادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة
الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٠. شرح صحيح البخاري لابن بطلال، ابن بطلال أبو الحسن علي بن
خلف ابن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن
إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة
الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢١. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق
السنن)، تأليف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)،
تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز
(مكة المكرمة- الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٢. شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك
ابن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى:
٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار - محمد سيد جاد
الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه:
د. يوسف عبدالرحمن المرعشلي- الباحث بمركز خدمة السنة
بالمدينة النبوية، نشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢٣. الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، محمد بن عيسى بن سَوْرَة
ابن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)،
تحقيق: سيد بن عباس الجليمي، نشر: المكتبة التجارية، مصطفى
أحمد الباز- مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٤. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد



- الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٥. صحيح الجامع الصغير وزياداته، تأليف: أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.
٢٦. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد ابن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٧. غريب الحديث، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبدالعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٢٨. غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، تأليف: أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي (المتوفى: ٥٧٨هـ)، تحقيق: د. عز الدين علي السيد، محمد كمال الدين عز الدين، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.
٢٩. الفائق في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: علي البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية.
٣٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي.

٣١. فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.
٣٢. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، نشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤هـ.
٣٣. المجتبى من السنن، السنن الصغرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ابن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، نشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٣٤. المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٣٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٣٦. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٧. مشكاة المصابيح، تأليف: محمد بن عبدالله الخطيب العمري، أبو عبدالله التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني،



الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

٣٨. المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، نشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٩. معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، نشر: المطبعة العلمية - حلب، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٤٠. معالم مكة التاريخية والأثرية، تأليف: عاتق بن غيث بن زوير بن زاير ابن حمود بن عطية بن صالح البلادي الحربي (المتوفى: ٤٣١هـ)، الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤١. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، نشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٤٢. معجم مقاييس اللغة، تأليف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤٤. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٤٥. نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تأليف:

أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي
الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر
ابن إبراهيم، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر،
الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك
ابن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن
الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، نشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ -
١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.



الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية

إعداد:

د. محمد عويس عبدالرحيم محمود
مدرس الدراسات الإسلامية المنتدب
بكلية الآداب بالوادي الجديد
جامعة أسيوط - مصر



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، والقائل في حديثه: ”الراحمون يرحمهم الرحمن ﷻ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء“^(١)

انطلاقاً من هذه النصوص الشرعية وغيرها رغبت في كتابة هذا البحث، وجعلته بعنوان: الرحمة^(٢) بالعجماء^(٣) في السنة النبوية.

- (١) رواه أبو داود في سننه/كتاب الأدب/باب: في الرحمة./حديث رقم (٤٩٤١) والترمذي في سننه/كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب رحمة المسلمين/حديث رقم (١٩٢٤) وقال الترمذي: (حسن صحيح). سنن الترمذي/تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون/ط. دار إحياء التراث العربي.
- (٢) الرحمة لغة: الرقة والتعطف والمغفرة. (ابن منظور/لسان العرب/مادة (رحم)). واصطلاحاً: إرادة إيصال الخير. (الجرجاني (علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ت ٨٦٦هـ)/التعريفات/ص ١١٦/ط. الأولى دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)
- (٣) العجماءات: كل كائن حي له شعور لا يستطيع التعبير عنه، ويُقصد به في هذا البحث كل ما عدا الإنسان من حيوانات وطيور وحشرات. جاء في لسان العرب: الأعمم: الأخرس، والعجماء والمستعجم كل بهيمة. وفي الحديث: «العجماء جرحها جُبار» أي لا دية فيه ولا قود؛ أراد بالعجماء البهيمة، وسُميت عجماء؛ لأنها لا تتكلم. (ابن منظور/لسان العرب/مادة (عجم)) والحديث رواه البخاري في صحيحه/كتاب: الزكاة/باب في الركاز الخمس/حديث رقم (١٤٩٩). ومسلم في صحيحه/كتاب: الحدود/باب: جرح العجماء جبار/حديث رقم (١٧١٠) رواه أبو داود في سننه/كتاب: الديات/باب: العجماء والعدن والبئر جبار/حديث رقم (٤٥٩٣). قال الألباني: صحيح. والترمذي في سننه/كتاب: أبواب الزكاة/باب: ما جاء أن العجماء جرحها جبار/حديث رقم (٦٤٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أهداف البحث:

أقدمت على كتابة هذا الموضوع؛ تحقيقاً للأهداف التالية:

١. بيان شمولية الرحمة النبوية، فقد أرسل الله ﷺ نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع المخلوقات.
٢. إبراز المقاصد السامية للرحمة النبوية.
٣. تقرير أسبقية السنة النبوية في الرحمة بالحيوان والمحافظة على البيئة.
٤. التفريق بين الحكمة في الاستفادة من الحيوانات وبين الرفق بها والرحمة.
٥. التعرف على ماهية الرحمة النبوية بالعجماءات، وبيان أنها تتسم بالتوازن؛ تحقيقاً لمصلحة الإنسان والعجماءات.
٦. رصد بعض صور الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية وكشف ما فيها من حكمة تتعلق بالأمر أو النهي وغيرها من الأساليب التعبيرية.

إشكالية البحث:

يحاول البحث الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما ماهية الرحمة النبوية بالعجماءات ؟
- وما حكمتها ؟
- وما أبرز صورها ودلائلها في السنة النبوية؟
- وبم تتسم رحمته ﷺ بهذه المخلوقات الضعيفة ؟
- وكيف كان يطبقها رسول الله ﷺ عملياً في حياته ؟



الدراسات السابقة:

ولست أزعم أن هذا العمل فريداً لم يأت أحد بمثله، بل قد سبقني إليه علماء أجلاء ورواد مشهورون، إلا أن أغلب الدراسات قد تناولت الرحمة النبوية بشكل مجمل، ولم يشبعوا البحث في جانب رحمته ﷺ بالعجماوات إشباعاً يُجلي هذا الجانب من الرحمة النبوية، ويربط بين فحوى النص النبوي ودلالته العملية.

ومهما يكن من أمر فإن من أهم الدراسات التي حاول أصحابها بيان رحمة النبي ﷺ بالحيوان ما يلي:

١. معالم الرحمة في السنة النبوية بالرفق بالحيوان، إعداد الدكتور سليمان بن عبد الله السيف، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد في الرياض ٢٣-٢٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢-٤ أكتوبر ٢٠١٠م.

٢. معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة ﷺ إعداد الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ السابق ذكره.

٣. معالم الرحمة بالحيوان، إعداد الدكتور عبدالغفور عبدالحق حسين، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة - السابق ذكره.

٤. معالم الرحمة بالحيوان، إعداد الدكتور عبد الله بن محمد الرشيد، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة السابق ذكره.

٥. ومن المقالات القصيرة ما كتبه الدكتور راغب السرجاني في موقع قصة الإسلام الإلكتروني: رسول الله وحقوق الحيوان، والإسلام وحقوق الحيوان.

وقد تفضل أحد المحكمين الفضلاء - جزاه الله خيرًا - بإرشادي إلى وجود مقالات علمية أخرى منشورة في بعض المجلات العلمية في ذات الموضوع؛ منها:

- مقالات لعثمان منشاوي، نشرها في سلسلة حلقات في مجلة الأزهر، أعداد (ربيع الأول وربيع الآخر ورجب وشعبان سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) بعنوان: الرحمة بالحيوان.
- مقالة لمحمد حافظ سليمان، نشرها في نفس المجلة بعنوان: رحمة الإسلام بالطير والحيوان.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على منهجين: أولهما: المنهج الاستقرائي في تتبع صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية، وثانيهما: المنهج التحليلي؛ الذي يقوم على تحليل النصوص، والاستنباط منها، واستخراج فوائدها بما يحقق غايات البحث.

خطة البحث:

- يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.
- المقدمة: أهمية الموضوع، وأهدافه والمنهج والخطة.
- التمهيد: حديث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ.
- المبحث الأول: حكمة الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية.
- المبحث الثاني: جملة من صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية.
- وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رعاية العجاوات والإحسان إليها.

المطلب الثاني: النهي عن إيذاء العجاوات والقسوة عليها .

المطلب الثالث: مواقف عملية للرحمة بالعجاوات في السنة النبوية .

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته .

ثبت للمصادر والمراجع .



التمهيد

حديث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ

من المفاهيم الإسلامية الأصيلة التي زخرت بها آيات القرآن الكريم الرحمة، فقد ورد ذكره فيما يقرب من (٢٦٨) ثمانية وستين ومائتي موضع، أكثر المواضع بصيغة الاسم، نحو قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الفاحة:٢-٢] وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وورد بصيغة الفعل في أربعة عشر موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

وجاء في معاجم اللغة أن لفظ (رحم) يدل على الرقة والعطف والرأفة. يُقال: رحمه يرحمه إذا رقق له، وتعطف عليه. والرُّحم والمرحمة والرحمة بمعنى واحد. والرَّحِم: علاقة القرابة. (١)

وقد تحدث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ في غير موضع، منها قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

(١) راجع في ذلك: ابن منظور/لسان العرب/مادة (رحم)، والخليل بن أحمد الفراهيدي/معجم العين/مادة (رحم)، والمعجم الوسيط/مادة (رحم)/ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عِنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقد أسهب العلماء والمفكرون في الحديث عن رحمة النبي ﷺ وتناولوها من جميع جوانبها، في كل أحواله سلماً وحرماً وحضراً وسفراً ودعوة. ومن أروع ما قيل في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ما قاله الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ ومدح مرسله ﷺ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

واعلم أن انتصاب "رحمة" على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفاً من أوصافه، فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر وجوده فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرُسُولِيَّة ملازم له في سائر أصوله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة ووقوع الوَصْفِ مَصْدَرًا يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي هَذَا الْإِتِّحَادِ بَحَيْثُ تَكُونُ الرَّحْمَةُ صِفَةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ إِرْسَالِهِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى مَا أَشَارَ إِلَى شَرْحِهِ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ»^(١).

وقد خصَّ الله ﷺ رسوله محمداً ﷺ بالرحمة في هذه الآية بل وفي القرآن كله؛ لذا يمكننا القول بأن الرحمة النبوية قرب واصطفاء. فقد ذكر القاضي عياض في كتابه (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) قول أبي بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي^(٢)، "زين الله محمداً ﷺ بزينة الرحمة،

(١) محمد الطاهر بن عاشور/تفسير التحرير والتنوير/ج١٧/١٦٥ - ١٦٦/ط. دار سحنون - تونس.

(٢) ترجم له محقق الكتاب دون أن يذكر مصدره بقوله: (هو أبو بكر بن طاهر بن مفوّر المعافري

الشاطبي، عالم ورع، مات قرب سنة ٢٢٠ هـ) وبالبحث في كتب التراجم تبين لي أنه =

فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب“^(١).

وقد فسّر الشيخ ابن عاشور اصطفااء الله ﷺ لرسوله ﷺ لخلق الرحمة، بقوله: ”محمد ﷺ فُطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وما يلقي إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائماً وغبته وخلقه“^(٢).

ولم تقتصر رحمته ﷺ على الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات بل تعدته إلى ألوان أخرى يأتي في مقدمتها ”الحيوان“، يقول الشيخ ابن عاشور مفصلاً ذلك: ”وإن أريد ب (العالمين) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به...“

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما يُنتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو، وحُرِّم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعدَّ فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه. ورجبت الشريعة في رحمة الحيوان... أما المؤذي والمضّر من الحيوان فقد أذن في قتله وطرده؛ لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم“^(٣).

= أَبُو الْحَسَنِ طَاهِرُ بْنُ مُفَوِّزِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُفَوِّزِ الْمَعَارِفِيِّ الشَّاطِبِيِّ، الْإِمَامُ، الْحَافِظُ، النَّاقِدُ، الْمُجَوِّدُ، كَانَ فَهْمًا دَكِيًّا، إِمَامًا، مِنْ أَوْعِيَةِ الْعُلَمَاءِ، وَفَرَسَانَ الْحَدِيثِ، وَأَهْلَ الْإِتْقَانِ وَالْتَحْرِيرِ، مَعَ الْفَضْلِ وَالْوَرَعِ، وَالْتَقْوَى وَالْوَقَارِ وَالسَّمْتِ. مَوْلَدُهُ: فِي سَنَةِ سِتِّينَ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، وَمَاتَ: فِي رَابِعِ شَعْبَانَ، سَنَةِ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ. (يَنْظُرُ: شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ قَايِمَازِ الدَّهْبِيِّ (ت: ٧٤٨هـ)/ سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ/ تَحْقِيقُ: مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ بِإِشْرَافِ الشَّيْخِ شُعَيْبِ الْأَرْنَؤُوطِ/ ج ١٩/ ٨٨/ ط. الثَّلَاثَةُ/ مَوْسُئَةُ الرِّسَالَةِ سَنَةِ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)

(١) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـ)/ الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ ج١/ ٥٦/ ط. الثانية/ دار الفيحاء- عمان سنة ١٤٠٧هـ

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور/ تفسير التحرير والتنوير/ ج١٧/ ١٦٧

(٣) ابن عاشور/ تفسير التحرير والتنوير/ ج١٧/ ١٧٠



وخلاصة القول: إنَّ الرحمة خلق فطري جُبل عليه رسول الله ﷺ؛
تأليفاً للقلوب، وترسيخاً للقيم الإسلامية السمحة، ومن ثمَّ صارت
الرحمة هدياً للنبي وديناً له في جميع أحواله، قال ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ"^(١).



(١) حديث صحيح، رواه الحاكم (أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري (ت٤٠٥هـ)). في
المستدرک علی الصحیحین/تحقیق: مصطفی عبدالقادر عطا/ج١/٩١/کتاب الإیمان/حديث
رقم (١٠٠)/ط. الأولى/دار الكتب العلمية- بيروت/١٤١١هـ- ١٩٩٠ وقال الحاكم: (هذا حديث
صحيح) على شرطهما، ورواه الدارمي في سننه/باب: كيف كان أول شأن النبي ﷺ /حديث رقم
(١٥)/ج١/١٦٦، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه/باب: ما أعطى الله ﷺ محمداً/حديث رقم
(٣١٧٨٢) ج٦/٢٢٥، ورواه البيهقي في شعب الإیمان/باب: فصل في شرف أصله وطهارة مولده
ﷺ/حديث رقم (١٣٣٩)/ج٢/٥٢٩، ورواه الآجري في الشريعة/باب: ذكر ما استنقذ الله -عزَّ
وجل - الخلق بالنبي ﷺ وجعله رحمة للعالمين/حديث رقم (١٠٠٠)/ج٣/١٤٧٧

المبحث الأول

حكمة الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له الكون بكل ما فيه لمنفعته، ومن المخلوقات التي خلقها الله وسخرها لنفع الإنسان العجماوات والطيور، وذلك لحكمة إلهية عرفها من عرف وجهلها من جهل.

وقد كرم الله في كتابه العزيز الحيوان؛ فسميت سور من القرآن بأسماء الحيوانات نحو: سورة البقرة، والأنعام، والنحل، والعنكبوت، والفيل. ودعا ﷺ إلى ضرورة تربية الحيوانات محافظة على الثروة الحيوانية؛ لنفع الإنسان، قال تعالى في سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقَىٰ ۖ كَلُوا وَأَرْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

فالآية الكريمة تدعو إلى تربية الحيوان والمحافظة عليه، وتبدو الدقة في التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَأَرْعَوْا﴾ في توجيه الإنسان لوسائل من شأنها أن تعمل على تنمية الثروة الحيوانية في الكون، فالرعي فيه تغذية الحيوان، ورعايته أثناء الرعي، والاهتمام بانتقاء أفضل المراعي، وتعهد الحيوان بالسقي والتطبيب، وغير ذلك مما يستلزمه المحافظة على الثروة الحيوانية؛ خدمة لبني البشر.

كما بيّن ﷺ أصناف الحيوانات التي تحقق منفعة الإنسان في حياته،



فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَوْنَ وَحِينَ سُرْحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِفَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٥-٨].

مما سبق ندرك أن الحيوان مخلوق لحكمة كالإنسان تماماً، سخره الله لنفعه - وهذا الأمر يستوجب طاعة الله وحمده وشكره، كما أن الله ﷻ يلفت انتباه الناس في كتابه العزيز إلى حقيقة مهمة، وهي أن العجاوات من الحيوانات والطير والحشرات أمم كأمم البشر، لها خصائصها وسماتها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وما دام الأمر على هذا النحو فإننا ندرك -بما لا يدع مجالاً للشك- أن الإسلام لا ينظر إلى العجاوات نظرة دونية. إنما يعلي من قيمتها ويرفع قدرها. ^(١) فهي أمم خلقت لتسبيح الله وعبادته، وجُبلت طاعة لله ﷻ على

(١) قد يقول بعض الباحثين: إن في القرآن الكريم بعض الآيات تحمل تحقيراً لبعض الحيوانات، وهذا دليل على أن نظرة الإسلام للحيوان نظرة دونية، ويمكن الرد على قولهم هذا بأن التحقير الوارد في بعض الآيات إنما هو تحقير ظاهري فقط، وأن هذا الذم الوارد ليس ذمّاً للحيوانات إنما هو ذم لمن يعيش أدوار الحيوانات ولم يعيش دوره الإنساني. ومن ذلك قوله ﷻ في ذم هؤلاء البشر الذين تخلوا عن نعمة الهداية التي سبغها الله عليهم: ﴿فَتَلَّهُمْ كَنْتَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِ الْأَقْضَىٰ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال ابن عطية في تفسيره: وقوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب فشبه به صورة وهيئة، وقال الجمهور إنما شبه به في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيتها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحريير المعنى فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول الكاف على «مثل»، واللهث: تنفس بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان، وأكثر ما يعترى ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس ضبيح، وخلفة الكلب أنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أن معنى إن تحمّل عليه أي تطرده وحكاه عن مجاهد وابن عباس. وقوله: (ذلك مثل القوم) أي: هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة ثم جنتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك. فمثلهم كمثل الكلب (ينظر: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)/المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ط، الأولى/ دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٢ هـ) وكذا ذمه ﷻ لليهود الذين لم يعملوا بما جاء في كتبهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمَلُوا بِهَا أَلْجَافٌ يُحْمَلُ أَثْقَالًا بِسُنِّ مَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [جمعة].

تحقيق منفعة دنيوية للإنسان، وحفظ التوازن الكوني؛ ومن ثمَّ وجبت الرحمة بها ورعايتها والرفق بها.

ومن الأمور التي تستحق التأمل ذلك المنهج الذي وضعه الإسلام لبيان العلاقة الوطيدة بين الإنسان والعجاوات، وقد بُني هذا المنهج على أساسين ثابتين هما:

الأساس الأول: أنَّ العجاوات مُسَخَّرَةٌ -على نحو فطري- لمنفعة الإنسان وخدمته في الحياة الدنيا؛ دعماً لدوره في عمارة الكون. والأساس الثاني: هو رسم حدود العلاقة بين الإنسان والعجاوات، وتوضيح كيفية التعامل معها.

وقد بيّن الإسلام في سبيل ذلك ونبه إلى أمرين:

أولهما: عدم المغالاة في تقدير العجاوات ورفعها فوق قدرها الطبيعي، بأن يصير الإنسان خادماً ذليلاً لهذه العجاوات.

وثانيهما: إيذاء العجاوات وتعذيبها، وتحميلها فوق طاقتها.

هذا وقد خطَّ الإسلام بين هذين الطريقتين منهجاً وسطاً، أساسه الرحمة، تبرز معاملة في أنه:

١. يوضح للإنسان المسلم أنَّ العجاوات مُسَخَّرَةٌ له فضلاً من الله؛ لتعينه على مجابهة مصاعب الحياة، ولتسهيل مهمته فيها المتمثلة في عمارة الأرض.

٢. يبين للبشر أنَّ رحمة العجاوات والرفق بها عبادة وقربى لله ﷻ.

٣. يرشد هؤلاء البشر أنَّ القسوة على العجاوات وترويعها وإجهادها في الأعمال الشاقة، وتحميلها ما لا تطيق أمور تتنافى مع الرحمة العامة التي تتصادم وتتعارض مع اكتمال الإيمان، قال رسول الله ﷺ:



”لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا« قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»^(١) فهي الرحمة بالعامّة من البشر وجميع المخلوقات.

ومن هنا كانت السيرة النبوية مثلاً يُحتذى في الرحمة بالعجاوات، ففيها من الجوانب التطبيقية والقولية ما تقف أمامه جميع المنظمات الحقوقية الحديثة الراعية لحقوق الحيوان^(٢) عاجزة أمام الإعجاز النبوي ولا غرو في ذلك، فالرسول ﷺ أرسل رحمة لجميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

على كلٍّ يمكننا تلمس حكمة الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية فيما يلي:

١. أن الرسول ﷺ مثل أعلى وقدوة، ومعلم مؤتمن، وخلق الرحمة متأصل في سمته وشخصيته، ورحمته ﷺ تتسع لتشمل كافة المخلوقات، ونتيجة لالتصاق العجاوات بالبشر التصاقاً كاملاً في جميع جوانب الحياة برزت رحمة النبي ﷺ بهذه العجاوات بشكل ملحوظ، وأظن أن ذلك تطبيق عملي لخلق الرحمة بالعجاوات المتأصل في شخصية النبي ﷺ هدفه نشر جانب من جوانب الدعوة الإسلامية لجميع طوائف البشر حتى قيام الساعة. كما أن الرحمة بالعجاوات

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو . كتاب البر والصلة/ حديث رقم (٧٢١٠) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) تأسست في إنجلترا عام ١٨٢٤م أول جمعية للرفق بالحيوان، ثم انتشر هذا التقليد بعد ذلك في كثير من أقطار الأرض، فكانت هنا وهناك جمعيات تهدف إلى الرفق بالحيوان عند المصاحبة، والإحسان إليه في المعاملة، والتلطف في السلوك، غير أن هذه الجمعيات جميعاً إنما تقوم على أسس أخلاقية صرفة، وقواعد إنسانية عامة، ليس لها أساس من القواعد التشريعية، أو القوانين الملزمة، وليس لها خلفية فقهية تنظم مسائلها، وتوضح حدودها المتعلقة بحفظ حقوق الحيوان المتعاون مع الإنسان في هذه الحياة، ومن هنا بقيت هذه الجمعيات ذات صفة طوعية اختيارية، وهي لذلك لا ترتب ثواباً لممثل ولا توجب عقاباً على مخالف. (د. راغب السرجاني/مقال طويل عن الحيوان بتاريخ ٢٠٠٦/٥/١م على موقع قصة الإسلام)



تُشكل بُعداً آخر لفطنة الرسول ﷺ التي فطره الله عليها، وهي من عوامل نجاح الدعوة، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ففتح الله بهذه الرحمة أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلغلاً للإيمان بالرسالة؛ إذ لم تعهد البشرية رحمة بالعجماءات تباري رحمة النبي ﷺ بها.

٢. وثمة أمر آخر يُفسر لنا حكمة الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية يتمثل في إحداث التوازن الكوني، فالرحمة بالعجماءات تقتضي المحافظة على العجماءات سليمة، وآمنة، وقوية، وهادئة، ومنتجة. وهذه الآثار وغيرها تحفظ التوازن البيئي في الكون، لا سيما أن العجماءات عنصر مهم يخدم الإنسان في عمارة الكون. ونختتم هذا المبحث بالتبنيه على أن:

الرحمة بالعجماءات رحمة وسطية تتوسط بين الإجلال والتقديس من جانب، والعنف والتعذيب والقهر والإذلال من جانب آخر. فالمتأمل لسنوف البشر يرى أنهم يتوزعون بين فريقين: فريق يبالغ في الاحتفاء بالعجماءات والإعلاء من منزلتها؛ حتى يصبح الإنسان خادماً مطيعاً لها، وفي بعض الأحيان عبداً لها. وفريق آخر لا يكثر بها، ولا يرفع حقوقها ويبالغ في إذلالها. ومن ثم جاءت الرحمة النبوية بالعجماءات لترسم طريقاً وسطاً بين هذين الفريقين رحمة بالإنسان والحيوان، وحفظاً للتوازن الكوني، دون تعظيم أو تحقير لهذه المخلوقات.



المبحث الثاني

جملة من صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية

تزخر السنة النبوية بتوجيهات غزيرة وعظيمة، يتجلى من خلالها تأصيل خلق الرحمة بالعجاوات من الحيوان والطيور. وقد تنوعت صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية ما بين الأمر بالرفق بهذه العجاوات والإحسان إليها، وبين النهي عن تعذيبها وإيذائها والقسوة عليها، وبين المواقف التطبيقية العملية في سيرته ﷺ التي تجلت فيها عملياً رحمته بالعجاوات، وهذا كله رحمة بهذا المخلوق الحي الضعيف وترسيخاً لهذا الخلق العظيم الذي عليه مدار الشريعة الإسلامية في سائر أبوابها، قرر الشيخ ابن القيم رحمته الله أن الشريعة الإسلامية رحمة كلها فقال: "إِنَّ الشَّرِيْعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحُكْمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنِ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ، وَعَنِ الرَّحْمَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَعَنِ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ إِلَى الْبَعْثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيْعَةِ وَإِنْ أَدْخَلْتَ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيْعَةُ عَدْلٌ لِلَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَةٌ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَظَلَمٌ فِي أَرْضِهِ، وَحِكْمَةٌ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى صِدْقِ رَسُوْلِهِ رحمته الله أَمْ دَلَالَةٌ وَأَصْدَقُهَا" (١)

وقال رسول الله رحمته الله: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ» (٢)

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين/تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد/ج٣/١١/ط. دار الفكر- بيروت.

(٢) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، رواه البخاري في كتاب التوحيد/باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] حديث رقم (٧٤٤٨)، ومسلم في صحيحه/كتاب الجنائز/باب: البكاء على الميت/حديث رقم (٩٢٣).

إن استقراء صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية أمر يطول، ولا يمكن الإحاطة بجميع مظاهر تلك الرحمة وصورها في هذه العُجالة، ولكنني سأعرض لهذه الصور من خلال ثلاثة مطالب رئيسة، وسأكتفي بمثال أو مثالين من السنة النبوية للتدليل على رحمته ﷺ بالعجماوات.

المطلب الأول

رعاية العجماوات والإحسان إليها

الإحسان من الألفاظ التي كُثر ورودها في القرآن الكريم والحديث النبوي وهي ذات معنيين.

أولهما: الإتقان وإحكام التصرف من جهة الإصلاح والنماء؛ للوصول بها إلى الغاية التي خلقت من أجلها، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

وثانيهما: الإشفاق والرحمة والرفق، والحماية والرعاية، والحب والود، واجتناب القسوة والعنف؛ كما في قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ أَبْطَلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٢)، وقوله ﷺ حاثًا على الرفق: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٣)^(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب: الصيد والذبائح/باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة/حديث رقم (١٩٥٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه/كتاب الأدب/باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته/حديث رقم (٥٩٩٥)، ورواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والأداب/باب: فضل الإحسان إلى النبات/حديث رقم (٢٦٢٩).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه/كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/باب: إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ حديث رقم (٦٩٢٧). ورواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والأداب/باب: فضل الرفق/حديث رقم (٢٥٩٣).

(٤) د. توفيق بن أحمد الغلبزوري/معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة ﷺ، بحث منشور=



وقد زخرت السنة النبوية بأحاديث الرحمة والرفق بالحيوان بما يتعذر معه الاستقصاء والإحصاء والاستيعاب على وجه الدقة، وفيما يلي بعض النماذج:

١. الأمر بالرفق في معاملة العجماءات:

الرفق هو جوهر الإسلام وعليه مدار الدين كله، روى مسلم في صحيحه عن جرير عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ»^(١).

ومن النصوص النبوية التي رويت عن رسول الله ﷺ ويبدو فيها تأكيده على الرفق بالعجماءات، ما رواه أبو داود في سننه عن سهل بن الحنظلية أنه قال: مر رسول الله ﷺ ببغير قد لحق ظهره بيطنه، فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ ارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً»^(٢).

تتجلى رحمة الرسول ﷺ في هذا النموذج في التجاوب الشعوري الفعّال الذي لا يكفي فقط بإظهار الأسى وإنما يتخطى ذلك إلى التجاوب الحي بإزالة أسباب الضرر عن هذا الحيوان الأعجمي، بدا ذلك في ثلاثة أوامر صدرت تصحيحاً للخطأ وإزالة للضرر.

وتبدو فلسفة الرحمة مع دفع الضرر عن الحيوان في الحفاظ على هذه النعمة التي تمثل وسيلة نقل وطعام لا يستغنى عنها.

ومنها -أيضاً- ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَحِمَ، وَلَوْ ذَبِيحَةً عَصْفُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

= ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد بالرياض ٢٢-٢٥ شوال ١٤٢١هـ - ٢-٤ أكتوبر ٢٠١٠م/المجلد الرابع/ص ٢٠٥٩.

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: فضل الرفق/حديث رقم (٢٥٩٢)

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب الجهاد/باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم/حديث رقم (٢٥٤٨) قال الألباني: (صحيح) ورواه ابن خزيمة في صحيحه/باب: استحسان الإحسان إلى الدواب/حديث رقم (٢٥٤٥)/ج ٤/١٤٢. وقد توسع الشيخ الألباني في تخريجه في السلسلة الصحيحة/حديث رقم (٢٣)/ج ١/٦٢ وما بعدها.

(٣) حديث حسن، رواه البخاري في الأدب المفرد/حديث رقم (٣٨١)/ص ١٢٨/قال الألباني: حسن.

وهنا تتجلى الرحمة العظيمة على صاحب الإحساس الأعجم من الطير دون النظر إلى منفعة خاصة بالإنسان وإنما رحمة مبعثها تعاطي القلب المؤمن مع كائن ضعيف، كما أنه لم ينظر إلى حجمه، فرحمته بالعصفور الصغير كرحمته بالجمل مبعثها التماس رضا الله والتقرب إليه برحمة هذا الكائن، ويستوي في منظار الإخلاص التقرب برحمة البعير مع التقرب برحمة نمل صغير.

ومنها ما رواه البخاري في الأدب المفرد -أيضاً- ورواه مسلم في صحيحه أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت على بعير فيه صعوبة، فجعلت أضربه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(١).

تتجلى فلسفة الرحمة النبوية في هذا الحديث في دفع الأذى عن الحيوان مع التوجيه إلى سياسة هذا الحيوان الذي لا يعقل مع تقرير خلق الرفق وتعميمه؛ ليشمل أمراً ينشغل به الإنسان.

٢. الإحسان إلى العجاوات يوجب المغفرة:

جاء في غير موضع من السنة النبوية أن الإحسان إلى العجاوات جزاؤه المغفرة، ومن ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطْشُ، فَوَجَدَ بئراً، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطْشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطْشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ

= ورواه الطبراني في معجمه الكبير من حديث الوليد بن جميل الدمشقي/ حديث رقم (٧٩١٥)/ ج ٨/ ٢٣٤، ورواه البيهقي في شعب الإيمان/ باب: في رحم الصغير وتوقير الكبير/ حديث رقم (١٠٥٥٩).

(١) ورواه مسلم في صحيحه/ كتاب الأدب/ باب: فضل الرفق/ حديث رقم (٢٥٩٤). والبخاري في الأدب المفرد/ باب الرفق/ حديث رقم (٤٦٩)/ ص ١٦٦، واللفظ له/ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ ط. الثالثة/ دار البشائر الإسلامية- بيروت/ سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م. قال الشيخ الألباني: «صحيح».



فَمَلَأَ خَفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١).

تتجلى رحمة النبي ﷺ في أنه يغرس فينا الشعور بما حولنا من الكائنات، فنستشعر حاجتها لما لا نستطيع التعبير عنه، ونتخذ السبل لتحقيقها بما نستطيع، ومن عبقريته ﷺ أنه استخدم مثالاً لشخص عادي يصلح أن يكون أي واحد منا، فهو ليس بملك ولا نبي، كما أنه لم يأت بعمل بطولي يصعب عن غيره وإنما هو تصرف إنساني مبعثه شعور وإخلاص وتجاوب فعال تجاه كلب اشتد به العطش.

ومن رحمته في هذا الحديث دعوته الاستفادة من القصة إلى سلوك كل سبيل يمكن أن يخلص العبد من ذنوب قد تتسبب له في عذاب طويل بأبسط الوسائل وأيسر الأعمال.

٣. الرحمة في التخلص من الكائنات الضارة:

وتبدو رحمته ﷺ في توجيهاته عند قتل الكائنات الضارة، ويكون ذلك لتغليب مصلحة الإنسان رحمة به من الأذى، وفي ذات الوقت رحمة بهذه الكائنات بالألّا تُعذَّب عند التخلص منها وقتلها قتلاً فيه رحمة بها.. ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ وَزَغًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَتْ لَهُ مِئَةٌ حَسَنَةٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ، وَفِي الثَّلَاثَةِ دُونَ ذَلِكَ»^(٢).

جاء في شرح صحيح مسلم للنووي أن: "الوزغ من الحشرات المؤذيات.. وأمر النبي ﷺ بقتله وحث عليه ورغب فيه؛ لكونه من المؤذيات، وأمّا سبب

(١) رواه البخاري في صحيحه/كتاب الأدب/باب: رحمة الناس والبهائم/حديث رقم (٦٠٠٩)، ومسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها/حديث رقم (٢٢٤٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: استحباب قتل الوزغ/حديث رقم (٢٢٤٠). والوزغ: هو البرص واحده وزغة.

تكثر الثواب في قتله بأول ضربة ثم ما يليها، فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله، والاعتناء به، وتحريض قاتله على أن يقتله بأول ضربة^(١).

فقد منع الضرر عن الإنسان بالحث على قتل الوزغ رحمة بالإنسان، ورحم الوزغ بالحث على قتله من أول ضربة وفي هذا تقليل لفترة الألم التي يشعر بها عند الموت، وجعل الأجر الأقل للضربة الثانية، وكذا في التحفيز على الضربة الثانية والثالثة رحمة بهذا الكائن حتى لا يترك بعد الضربة الأولى للموت البطيء يتعذب بل يجهز عليه بأسرع ما يمكن وبذلك يجنبه لحظات الألم.

جاء في مقال للكاتب الفلسطيني بكر أبو بكر أن الوزغ حيوان سام أبرص يأتي في البيوت يبيض ويفرخ ويؤذي الناس أمر النبي ﷺ بقتله.

ويتم التخلص منه كغيره فقط؛ لأنه كائن ضار بالإنسان مثل العقرب والثعبان والنمل الأبيض الذي يأكل البيوت الخشبية مثلاً والذباب والبعوض، أو السحلية التي تعيش في الشقوق وقد توسعها ما قد يهدد المنزل، والفئران لنقلها القاذورات، بل إن قتل الكلب ضروري عندما يصبح ضاراً بالإنسان والحيوان، أي: عندما يصبح سعران.

إذن هدف ما قاله الرسول يتمثل (بالتخلص من الضار) من الكائنات، وهو صادق قطعاً دينياً وعلمياً وإنسانياً بالتخلص من الحشرات والحيوانات الضارة (بالإنسان في مكان إقامته).

أما عن حيوان الوزغ تحديداً -وهو حيوان زاحف شبيه بالسحلية- فضرورة التخلص منه كما حال التخلص من الفئران مثلاً ما هو واضح علمياً وصحياً بالإنسان كما في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة حيث نقرأ عن الوزغ التالي:

(١) النووي/المنهاج/شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ج٤/٢٣٦-٢٣٧.



بعض الأمراض التي لها علاقة بالأوزاع

أولاً: الأمراض البكتيرية Bacterial diseases:

تحمل الأوزاع بكتيريا السالمونيلا Salmonella، حيث إنها لا تتأثر بها ولكنها تنقلها إلى العوائل الأخرى.

ثانياً: الأمراض المعوية: Gastrointestinal diseases:

- تحتوى الأوزاع العديد من الطفيليات الممرضة، وأكثر هذه الطفيليات شيوعاً هو طفيل الكريبتوسبورidium، وعندما تأتي هذه الطفيليات إلى الأوزاع تظهر عليها بعض الأعراض مثل: كثرة الترجيع أو التقيؤ لا إرادياً، سيولة البراز، لطخات من البراز حول المكان المحيط به، فقدان الشهية، وغير ذلك من الأعراض.
- أيضاً يأتي إليها الديدان الدبوسية Entrobis vermicularis، حيث تشاهد بيوض هذه الديدان في البراز، ومن المعروف أن الدودة الدبوسية معدية، ولذلك من السهل أن تنتقل من الأوزاع إلى غيرها من العوائل.

ثالثاً: الأمراض التنفسية: Respiratory diseases

تأتي أمراض الجهاز التنفسي من أشياء عديدة، منها نوع من أنواع الطفيليات يسمى البنتاستوميدا Pentastomida، والمعروفة بعد تطورها بالديدان اللسانية، والتي تصيب الجهاز التنفسي للأوزاع، وذلك بتآكل الأنسجة الداخلية للجهاز التنفسي، والبطنات الداخلية للجيوب الأنفية.

ومن أكثر الأعراض التي تظهر أحياناً على الأوزاع هي، فقدان الوزن والشهية، الانتفاخ والتورم، كثرة المخاط في الأنف والفم، التنفس بصعوبة،

البراز غير طبيعي، شلل في الأطراف والذيل، التنفس بعناء شديد، ازدياد العينين، مائل للنوم أو ما يعرف بالوسن العقلي Lethargy.

لقد حذرنا النبي ﷺ منذ مئات السنين -كما تضيف الموسوعة- من هذه الأوزاغ وأن نبتعد عنها أو نقتلها (خيار واضح أن نتركها إن لم تضرنا أو نتخلص منها إن اضررت) عندما نراها، لأنها ممكن أن تسبب ضرراً لمن يتعامل معها، وتصيبهم بالأمراض الخطيرة، وهذا ما حدث بالفعل، فلقد أثبتت التجارب ذلك، لقد تضرر من هذه الأوزاغ الكثير من الأشخاص مختلف بلدان العالم، حيث تواتت النداءات من مختلف الهيئات البيئية والصحية بالحد من تلك الأوزاغ أيّاً كان نوعها.

الخلاصة الواضحة لدينا هنا هي أن التخلص من الحيوانات أو الزواحف أو الحشرات عامة، ومنها الوزغ متى ما أضرت الإنسان شخصاً أو مسكناً ضروري، وليس ما يضيفه الكثير من العامة من أساطير تحيط بهذا الكائن دون غيره، فلا نظن إطلاقاً أن هذا مقصد الرسول الذي هو نبي الرحمة لكل الكائنات، وفي ذات الوقت يطلب من الإنسان الدفاع عن نفسه وعدم إيقاع الضرر بها أو بأسرته.

وعليه من المهم أن يفهم على سبيل المثال هنا أن قتل الحيوانات عامة ومنها المفترسة أو الحشرات أو غيرها في مكان سكنها في الغابة مثلاً لا يدخل في المعنى -ما دامت بعيدة ولا تضر الإنسان- بل يجب الحفاظ عليها للحفاظ على التنوع البيئي.⁽¹⁾

٤. الرحمة بالعجماوات حال ذبحها:

من صور الرحمة النبوية بالعجماوات الإحسان إلى البهيمة حال ذبحها،

<http://www.bakerabubaker.info/index.php?action=show&pageID=1210> (1)



وقد أتى على من فعل ذلك، ونهى ﷺ أن ترى أختها وهي تذبح، أو تُحد آلة الذبح أمامها.

روى مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(١)، قال ابن أبي جمرة: "فيه رحمة الله لعباده حتى في حال القتل، فأمر بالقتل وأمر بالرفق فيه، ويؤخذ منه قهره لجميع عباده؛ لأنه لم يترك لأحد التصرف في شيء إلا وقد حدَّ له فيه كيفية"^(٢).

ففي الحديث صورة من أعظم صور الإحساس بالحيوان في رعاية إحساسه وشعوره ودلالة على الرقي الفكري، وهذا بخلاف ما يفعله النباتيون الذين يرفضون ذبح الحيوان لأكله بحجة الرحمة به، وهذه فلسفة تخالف نوااميس الكون تُهدر قيمة، الحيوان ولا يجد الإنسان فائدة من تربيته، وبدلاً من رعايته سيحرص على الخلاص منه وينقرض، والمنهج النبوي في الرحمة ينسجم مع نوااميس الكون.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنه أن رجلاً قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا قَالَ: الشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ»^(٣).

يبدو في هذا النص النبوي حرص الرسول ﷺ على تقرير رحمة الله لعباده برحمتهم لهذه العجاوات حية وعند ذبحها والإجهاز عليها، واستخدم في ذلك أسلوب الشرط؛ لترسيخ القضية في النفوس.

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان/باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة/حديث رقم (١٩٥٥)

(٢) ابن حجر العسقلاني/فتح الباري شرح صحيح البخاري. ج٩/٦٤٤.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده/من حديث معاوية بن قرة/حديث رقم (١٥٥٩٢) ورواه البخاري في الأدب المفرد/حديث رقم (٣٧٣)/ص ١٢٦ قال الشيخ الألباني: «صحيح».

من خلال هذه النصوص النبوية يمكننا الرد على هؤلاء النباتيين الذين يرفضون ذبح الحيوانات وأكلها رحمة بها، فهم غير رحماء بالحيوان كما يدعون؛ إذ إن الرحمة تقتضي المصلحة المتبادلة بين الإنسان والحيوان، فلحوم الحيوانات المذبوحة ذبْحاً شرعياً فيها من الفوائد والعناصر الغذائية اللازمة لبناء جسم الإنسان ما لا يحققه الاعتماد على النباتات في الغذاء بشكل مطلق.

كما أنها تدل على أسبقية الإسلام والرحمة النبوية لجميع المنظمات الحديثة التي أخذت على عاتقها رعاية الحيوان، وحمايته، ورحمته وحفظ حقوقه. كما تبدو فلسفة الرحمة النبوية بالعجاوات في أنها طريق موصل للإنسان إلى تمثُّل خلق الرحمة في حياته، فمن يتربى على رحمة العجاوات الضعيفة ويحفظ حقوقها رحمة بها يمكنه الوصول إلى الرحمة العامة التي هي مناط الإيمان، ومن ثمَّ يتحقق التراحم والترابط بين المسلمين جميعهم كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى»^(١).

المطلب الثاني

النهي عن إيذاء العجاوات والقسوة عليها

جاء النهي في السنة النبوية عن القسوة والتعذيب والإضرار بخلق الله جميعاً؛ ولاسيما العجاوات؛ فإن الله ﷻ قد حباها نعمة الإحساس والتضجر والشعور بالألم ولكنها لا تستطيع بيان ما في نفسها، فكان من

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب: البر والصلة والآداب/باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم/ حديث رقم (٢٥٨٦).

مقتضى الرحمة النبوية التي حملها الرسول ﷺ للعالمين أن خصها ﷺ بمزيد من العناية التي ترحم ضعفها وتَجْبُرُ كسرها وعجزها عن البوح بما تشعر به من ضرر. ومن ثم رأينا السنة النبوية زاخرة بالنصوص التي تنهى عن إيذاء تلك العجماوات والقسوة عليها والإضرار بها.

١- النهى عن تعذيب العجماوات:

روى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسْتَهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(١).

فإنَّ المتأمل لهذا النص النبوي يدرك عظمة الدين، ومقدار الرحمة عندما يتكلم عظيم بقدر النبي ﷺ في شأن هرة، ثم يضع هذا الجزاء القاسي لمن عذبها، وهو دليل على قيمة الروح ورعاية لصاحب الإحساس مهما كان، وهو دليل على سمو الإسلام وعمق الشعور النبوي الذي وسع كل الكائنات التي أدركها.

قال الإمام النووي معلقاً على هذا الحديث: ”وفي الحديث دليل لتحريم قتل الهرة، وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب. وأما دخولها النار بسببها فظاهر الحديث أنها كانت مسلمة، وإنما دخلت النار بسبب الهرة“^(٢).

٢- النهى عن اتخاذ العجماوات غرضاً للرمي:

من الأمور التي نهى رسول الله ﷺ عنها رحمة بالعجماوات اتخاذها

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب: أحاديث الأنبياء/باب حديث الغار/حديث رقم (٣٤٨٢)، ومسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: تحريم قتل الهرة/حديث رقم (٢٢٤٢).

وخشاش الأرض: بفتح الخاء المعجمة وكسرهما وضمها هي هوام الأرض وحشراتهما.
(٢) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ط. الثانية/دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٣٩٢هـ/١٤٠٠

غرضاً لتعليم الرمي، روى مسلم في صحيحه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: "مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفَتْيَانٍ مِّنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا، وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لَصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلِّ خَاطِئَةٍ مِّنْ نَّبَلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا لَعَنَ اللَّهُ، مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»^(١).

فججم العقوبة التي رسدها الرسول ﷺ لمن يجعل الحيوان غرضاً يكشف مدى رحمته ﷺ وإحساسه بهذه الكائنات التي تتألم المأ نفسياً، بكونها في هذا الموقف الذي تشعر فيها بقرب الخطر ولا تملك دفعاً ولا هروباً.

قال النووي: "لعن الله من فعل هذا؛ لأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه وتضييع لمالئته، وتقويت لذكاته إن كان مُذَكِّيً ومُنْفَعْتُهُ إن لم يكن مُذَكِّيً"^(٢).

٣- النهي عن المثلة بالعجاوات:

من صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية حرص الرسول ﷺ على عدم تشويه العجاوات أو تعذيبها بالوسم أو الكي أو قطع جزء من أطرافها، ومن شواهد ذلك في السنة النبوية، ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ^(٣).

وما رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»^(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان/باب: النهي عن صبر البهائم وهو حبسها لتقتل/حديث رقم (١٩٥٨)

(٢) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ج١٣/١٠٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه/كتاب الذبائح والصيد/باب: ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة/حديث رقم (٥٥١٥).

(٤) رواه مسلم في صحيحه/كتاب اللباس والزينة/باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه/حديث رقم (٢١١٧).

وتعد الإساءة للعجماءات سبباً للمساءلة والقصاص يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ مَثَلَ بِذِي رُوحٍ، ثُمَّ لَمْ يَتَّبِ مَثَلُ اللَّهِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

٤- النهي عن لعن العجماءات:

ومن عجائب الرحمة النبوية بالعجماءات في السنة النبوية تحريم لعن العجماءات كما ورد في صحيح مسلم عن عمران بن حصين قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَأَمْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجَرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ»^(٢).

وفي رواية أخرى: « لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»^(٣).

قال النووي: "إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها ونهي غيرها عن اللعن فعوقبت بإرسال الناقة، والمراد النهي عن مصاحبته لتلك الناقة في الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها في غير مصاحبته صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من التصرفات التي كانت جائزة قبل هذا فهي باقية على الجواز؛ لأن الشرع إنما ورد بالنهي عن المصاحبة فبقي الباقي كما كان"^(٤).

مما سبق يتضح لنا أن اللعن ليس من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله صلى الله عليه وسلم بالرحمة فيما بينهم والتعاون على البر والتقوى، واللعنة تعني الإبعاد عن رحمة الله، فلكي تتحقق الرحمة بين الناس لابد أن يتدربوا

(١) رواه احمد في مسنده/باب: مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه حديث رقم (٥٦٦١). حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها/حديث رقم (٢٥٩٥).

(٣) المصدر السابق/حديث رقم (٢٥٩٦)

(٤) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ج١٦/١٤٧-١٤٨.

عليها في رحمة العجاوات من حولهم، فالرحمة في حب الخير لها، وعدم لعنها طريق لترسيخ الرحمة في نفوس البشر.

المطلب الثالث

مواقف عملية للرحمة بالعجاوات في السنة النبوية

بلغت الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية منزلة رفيعة، تجلت في مواقف عملية تطبيقية حدثت بين الرسول ﷺ وأصحابه، وبدا فيها واضحاً جلياً حرصه ﷺ على مصلحة العجاوات ورحمتها والرفق بها. ونقدم فيما يلي بعضاً من النماذج التي تجسدت فيها الرحمة النبوية بالعجاوات في أسمى معانيها.

١. من رحمته ﷺ بالحشرات:

روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا رب النار»^(١).

نلمس في هذا التصرف النبوي أن السنة النبوية بلغت بالمشاعر الإنسانية أعلى مراقيها التي يمكن أن يصل إليها البشر قبل وجود جمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا هذا، وحتى تلك الجمعيات لم تصل إلى المستوى الراقى الذي وصل إليه التشريع الإسلامي، وتمثل عملياً في السلوك النبوي، فإنه بلغ برحمته حتى الحشرات التي ينظر إليها هؤلاء باشمئزاز وكراهية، فإن

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: في كراهية حرق العدو بالنار/حديث رقم (٢٦٧٥) قال الألباني: صحيح

النبي ﷺ قد رحمها ونهى عن تعذيبها بالنار لما فيه من ألم شديد يصاحب قتلها. هو منتهى ما يصل إليه بشر بإحساسه بأصغر الكائنات.

٢. مراعاة النبي ﷺ لعاطفة الأمومة في العجاوات:

وبلغ من رحمته ﷺ بالعجاوات أنه كان يراعي فيها عاطفة الأمومة وينهى عن التفريق بين الأم وولدها.

روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»^(١).

ففي هذا الموقف ندرك منتهى الرقي الإنساني في التعاطي مع شعور أم لطائر ضعيف فقدت صغيرها، أي بشر يرقى إلى هذا السمو الأخلاقي في الإحساس بفجاعة طائر فقد صغيره؟!

فلم تصل منظمة إنسانية -رغم تقدم العالم- إلى هذا المستوى الذي يراعي إحساس العجاوات ويتفاعل معه ويدفع عنه سبب الفجاعة.

وأظن أن النبي ﷺ كان يدرك تمام الإدراك أن الرحمة بالعجاوات طريق ممهّد للرحمة بين البشر، فاتخذ من هذا الموقف نموذجاً لتربية وجدان المسلم نحو رحمة هذا الطائر الضعيف؛ وصولاً إلى تعميق خلق الرحمة في نفوس البشر.

٣. النبي ﷺ يرسّي منهجاً للتعامل مع ما يبدو نافراً من العجاوات:

ومن عجائب الرحمة النبوية في السنة النبوية، ما رواه الإمام أحمد في

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: في كراهية حرق العدو بالنار/حديث رقم (٢٦٧٥). وكتاب: أبواب النوم/باب: في قتل الذر/حديث رقم (٥٢٦٨)

مسنده، أن جملاً قد استصعب على أصحابه واستعصى عليهم، فأعاده الرسول ﷺ بالرفق واللين إلى حاله الأولى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْتَوْنُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنْعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنْعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطَشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا» فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطُ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَّتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ». فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَاصِيَّتِهِ أَذْلَ مَا كَانَتْ قَطُّ، حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: «لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لِأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِرُجُوعِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(١).

تأمل معي -رعاك الله- كيف أن القسوة كانت سبباً في ثورة الجمل واستعصائه على أصحابه، حتى أنهم رأوا بأعينهم عاقبة قسوتهم على هذا الأعجمي.

فجاء الرسول ﷺ ودنا إليه بالرفق واللين، فسكن الجمل واستراح، وخدمت ثورته. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن العجماءات مخلوقات لها مشاعر وأحاسيس، وهذا الموقف يؤكد أن الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية قد سبقت كل جمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا، وهي رحمة قائمة على مراعاة الجانب الوجداني لهذه العجماءات

(١) حديث حسن لغيره رواه أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه / حديث رقم (١٢٦١٤) قال الشيخ شعيب: «حديث حسن لغيره».

باعتبار أنها مخلوقات تخدم الإنسان في تحقيق مهمته الأساسية المتمثلة في عمارة الكون.

وروى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قد دخل بستاناً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى الجمل النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح عليه حتى سكن، فقال: لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا لي أنك تجيعه وتُدبُّهُ»^(١) (٢).

وتتجلى في هذا الحديث دلائل النبوة واضحة في كون الجمل قد شكا إليه، والرسول ﷺ قد سمع منه هذه الشكوى وفهمها منه، وهدأ من روعه.

كما أرشد الرسول ﷺ إلى ضرورة الإحسان إلى العجماوات، وأن من واجب الإنسان الذي ملكه الله إياها، أن يعطيها حقها من الغذاء والطعام، وألا يكلفها ما لا تطيق من الأعمال.

٤. سقيه ﷺ الماء للعجماوات:

لم تكن رحمته ﷺ بالعجماوات كلاماً نظرياً بحتاً، وإنما كانت تطبيقاً عملياً يثبت - بلا شك - أنه رحمة للعالمين. ومن هذا ما رواه الدارقطني في سننه عن أم المؤمنين عائشة ؓ قالت: "كان النبي ﷺ يُصْغِي إِلَى الْهَرَّةِ الْإِنَاءَ حَتَّى تَشْرَبَ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا"^(٣).

(١) تُدبُّهُ: تتعبه.

(٢) رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم/حديث رقم (٢٥٤٩) قال الألباني: «صحيح».

(٣) رواه الدارقطني في سننه/كتاب: الطهارة/باب: سؤر الهرة/حديث رقم (٢١٨)/ج١/١١٧/تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ط. الأولى/مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان سنة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم (٤٩٥٨).

تأمل معي -رعاك الله- رحمته ﷺ بهذه الهرة الضعيفة في تأخيره ﷺ للوضوء وتقديم مصلحة هذا المخلوق الضعيف على لون من ألوان العبادة، فأين من يتشددون برعاية حقوق الحيوان -وهم كاذبون في ذلك- من هذه الرحمة النبوية؟! لا سيما في تلك البيئة التي كانت وعرة قاحلة، وكان الحصول على الماء فيها يمثل مشقة كبرى لسقي البشر فضلاً عن الحيوان والنبات.

كل هذه المشاهد والتطبيقات العملية وغيرها مما لم يتسع المجال لذكره في سنة الرسول ﷺ تدل على أن الإسلام يطمح إلى إنشاء مجتمعات راقية في سلوكها وأخلاقها، ترفرف الرحمة عليها؛ لينعم الجميع بالحب والتآلف.



الخاتمة

وبعد، فهذه خلاصة رأيت أنها تكفي عن الإطالة وتتاسب هذه العجالة، طفت من خلالها في موضوع (الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية)، ولقد خرجت من كتابته بعدة نتائج؛ منها:

١. أن الرحمة النبوية قرب واصطفاء، وخلق فطري جُبل عليه الرسول ﷺ؛ تأليفاً للقلوب، وترسيخاً للقيم الإسلامية الرفيعة. ولم تقتصر الرحمة على الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات بل تعدته إلى مخلوقات أخرى تأتي في مقدمتها العجاوات.

٢. أن العجاوات أمم، لها خصائصها وسماتها، والإسلام لا ينظر إليها نظرة دونية، وإنما يُعلي من قيمتها ويرفع قدرها، فهي أمم خُلقت لتسبيح الله وعبادته، وجُبلت -طاعة لله تعالى- على تحقيق منفعة دنيوية للإنسان، ومن ثمَّ وجب على الإنسان رحمتها والرفق بها في جميع أحوالها.

٣. أن الإسلام قد خط منهجاً وسطاً في معاملة العجاوات تقوم فلسفته على عدم المغالاة في تقدير العجاوات، ورفعها فوق قدرها الطبيعي، وكذلك عدم إيذائها وتعذيبها وتحميلها فوق طاقتها.

٤. للرحمة بالعجاوات في السنة النبوية حكم عظيمة يمكن تلمسها بشكل عملي تطبيقي من خلال استقصاء دلائل الرحمة في سيرة الرسول ﷺ بالعجاوات لم تكن كلاماً نظرياً بل كانت تطبيقاً عملياً ومنهج حياة، وقد فصلنا القول في ذلك بين ثنايا البحث.

٥. تتعدد صور الرحمة بالعجاوات في السنة النبوية وتتنوع ما بين الأمر بالرفق بهذه العجاوات والإحسان إليها، وبين النهي عن تعذيبها والقسوة عليها، ولم تكن هذه الصور خطباً وشعارات بل بدت في مواقف تطبيقية عملية في سيرته ﷺ

٦. وأخيراً فقد رصد البحث سبق الرسول ﷺ لجمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا، في رحمة العجاوات والرفق بها ومراعاة حقوقها.

هذا ويوصي البحث بما يلي:

١. ضرورة إصدار دراسات أخرى متعمقة في بيان رحمة الرسول ﷺ بالعجاوات، تقوم على استقصاء النصوص النبوية وتبويبها بشكل موضوعي، وتبين ما تتضمنه من آداب، وما يمكن أن يُؤخذ منها من أحكام شرعية.

٢. تكوين هيئة علمية متخصصة في تقديم دراسات تُعنى بدراسة الرحمة بالعجاوات في ظل الإسلام، وتضع على قمة أولوياتها ترجمة النصوص النبوية إلى لغات العالم؛ لاستثمارها في الدعوة الإسلامية وتصويب المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.

٣. نشر الثقافة الإسلامية في الرحمة بالعجاوات عن طريق كافة الوسائل الإعلامية المتاحة من إذاعة، وتلفزيون، وفضائيات،



وانترنت. كما ينبغي تضمين المناهج التعليمية توجيهات الرسول ﷺ وإبراز هذا الجانب من سيرته ﷺ. وختاماً ابتهل إلى الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُضيء به جانباً من جوانب السنة النبوية الشريفة، وينفع به كاتبه وقارئه. وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ.



قائمة المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، البخاري (محمد بن إسماعيل ت٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. الثالثة، دار البشائر الإسلامية، بيروت سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي الدمشقي ت٧٥١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الفكر، بيروت - لبنان.
٣. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٤. تفسير التحرير والتوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ط. دار سحنون، تونس.
٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، ط. الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٦. سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، ترقيم: محيي الدين عبد الحميد، ط. الدار المصرية اللبنانية، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٧. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط. الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.



٨. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت ٢٧٩هـ،
ترقيم: أحمد شاكر، ط. دار الكتب العلمية- بيروت.
٩. سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام
ابن عبد الصمد الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، ط.
الأولى، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، سنة
١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.
١٠. الشريعة، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري (ت ٣٦٠هـ)،
تحقيق: د. عبد الله بن عمر بن سليمان، ط. الثانية، دار الوطن،
الرياض - السعودية، سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١١. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي أبوبكر (ت ٤٥٨هـ)،
تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، ط. الأولى، مكتبة الرشد
بالرياض، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض بن موسى بن
عياض (ت ٥٤٤هـ)، ط. الثانية، دار الفيحاء، عمان، سنة ١٤٠٧هـ.
١٣. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري
(ت ٣١١هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي
- بيروت/لبنان.
١٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ت ٢٥٦هـ، تحقيق:
محمد زهير بن ناصر الناصر ط. الأولى، دار طوق النجاة (مصورة عن
السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.
١٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن
غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى:
٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط. الأولى، دار
الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٢هـ

١٦. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (أحمد ابن علي ت٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت - لبنان، سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.
١٨. لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم ت، ط. دار المعارف، القاهرة.
١٩. المستدرک علی الصحیحین، الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٢٠. مسند الإمام أحمد، (أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ)، ط. مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي، سنة ١٩٩١م.
٢١. مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الحديث والآثار)، أبو بكر ابن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط. الأولى مكتبة الرشد بالرياض، سنة ١٤٠٩هـ.
٢٢. معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة محمد ﷺ بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد بالرياض ٢٢ - ٢٥ شوال ١٤٣١هـ - ٢ - ٤ أكتوبر ٢٠١٠م، المجلد الرابع.
٢٣. معجم العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط. دار ومكتبة الهلال.
٢٤. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي



- أبو القاسم الطبراني (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، ط. الثانية، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
٢٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٢٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

المقالات:

١. الحيوان، مقال طويل للدكتور راغب السرجاني، بتاريخ ١/٥/٢٠٠٦م على موقع قصة الإسلام الإلكتروني <http://islamstory.com/ar>
٢. الوزغ وجواز التخلص من الحيوانات الضارة بالإنسان، مقال للأستاذ بكر أبوبكر على موقعه الإلكتروني <http://goo.gl/AxbZGR>
- ٣.





دور البرامج الدينية الفضائية
في التعريف بخلق الرحمة
عند النبي محمد ﷺ
دراسة تحليلية

إعداد:

د. رقية بوسنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية



مقدمة

تعيش البشرية عصر الإعلام والثورة التكنولوجية التي أتاحت السيل الكبير من المعلومات المتنوعة في الجغرافيا والاعتقاد والسياسة والثقافة والمجتمع، وبات المشاهد والمتابع في ذهول، وشق عليه هذا الكم الهائل الموافق لقيمه الإيجابية والمخالف لها أيضاً، وتنوع المشهد الإعلامي في عصر السماوات المفتوحة، وانطلقت الحكومات ورجال الأعمال والحركات والأحزاب لتبحث لها عن موطئ قدم في هذا المجال التنافسي، لتنتج برامج إعلامية تعبر عن أفكارها ومبادئها وقناعاتها في جميع المجالات. وتعتبر الفضائيات العامة والمتخصصة، الحكومية والخاصة، من أهم وسائل الإعلام التي يشهدها المجال الإعلامي، والتي تزخر بخريطة برامجية تطرح الكثير من القضايا والمعارف التي تعمل على استقطاب المشاهد حيثما كان، هذه البرامج تتنوع من فضائية لأخرى كما يختلف حجم بثها وتختلف أهدافها من اجتماعية إلى ثقافية وتربوية وسياسية وبيئية وتعليمية.

١٤١

ومن أهم البرامج التي وجدت لها انتشاراً وقبولاً لدى المشاهد العربي والمسلم، ما يطلق عليها البرامج الدينية (الإسلامية) التي تعمل على

التعريف بقيم الإسلام ونشرها، وتعميمها، في الزمان والمكان، وتتنوع هذه البرامج في خطاب جميع الفئات الاجتماعية، وبكل مستوياتها للتأثير فيها موقفاً وسلوكاً، كما تتنوع هذه البرامج على مستوى المضامين لتعالج وتقدم القضايا والمعارف والمواظب والأخلاقيات، وكل ما يتعلق بجوانب الحياة منطلقة من القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي بما يخدم سياساتها الإعلامية.

وتحرص بعض هذه البرامج وخاصة التي تبث في القنوات الإسلامية على تقديم ما يتعلق بسنة الرسول ﷺ، من أقوال وأفعال، كما تقوم بتقديم سيرته العطرة لتعرف بشخصيته لكل من يجهلها وكلها برامج تحرص على العودة بالإسلام إلى الحياة في جوانبها المختلفة، وخاصة الجوانب الاجتماعية التي طغت عليها القيم السلبية، وباتت المجتمعات مهددة في هويتها الإسلامية، نظير الاستلاب الثقافي التي تمارسه المؤسسات الإعلامية الضخمة عربية كانت أم أجنبية.

ولعل في عرض أخلاق الرسول ﷺ والدعوة لتطبيقها والتبنيه لفاعليتها المجتمعية والحضارية ما يساعد على مواجهة كل المشكلات وعلى رأسها العنف والتطرف والإرهاب، والأنانية والإقصاء والظلم، ولقد جاء هذا البحث للتأكيد على خلق واحد هو خلق الرحمة، والذي سيتم التعريف به في بعض البرامج الدينية وفقاً للمحاور التالية:

المبحث الأول: الجانب المنهجي.

المطلب الأول: الإشكالية.

المطلب الثاني: أهمية الموضوع.

المطلب الثالث: أهداف الموضوع.

- المطلب الرابع: ضبط المفاهيم.
- المطلب الخامس: الدراسات السابقة.
- المطلب السادس: مجتمع البحث وعينته.
- المطلب السابع: منهج البحث.
- المطلب الثامن: أداة البحث.
- المبحث الثاني: الجانب النظري.
- المطلب الأول: مفهوم البرامج الدينية.
- المطلب الثاني: أهمية البرامج الدينية.
- المطلب الثالث: أهداف البرامج الدينية.
- المبحث الثالث: الجانب التحليلي التقييمي.
- المطلب الأول: عرض النتائج في الجداول وقراءتها.
- المطلب الثاني: نقد البرامج وتقييمها.
- المطلب الثالث: نتائج الدراسة.
- خاتمة.



المبحث الأول الجانب المنهجي

المطلب الأول الإشكالية

إن الكتابة في موضوع الرحمة في ظل التغيرات المختلفة التي تشهدها المجتمعات برمتها مهم للغاية، وهو موضوع جدير بالطرح والبحث، ومما يزيد في أهميته تعلقه بشخصية فريدة تجلت فيها كل مظاهر الرحمة اعتقاداً وعملاً، ألا وهي شخصية الرسول ﷺ، فجاء عنوان البحث عن دور البرامج الدينية التي تزداد عبر الفضائيات الإسلامية وغيرها في التعريف بهذا الخلق العظيم في السيرة النبوية؛ ولأن الإعلام بات لغة قائمة بذاتها تنتشر في الزمان والمكان عبر الخصائص المتنوعة في الوسائل والرسائل، جاء البحث لي طرح الإشكالية في شكل تساؤل رئيس هو: كيف تسهم البرامج الدينية عبر الفضائيات الإسلامية في نشر خلق الرحمة والتعريف به لدى المشاهدين؟

المطلب الثاني أهمية البحث

تتعلق أهمية البحث من العناصر أو المتغيرات المشكلة لعنوانه وتتمثل

فيما يلي:

• يعد التعريف بالرسول ﷺ من أجل الأعمال وأشرفها، اصطفاها الله رسولاً ونبياً للبشرية وأرسله رحمة للعالمين، فعرفنا في زمانه أقوى دولة وحضارة قائمة على أسس العدل والسلام مع الصديق والعدو على حد سواء، والرسول ﷺ من أعظم الشخصيات التي تناولتها الأقلام مؤيدة ومعارضة، مسلمة وغير مسلمة، وهي شخصية مستمرة في الزمان والمكان، لأنه حامل لرسالة الإسلام الخالدة والباقية إلى يوم الدين، فقد ظهرت زعامات وشخصيات عالمية مشهورة، لكن الزمن تجاوزها بمجرد رحيلها، وهذا ما لم يحدث مع شخصية الحبيب المصطفى ﷺ.

• مدى أهمية خلق الرحمة وفوائده العظيمة اجتماعياً وحضارياً، هذا الخلق الذي اتصف به الرسول ﷺ، يتعرض في الزمن الحاضر إلى تشوهات على مستوى التطبيق في المجتمعات المختلفة، وعلى رأسها المجتمعات العربية التي عصفت بها الأهوال والأهواء وتحول بعض أفرادها وجماعاتها إلى طوائف متناطحة، رجعت بنا إلى المجتمع الجاهلي الذي كانت تتقاتل فيه القبائل وتسفك الدماء من غير وجه حق، حيث كان يسود منطق البقاء للأقوى ولو من غير أخلاق.

• يتم الدفاع عن سنة المصطفى ودفع الشبهات عنها وإبطال الأكاذيب والافتراءات الموجهة من أعداء الإسلام بعرض خلق الرحمة عند الرسول من خلال وسائل الإعلام المختلفة، والتي باتت لغة العصر وصورته، وعليه فإن إنتاج البرامج المختلفة حول هذا الخلق بات ضرورة حتمية اجتماعية، وحضارية ستسهم في التعريف الصحيح بنبي الرحمة لكل العالم، ومنها التعريف برسالة الإسلام الخالدة، وإحداث فتح معرفي يكون شبيهاً بالفتح الإسلامي على عهده ﷺ.

- والذي سيسهم في تغيير الصورة النمطية للإنسان المسلم ونبى الإسلام في ذهنية الإنسان الغربي، والتي خلقتها آلة الإعلام الغربي.
- التنبية إلى ضرورة الاستثمار في وسائل الإعلام بإنتاج المزيد من البرامج التي تتعلق بسنة المصطفى ﷺ لمواجهة البرامج الإعلامية المختلفة التي تزداد وتنتشر في كم هائل من هذه الوسائل والتي تروج لقيم مخالفة للدين ولالأعراف والتقاليد الإسلامية، والتي يجنح إليها عموم الشباب، لأنها تروج لقيم التطور والتحضر بحسب وجهة نظره.
 - ضرورة مواجهة الأوضاع المزرية التي تعاني منها المجتمعات العربية والإسلامية من انتشار لمظاهر العنف والتطرف والإرهاب التي ترتكب باسم الدين بإشاعة خلق الرحمة عبر الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي وبرامج الهواتف الذكية ومواقع الإنترنت المختلفة، والتأكيد على إسهام الوسائل الحكومية والخاصة في ذلك، والابتعاد عن النظرة الضيقة للدين التي تحصره في دور العبادات وبعض المؤسسات التعليمية.

المطلب الثالث

أهداف الموضوع

توخيت من خلال طرح هذا الموضوع تحقيق جملة الأهداف التالية:

- التعريف بالبرامج الدينية.
- تحديد أهمية البرامج الدينية.
- تحديد أهداف البرامج الدينية.

- تحديد المشكلات التي تعترض البرامج الدينية.
- تحديد موضوعات خلق الرحمة في البرامج الدينية - عينة الدراسة -.
- تحديد أهداف موضوعات خلق الرحمة في البرامج الدينية - عينة الدراسة -.
- تحديد الأدلة على خلق الرحمة في البرامج الدينية - عينة الدراسة -.
- تحديد طرق وأماكن عرض برامج خلق الرحمة.

المطلب الرابع ضبط المصطلحات

يشمل عنوان البحث عدة مصطلحات سيتم ضبطها بما يخدم أهدافه، على أن يتم التوسع في مصطلح البرامج الدينية في الجانب النظري والوقوف على أهميتها وأهدافها، ومشكلاتها، وتمثل هذه المصطلحات في:

١. البرامج الدينية:

يعني البرنامج في اللغة يعني: منهج أو موضوع، أو خطة مرسومة، أو قائمة بوقائع العرض ومعلومات ذات صلة بها^(١). وهو في الاصطلاح: عبارة عن فكرة تجسد وتعالج باستخدام وسيلة تتوفر لها إمكانيات الوسائل الإعلامية، تتخذ قالباً واضحاً يعالج جميع جوانبها من خلال مدة زمنية محددة، تهدف إلى الإعلام والتثقيف والترفيه، والتوجيه والإعلان، لجذب انتباه المتلقي والتأثير فيه^(٢).

(١) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج ١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ١٩٦،

(٢) منير حجاب، الموسوعة الإعلامية، ج ١، دار الفجر، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٤٧.

وتطلق البرامج الدينية على المضامين التي تتناول الدين بمفهومه الواسع، على المستوى العقدي والتشريعي والأخلاقي، من خلال وسائل الإعلام المرئية أو المسموعة أو متعددة الوسائط، وقد أفردت لها مطلباً لتعريفها والدلالة على وظائفها وأهميتها، واقتصرت على وضع هذا المفهوم الإجرائي.

٢. الرحمة:

تدور مادة (رح م) في اللغة: حول معنى الرقة، والعطف، والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رَقَّ له وتعطفَّ عليه^(١)، وتعني في الاصطلاح: إرادة إيصال الخير^(٢)، يقول ابن القيم: "إن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل من ولده كان لقله رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم. ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه"^(٣).

ويمكن تعريفها إجرائياً بأنها: صفة وخلق يحمل دلالات واسعة كالعفو

(١) أحمد ابن فارس بن زكارياء أبو الحسين: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م، مج ٢، ص ٤٩٨.

(٢) علي بن محمد الجرجاني: معجم التعريفات، باب الرأء، دار الفضيلة، القاهرة، دت، ص ٩٥.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، دت، مج ٢، ص ١٧٤.



والتسامح، والإحسان، وقد وصف الله ﷻ نبيه بها في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء].

٣. القنوات الفضائية:

تعرف القناة بأنها: ممر إلكتروني لنقل برامج التلفزيون، وعادة يشار إليها برقم معين على جهاز الاستقبال، لتسهل على المشاهد متابعة البرامج التي يختارها. (١) والقنوات الفضائية هي عبارة عن وسائل نقل المعلومات، عن طريق البث المباشر بواسطة الأقمار الصناعية، وهي متنوعة، وتشمل القنوات العامة، والقنوات المتخصصة، من دينية وثقافية ورياضية، وغنائية، ودراما وغيرها.

المطلب الخامس الدراسات السابقة

في حدود علمي ونظري لعدم توفر الوقت الكافي لتجميع الدراسات السابقة حول الموضوع قيد البحث، فإنني لم أعتز على ما يشبه أو سبق تناول هذا الموضوع، وأشير إلى أن الاستغراق في تلخيص الدراسات الخاصة بالبرامج الدينية وتحليل محتواها وهي كثيرة، يؤدي إلى الإخلال بحجم البحث المحدد بثلاثين ورقة.

المطلب السادس مجتمع البحث وعينته

يعرف مجتمع البحث بأنه: "مجموعة الأفراد أو -مجموع المضامين-

(١) أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات الإعلام، دار الكتاب المصري، القاهرة، دت، ص ٣٦.

التي يستهدف الباحث دراستها لتحقيق نتائج الدراسة، ويمثل هذا المجتمع الكل أو المجموع الأكبر للمجتمع المستهدف، والذي يهدف الباحث دراسته، ويتم تعميم نتائج الدراسة على كل مفرداته“^(١).

وهو في بحثي يعني مجموع البرامج التي تناولت خلق الرحمة عند الرسول ﷺ سواء في الفضائيات الإسلامية أو الفضائيات العامة.

وتعرف عينة الدراسة أنها ”جزء من المجتمع الأصلي، أو هي عدد من الحالات التي تؤخذ من المجتمع الأصلي وتجمع منها البيانات، بقصد دراسة خصائص المجتمع الأصلي، وبهذه الطريقة يمكن دراسة الكل عن طريق دراسة الجزء، بشرط أن تكون العينة ممثلة للمجتمع الأصلي“^(٢).

واستخدمت العينة المتاحة، وهي عدد من البرامج عن خلق الرحمة عند الرسول ﷺ المتوفرة في مواقع القنوات الفضائية على شبكة الإنترنت، أو المتوفرة في برامج اليوتيوب التي يتم من خلالها إعادة بثها، وهي ما يقارب ثمانية برامج، وفي بعضها حلقات متتالية، بعضها تجاوز العشر حلقات، وقد حاولت جهدي في البحث عن البرامج نفسها عند مشاهير الدعاة، لكنها لم تكن ضمن البرامج الدينية قيد الدراسة، وإنما هي عبارة عن خطب جمعة أو تسجيلات عبر اليوتيوب غير منتظمة وبعضها لا يتجاوز دقائق معدودات، وقد نوعت الباحثة في مقدمي البرامج، ولم تأخذ أي بعد في إدراجهم، فالتركيز كان حول البرامج وخلوها مما يسيء إلى قيمة خلق الرحمة عند الرسول ﷺ وما يرتبط به من موضوعات.

(١) محمد عبد الحميد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، عالم الكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ١٣٠٤.

(٢) جودت عزت عطوي: أساليب البحث العلمي، دار الثقافة، عمان، ط ٢، ٢٠٠٢م، ص ٨٥.

اسم البرنامج	مقدم البرنامج	القناة	موضوع البرنامج	حجم البث
روائع السيرة	عائض القرني ^(١)	مكة	رحمة الرسول ﷺ	٦٠
			رحمة النبي بالحيوان / رحمة النبي بالوالدين	١٧/١٤
			رحمة النبي بالأبناء / رحمة النبي بالإنسان	١٦/١٦
			رحمة النبي بالأموات / رحمة النبي بالزوجات	١٦/١٣
			رحمة النبي بالأزواج / رحمة النبي بالنساء	١٥/١٦
الرحمة المهداة	عبد الرحمن بوكيلي ^(٢)	مكة	رحمة النبي بالجاهلين / رحمة النبي بالبنات	١٦/١٧
			رحمة النبي بالأيتام والأرامل / رحمة النبي في الجهاد	١٦/١٦
			رحمة النبي بأمته / رحمة النبي بأهله	١٧/١٥
			رحمة النبي بالجيران / رحمة النبي بالارحام	١٤/١٤
			رحمة النبي بمن أراد الاعتداء عليه	١٤
			رحمة النبي بالسائل والمسكين / رحمة النبي بالبيئة	١٣/١٤

(١) داعية وأكاديمي سعودي مشهور، من مواليد قرية آل شريح بمحافظة بلقرن جنوب المملكة العربية السعودية بتاريخ (١ جانفي ١٩٥٩)، من أهم مؤلفاته: الإسلام وقضايا العصر، تاج المدائح، ثلاثون سببا للسعادة، دروس المسجد في رمضان، فاعلم أنه لا إله إلا الله، مجتمع المثل، ورد المسلم والمسلمة، نونية القرني، المعجزة الخالدة... <https://ar.wikipedia.org/wiki>

(٢) أكاديمي وداعية مغربي، من مواليد ١٩٦٦/٠٦/٠١م بناحية الحاجب بالمغرب، من أهم مؤلفاته: طريقك إلى الفردوس، الأساس في الدعوة والخطابة، الرحمة المهداة للعالمين، مع نبي الرحمة بالعربية وترجم للفرنسية. <http://goo.gl/AjiHDP>

٦٠د	الرحمة في حياة النبي	إقرأ	محمود المصري ^(١)	ليلة في بيت النبي
٢٤د	خلق الرحمة عند النبي ﷺ	الأزهري	د. محمد مهنا ^(٢)	به نقدي
١٠د/١٢ ١١د/١٣	خلق الرحمة/ الرحمة بالولد الرحمة بالخادم/ الرحمة بالحيوان	قناة دريم ٣	علي جمعة ^(٣)	مع رسول الله ﷺ
١٢د ١٠د/١٠	رحمة النبي بالحيوان رحمة النبي بالأسرى/ رحمة النبي في التشريع	السلام عليك أيها النبي	أحمد طلحي ^(٤)	تبسم

- (١) داعية مصري، حاصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية، وتلقَّى العلم بين يدي بعض علماء مصر والسعودية. من أشهر برامجه ليلة في بيت النبي ﷺ. <http://ar.islamway.net/scholar/114>.
- (٢) أكاديمي سعودي، ولد في عام ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م. حصل على درجة البكالوريوس من قسم الأحياء البحرية -كلية علوم البحار- جامعة الملك عبدالعزيز (جدة، المملكة العربية السعودية) عام ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، من مؤلفاته الموضوع البيئي: سعودياً وعربياً وعالمياً، البيئة في الوطن العربي! الواقع والمؤمل، له من الأنشطة الإعلامية الهادفة للارتقاء بالوعي البيئي لدى المجتمع... هذه الأنشطة تمثلت بالعديد من المقالات الصحفية التي نشرت بالعديد من الصحف مثل صحيفة عكاظ، والرياض، والشرق الأوسط وصحيفة الاقتصادية، والمشاركة بالعديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية المعنية بهذا الحقل، <https://ar.wikipedia.org/wiki>.
- (٣) عالم دين وداعية مصري، ولد بمحافظة بني سويف، ٣ مارس ١٩٥٢م، شغل منصب مفتي الديار المصرية ما بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠١٣م، من مؤلفاته المصطلح الأصولي والتطبيق على تعريف القياس، قضية تجديد أصول الفقه، وغيرها، <https://ar.wikipedia.org/wiki>.
- (٤) هو أحمد بن فوزي بن خليفة بن جبريل بن إمشاق بن دعيس بن قصابي بن عبد السيد بن الطالب بن (طلحة) الطلحي، ولد بولاية برقة بمدينة البيضاء إحدى مدن شرق ليبيا، يوم الإثنين العاشر من شوال عام ١٤٠٥هـ الموافق ٢٩ يونيو ١٩٨٥م، إمام وخطيب وواعظ ومحفظ بجامع النور، مأذون شرعي بمحكمة الحزام الأخضر الشرعية، مدير مركز النور لتحفيظ القرآن الكريم وتدريب العلوم الشرعية بليبيا ... <http://assalamu-alayka.tv/ar>.

٥٥٢	رحمة الرسول في الحروب ومع الأطفال ح ١			
٥٥٣	رحمة الرسول في الحروب ومع الأطفال ح ٢			
٥٥٤	الرسول رحمة للعالمين	روثانا	عدنان	رحمة
٥٥٥/٥٥١/٥٥٢	رحمة الرسول بأعدائه ح ١+ح ٢+ح ٣	خليجية	إبراهيم ^(١)	للعالمين
٥٥٦/٥٥٣	رحمة الرسول بالنساء/ رحمة الرسول بالحيوان			

• جدول رقم ١: عينة البرنامج الدينية في القنوات الفضائية

المطلب السابع منهج الدراسة

ينتمي البحث إلى البحوث الوصفية التي تستهدف تصوير وتحليل وتقويم خصائص مجموع معينة، أو موقف معين يغلب عليه صفة التحديد، أو دراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الأحداث، وذلك بهدف الحصول على معلومات كافية ودقيقة، دون الدخول في أسبابها والتحكم فيها^(٢)، ويهدف البحث الوصفي عن طريق منهج المسح الاجتماعي إلى جمع بيانات كافية ودقيقة عن الظاهرة أو الموضوع، وتحليل ما تم جمعه من بيانات بطريقة موضوعية كخطوة

(١) مفكر إسلامي فلسطيني من مواليد مدينة غزة. من الخطباء المسلمين البارزين في النمسا، ويعد من رواد الخطاب الديني المستنير، له دراية بالفلسفة والتربية والأدب. يجيد اللغات العربية والإنجليزية والألمانية والصربية وكرواتية خطيب مسجد الشورى بالعاصمة النمساوية فيينا، ورئيس جمعية لقاء الحضارات فيها، كما أنه يلقي الدروس الدينية والعلمية في المسجد، لديه العديد من الأفكار والنظريات والأطروحات المثيرة للجدل. <https://ar.wikipedia.org>

(٢) سمير محمد حسن: بحوث الإعلام، الأسس والمبادئ، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م، ص ١٣١.

ثانية^(١)، والتعبير عنها تعبيراً كيفياً أو تعبيراً كمياً، فالكيفي يصف الظاهرة ويوضح خصائصها، أما الكمي فيعطينا وصفاً دقيقاً رقمياً يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها ودرجة ارتباطها مع الظواهر المختلفة^(٢).

المطلب الثامن أداة البحث

يحتاج هذا النوع من الأبحاث إلى أداة أو أسلوب تحليل المضمون وهو (أحد الأساليب البحثية التي تستخدم في وصف المحتوى الظاهر أو المضمون الصريح للمادة الإعلامية وصفاً موضوعياً وكمياً)^(٣)، ومن أهم سمات هذا الأسلوب أنه يقسم المحتوى المراد تحليله إلى أجزاء ذات خصائص وأوزان مشتركة يطلق عليها فئات التحليل^(٤)، وقد حصرها الباحثون في قسمين:

- أ. فئات ماذا قيل؟ وتشمل الموضوع والمصدر والقيم والفاعل والاتجاه...
- ب. فئات كيف قيل؟ وتشمل نمط النشر والمساحة والأساليب الإقناعية، كما يعتمد على وحدات للتحليل وتشمل الكلمة والجملة والفكرة والموضوع.

١. تحديد فئات التحليل والتعريف بها

شمل البحث عدة فئات على مستوى الشكل والمضمون، وقد

- (١) محمد عبيدات وآخرون: منهجية البحث العلمي، القواعد، المراحل، والتطبيقات، دار وائل، عمان، ط ٢، ١٩٩٩م، ص ٤٦.
- (٢) ذوقان عبيدات وآخرون: البحث العلمي، مفهومه، أدواته، أساليبه، دار مجدلاوي، عمان، دت، ص ١٨٣.
- (٣) عاطف عدلي العبد، زكي أحمد عزمي: الأسلوب الإحصائي واستخداماته في بحوث الرأي العام والإعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٢٠٨.
- (٤) محمد عبد الحميد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، مرجع سابق، ص ٢٢٩-٢٣٣.

اختارت الباحثة فئة الموضوعات الرئيسية، والموضوعات الفرعية، وفئة الأهداف الرئيسية والأهداف الفرعية، وفئة الأدلة الشرعية، وفئة زمن البث، وقد اكتفت الباحثة بتحديد هذه الفئات بحسب الجهد والوقت المتاحين.

- فئة الموضوع: هي الفئة التي تستهدف الإجابة على التساؤل: على ما يدور موضوع المحتوى؟ وتفيد هذه الفئة في الكشف عن مراكز الاهتمام في المحتوى، وقد شملت موضوعات رئيسة هي دلالات رحمة الرسول بالعالمين، الرحمة بالطفل، الرحمة بالمرأة، الرحمة بالأعداء، الرحمة بالحيوان، الرحمة بالآباء، التراحم بين الناس، وقد تم التركيز عليها وتصنيفها بهذه الطريقة، باعتبار عناوين الحلقات التي اتفقت في معظمها جميع البرامج، وباعتبار المضمون الذي طغى على البرامج، وقد تفرع عن كل موضوع رئيس موضوع فرعي كما هو وارد في الجداول على المستوى التطبيقي.
- فئة الأهداف: هي الفئة التي تستهدف الكشف عن الغاية التي يرمي إليها البرنامج وتأتي معلنة أو مضمرة، وتنقسم إلى أهداف رئيسة وأهداف فرعية، وقد شملت الأهداف الرئيسية: البعد العقدي، والبعد التربوي التعليمي، والبعد الاجتماعي، والبعد السلوكي.
- فئة الاستدلال: والمقصود بها الفئة التي تستخدم للاستشهاد بأدلة شرعية، وأدلة من التراث الإسلامي الواسع، وقد شملت القرآن الكريم والحديث الشريف، والسيرة النبوية، وأقوال العلماء.
- فئة طرق وأماكن العرض: هي فئة من فئات الشكل وتعني الأساليب المستخدمة ومكان إخراج البرنامج وتقديمه، وهي فئة هامة للإقناع وجذب انتباه المشاهدين.

- فئة زمن البث: هي الفئة التي يعرف بها الحجم الزمني الذي استغرقه البرنامج، وهي فئة هامة في الكشف عن مدى اهتمام القنوات الفضائية ببرامج السيرة النبوية وأهمها أخلاق الرسول ﷺ.

٢. وحدات التحليل:

- (هي وحدات المحتوى التي يمكن إخضاعها للعد والقياس بسهولة، ويعطي وجودها أو تكرارها أو إبرازها دلالات تفيد الباحث في تفسير النتائج الكمية)^(١)، وأهم الوحدات التي استخدمتها هي:
- وحدات اللغة وتشمل: الكلمة، والفقرة، والجمله، والنص، وقد استخدمت الفقرة لعد الموضوعات رئيسة أو فرعية، واستخدمت الجمله أحياناً لعد الموضوعات الرئيسية، كما استخدمت النص لعد الأدلة الشرعية.
- وحدات الفكرة وتستخدم في تحديد الاتجاهات والأحكام والمعاني، واستخدمتها في تحديد الأهداف.



المبحث الثاني الجانب النظري

المطلب الأول مفهوم البرامج الدينية

انتشر مصطلح البرامج الدينية بشكل واضح مع ظهور وسائل الإعلام المتخصصة والتي من بينها القنوات الإسلامية التي تنتشر في الفضاء الإعلامي وتحاول تقديم مادة ملتزمة بقيم الدين الإسلامي بأساليب عرض حديثة تعمل على انتشارها بين الجماهير العريضة، ويحاول بعض الباحثين تحديد مفهوم هذه البرامج من خلال عدة مستويات هي الشكل والمضمون والقائم بالاتصال، والهدف، وسوف أقصر على إيراد بعضها لتجلية المفهوم واستخداماته على مدار البحث.

فمن حيث الشكل فالبرامج الدينية تعني تلك القوالب المختلفة التي تعمل على توجيه المشاهد وإرشاده إلى اعتناق القيم الإسلامية المختلفة، يقول عبدالمجيد شكري "هي التي تقدم أشكالاً مختلفة من الخدمات الدينية وما يشبهها من البرامج الروحية التي تهدف إلى السمو بروح المستمع أو المشاهد"^(١)، أو هي "أداة للتثقيف والتوجيه بالثقافة الدينية، ونشر الوعي

(١) عبدالمجيد شكري، الإعلام الإسلامي "الواقع..التحديات، المستقبل"، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص ٣٥.

الديني، وشرح مبادئ الدين الإسلامي، وتحتوي على الأحاديث، واللقاءات، والندوات وكذلك التمثيليات، والمسلسلات، وذلك بغرض التوعية والتوجيه^(١).

وهي من حيث المضمون تعني: "المادة المتخصصة في تقديم المعلومات الدينية، والثقافة الإسلامية، والتي تقوم بالتوجيه الإسلامي، والتي تلتزم بالإسلام من بدايتها إلى نهايتها"^(٢)، أما من حيث القائم بالاتصال فيقصد بها كل كلام يحمل وجهة نظر محددة من مقدم البرنامج، الذي يتنوع تخصصه سواء كان داعية أو شيخاً، أو مفكراً، أو أستاذاً^(٣) ويفترض فيه أن يكون مؤثر على السامع مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها"^(٤)، أو هي "كلما يوجه به المتحدث أو الداعية أو الكاتب، للأفراد والجماعات والحكام والمحكومين والأمم والشعوب، والكبار والصغار إلى ما فيه هديهم، وسعادتهم، وخيرهم وأمنهم ونجاتهم وهناؤهم دنيا وآخرة، ويتحدد الخطاب الديني بحسب من توجه إليهم الخطاب"^(٥).

من خلال عرض هذه المفاهيم يمكن القول: إن البرامج الدينية هي المادة الإعلامية التي تختص بتقديم كل ما يتعلق بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وتتطلق من القرآن والسنة كمصدرين أساسيين ثابتين وتناقش

(١) السعيد دراجي: عادات وأنماط مشاهدة الأطفال البرامج التلفزيونية، دراسة ميدانية بيكمالية مدينة قسنطينة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، ص ٧٦.

(٢) عادل عبدالله الفلاح: البرامج الإسلامية في الإذاعة الكويتية، دراسة ميدانية لاستطلاع أثر البرامج الإسلامية في جمهور المستمعين، رسالة دكتوراه، قسم الإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود، المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٧ م، ص «ب»، يرى الباحث أن تقسيم برامج دينية وغير دينية اقتضاه التخصص وممارسة المهنة، ومصطلح البرامج الدينية المقصود به البرامج الإسلامية ولكن المصطلح درج وشاع استعماله في الأوساط الإعلامية والإذاعية خصوصاً.

(٣) أحمد عبدالله الطيار: تأويل الخطاب الديني في الفكر الحدائثي الجديد، حولية كلية ٤، أصول الدين، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ع ٢٢، مج ٣، ص ١٢.

(٤) أحمد عمروش: حول تجديد الخطاب الديني للطفل، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات العربية، تونس، ع ٤، ٢٠٠٤ م، ص ٤٥.

جميع مجالات الحياة يقوم عليها متخصصون بعلوم الدين والدنيا،
وتعرض بطرق حديثة من خلال الوسائل الإعلامية المتعددة.

المطلب الثاني

أهمية البرامج الدينية في عالم متغير

بانتشار الفضائيات العربية والإسلامية المتخصصة في الفضاء
العربي، انتشر ما يسمى بالبرامج الدينية التي تعمل على طرح القضايا
والموضوعات بالمنظور الإسلامي الشرعي الذي يحاول إرجاع المشاهد
إلى دائرة القيم الإسلامية والحث على اعتناقها والمحافظة عليها.

وتحتل البرامج الدينية ترتيباً لا بأس به في بعض القنوات الإذاعية
والتلفزيونية سواء من حيث النسبة المئوية في البرمجة العامة أو المعدل
العام لساعات البث يومياً وأسبوعياً و سنوياً، ففي عينة من إذاعات الدول
العربية كان المعدل العام لحجم بث بالساعات في العديد منها يتجاوز
الألف ساعة سنوياً في كل من إذاعة الأردن، وقطر، والمغرب، ومثل هذه
الأرقام تؤكد منزلة البرامج الدينية في البرمجة العامة في الإذاعات
العربية، وهو ما ينسحب على القنوات التلفزيونية.

أما ما يبث في القنوات الإسلامية فهو لا يخرج عن الإطار المرجعي،
ويحاول فيه القائمون على البرامج التنوع في المادة الإعلامية التي تمس
جميع الفئات الاجتماعية، لكنها تتفاوت في حجم طرح الموضوعات التي
تمس جوانب الحياة المختلفة، حيث نجدها تركز على الجانب الوعظي
والعقدي على حساب الجانب السياسي والاقتصادي والعلمي^(١).

(١) عبد القادر بن الشيخ: الخطاب الديني في البرامج الإذاعية والتلفزيونية، مجلة الإذاعات العربية،
اتحاد الإذاعات العربية، ع ٤، تونس، ٢٠٠٤م، ص ١٥، ١٦.

ويمكن لهذه البرامج أن تسهم في تصحيح صورة الإسلام وادفاع عنه، التي عملت على تشويهها وسائل الإعلام الغربية، وعملت على تضخيم هذا التشويه والمبالغة في تسليط الأضواء عليها، وإعادة تلميعها وتعزيز ما تتضمنه من إحاءات ودلالات في العقل الغربي وتقديمها للجمهور^(١).

كما يمكن لهذه البرامج الدينية عند الالتزام بالإسلام في كل ما يصدر عن تلك الوسائل أن تحافظ على عقيدة الأمة، وأن تستبعد كل ما يناقض شريعة الله، ومعلوم أن القرآن الكريم هو المصدر لهذه العقيدة والموضح لتلك الشريعة^(٢)، فالقرآن الكريم إذا أمكن للجماهير أن تستوعبه يمكن أن يدعم مفاهيم الشورى والعمل والمساواة في الإسلام، ويدعم القيم الإنسانية والتسامح والتقوى، ونفس الشيء ينطبق على الأحاديث النبوية الشريفة^(٣).

”وتتخذ البرامج من السنة النبوية مادة غنية في كافة شؤون الحياة، من سيرة الرسول ﷺ باعتباره القدوة العملية المثلى لأُمَّته وللإنسانية كافة ما ينير لها الطريق ويرشدها إلى الفلاح في الدارين، فإن سيرته العطرة تتطوي على ما كان عليه من الثقة بربه والتقرب إليه بالعبادة واحتماله للأذى في سبيل الله، وصدق عزمته في الدعوة، وتواضعه مع أهله وأصحابه، وشجاعته في المعارك ورحمته بأعدائه، والحث على العلم والعمل وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب السيرة“^(٤)، والحديث والتاريخ الإسلامي.

لقد استطاعت هذه البرامج أن تجذب جمهوراً عريضاً بالرغم من

(١) عبدالقادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ١٤٨.

(٢) إسماعيل محمد النزاري: عناية الإعلام السعودي بالقرآن الكريم، دراسة تحليلية لبرامج القناة الأولى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، مكتبة معهد الإمام الشاطبي، سلسلة أعمال مستقلة ذات علاقة فيما بينها، المدينة المنورة، ٢٠٠٠م، ص ٨. <http://goo.gl/yNQnKQ>

(٣) محمد العويني: الإعلام الإسلامي بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٢٥٩.

(٤) ميسر سهيل، قواعد التقويم للإعلام الإسلامي، دار المحبة، دمشق، دار آية، بيروت، دط، ص ٦٧.



الانتقادات الموجهة لها، وحولت بوصلة المشاهدة إليها بالرغم من قصر تجربتها مقارنة مع البرامج المختلفة، وعلى رأسها التمثيل والدراما والموسيقى وبرامج الشباب الغنائية وبرامج الواقع، يقول عبدالقادر بن الشيخ: "ومهما تفاوتت الأرقام فإنه يجوز التأكيد بأن البرامج الدينية لا تقل متابعة، وبصفة منتظمة على متابعة المضامين الدرامية، هي ما أثبتته عينة من البحوث العربية، وهي في صلب المناخ الاجتماعي الروحاني سواء من داخل الأسرة العربية المسلمة أو في الفضاءات العمومية"^(١).

وتظفر البرامج الدينية التي تقدم في الفضائيات الدينية والعامه باهتمام المشاهد المسلم اهتماماً كبيراً، فالشعور الديني يدفعه إلى متابعة هذه البرامج، والعناية بفهم ما تقدمه من موضوعات شتى^(٢)، وهي تعمل على تأصيل الحس الديني لدى مختلف الفئات المتابعة، سواء العمرية أو الثقافية، ولها دور فاعل في توعية المشاهدين بأحكام دينهم، وتقديم المعالجات الحياتية النافعة بما يعانون من مشكلات في مختلف المجالات^(٣).

وترتبط هذه البرامج بحياة الإنسان، والبيئة التي تحيطه، وهي مجال خصب من مجالات الدعوة، وهي وسيلة مهمة ينبغي الاستفادة منها، فعن طريق هذه البرامج يستطيع الدعاة والعلماء والمتخصصون، أن يصلوا إلى الملايين من المشاهدين، وإرشادهم فيما يعتبر مهما في حياتهم اليومية من عقبات ومشاكل، بالإضافة إلى تصحيح عقائدهم^(٤) وتقويم سلوكياتهم.

تستطيع البرامج الدينية تقديم خدمات جلية للقرآن وعلومه، والسنة

(١) عبدالقادر بن الشيخ: مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) إبراهيم إمام: نحو بلاغة تلفزيونية جديدة في البرامج الدينية، جهاز تلفزيون الخليج سلسلة بحوث ودراسات تلفزيونية، الرياض، ١٩٨٣ م، ص ٤.

(٣) محمد الصرايرة: البرامج الدينية في الإذاعة الأردنية، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، ع ٤، ٢٠٠٤ م، ص ٣٤.

(٤) علي طه، عاصم مشعل: البرامج الدينية هل خدمت الدعوة؟، مجلة الدعوة، الرياض، ص ٣.

النبوية وعلومها، ويتطلب ذلك العناية بالتمويل والاستثمار بالإضافة إلى وضع أهداف واستراتيجيات للنهوض بها واستمرارها لمواجهة البرامج العولمية (نسبة للعولمة) التي تعمل على هدم القيم واستلاب عقل المشاهد حيثما كان.

المطلب الثالث

أهداف البرامج الدينية

و هي الغايات التي تسعى لتحقيقها وفق رؤى دقيقة، وأولويات واضحة، تعمل على الإقناع، وتحديد الموقف، وتوجيه السلوك، وصناعة القيم لدى الفرد والجماعة والجماهير، وتتوعد أهداف البرامج الدينية، لأنها تتعلق ببنى نفسية وسلوكية، وتوجهات وتأطير مرجعي من طرف المؤسسات المختلفة، وعليه فقد قمت بتحديد هذه الأهداف انطلاقاً من أهداف العملية الإعلامية من المنظور الإسلامي، ومنها أهداف تتعلق بالإسلام كتعميمه، وتدعيمه إلى أهداف تهتم بالرسالة الإعلامية والوسيلة والطرق والأساليب والرؤى المستقبلية، وهي كالتالي:

أ. أهداف تدعيم الإسلام: والتي تعمل على تمتين أركانه وتسهيل تطبيقه، وتشمل كلا من:

- ترسيخ عقيدة الإيمان بالله في نفوس الناس.
- النهوض بالمستوى الفكري، والحضاري، والوجداني للمجتمع الإسلامي.
- علاج المشكلات الاجتماعية، والاقتصادية من خلال المنظور الإسلامي.



• الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية وتألفها وانسجامها وإزالة أسباب الفرقة والشحناء والبغضاء فيما بينها^(١).

ب. أهداف تعميم الإسلام: وهي التي تعمل على انتشاره في جميع العوامل ولكل الأمم وتشمل:

• إعلاء كلمة الله في الأرض، ونشر كلمة التوحيد الخالص، وقيم الإسلام العليا^(٢).

• التعريف الصحيح بالإسلام من حيث إنه عقيدة ومنهج حياة.
• العمل على نشر الإسلام وتعميقه في نفوس الجماهير المستهدفة.

• التعريف الصحيح بمبادئ الإسلام الخمس.

• نشر الثقافة الإسلامية وتعميقها من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، وتشجيع حفظ القرآن ودراسة السنة.

• التعريف بالشخصيات الإسلامية التي كان لها دور في التاريخ الإسلامي.

• تسليط الضوء على الأحداث والوقائع الإسلامية التي كان لها تأثير في الإسلام.

• عرض وتقديم الحل الإسلامي الناجح للمشكلات التي تواجه البشرية وتهدها مع إمكانية تطبيق الحلول الإسلامية لهذه المشكلات.

(١) سعيد بن علي ثابت: الحرية الإعلامية في ضوء الإسلام، الرياض، دار عالم الكتب، ط ١، ١٤١٢هـ، ص ١٢٠.

(٢) ماجي الحلواني: الإعلام الإسلامي، التحديات والمواجهة، مكتبة مصباح، جدة، ط ١، دت، ص ٢٣.

- تقديم مآثر الدين الإسلامي من خلال شخصية الرسول ﷺ وشخصيات الصحابة والسلف الصالح.
- الرد على المزاعم والأكاذيب التي من شأنها الإساءة للإسلام والمسلمين.
- التعرف على أحوال المسلمين في شتى بقاع الأرض وخاصة الأقليات الإسلامية.
- الإيجابية البنائية، ونعني بها البناء الخلاق للواقع والمجتمع، فالقائمون على مثل هذه البرامج يتواصلون ليوثروا، وكل مضمون يجب أن يحقق هدف البناء، فيكون عملهم متماشياً^(١) مع قوله تعالى: ﴿إِن أُرِيدُوا إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
- الرؤية المستقبلية: ينطوي هذا المبدأ على تفهم خاص ودقيق لطبيعة الإنسان الذي تحركه للعمل وتفجر طاقاته بواعث مستقبلية تتمثل في مدى تصوره لهذا المستقبل وامتداده، وفي إطار هذه الرؤية جعلت البرامج نصيباً كبيراً للأخرة.
- ويرى (أديب خضور) أن البرامج الدينية والتي هي جزء من الإعلام الإسلامي تهدف على مستوى المتلقي إلى:
- تكوين النسق المعرفي عن طريق نشر المعلومات، والحقائق المتعلقة بالجوانب الدينية المختلفة.
- تكوين النسق الفكري الديني عن طريق تحليل وتفسير القضايا والمسائل الدينية المختلفة.

(١) منير حجاب: الإعلام الإسلامي «المبادئ، النظرية، التطبيق»، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣٤، ٣٥.

• تكوين النسق القيمي الديني عن طريق تأكيد وترويج وترسيخ المثل والقيم الأخلاقية الدينية.

• ربط الدين بقضايا العصر عن طريق تقديم الرؤية الدينية لقضايا العصر، وللمشكلات التي تواجه الإنسان المعاصر.

في ظل هذه الأهداف يمكن أن تقوم البرامج بوظائف خاصة، ومنها الثقافية والدفاعية والهجومية، فالثقافية هي التي تقوم على خدمة الحق والواجب والفضيلة بتزيين ذلك للناشئة وشدهم إليه وتشويقهم إلى قبوله، والعمل به، بالإضافة إلى تثبيت الكبار عليه.

وتتم الدفاعية بالرد على ما يثيره العدو من شبهات وأباطيل، وما يردده من شائعات أو يطلقه من محاولات للتشويش، وأما الهجومية فتتم بتبني سياسة الحق والإعلان عنها، وبيان وجهها الصحيح، ومنهجها الواضح مع العناية ببيان من يناقضها أو يخالفها باطلاً وزيفاً^(١).

هذه البرامج تسعى من خلال تحقيقها لهذه الأهداف وإنجازها لهذه الوظائف بشكل منسجم ومتكامل إلى الحفاظ على قوة حضور الدين في حياة الفرد والمجتمع، وإلى ضمان استمرار تطوير الموضوعات وأساليب المعالجة بشكل مواز للتطور الحاصل في المجتمع، ومن ذلك كله تسعى إلى الإسهام في تكوين فرد يعرف أمور دينه، ويفهم بعمق وشمولية المسائل الدينية، ويحمل القيم والأخلاق الدينية، ويسلك في المجتمع سلوكاً لا يتناقض مع الرؤية الدينية^(٢).

كما تعمل على ترسيخ الهوية العربية الإسلامية في عموم الجمهور

(١) فؤاد توفيق العاني، الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) أديب خضور: البرامج الدينية في البرمجة الرمضانية، مجلة إذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، ٢٠٠٣م، ع ١، ص ٦٣.

المتلقي، وخصوصاً الشباب الذين يجنحون غالباً إلى التمرد على ثقافتهم التقليدية، وعاداتهم المجتمعية، في انبهار بالعادات الغربية من خلال وسائل الإعلام العالمية، والمحافظة على اللغة العربية، وهي مهمة جدا للحفاظ على الخصوصية الثقافية، فمعظم البرامج تتواصل باللغة العربية وهو أمر إيجابي، يجعل منها لغة اجتماعية يتداولها الجميع^(١).
إن تطبيق هذه الأهداف منها ما هو محقق، ومنها ما هو غائب أو مغيب، ويتوقف ذلك على السياسات العامة لوسائل الإعلام والأجندة المختلفة التي يعمل القائمون بالاتصال على تحقيقها، ولا يخلو أي عمل إعلامي من مشاكل تعيق ذلك وهو ما سوف أتطرق له بإيجاز في المحو الآتي.



(١) فتحي بوعجيلة، البرامج الدينية في التلفزيونات والإذاعات العربية، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد الإذاعات العربية، تونس، ٢٠١٢ م، ع ٣، ص ٣٧.

المبحث الثالث الجانب التحليلي

يتم فيه هذا الجانب عرض النتائج في الجداول ثم قراءتها كما وكيفاً، وبناء عليه يوجه النقد إلى هذه البرامج إيجاباً وسلباً، لأخلص إلى نتائج عامة حول عينة البرامج الدينية والدور المهم الذي قدمته لخلق رحمة الرسول ﷺ.

المطلب الأول تفريغ النتائج وتحليلها

النسبة المئوية	التكرار	الموضوعات الرئيسية
٢١,٥٧	١١	دلالات رحمة الرسول بالعالمين
١٩,٦١	١٠	الرحمة بالطفل
١٩,٦١	١٠	الرحمة بالأعداء
١٩,٦١	١٠	الرحمة بالحيوان
١١,٧٦	٠٦	الرحمة بالمرأة
٠٥,٨٨	٠٣	الرحمة بالأباء
٠١,٩٦	٠١	التراحم بين الناس
١٠٠,٠٠	٥١	المجموع

• جدول رقم ٢: الموضوعات الرئيسية لخلق الرحمة

بالنظر إلى إحصاءات الجدول، نجد أن مجموع البرامج ركزت على موضوع دلالات رحمة الرسول بالعالمين بنسبة ٥٧، ٢١٪، يلي موضوع رحمة الرسول ﷺ بالطفل، وموضوع الرحمة بالأعداء بالنسبة المئوية نفسها ٦١، ١٩٪، ويتوالى ترتيب الموضوعات الأخرى بنسب متفاوتة، آخرها موضوع التراحم بين الناس، وقد تم تحصيل هذه النسب بناء على تكرارات الموضوعات المذكورة، إما بشكل عام أو تفصيلي، حيث يكون عنوان البرنامج هو الموضوع نفسه، أو يجرؤه لموضوعات مختلفة كما هو موضح في الجدول رقم (١).

والواضح ومن خلال التفسير الكمي أن تفاوت تكرار الموضوعات يخضع إما للحجم الزمني للبرنامج أو للتركيز وإشباع موضوعات بعينها بالتحليل أو التفصيل كما يخضع لطبيعة التكوين أو التخصص من أساتذة أكاديميين إلى مشايخ ودعاة، أو يرجع إلى اهتمام وأولويات ضيف أو مقدم البرنامج، فليس من الطبيعي أن يلي موضوع رحمة الرسول بالمرأة أقل تكراراً من موضوع رحمته بالحيوان، فالمرأة في نظري هي نصف المجتمع وهي أساسية في تكوينه، والحديث عن موضوع الرحمة بها له انعكاسات اجتماعية وتربوية لا يمكن إغفالها.

النسبة المئوية	التكرار	موضوعات دلالات الرحمة
٣٥,٠٠	١٤	الرحمة بالمسلمين وغير المسلمين
٢٢,٥٠	٠٩	الرحمة تكون بمراعاة جميع فئات المجتمع
١٥,٠٠	٠٦	خلق الرحمة دعوة قائمة بذاتها
١٥,٠٠	٠٦	الرحمة هي مراعاة الحال في تطبيق الأحكام
٥٠,١٢	٠٥	رحمة الناس تعني التقرب لله
١٠٠,٠٠	٤٠	المجموع

• جدول رقم ٣: موضوعات فرعية تتعلق بدلالات خلق الرحمة

يشير الجدول إلى دلالات الرحمة، وهي متنوعة، ويعتبر موضوع الرحمة بالمسلمين وغير المسلمين أهم موضوع إذ قدرت نسبته بـ ٣٥,٠٠٪، وهو ما يفسر أن رحمة الرسول إنما جاءت لتؤكد على أنه مرسل لجميع البشر مسلمهم وكافرهم، أو ما يسمى بأمة الدعوة وأمة الاستجابة، فأمة رسول الله هي الوحيدة التي يؤجل حسابها إلى يوم الدين فلا تهلك بما هلك من سبقها من أمم الرسل الآخرين، ثم جاء موضوع الرحمة التي تكون بمراعاة جميع فئات المجتمع بنسبة ٢٢,٥٠٪، لتؤكد على أن الرسول ﷺ كان يتعامل بالرحمة مع الجميع، كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، متبعين ومعرضين، مصدقين ومنافقين، أغنياء وفقراء، متعلمين وجاهلين، وكان ينزل كل فئة من الفئات منزلتها، فلا يقصر بالتعليم والتربية والنصح والتوجيه ومما يفيد من أساسيات ومبادئ الرحمة.

النسبة المئوية	التكرار	الموضوعات الفرعية
٣٦,٠٠	٠٩	ملاعبة الأطفال ومداعتهم
٢٠,٠٠	٠٥	تفقدهم والحرص على مشاعرهم
١٦,٠٠	٠٤	الاهتمام بالأطفال حتى في وقت العبادة
١٢,٠٠	٠٣	حسن اختيار أسمائهم
١٢,٠٠	٠٣	العدل بينهم
٠٤,٠٠	٠١	اختيار المرأة الصالحة للزواج
١٠٠,٠٠	٢٥	المجموع

• جدول رقم ٤: موضوعات فرعية تتعلق بالرحمة بالأطفال

تتعدد مواضع رحمة الرسول بالأطفال كما هو موضح بالجدول، وقد جاء موضوع ملاعبة الأطفال ومداعتهم في الترتيب الأول بنسبة ٣٦,٠٠٪، وقد ذكرت الكثير من الأحاديث في هذا الموضوع، وتتنوعت أساليب المداعبة بين حملهم، وزيارتهم، والحنو عليهم، وتؤكد البرامج

على حبه ﷺ للأطفال ذكوراً وإناثاً من غير إقصاء وتقاربت نسب بقية الموضوعات، ماعدا موضوع اختيار المرأة الصالحة للزواج الذي جاء بنسبة لا تذكر، مع أنه موضوع مهم بالنسبة للطفل، وتتضح معالم الرحمة فيه باختيار موفق للأم الرؤوم، التي تعمل على احتضانه ورعايته بشكل لائق وفاعل لتأهيله مستقبلاً وخلق جيل يتصف بالمحبة والسلم.

النسبة المئوية	التكرار	الموضوعات الفرعية
٣٨,٠٩	٠٨	الإحسان للبنات
١٩,٠٥	٠٤	الإحسان للزوجة
١٩,٠٥	٠٤	رعاية المرأة وتكريمها
١٤,٢٨	٠٣	طاعة الأم
٠٤,٧٦	٠١	تعليم النساء
٠٤,٧٦	٠١	الوفاء للزوجة
١٠٠,٠٠	٢١	المجموع

• جدول رقم ٥: موضوعات فرعية تتعلق برحمة المرأة

تتنوع الموضوعات الفرعية التي تتعلق برحمة الرسول ﷺ بالمرأة، سواء كانت زوجة أو بنتاً أو أختاً، وقد جاء موضوع الإحسان للبنات في الترتيب الأول بنسبة ٣٨,٠٢٪، والإحسان يكون بالإيواء والتربية، والعطاء والعدل فيه، ثم جاء موضوع الإحسان للزوجة، وموضوع رعاية المرأة وتكريمها بالنسبة المئوية نفسها ١٩,٠٥٪، ويكون الإحسان للزوجة كما ورد في البرامج بالصبر عليها، ومراعاة نفسياتها وسلوكياتها الانفعالية، فهي كائن يمر بفترات ضعف أثناء الحيض والنفاس، كما تجتاحها الغيرة من بنات جنسها، أما رعاية المرأة وتكريمها فهو إشارة إلى أهمية هذه الفئة في المجتمع، وتكون بالإنفاق عليها، مهما كانت درجة غناها، وقد كان في خطبة الوداع برنامج الرعاية أو أجندة التكريم لها، من فعل الخير وتقديمه لها.

النسبة المئوية	التكرار	الموضوعات الفرعية
٣٦,٠٠	٠٩	العفو والمعاملة الحسنة
٢٠,٠٠	٠٧	فتح باب الحوار معهم
١٦,٠٠	٠٥	قتال من يرفعون السلاح
١٢,٠٠	٠٤	عدم قتل الأبرياء
١٢,٠٠	٠٤	احترام الآخر
٠٤,٠٠	٠٢	آداب الحرب
	٠٢	عدم التنكيل بالموتى
١٠٠,٠٠	٣٣	المجموع

• جدول رقم ٦: موضوعات فرعية برحمة الأعداء

حظي موضوع رحمة الرسول ﷺ بأعدائه بعناية البرامج المختارة، وقد أفردت له عناوين مستقلة، وغير مستقلة، وكأن البرامج تؤكد على توصيف فترة حرجة تعيشها المجتمعات العربية المسلمة التي تتهم بالعنف والإساءة للكافر والملحد، ومحاولة الاعتداء عليهما بحق أو بغير حق، فجاءت الموضوعات متنوعة ومعظمها متقارب إحصائياً، ومع هذا فقد جاء موضوع العفو والمعاملة الحسنة في الترتيب الأول بنسبة ٢٧, ٢٧٪، وهو أسلوب وخلق طغى على رحمة الرسول ﷺ حيث كان يعفو ويصفح عن كل من يسيء إليه، وقد تنوعت صور الإساءة من استهزاء، وشتيم، وخيانة، ووصلت إلى حد القتل، لكنه ﷺ كان متسامحاً كريماً معهم، ثم جاء موضوع الحوار مع الآخر العدو في الترتيب الثاني بنسبة ٢١, ٢١٪، والحوار هو لغة التواصل عند الرسول ﷺ الذي امتلك آلياته، واستشرف نتائجها، فقد كان يحاور المتربصين به كفاراً ومشركين ومنافقين، قبل أن يصدر أحكاماً بحقهم، وقد كانت جل نتائج الحوار عفواً مادياً حيث كان يتورع عن قتلهم، وعفوا معنوياً حيث كان يمسح أحياناً على صدورهم.

النسبة المئوية	التكرار	الموضوعات الفرعية
٣٨,٧١	١٢	الثواب والعقاب في معاملته
٣٥,٤٨	١١	حسن المعاملة والنهي عن تعذيبه
١٦,١٣	٠٥	تقديم المأكّل وعدم حرمانه
٠٩,٦٨	٠٣	تحريم قتله إلا للضرورة
١٠٠,٠٠	٣٣	المجموع

• جدول رقم ٧: موضوعات فرعية تتعلق برحمة الحيوان.

يقر الأكاديميون والدعاة أن رحمة الرسول ﷺ بالحيوان قد سبقت قوانين الغرب التي سنتها لذلك، كما سبقت ممارسات جمعيات المحافظة على الحيوانات بقرون، وأنها رحمة مقترنة بمعجزاته وخصوصية لنبوءته فقد كان ﷺ يؤكد على الرحمة بهذه المخلوقات مهما كان جنسها ونوعها، وكان يحث على المحافظة عليها بكل الطرق، لأنها نعمة للإنسان وقضاء حاجاته المتنوعة، وكان الرسول ﷺ ينهى عن قتلها إلا للضرورة القصوى، كما كان ينهى عن تعذيبها ويشدد على من يخالف هذا الأمر، وقد جاء موضوع الثواب والعقاب في معاملة الحيوانات في الترتيب الأول بنسبة ٣٨,٧١٪ وهو موضوع للإقرار بحتمية التعامل الحسن والإيجابي معها، ولأن الثواب والعقاب الإلهيين هما الرادع للتصرفات المشينة ضدها، ثم جاءت مختلف الموضوعات المترابطة متقاربة، وكلها تؤكد على ضرورة الرحمة بالحيوان.

النسبة المئوية	التكرار	الأهداف الرئيسية
٣٥,٦٢	٢٦	تربوية تعليمية
٢٦,٠٣	١٩	سلوكية
٢١,٩١	١٦	عقدية
١٦,٤٤	١٢	اجتماعية
١٠٠,٠٠	٣٣	المجموع

• جدول رقم ٨: الأهداف الرئيسية لبرامج خلق الرحمة.



تتنوع أهداف البرامج عينة التحليل وتختلف أبعادها، وتعتبر الأهداف التربوية والتعليمية أهم هذه الأهداف حيث جاء في الترتيب الأول بنسبة ٦٢، ٣٥٪، وقد شملت هذه الأهداف تعليم الصحابة خلق الرحمة ودلالاتها، كما شملت تربية الأطفال والنساء على مختلف الآداب التي ينطوي عليها هذا المفهوم من حب واحترام وتسامح، ثم جاءت الأهداف السلوكية التي تسعى إلى غرس هذا الخلق وتطبيقه على أرض الواقع لتتحول السنة النبوية من مجرد أفعال إلى ممارسات وبرامج وسياسات واستراتيجيات تحرص على تفعيلها كل فئات المجتمع.

واحتلت الأهداف العقدية الترتيب الثالث بنسبة ٩١، ٢١٪، التي ركز فيها العلماء والأكاديميون على التقرب لله عز وجل بتطبيق خلق الرحمة والخوف من العقاب والرغبة في نيل الثواب ورضا الله، كما ركزوا أيضاً على ضرورة تصحيح صورة الإسلام من التشويه والتحريف من أصحاب الباطل، بينما جاءت الأهداف الاجتماعية في الترتيب الأخير لتركز البرامج في مجموعها على التكافل والتعاون ونشر القيم والآداب بفعل الرحمة.

النسبة المئوية	التكرار	الأهداف العقدية
٣٦,٦٧	١١	العمل للأخرة والتصديق بها
٣٠,٠٠	٠٩	تصحيح صورة الإسلام
١٣,٣٣	٠٤	تصديق الرسول ومعجزاته
١٣,٣٣	٠٤	التسليم بأن الإسلام كله رحمة
٠٦,٦٧	٠٢	توحيد الأسماء والصفات
١٠٠,٠٠	٣٠	المجموع

• جدول رقم ٩: الأهداف العقدية الفرعية.

تختلف الأهداف العقدية باختلاف السياقات التي وردت فيها، وقد جاء هدف العمل للأخرة والتصديق بها في الترتيب الأول بنسبة ٦٧، ٣٦٪،

حيث يؤكد الرسول ﷺ على أن امتثال خلق الرحمة وتطبيقها في الحياة وجوانبها المختلفة ومع جميع المخلوقات من إنس وحيوانات هو في النهاية عمل لرضا الله ﷻ وعمل في الدنيا لاستقبال الآخرة، وأن التصديق بها هو من جوهر العقيدة.

واحتل هدف تصحيح صورة الإسلام الترتيب الثاني، وهو من الموضوعات المهمة التي أثرت وتثار في كل لحظة توجه فيها سهام المشككين والأعداء لهذا الدين الخالد وبدعوته ﷺ وسنه لقوانين الرحمة السابقة عن قوانين الغرب وأهمهما ما يتعلق بالمرأة والحيوان والدعوة لتفعيل هذه القوانين في المجتمعات العربية والإسلامية من شأنه أن يسهم في تصحيح هذه الصورة، وهي دعوة لكل الطبقات الاجتماعية مهما كان شأنها.

وتساوى كل من هدف التصديق بالرسول ﷺ ومعجزاته، وهدف التسليم بأن الإسلام كله رحمة، فالنصوص الصريحة والثابتة في القرآن والسنة تؤكد أن الرسول ﷺ أرحم إنسان منذ بعثته، فهو رحيم بالإنسان ورحيم بالحيوان، ورحيم بالجماد، حيث يحن الكل إليه وهي معجزة من معجزاته، فقد شكاه الجمل وحن إليه الجذع، كما تؤكد النصوص أن الإسلام شريعة وعقيدة وما يشملانه من أحكام جزائية في الثواب أو العقاب إنما هي رحمة له، وحفاظ على توازن المجتمع وتماسكه وهو خلاف ما نشهده اليوم من مزالق في عدم تطبيق الأحكام الشرعية والتي عصفت وتعصف بالقيم الإسلامية والأعراف الحسنة.

وجاء هدف توحيد الأسماء والصفات في الترتيب الأخير مع أهميته كبعد إيماني وركن يقوم به الدين، لأن الموضوعات تعلق بتوصيف خلق الرحمة عند الرسول ﷺ والتي هي صفة واسم لله عز وجل، حبا نبيه بها وأكرمه فأرسله رحمة للعالمين.



النسبة المئوية	التكرار	أهداف تعليمية تربوية
٤٤,٤٤	١٦	تربية وتعليم الصحابة خلق الرحمة
٢٥,٠٠	٠٩	تربية الأطفال على الحب والحنان
١٩,١٣	٠٥	تعليم الأمة خلق التواضع
٠٨,٣٣	٠٣	تعليم المسلمين أهمية الرحمة
٠٥,٥٥	٠٢	تربية النساء على الوفاء
٠٢,٧٧	٠١	تعليم الأولاد الرفق والأدب في التعامل
١٠٠,٠٠	٣٦	المجموع

• جدول رقم ١٠: الأهداف التربوية التعليمية الفرعية.

تعد التربية والتعليم من أهم المجالات التي استقطبت أقلام المفكرين والعلماء والباحثين، وتحرص المجتمعات المتطورة على العناية بها لأنها أساس نهضة المجتمع وتحضره، وقد أصبحت معياراً أساسياً لقياس مقدار التقدم والتطور الذي يحققه مجتمع بعينه، وبتحليل عينة من البرامج الدينية التي تبثها الفضائيات العامة والمتخصصة، نجد أنها حرصت على إبراز الأهداف التعليمية والتربوية كأهداف أساسية من أهداف خلق الرحمة عند الرسول ﷺ، وعليه جاء موضوع تعليم الصحابة خلق الرحمة في الترتيب الأول حيث كان يحرص ﷺ على هذه الفائدة العظيمة، فكان يسلك هذا الخلق في يومياته ليتعلم منه الصحابة كما كان يراقب الصحابة ويوجه مفاهيمهم الخاطئة كاعتمادهم الأسلوب الخشن في التغيير أو تطبيق الحكم، ومنها ما ورد في حديث بول الأعرابي في المسجد^(١)، ومحاولة فجيعة الأم الطائر في فراخها^(٢)، وربط الدابة وتعذيبها^(٣)، وغيرها، كما

(١) الراوي: أنس بن مالك، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٨٥، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) الراوي: عبد الله بن مسعود، المحدث: أبو داود، المصدر: سنن أبي داود، الصفحة أو الرقم: ٢٦٧٥، خلاصة حكم المحدث: سكت عنه وقد قال في رسالته لأهل مكة «كل ما سكت عنه فهو صالح».

(٣) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، المحدث: أحمد شاكر، المصدر: مسند أحمد =

كان ﷺ يشرع أحكاماً رادعة ليعيها الصحابة كحديث دخلت المرأة النار في هرة^(١)، وحديث حد الشفرة أثناء ذبح البهائم^(٢)، وغيرها كثير.

احتل موضوع تربية الأطفال على الحنان والحب الترتيب الثاني، حيث كان الرسول ﷺ يحرص على ذلك أيما حرص، فالطفل هو المستقبل وتربيته على قيم الرحمة من حب وحنان يجنبه السلوك العنيف والعدوان ويعمل على تهذيب نفسيته واستقامة سلوكه، فكان ﷺ يلاعبهم ويركبهم الدواب ويضعهم في حجره، ويقبلهم ويمسح على رؤوسهم، ويتألم لبكائهم^(٣)، وكلها سلوكيات تنمي نزعة الحب والحنان والرحمة عند الطفل فيكون سوياً قوياً متفاعلاً مع الظروف المحيطة به.

وتقاربت بقية الأهداف في نسبها المئوية وبالرغم من قلة تكراراتها فهي تعتبر أيضاً أهدافاً مهمة، في تعليم الأمة خلق التواضع وتعليم الناس أهمية الرحمة وفوائدها، وتعليم الأطفال آداب وحسن التعامل وتربية النساء على الوفاء لتسهم بشكل واضح في تعزيز خلق الرحمة ودلالاته المتعددة.

النسبة المئوية	التكرار	أهداف اجتماعية
٣٥، ٢٩	٠٦	نشر الوعي والمحافظة على القيم

- = الصفحة أو الرقم/٣/١٨٩، خلاصة حكم المحدث: «إسناده صحيح».
- (١) الراوي: عبدا لله بن عمر، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٣٣١٨، خلاصة حكم المحدث: صحيح.
- (٢) الراوي: شداد بن أوس، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ١٩٥٥، خلاصة حكم المحدث: صحيح.
- (٣) قامت الباحثة بتخريج ما وردت من معاني رحمة الرسول بالأطفال، من مصادرها المتوفرة في موقع الدرر السنية ومنها: الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٥٩٩٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح، الراوي: أسامة بن زيد، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح النسائي، الصفحة أو الرقم: ١٨٦٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح...

<http://goo.gl/XgtJgg>

٢٣,٥٣	٠٤	محاربة الغلو والتطرف
١٧,٦٥	٠٣	التكافل بين الأفراد
١١,٧٦	٠٢	محاربة الآفات الاجتماعية
١١,٧٦	٠٢	تماسك المجتمع
١٠٠,٠٠	١٧	المجموع

• جدول رقم ١١: الأهداف الاجتماعية الفرعية

يحرص الدعاة والمشايخ والأكاديميون عبر تقديمهم لخلق الرحمة عند الرسول ﷺ على ذكر سياقات مختلفة للأهداف الاجتماعية المختلفة، ومن أهمها نشر الوعي والمحافظة على القيم الذي جاء في الترتيب الأول ويعني هذا الهدف: الإدراك والفهم الصحيح لمقتضيات الرحمة وأهميتها داخل المجتمع ثم دورها في المحافظة على قيم التعاون والتكافل والتسامح والعتف، ويلى هدف محاربة الغلو والتطرف في الترتيب الثاني وهو هدف تصبو إلى تحقيقه كل المجتمعات التي تعاني من العنف والإرهاب والتطرف، وهي ظواهر لها أسبابها المتنوعة، السياسية منها والاقتصادية والفكرية والمذهبية والثقافية والاجتماعية، وقد صارت لغة يومية تستفيد منها مصالح غير محددة تسيء في جوهرها إلى الإسلام والقيم الإسلامية، وتسهم في المزيد من تشويه صورته لدى المناوئين والمعادين، فيلي هذا الهدف من أهداف خلق الرحمة للطعن ورد كل الشبهات التي تحاول تقويض تطبيق الإسلام في جوانب الحياة كلها.

وتتقارب بقية الأهداف في نسبتها المئوية، وكلها تخدم الحياة الاجتماعية والمجتمعات بطريقة أو بأخرى، فالتكافل بين الأفراد أهم مظهر من مظاهر الرحمة التي تشيع في المجتمع بتطبيقها، وهو من الأهداف المهمة التي تقضي على فوارق الطبقة التي طغت في غياب التوزيع العادل للثروة، ومنها

تماسك المجتمع الذي هو هدف ونتيجة في حد ذاتها، فالتماسك يعضد من نسيج الوحدة المجتمعية ويقضي على الفرقة والانقسام والتشتت، أما محاربة الآفات الاجتماعية من احتيال وكذب وسرقة وسب فمن شأنها أن تخلق بيئة سليمة تمثل وتعكس صورة المجتمع المسلم الحقيقي.

النسبة المئوية	التكرار	أنواع الأهداف الفرعية
٤٢,١١	٠٨	تطبيق الرحمة على أرض الواقع
٣٦,٨٤	٠٧	تهذيب النفس وتقويم السلوك
٢١,٠٥	٠٤	وضع برامج وإستراتيجيات لنشر خلق الرحمة
١٠٠,٠٠	١٩	المجموع

• جدول رقم ١٢: الأهداف السلوكية الفرعية

لخلق الرحمة عند الرسول صلى الله عليه وسلم كما هي واردة في عينة البرامج أهداف سلوكية تعمل كلها على تنزيل أقوال وأفعال الرسول على أرض الواقع، كما تهدف إلى تزكية النفس وتقويمها، ثم وضع إستراتيجيات متناسقة لضمان استمرارية نشر هذا الخلق داخل الأسرة والمؤسسات التعليمية والمؤسسات الحكومية في إطار تعاملي محكم أفقي أو عمودي، وإن لم تكن كل البرامج قد أكدت على هذه الأهداف إلا أن بعضها أشار إليها مؤكداً على أهميتها.

إن ما تعج به كتب الحديث وشروحها وكتب السيرة ومواضيعها وكتب التاريخ الإسلامي وتنوعها، كلها تؤكد على خلق الرحمة عند الرسول ﷺ، وهي كافية لاستحداث أو بلورة نظريات في تطبيقها وتفعيلها، لكن مشاريع التطبيق والبرامج التي تتبناها مختلف المؤسسات هي المعامل الذي يكاد أن يكون منعدماً أو هو موجود وغير مفعّل أو أنه أسس بطريقة خاطئة لا تتوافق مع تطبيقات وسلوكيات الرسول ﷺ لهذا الخلق.



وأما الحديث عن وضع الاستراتيجيات والتخطيط المستمرين فهو ما يعوز المشرفين على إدارة دفة المجتمعات ليس على الإطلاق، ولكن هناك خلل واضح لما نشهده من هبوط في مستوى القيم الإسلامية والإنسانية وتفاقم الظواهر السلبية وعلى رأسها مشكلات العنف والتطرف والإرهاب الذي أصبح يهدد فعلياً كيان الأسر والمجتمعات والحضارات.

النسبة المئوية	التكرار	الأدلة
٨٢,٩٨	١١٧	الحديث النبوي
٠٩,٠٣	١٤	القرآن الكريم
٠٤,٢٥	٠٦	أقوال العلماء
٠٢,٨٤	٠٤	السيرة النبوية
١٠٠,٠٠	١٤١	المجموع

• جدول رقم ١٣: فئة الاستدلال على خلق الرحمة

استشهد الدعاة والمشايخ والأكاديميون بأدلة متنوعة لإثبات خلق الرحمة عند الرسول ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً، وغلب على الأدلة نصوص الحديث المستند إليها ومعظمها من صحيح مسلم والبخاري وسنن الترمذي وقدرت نسبة الاستشهاد بالحديث بـ ٨٢,٩٨٪، ويفسر حجم هذه النسبة بتحديد هذا الخلق عند الرسول ﷺ في أقواله، أما الاستدلال بأي القرآن الكريم فقدرت نسبته بـ ٠٩,٠٣٪، وهي آيات أنزلت في الرسول ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، واستشهد مقدمو البرامج ببعض أقوال العلماء الذين اقتصررت على أسماء معينة كابن عباس ترجمان القرآن، والشافعي، والحسن البصري وابن عطاء الله السكندري ومتولي الشعراوي، وجاء الاستدلال بنصوص من كتب السيرة في الترتيب الأخير، لكفاية الاستدلال بنصوص الحديث النبوي المتكررة في بعض هذه الكتب.

النسبة المئوية	التكرار	طرق وأماكن العرض
٤١,١٨	٠٧	مقدم البرنامج في الأستوديو
٣٥,٢٩	٠٦	مقدم البرنامج بمفرده
١١,٧٦	٠٢	مقدم البرنامج مع الحضور
٠٥,٨٨	٠١	مقدم البرنامج في الهواء الطلق
٠٥,٨٨	٠١	تفاعل الحضور مع مقدم البرنامج
١٠٠,٠٠	١٧	المجموع

• جدول رقم ١٤ : فئة طرق وأماكن العرض

لطرق ومكان عرض المادة الإعلامية دور كبير في جذب المشاهد وإثارة انتباهه، وإشباع معرفته بالموضوعات المختلفة، والواضح أن بعض البرامج وخاصة الدينية لم تصل بعد إلى درجة الإتقان في اختيار مكان تقديمها، فجاء العرض في أستوديو القنوات الفضائية بخلفيات باهتة، ممل وغير جذاب، وهو ما طغت نسبته في الجدول أعلاه، كما أن العرض في البرنامج الواحد كان على وتيرة واحدة وبأسلوب واحد ما يجعل بعض البرامج الإعلامية منافسة من حيث الإقبال ومعدل المشاهدة.

حجم البث	موضوع البرنامج	اسم البرنامج
٤٢٧ د	٨ حلقات	رحمة للعالمين
٢٨٢ د	١٩ حلقة	الرحمة المهداة
٦٠ د	حلقة واحدة	ليلة في بيت النبي
٦٠ د	حلقة واحدة	روائع السيرة
٤٦ د	٤ حلقات	مع رسول الله
٣٢ د	٣ حلقات	تبسم
٣١ د	حلقة واحدة	الرحمة المهداة
٢٤ د	حلقة واحدة	به نقتدي

• جدول رقم ١٥ الحجم الزمني لبث البرامج حول خلق الرحمة



يتضح من خلال الجدول أن هناك تفاوتاً بين الفضائيات في بث البرامج حول خلق الرحمة، وهو حجم ضئيل جداً مقارنة ببرامج أخرى دينية كانت أم غير دينية، وقد يفسر هذا بعدم وجود أولويات حقيقية لبعض القنوات في التقديم لسيرة المصطفى ﷺ وأن البرمجة تخضع أحياناً إلى طبيعة الظروف خاصة تلك التي تكثر فيها الإساءة للرسول ﷺ، حينها تلجأ الكثير من الوسائل إلى بث هذا النوع من البرامج للدفاع عنه.

المطلب الثاني نقد وتقييم البرنامج

سيتم نقد وتقييم محتوى وشكل البرامج الدينية حول خلق الرحمة عند الرسول ﷺ، بالإضافة إلى القائمين على إخراجها وتقديمها، هذه الانتقادات تعمل على تصويب ما يمكن تصويبه من أخطاء ومشكلات تحول دون فهم الرسالة الإعلامية واستيعابها بالشكل المطلوب وتحويلها إلى سلوك يومي يسهم في تنمية المجتمع في مختلف الجوانب وأهمها الجانب الأخلاقي السلوكي، وقد حصرتها في:

- لفتت المادة الإعلامية المقدمة في البرامج الدينية عن الرحمة عند الرسول ﷺ إلى الكثير من الموضوعات المهمة المتعلقة بها، فجاءت متنوعة شاملة لمختلف مكونات المجتمع من نساء ورجال وأطفال وحيوان وجماد، وإن كان بعضها اقتصر أحياناً على سرد الأحاديث من غير شرح أو تحليل معمقين ومنها برنامج مع رسول الله لعلي جمعة، وقد يعود ذلك لقصر مدة العرض.

- هدفت البرامج إلى التعريف بخلق الرحمة عند الرسول ﷺ على المستوى العقدي والتربوي التعليمي، والاجتماعي والسلوكي، وقد

تتوعد الأهداف بتتوع هذه المستويات وسياقاتها، ولكن رسم الهدف في بعض البرامج لم يكن واضحاً بالشكل الكافي وأحياناً لم يكن واضحاً أصلاً.

- تكرار الموضوعات، حيث ما تتفك بعض البرامج تقدم المعلومات نفسها وهي في عرضها لمضامين رسالة الإسلام لا تخرج عن النص، فتغيب بذلك الاستدلالات بالعلوم المختلفة التي يحاول البعض إقصاءها باعتبار نشأتها في سياق غير سياق المجتمعات العربية والإسلامية، مع أنها علوم مفيدة في تحليل الواقع ودراسته.
- غياب النصوص المترجمة في جل البرامج الدينية المقدمة مما يحول دون وصول محتواها للمتلقى الأجنبي بالرغم من حاجتنا الملحة لنشر الإسلام ومبادئه وقيمه خارج حدوده، وبالرغم من الدعوات المتكررة لترجمة المحتوى الديني الأصيل والجذاب إلى اللغات الأجنبية وعلى رأسها اللغة الإنجليزية، لاتساع جغرافية الناطقين بها.
- الاكتفاء بالوعظ في معالجة الموضوعات، من غير استدلال بالواقع التي تعيشه الأمة الإسلامية في ظل متغيرات دولية وعولمة إعلامية وثقافية جارفتان بالرغم من أن النصوص النبوية تستوعب كل هذه المتغيرات وتفسرها وتعالجها.
- يغلب على مادة هذه البرامج استحضار مكثف للأحاديث النبوية بعضها لا تذكر مصادرها أو التدقيق في صحتها.
- بالرغم من أهمية موضوع الرحمة في الوقت الحاضر الذي صار فيه سفك الدماء لغة يومية إلا أن معظم البرامج لم تعطها الزمن والحجم الكافي للبرمجة.



- تغيب في البرامج طرق وأماكن العرض الجذابة؛ وقد اكتفى المخرجون بتقديمها في أستوديوهات باهتة الخلفية ويتكرر مظهر جلوس مقدمو البرامج في الوضعية نفسها، وتقدم البرامج بالأساليب نفسها من غير تنوع بالرغم من أهمية المادة المقدمة أحياناً.
- تغيب الأشكال الفنية التلفزيونية التي يعتمد عليها في تقديم البرامج في صورة واضحة، فكان التقديم في معظمه أقرب إلى الشكل الإذاعي، فغابت وسائل الإيضاح مع أن مستوى المقدمين من دعاة ومشايخ وأكاديميين على درجة عالية من التعليم.
- لا توجد أجندة خاصة بالقنوات الفضائية الإسلامية وغيرها في الاهتمام بالسيرة النبوية وما يتعلق بها من علوم، فعادة ما يتم عرض هذه البرامج لتتاسبها مع أزمة أو حادث اعتداء على الرسول ﷺ من تشويه وتعريض.

المطلب الثالث نتائج البحث

من خلال الجانب التحليلي المدعم بالجانب النظري توصلت إلى جملة النتائج التالية:

- هناك اختلاف بين البرامج في عدد الموضوعات المقدمة، وقد يخضع ذلك إما للحجم الزمني للبرنامج أو التركيز وإشباع مواضيع بعينها بالتحليل أو التفصيل، كما يخضع لطبيعة التكوين أو التخصص من أساتذة أكاديميين إلى مشايخ ودعاة، أو يرجع إلى اهتمام وأولويات ضيف أو مقدم البرنامج.

- تؤكد البرامج على أن الرسول ﷺ كان يتعامل بالرحمة مع الجميع، كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً، متبعين ومعرضين، مصدقين ومنافقين، أغنياء وفقراء، متعلمين وجاهلين، وكان ينزل كل فئة من الفئات منزلتها فلا يقصر بالتعليم والتربية والنصح والتوجيه وم ما يفيد من أساسيات ومبادئ الرحمة.
- تؤكد البرامج على حب الرسول ﷺ للأطفال ذكوراً وإناثاً من غير إقصاء، وقد كثرت النصوص الدالة على ذلك، وفيها ما يؤكد على الاهتمام بالطفل خصوصاً، لتأهيله مستقبلاً وخلق جيل يتصف بالمحبة والسلم.
- يحث الرسول ﷺ على رعاية المرأة وتكريمها، فهو يشير إلى أهمية هذه الفئة في المجتمع، وقد كان في خطبة الوداع ما يشبه برنامج الرعاية وأجندة التكريم لها.
- تقر البرامج أن رحمة الرسول ﷺ بالحيوان قد سبقت قوانين الغرب التي سنتها لذلك كما سبقت ممارسات جمعيات المحافظة على الحيوانات بقرون، وأنها رحمة مقترنة بمعجزاته وخصوصية نبوءته، فقد كان ﷺ يؤكد على الرحمة بهذه المخلوقات مهما كان جنسها ونوعها، وكان يحث على المحافظة عليها بكل الطرق، لأنها نعمة للإنسان وقضاء حاجاته المتنوعة
- شملت أهداف البرامج تعليم الصحابة خلق الرحمة ودلالاتها، كما شملت تربية الأطفال والنساء على مختلف الآداب التي ينطوي عليها هذا المفهوم من حب واحترام وتسامح، وغرس هذا الخلق وتطبيقه على أرض الواقع لتتحول السنة النبوية من مجرد أفعال إلى ممارسات وبرامج وسياسات واستراتيجيات تحرص على تفعيلها كل فئات المجتمع.



- ركزت البرامج على ضرورة التقرب لله عز وجل بتطبيق خلق الرحمة والخوف من العقاب والرغبة في نيل الثواب ورضا الله .
- دعت بعض البرامج إلى تصحيح صورة الإسلام وهو من الموضوعات المهمة التي أثّرت وتثار في كل لحظة توجه فيها سهام المشككين والأعداء لهذا الدين الخالد وبدعوته ﷺ وسنه لقوانين الرحمة السابقة لقوانين الغرب، وأهمهما ما يتعلق بالمرأة والحيوان والدعوة لتفعيل هذه القوانين في المجتمعات العربية والإسلامية من شأنه أن يسهم في تصحيح هذه الصورة، وهي دعوة لكل الطبقات الاجتماعية مهما كان شأنها .
- تؤكد البرامج أن الرسول ﷺ أرحم إنسان منذ بعثته، فهو رحيم بالإنسان ورحيم بالحيوان، ورحيم بالجماد، كما تؤكد البرامج من خلال النصوص الكثيرة أن الإسلام شريعة وعقيدة وما يشملانه من أحكام جزائية في الثواب أو العقاب إنما هي رحمة له، وحفاظ على توازن المجتمع وتماسكه وهو خلاف ما نشهده اليوم من مزالق في عدم تطبيق الأحكام الشرعية والتي عصفت وتعصف بالقيم الإسلامية والأعراف الحسنة .
- هدفت برامج الرحمة إلى نشر الوعي والمحافظة على القيم أي: الإدراك والفهم الصحيح لمقتضيات الرحمة وأهميتها داخل المجتمع ثم دورها في المحافظة على قيم التعاون والتكافل والتسامح والعفو .
- دعت البرامج إلى محاربة الغلو والتطرف وهو ما تصبو إلى تحقيقه كل المجتمعات التي تعاني من العنف والإرهاب، وهي ظواهر لها أسبابها المتنوعة، السياسية منها والاقتصادية والفكرية والمذهبية والثقافية والاجتماعية، وقد صارت لغة يومية تستفيد منها مصالح

غير محددة تسيء في جوهرها إلى الإسلام والقيم الإسلامية وتسهم في المزيد من تشويه صورته لدى المناوئين والمعادين، ومثل هذه الدعوة تأتي للطعن ورد كل الشبهات التي تحاول تقويض تطبيق الإسلام في جوانب الحياة كلها.

- إن ما تعج به كتب الحديث وشروحا وكتب السيرة ومواضيعها، وكتب التاريخ الإسلامي وتنوعها، كلها تؤكد على خلق الرحمة عند الرسول ﷺ، وهي كافية لاستحداث أو بلورة نظريات في تطبيقها وتفعيلها، لكن مشاريع التطبيق والبرامج التي تتبناها مختلف المؤسسات هي المعامل الذي يكاد أن يكون منعدماً أو هو موجود وغير مفعّل أو أنه أسس بطريقة خاطئة لا تتوافق مع تطبيقات وسلوكيات الرسول لهذا الخلق.
- إن وضع الإستراتيجيات والتخطيط المستمرين هو ما يعوز المشرفين على إدارة دفة المجتمعات، والكلام ليس على إطلاقه، ولكن هناك خلل واضح لما نشهده من هبوط في مستوى القيم الإسلامية والإنسانية، وتفاقم الظواهر السلبية وعلى رأسها مشكلات العنف والتطرف والإرهاب الذي أصبح يهدد فعلياً كيان الأسر، والمجتمعات والحضارات.



خاتمة

إن موضوع الرحمة عند الرسول ﷺ لا تسعه هذه الورقات في جانبها النظري والتطبيقي، فقد نزلت فيه الكثير من نصوص الوحيين، القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكنني حاولت في هذه الورقة الوقوف على أهمية وسائل الإعلام في التعريف ونشر هذا الخلق عن طريق البرامج الإعلامية وخاصة البرامج الدينية في القنوات المتخصصة وغير المتخصصة.

ومع قلة هذه البرامج والانتقادات الموجهة إليها إلا أن لها دوراً كبيراً في لفت الانتباه إلى هذا الخلق، وكل ما نحتاجه هو تفعيلها ووضع استراتيجيات وأجندة تتبعها وفقاً للظروف المعاصرة والمشاكل التي تعانيها كل المجتمعات، وعلى رأسها مشكلة الإرهاب الذي عصف ببعض الدول، التي تحولت معها الحياة إلى شبه مستحيلة.

فالورقة في مجملها هي محاولة للتأكيد على الاستثمار في وسائل الإعلام مسموعة ومرئية، تقليدية ومتطورة، والتي تعمل على تقديم السيرة النبوية والدفاع عنها وتحسينها ضد التشويه المتعمد وغير المتعمد من طرف المتحاملين على الإسلام من حكومات وحركات هدامة، وتيارات ضالة.

توصيات:

- وضع أجندة وبرامج إعلامية تهتم بسيرة المصطفى وأخلاقه وشمائله في جميع القنوات الفضائية.
- احترام شعور المشاهد وذوقه بالتقليل أو استبعاد البرامج غير المفيدة التي تعمل على خدش الحياء.
- وضع استراتيجيات إعلامية تهدف إلى تصحيح مسار الإعلام الإسلامي والنهوض بوسائله ورسائله.
- إدراج مادة السيرة النبوية في المؤسسات التعليمية وتدريبها بالطرق الحديثة لتربية الأجيال على الأخلاق الفاضلة.



فهرس المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

١. ابن القيم الجوزية أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، دت.
٢. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكارياء: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
٣. بدوي أحمد زكي: معجم مصطلحات الإعلام، دار الكتاب المصري، القاهرة، دت.
٤. بوعجيلة فتحي، البرامج الدينية في التلفزيونات والإذاعات العربية، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد الإذاعات العربية، تونس، ٢٠١٢م.
٥. ابن الشيخ عبدالقادر: الخطاب الديني في البرامج الإذاعية والتلفزيونية، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد الإذاعات العربية، ع٤، تونس، ٢٠٠٤م.
٦. الجرجاني علي بن محمد: معجم التعريفات، باب الرءاء، دار الفضيلة، القاهرة، دت.
٧. إمام إبراهيم: نحو بلاغة تلفزيونية جديدة في البرامج الدينية، جهاز تلفزيون الخليج سلسلة بحوث ودراسات تلفزيونية، الرياض، ١٩٨٣م.
٨. ثابت سعيد بن علي: الحرية الإعلامية في ضوء الإسلام، الرياض، دار عالم الكتب، ط ١، ١٤١٢هـ.
٩. حجاب منير: تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر، دار الفجر للنشر، والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.

١٠. حجاب منير: الإعلام الإسلامي "المبادئ، النظرية، التطبيق" دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م.
١١. حجاب منير: الموسوعة الإعلامية، ج ١، دار الفجر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٢. حسن سمير محمد: بحوث الإعلام، الأسس والمبادئ، عالم الكنب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م.
١٣. الحلواني ماجي: الإعلام الإسلامي، التحديات والمواجهة، مكتبة مصباح، جدة، ط ١، (دت).
١٤. دراجي السعيد: عادات وأنماط مشاهدة الأطفال البرامج التلفزيونية، دراسة ميدانية بإكاديمية مدينة قسنطينة، رسالة ماجستير، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الامير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، ٢٠٠٥م.
١٥. ذوقان عبيدات وآخرون: البحث العلمي، مفهومه، أدواته، أساليبه، دار مجدلاوي، عمان، دت.
١٦. سهيل ميسر، قواعد التقويم للإعلام الإسلامي، دار المحبة، دمشق، دار آية، بيروت، دط، دت.
١٧. شكري عبدالمجيد: الإعلام الإسلامي "الواقع، التحديات، المستقبل"، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩م.
١٨. الصرايرة محمد: البرامج الدينية في الإذاعة الأردنية، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، ع ٤، ٢٠٠٤م.
١٩. طاش عبدالقادر: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣م.
٢٠. طه علي، مشعل عاصم: البرامج الدينية هل خدمت الدعوة، مجلة الدعوة، الرياض.



٢١. الطيار أحمد عبدالله: تأويل الخطاب الديني في الفكر الحدائى الجديد، حولية كلية ٤، أصول الدين، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٢٢. العاني فؤاد توفيق: الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط ١، ١٩٩٣م.
٢٣. عبدالحميد محمد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، عالم الكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
٢٤. عبدالحميد محمد: تحليل المحتوى في بحوث الإعلام، دار ومكتبة الهلال، دار الشروق، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م.
٢٥. العبد عاطف عدلي، عزمي زكي أحمد: الأسلوب الإحصائي واستخداماته في بحوث الرأي العام والإعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣م.
٢٦. عبدالمعطي علي: أساليب البحث العلمي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٩٨٨م.
٢٧. عبيدات محمد وآخرون: منهجية البحث العلمي، القواعد، المراحل، والتطبيقات، دار وائل، عمان، ط ٢، ١٩٩٩م.
٢٨. عطوي جودت عزت: أساليب البحث العلمي، دار الثقافة، عمان، ط ٢، ٢٠٠٢م.
٢٩. عمروش أحمد: حول تجديد الخطاب الديني للطفل، مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات العربية، تونس، ع ٤، ٢٠٠٤م.
٣٠. الفلاح عادل عبدالله: البرامج الإسلامية في الإذاعة الكويتية، دراسة ميدانية لاستطلاع أثر البرامج الإسلامية في جمهور المستمعين، رسالة دكتوراه، قسم الإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٧م.

٣١. العويني محمد: الإعلام الإسلامي بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
٣٢. مختار أحمد: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٣٣. النزاري إسماعيل محمد: عناية الإعلام السعودي بالقرآن الكريم، دراسة تحليلية لبرامج القناة الأولى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، مكتبة معهد الإمام الشاطبي، سلسلة أعمال مستقلة ذات علاقة فيما بينها، المدينة المنورة، ٢٠٠٠م.
٣٤. <http://abderrahman-boukili.blogspot.com>
٣٥. <https://ar.wikipedia.org/wiki>
٣٦. <http://assalamu-alayka.tv/ar>
٣٧. <http://www.dorar.net/hadith>



رحمة الإسلام بأهل الكتاب

دراسة استقرائية في سيرة النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم

إعداد:

د. حمود بن إبراهيم السلامة
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك
بقسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية - جامعة الملك سعود



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الرحمة من أعظم الخصال التي جُبلت عليها النفوس السليمة، وهي علامة على عظمة صاحبها، وصفة كمال لمن اتصف بها، لذا كان الله أعظم موصوف بها، بل وله منها منتهاها، فهو سبحانه وبحمده أرحم الراحمين، وما إرساله الرسل ودعوته إلى توحيده، وإفراده بالعبادة، وإنذاره الناس بذلك إلا شاهد على رحمته، وإلا لو شاء لعذب خلقه ولم يكن ظالمًا لهم سبحانه وبحمده، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد اختار الله نبيه واصطفاه من بين خلقه، وجعل من أعظم خصاله وأنبل صفاته رحمته بالناس، سواءً مع من اتبعه أو خالفه، بل كانت الرحمة عنوان رسالته، كما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»^(١)، قال البغوي: "هُوَ مَبْعُوثٌ بِالرَّحْمَةِ أَيْضًا، مِنْ حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ فِي شَرِيعَتِهِ عَنِ أُمَّتِهِ مَا كَانَ فِي شَرَائِعِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٨/٤) رقم ٢٣٥٥.

عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ.. وَأَعْطَى أُمَّتَهُ فِي الْأَعْمَارِ الْقَصِيرَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ الْيَسِيرَةِ ضِعْفَ مَا أَعْطَى الْأُمَّمَ الْمَاضِيَةَ فِي الْأَعْمَارِ الطَّوِيلَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ الْكَثِيرَةِ الثَّقِيلَةِ»^(١).

وقال ابن تيمية: «الرَّسُولُ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَإِنَّهُ كَمَا أَرْسَلَهُ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالْبِرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ فَإِنَّهُ أَرْسَلَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ وَالرَّحْمَةَ لَهُمْ بِلَا عَوْضٍ وَبِالصَّبْرِ عَلَى أَدَاهُمْ وَأَحْتِمَالِهِ. فَبِعَثْتِهِ بِالْعِلْمِ وَالْكَرَمِ وَالْحِلْمِ عَلِيمٌ هَادٍ كَرِيمٌ مُحْسِنٌ حَلِيمٌ صَفُوحٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]»^(٢).

بل جعل ﷺ رحمة الآخرة مرتبطة ومرهونة برحمة الدنيا، فعن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^(٣).

وحيث اختلط مفهوم الرحمة في الإسلام على كثير من غير المسلمين، وأصبح واقع التطرف سواءً منه ما كان على مستوى الجماعات أو حتى على مستوى الأفراد يُسيء لهذا الدين العظيم ونبيه الكريم ﷺ وصحبه من بعده؛ رغبت في المشاركة في مؤتمر الرحمة في الإسلام، الذي يقيمه قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود، وقد اخترت لهذا البحث عنوان: (رحمة الإسلام بأهل الكتاب) من خلال عرض سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، وبيان أوجه الرحمة في سيرتهم مع أهل الكتاب، والله وحده المستعان وعليه التكلان.

(١) شرح السنة للبغيوي (٢١٤/١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣١٣/١٦-٣١٤).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥/٩) رقم ٧٣٧٦، ومسلم (١٨٠٩/٤) رقم ٢٣١٩.

أهداف البحث:

- إظهار جانب الرحمة في الإسلام، حتى مع المخالفين.
- بيان أن الرحمة أصل في الإسلام، وأن الشدة عارضة، وهي مقرونة بسببها.
- التأكيد على وسطية الإسلام وعدله وإنصافه.
- الرد على الدعاوى المناوئة للإسلام وأهله في وقتنا الحاضر، والتي لا تظهر الإسلام والمسلمين إلا بمظهر الشدة.

مشكلة البحث:

بعث الله نبينا محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، ورحمته عامةٌ شاملةٌ لكل أمته، ومن تتبع سيرته ﷺ وصحابته من بعده رأى ذلك واضحاً جلياً. ولما كانت الرحمة بالمخالف دليل سمو ونبل، ولما في بيان ذلك من أثر ودلالة على عظمة الإسلام وأهله؛ رأيت الكتابة حول رحمة الإسلام بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، لخصوصية أحكامهم في الإسلام، ولأن دينهم في الأصل سماوي، لكن طراً عليه التحريف.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث منهجاً استقرائياً استنتاجياً؛ استجليت فيه رحمة المسلمين بأهل الكتاب من خلاله سيرة المصطفى ﷺ وأصحابه من بعده، بالرجوع إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ في السنة النبوية وما أوردته كتب السير، وكذا ما جاء عن صحابته من بعده، مع الحرص قدر ما يتيسر على الحكم على ما يتم نقله من الأحاديث والآثار.

خطة البحث:

- اشتمل البحث على: مقدمة وخمسة مطالب، وهي كالتالي:
- المقدمة: وفيها أهمية الموضوع ومشكلة البحث وأهدافه ومنهجه.
- تمهيد: وفيه بيان المراد بأهل الكتاب، ومدخل للرحمة في الإسلام.
- المطلب الأول: حرمة دماء وأموال أهل الكتاب.
- المطلب الثاني: العدل مع أهل الكتاب.
- المطلب الثالث: العفو والتسامح مع أهل الكتاب.
- المطلب الرابع: الإحسان إلى أهل الكتاب.
- المطلب الخامس: التعامل مع أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام.
- الخاتمة: وفيها أبرز النتائج.



تمهيد

أهل الكتاب هم الذين آتاهم الله كتاباً من قبلنا، وهم اليهود والنصارى^(١)، وهو قول الجمهور، قال ابن حيان: «الجمهور على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى»^(٢).

وب«الكتاب» يُفَرَّق بينهم وبين غيرهم ممن لم يؤت كتاباً كالأمة من العرب، يقول ابن تيمية: ”فقد أمره تعالى بعد قوله (إن الدين عند الله الإسلام)، أن يقول: أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وأن يقول للذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، والأمة وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم..“^(٣).

كما يُفَرَّق بينهم وبين عموم عبدة الأصنام من المشركين بنسبتهم للكتاب وإن كانوا يشتركون في وصف الكفر، يقول الشنقيطي: ”وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير، واتفقوا على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وأن المشركين هم عبدة الأوثان، والكفر يجمع القسمين، وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى“^(٤).

لقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين؛ للكافرين كما للمؤمنين،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) انظر: الصفدية (٢/٢٢٦)، اقتضاء الصراط (٦/١).

(٢) البحر المحيط (٣/٢٩٦).

(٣) الجواب الصحيح (٢/١٢٧).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/٣٩).

وقد جاءت الرحمة في الآية منكرة «رحمة»، في سياق النفي «وما»، والحصص «إلا»، فأفادت العموم والاستغراق^(١)، قال ابن سعدي: «إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم»^(٢).

قال ابن كثير عند هذه الآية: «يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة»^(٣).

ويبين ابن عباس رضي الله عنهما وجه كون النبي ﷺ رحمة للمؤمن والكافر، فيقول: «هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن، فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم، ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم»^(٤).

والنبي ﷺ هو نبي الرحمة وبُعث بها، فعن أبي موسى الأشعري قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمَقْفِيُّ، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً»^(٦).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ^(٧) مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا

(١) انظر: التحرير والتنوير (٦/١٦٠)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/٥٢).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (١/١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٨٥).

(٤) تفسير البغوي (٥/٣٥٩).

(٥) أخرجه مسلم (١٢/٣٦) رقم ٤٣٤٤.

(٦) أخرجه مسلم (١٢/٤٩٤) رقم ٤٧٠٤.

(٧) لا يراد من هذا تعدد صفة الرحمة في حق الله، فرحمة الله من حيث ذاتها صفة واحدة لا تتعدد، =



وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ
الْفَرْسُ حَافِرَهَا عَنْ وِلْدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»^(١).

قال المهلب: "هذه الرحمة هي رحمته ﷺ التي خلقها لعباده وجعلها
في نفوسهم، والتي أمسك عند نفسه هي ما يتراحمون به يوم القيامة
ويتغافرون من التباعات التي كانت بينهم في الدنيا"^(٢).

وقد جاء التمثيل بالفرس دون غيرها مع سرعتها وسبقها؛ إظهاراً
ومبالغة في بيان تلك الرحمة، وقد بين ابن حجر وجه ذلك حيث قال:
"خصّ الفرس بالذكر، لأنها أشدّ الحيوان المألوف الذي يعاين المخاطبون
حركته مع ولده، ولما في الفرس من الخفة والسرعة في التنقل ومع ذلك
تتجنب أن يصل الضرر منها إلى ولدها"^(٣)، أي: رحمةً به.

فهو ﷺ رحمة للخلق كلهم، ورحمته جزء من تلك الرحمة التي أنزلها
الله على عباده في الدنيا، وهي جزءٌ من مائة جزء من رحمت رب
العالمين، فتأمل سعة رحمة الله!

ورحمته ﷺ بغير المسلمين من أهل الكتاب ليست ادعاءً يُدعى أو
يُتظاهر به، بل هي حقيقة ثابتة، تشهد لها المواقف والحوادث التي كانت
بينه ﷺ وبينهم مما سطرته كتب الحديث والسير.

كما كان صحابة رسول الله ﷺ خير خلف لخير سلف، فقد نهلوا من
علمه، وتخرجوا من مدرسته، ولذا نالوا خيريةً لم ينلها غيرهم، جاء في
الحديث عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ

= وإنما يتعدد ويتنوع الفعل، قال ابن حجر: "الرحمة رحمتان رحمة من صفة الذات وهي لا تتعدد،
ورحمة من صفة الفعل وهي المشار إليها هنا أي: في الحديث" فتح الباري (٤٣٢/١٠).

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧/١٨) رقم ٥٥٤١.

(٢) شرح صحيح البخاري (٢١٣/٩).

(٣) فتح الباري (٤٣٢/١٠).

يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» - قَالَ عَمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ قَرْنَيْنٍ أَوْ ثَلَاثَةَ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»^(١).

كما جاء فضلهم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٢).

ومن جملة ما اقتدوا به في سيرتهم؛ ما تعامل به رسول الهدى من رحمة وشفقة مع المسلمين وغير المسلمين، سواءً من أهل الكتاب أو عموم الكفار.

وفي هذا البحث سأعرض لنماذج محددة من رحمة النبي ﷺ وأصحابه من بعده بأهل الكتاب، مكثفياً ببعضها وإلا فحصرها مما يطول به المقام، والله المستعان.



(١) أخرجه البخاري (١٧١/٣) رقم ٢٦٥١، ومسلم (١٩٦٤/٤) رقم ٢٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري (٨/٥) رقم ٣٦٧٣، ومسلم (١٩٦٧/٤) رقم ٢٥٤١.

المطلب الأول حرمة دماء وأموال أهل الكتاب

دماء أهل الكتاب محرمة، لا يجوز إراقتها ولا الوقوع فيها بغير حق، وقد جاء الوعيد الشديد في ذلك، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ^(١) عَامًا»^(٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٣).

قال السندي: ”في غير كنهه“ أي: في غير وقته الذي يجوز فيه قتله، وتبين فيه حقيقة أمره من نقص، وكنه الشيء وقته أو حقيقته“^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَلَا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَهُ ذَمَّةُ اللَّهِ وَذَمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَحْضَرَ^(٥) بِذَمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَرِحُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ^(٦) خَرِيفًا»^(٧).

(١) فائدة: قال ابن بطلال: ”يحتمل والله أعلم أن تكون الأربعون هي أقصى أشد العمر في قول أكثر أهل العلم، فإذا بلغها ابن آدم زاد عمله ويقينه، واستحكمت بصيرته في الخشوع لله والتذلل له، والندم على ما سلف له، فكأنه وجد ريح الجنة التي تبعثه على الطاعة وتمكن من قلبه الأفعال الموصلة إلى الجنة، فهذا وجد ريح الجنة على مسيرة أربعين عاماً“ شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٥٦٤/٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨/٢١) رقم ٦٤٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود (٨٢/٣) رقم ٢٧٦٠، والنسائي (٢٤/٨) رقم ٤٧٤٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١١٠٢/٢).

(٤) حاشية السندي على سنن النسائي (٢٤/٨).

(٥) أخفر: نقض العهد، انظر: معجم مقاييس اللغة (٢٠٣/٢).

(٦) فائدة: قال ابن بطلال: ”وأما السبعون فإنها آخر المعتكف، وهي أعلى منزلة من الأربعين في الاستبصار، ويعرض للمرء عندها من الخشية والندم لاقترب أجله ما لم يعرض له قبل ذلك، وتزداد طاعته بتوفيق الله، فيجد ريح الجنة على مسيرة سبعين عاماً“ شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٥٦٤/٨).

(٧) أخرجه الترمذي في سننه (٢٠/٤) رقم ١٤٠٣ وقال حسن صحيح، وابن ماجه في سننه (٨٩٦/٢) =

وفي وصف النبي ﷺ بأنهم أهل ذمة دلالةً حسنةً، تُظهر أنهم في أعظم ذمة، ألا وهي ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، فخُفِرَ هذه الذمة ليس مقتصرًا على خاferها، بل هي مرتبطة بذمة الله وذمة رسوله، وأي ذمة ومسؤولية أعظم عند من يخاف الله ويتقيه من أن يخفِرَ ذمةً لله أو لرسوله ﷺ؟! وفي هذه الأحاديث التشديد والوعيد على من قتل أحدًا من المعاهدين بغير وجه حق، ورُتِبَ على ذلك الوعيد الشديد حرمانه من الجنة، بل وحتى رأتحتها، وفي هذا غاية المبالغة في التحذير من قتل المعاهد.

وكما حرّم رسول الله ﷺ دماء أهل الكتاب وشدد في انتهاكها؛ أكد كذلك على حرمة أموالهم، فمما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: عَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَشَكَوْا إِلَيْهِ أَنَّ النَّاسَ أَسْرَعُوا فِي حَظَائِرِهِمْ^(١)، فَبِعَثْتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَادَيْتُ فِي النَّاسِ: إِنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ الْيَهُودِ شَكَوْا أَنْكُمْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِهِمْ؟ أَلَا لَا يَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ بِغَيْرِ حَقِّهَا...»^(٢) وجاء في بعض الروايات أنه كان عبد الرحمن بن عوف بدلًا من خالد بن الوليد رضي الله عنه.



= رقم ٢٦٨٧، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن الترمذي.

(١) جمع حظيرة، وهي الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الغنم والبقر يقبه البرد والريح، انظر: النهاية في غريب الحديث (١/٤٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٥/٢٨-١٦) رقم ١٦٨١٦، والطبراني في المعجم الكبير (١١٠/٤) رقم ٢٨٢٧، وذكره الواقدي في المغازي (٢/٦٩١)، والمقريزي في إمتاع الأسماع (١/٣٢٢)، وضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٨/٣٧٢).

المطلب الثاني العدل مع أهل الكتاب

حَرَّمَ اللهُ الظلمَ على نفسه وجعله محرماً بين عباده، فعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَرُوهُ عَن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظلمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...»^(١).

وهذا التحريم تحريم مطلق، فليس مقيداً بدين أو جنس أو عرق، فلا يجوز للمسلم أن يظلم أحداً كائناً من كان، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم.

وقد جاء التأكيد في السنة النبوية على تحريم ظلم المعاهدين من أهل الكتاب ونحوهم، وكذا انتقاصهم أو حتى تكليفهم فوق طاقتهم، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طَيْبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

قال في بدائع السلك: "المسألة الخامسة من وعيد الإخلال بواجب العدل فيهم بما لهم من ذمة الله ورأسوله؛ أمران: أحدهما التعرض لمحاجة النبي ﷺ عنهم يوم القيامة.. الثاني براءة النبي ﷺ ممن تنهى به الظلم إلى قتل واحد منهم بغير حق"^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٩٩٤/٤) رقم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه أبوداود (١٧٠/٣) رقم ٣٠٥٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨/١).

(٣) بدائع السلك في طبائع الملك (١٨٢/٢).

فالمسلم مأمورٌ بالعدل والإنصاف حتى مع من يخالفونه أصول المعتقد، فعن رافع بن خديج وسهل بن أبي حنثة أن عبد الله بن سهل ومُحَيِّصَةَ بَنَ مَسْعُودِ أْتِيَا حَيْبَرَ، فَتَفَرَّقَا فِي النَّخْلِ، فَقُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بَنُ سَهْلٍ، فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَنُ سَهْلٍ وَحَوِيصَةُ وَمُحَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ صَاحِبِهِمْ، فَبَدَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «كَبِّرِ الْكُبْرَ» - قَالَ يَحْيَى: يَعْنِي: لِيَلِيَ الْكَلَامَ الْأَكْبَرَ - فَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ صَاحِبِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَحِقُونَ قَتِيلَكُمْ - أَوْ قَالَ: صَاحِبَكُمْ - بِأَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْرٌ لَمْ نَرَهُ. قَالَ: «فَتَبْرُكُمُ يَهُودُ فِي أَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَوْمٌ كَفَّارٌ. فَوَدَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِهِ»^(١).

فمع كون عبد الله بن سهل رضي الله عنه قتل في أرض اليهود؛ إلا أنه عليه السلام لما لم تقم الدلائل القاطعة على القاتل لم يبادر إلى الحد أو العقوبة من اليهود، بل ولم يلزم النبي ﷺ اليهود بالدية، لأن الشبهة قائمة ولا دليل قاطع، ثم إن في ذلك استمالة لقلوب اليهود ودعوة لهم^(٢).

قال الإمام العيني: "وَفِيهِ أَي: الْحَدِيثُ كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَدَاهُ مِنْ عِنْدِهِ، قَطْعًا لِلنِّزَاعِ، وَاسْتِثْلَاقًا لِلْيَهُودِ، وَطَمَعًا مِنْهُ فِي دُخُولِهِمُ الْإِسْلَامَ"^(٣).

وكذلك كان أصحاب رسول الله في وفائهم بالعهد مع أهله، ومن ذلك ما جاء عن حُصَيْنِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مَيْمُونِ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «أَوْصِي الْخَلِيفَةُ مَنْ بَعْدِي بِأَهْلِ الذِّمَّةِ خَيْرًا، أَنْ يُؤْفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتِلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٤/٨) رقم ٦١٤٢، ومسلم (١٢٩١/٣) رقم ١٦٦٩.

(٢) انظر: محمد نبي الرحمة: ١٤٩.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٩٦/١٥).

(٤) الخراج لأبي يوسف ١٣٩.

فمع كون عمر رضي الله عنه في مرض وفاته، وقد أوشك على الرحيل، إلا أنه يؤكد على حق أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في المعاهدة العمرية التي أعطاها عمر رضي الله عنه للنصارى عند فتح بيت المقدس وفيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس: إنكم آمنون على دماءكم وأموالكم وكنائسكم، لا تسكن ولا تخرب، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً، وأشهد شهوداً)^(١).

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن عمر بن العزيز في حكمه للذمي على المسلم، قال ابن كثير: "فصل: لما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة.. أمر مناديه فنادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال: ما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى.

فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه"^(٢).

ومن صور عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنصافه مع أهل الكتاب أنه كان يصفهم بأوصافهم التي هم عليها حقيقة، ولا يمنعه كفرهم من إثبات كريم أخلاقهم، ومن ذلك ما جاء في ثنائه على عدل النجاشي وإنصافه مع أنه كان نصرانياً، فعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: لَمَّا ضَاقَتْ

(١) تاريخ يعقوبي: ٤٦/٢.

(٢) البداية والنهاية، ط الفكر (٢١٢/٩-٢١٣).

عَلَيْنَا مَكَّةٌ وَأُوذِي أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ
الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ،
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا
يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلَكًا
لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا
مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»^{(١)(٢)}.

وعلى نفس النهج سار صحابة رسول الله ﷺ في إنصاف الخصوم
قبل الأصحاب، وأقرت أم سلمة رضي الله عنها وأرضاهما بما أقر به رسول الله عليه
وسلم، فقد جاء عنها أنها قالت: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا
خَيْرَ جَارٍ، النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذِي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا
نَكْرَهُهُ..^(٣)



(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٣/٣) رقم ١٧٤٠، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ١٧٠.

(٢) يعلق محمد حسين هيكل على هذه القصة فيقول: "من حق من يؤرخ لمحمد ﷺ أن يسأل: أكان كل
القصص من هذه الهجرة التي قام بها المسلمون بأمره ورأيه، الفرار من كفار مكة وما يلحقون بهم
من الأذى؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسي إسلامي رمى محمد ﷺ من ورائه إلى غاية عليا؟
من حق مؤرخ محمد ﷺ أن يسأل عن هذا بعد ما ثبت من تاريخ هذا النبي العربي في أطوار حياته
جميعا أنه كان سياسياً بعيد الغور، كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يدانيه فيهما في السمو
والجلال والعظمة مدان. ويدعوننا إلى هذه المسألة ما تجري به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا
إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشة، بل بعثوا رجلين إلى النجاشي معهما الهدايا النفيسة
ليقنعوه بأن يرد المسلمين من مواطنيهم إليهم. والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى، فليس تخشى
قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمداً. فهل تراهم عنوا بالأمر وبعثوا يستردون المسلمين
لأنهم رأوا أن حماية النجاشي إليهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر في إقبال أهل جزيرة
العرب على دين محمد وأتباعهم إياه؟ أم هم خافوا، إن بقي هؤلاء في الحبشة، أن تشتد شوكتهم،
فاذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد ﷺ عادوا أقوياء بالمال والرجال؟" حياة محمد ﷺ ١٠٧-١٠٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٣/٣) رقم ١٧٤٠، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

المطلب الثالث

العضو والتسامح مع أهل الكتاب

كان عليه السلام هيناً ليناً مع مخالفيه ما لم يقتض الأمر خلاف ذلك، وقد شهدت سيرته العطرة جملة من المواقف التي أثبتت عظمة شخصيته، ونبل خلقه، وكرم سجيته في عفوه وصفحته وتسامحه عن من أساء إليه، ولا أدل على ذلك من عفوه يوم الفتح العظيم، وتجاوزه عن المسيئين إليه، بأبي هو وأمي عليه السلام.

وقد شهدت سيرته عفواً وتسامحاً مع أهل الكتاب تحديداً، ومن ذلك ما ورد في عفوه عليه السلام عن يهود بني قينقاع، وصفحته عنهم بعد أن حاصرهم خمسة عشر يوماً، وذلك لما نقضوا العهد^(١).

قال ابن هشام عن يهود بني قينقاع: "كانوا أول من نقض العهد: قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد"^(٢).

(١) انظر: سيرة ابن هشام بتحقيق السقا (٤٧/٢-٤٨)، والسيرة النبوية لابن كثير (٦/٣-٧).
(٢) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا (٤٧/٢)، ويبيّن ابن هشام قصة نقضهم فيقول: "كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده إلى هرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.. فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبدالله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، =

ومن ذلك أيضاً، ما ورد في عفوه (عليه السلام) وعدم قتله للبيد بن الأعصم الذي سحره^(١)، وأصبح (عليه السلام) يخيل إليه أنه يأتي أهله وما يأتيهم حقيقةً.

فقد جاء في الصحيح عن عائشة قالت: سحر النبي (صلى الله عليه وسلم)، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا، قال: في مسط ومشاقة وجف طلعة ذكر، قال فأين هو؟ قال: في بئر ذروان» فخرج إليها النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنه رؤوس الشياطين» فقلت استخرجته؟ فقال: «لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً» ثم دفنت البئر^(٢).

قال ابن بطال: "كان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا ينتقم لنفسه ما لم تنتهك لله حرمة، وكان يصبر على أذى المنافقين واليهود، وقد سحره لبيد بن الأعصم، وناله من ضرر السحر ما لم ينله من ضرر السم في الشاة ولم يعاقب الذي سحره"^{(٣)(٤)}.

= وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أرسلني، وغضب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: ويحك! أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي.. قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هم لك". سيرة ابن هشام ت السقا (٤٨/٢).

(١) انظر: فتح الباري (٢٣١/١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٢/٤) رقم ٣٢٦٨، ومسلم (١٧١٩/٤) رقم ٢١٨٩.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٥٢/٩).

(٤) قال ابن القيم (رحمته الله): "هدية (صلى الله عليه وسلم) في علاج السحر الذي سحرته اليهود به: قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنوه نقصاً وعبثاً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: (سحر رسول الله حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن، وذلك أشد ما يكون من السحر) قال القاضي عياض: والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل، يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكر، ولا يقدر في نبوته. وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله: فليس في هذا ما يُدخل عليه داخله =

ومن ذلك أيضاً عفوه (عليه السلام) عن اليهودية التي سمّته في ذراع شاة أنطقه الله لنبيه، معجزة منه (صلى الله عليه وسلم)، فلم يقتلها .

فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) « أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا فَقِيلَ: أَلَا نَقْتُلُهَا، قَالَ: «لَا»، فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) »^(١).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودٍ» فَجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا.. ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُم عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ»^(٢).

وقد جاء أنه (عليه السلام) قتلها، لكن الصحيح أنه (عليه السلام) لم يقتلها بسبب سحرها له كما دلت على ذلك رواية أنس بن مالك (رضي الله عنه)، وما ورد في قتلها فهو محمول على قتلها لاحقاً لتأثر غير النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك السحر، وموتهم بسببه فأصبح الحق لغيره، فلزم الحدُّ شرعاً .

قال الإمام العيني: "قَالَ الْقَاضِي: وَجِهَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الرَّوَايَاتِ

= في شيء من صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز أن يطرأ عليه في أمر دنياه التي لم يُبعث لسببها، ولا فُضِّلَ من أجلها، وهو فيها عُرْضَةٌ لِلْأَفَاتِ كسائر البشر، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان". زاد المعاد: (١١٣/٤-١١٤).

(١) أخرجه البخاري (١٦٣/٣) رقم ٢٦١٧، ومسلم (١٧٢١/٤) رقم ٢١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩/٤) رقم ٢١٦٩.

والأقاويل أنه لم يَقْتَلْهَا إِلَّا حِينَ اطَّلَعَ عَلَى سِحْرِهَا، وَقِيلَ لَهُ: اقْتُلْهَا، فَقَالَ: لا، فَلَمَّا مَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ مِنْ ذَلِكَ سَلَّمَهَا لِأَوْلِيَائِهِ فَقَتَلُوهَا قِصَاصًا، فَصَحَّ قَوْلُهُمْ: لَمْ يَقْتُلْهَا أَيٌّ: فِي الْحَالِ، وَيَصِحُّ قَوْلُهُمْ: قَتَلَهَا أَيٌّ: بَعْدَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

ومما ورد في عفوهِ أيضاً: عَفُوهُ عَنِ حَبْرِ الْيَهُودِ زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ، فَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم اسْتَدَانَ مِنْ زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ دِينًا، فَلَمَّا دَنَا الْأَجَلَ جَاءَ زَيْدٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَلَا تَقْضِيَنِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي فَوَاللَّهِ مَا عَلَّمْتُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِمَطْلٍ وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، قَالَ وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَأَنَّكَ الْمُسْتَدِيرُ ثُمَّ رَمَانِي بِبَصْرِهِ وَقَالَ: أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَسْمَعُ وَتَفْعَلُ بِهِ مَا أَرَى؟ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَازَرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي هَذَا عُنُقَكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَوَدُّةٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحَسَنِ الْأَدَاءِ وَتَأْمُرَهُ بِحَسَنِ التَّبَاعَةِ، أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ غَيْرِهِ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ» قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فَقَضَانِي حَقِّي وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رُعْتَكَ فَقُلْتُ: أَنْعَرَفَنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لَا فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ قَالَ: الْحَبْرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ الْحَبْرُ قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ تَقُولَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا قُلْتُ وَتَفْعَلُ بِهِ مَا فَعَلْتُ؟ فَقُلْتُ: يَا عُمَرُ كُلُّ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ قَدْ عَرَفْتَهَا فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَحْتَبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا فَقَدْ أَحْتَبِرْتُهُمَا، فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نَبِيًّا، وَأَشْهَدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي -فَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا- صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ عُمَرُ:

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٩٢/١٥).



أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَإِنَّكَ لَا تَسْعُهُمْ كُلَّهُمْ قُلْتَ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، فَأَمَّنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً ثُمَّ تُوْفِّيَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مَدْبِرٍ^(١)، فَتَأَمَّلْ كَيْفَ كَانَ (لِللَّيْلِ) بَعْفُوهُ وَرَحْمَتُهُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ حَبْرٍ وَعَالَمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، ثُمَّ اسْتَشْهَادُهُ فِي غَزْوَةِ مُقْبِلًا غَيْرَ مَدْبِرٍ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.



(١) صحيح ابن حبان محققاً (٥٢٣/١-٥٢٤) رقم ٢٨٨، والحاكم في المستدرک (٧٠٠/٣) رقم ٦٥٤٧ وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد).

المطلب الرابع

الإحسان إلى أهل الكتاب

لم يكتف ﷺ وأصحابه من بعده بالعفو والمسامحة مع أهل الكتاب، بل جاوزوا ذلك إلى الإحسان إليهم، والتلطف معهم، وقد تتوّعت صور ذلك الإحسان، وتعددت أوجهه، فمن ذلك:

عيادة مرضاهم:

عاد ﷺ مرضى أهل الكتاب وزارهم حال مرضهم، وكان رقيقاً لينا ﷺ في استمالة قلوبهم، ومن ذلك ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلَمَ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطَعَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وفيه تلطف النبي ﷺ مع هذا الغلام، وجلوسه عند رأسه استعطافاً له، ثم إحسانه ورحمته به من أن يموت على الكفر.

قال العيني: ”وفيه: جواز عيادة أهل الذمة، ولا سيما إذا كان الذمي جازراً له، لأن فيه إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام“^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٩٤/٢) رقم ١٣٥٦.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٧٥/٨).

الرحمة بنسائهم:

من ذلك ما حصل مع صفيّة بنت حيي، يقول ابن إسحاق: "وَلَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقَمُوصَ، حِصْنُ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ، أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَبِأُخْرَى مَعَهَا، فَمَرَّ بِهِمَا بِلَالٌ وَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِمَا عَلَى قَتْلَى مِنْ قَتْلَى يَهُودَ، فَلَمَّا رَأَتْهُمُ اللَّيْلَةُ مَعَ صَفِيَّةَ صَاحَتْ، وَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَحَثَّتِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَعَزُّبُوا عَنِّي هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ»، وَأَمَرَ بِصَفِيَّةَ فَحِيزَتْ خَلْفَهُ، وَأَلْقَى عَلَيْهَا رِدَاءَهُ، فَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبِلَالٍ، فِيمَا بَلَغَنِي، حِينَ رَأَى بِتِلْكَ الْيَهُودِيَّةِ مَا رَأَى: «أَنْزَعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةَ يَا بِلَالُ، حِينَ تَمُرُّ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِمَا؟»^(١).

وفيه تأكيد (لبيلا) على رحمة أهل الكتاب والعطف على نسائهم، خاصة من كان منهم مسالماً ولم تتلخخ يده بقتل أو سفك دم للمسلمين.

وكما كان رسول الله ﷺ محسناً لأهل الكتاب كان أصحابه كذلك، فمن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن هشام بن حكيم بن حزام مرَّ على أناسٍ مِنَ الْأَنْبَاطِ بِالشَّامِ، قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالُوا: حُسُوسًا فِي الْجَزْيَةِ، فَقَالَ هِشَامٌ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»^(٢).

وجاء أيضاً أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أُتِيَ بِمَالٍ كَثِيرٍ - قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أَحْسَبُهُ، قَالَ: مِنَ الْجَزْيَةِ - فَقَالَ: «إِنِّي لَاظُنُّكُمْ قَدْ أَهْلَكْتُمُ النَّاسَ»، قَالُوا: لَا وَاللَّهِ مَا أَحَدْنَا إِلَّا عَفْوًا صَفْوًا قَالَ: «بِلا سَوْطٍ وَلَا نَوْطٍ»^(٣) قَالُوا: نَعَمْ،

(١) سيرة ابن هشام ت السقا (٢/٣٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠١٨) رقم ٢٦١٢.

(٣) النوط: ما يُتعلق به، انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/٣٧٠).

قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ وَلَا فِي سُلْطَانِي»^(١)، وفيه شفقتة ﷺ بأهل الجزية ومراعاته لحالهم.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن أبي بكره قَالَ: «مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ بِيَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرٌ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مَنْ أَيْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودِيٌّ. قَالَ: فَمَا الْجَاكُ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجَزِيَّةَ وَالْحَاجَةَ وَالسَّنَّ. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ: انظُرْ هَذَا وَضُرْبَاءَهُ؛ فَوَ اللَّهُ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَنْ أَكَلْنَا شَيْبَتَهُ ثُمَّ نَحْنُ نَحْنُ لَهُ عِنْدَ الْهَرَمِ ﴿إِنَّمَا الْأُصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْجَزِيَّةَ وَعَنْ ضُرْبَائِهِ. قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا شَهِدْتُ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ وَرَأَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ»^(٢).

وجاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِأَهْلِ الْحِيرَةِ.. إِلَى أَنْ قَالَ: وَشَرَطْتُ عَلَيْهِمْ أَنْ عَلَيْهِمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ الَّذِي أَخَذَ عَلَى أَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ: أَنْ لَا يُخَالِفُوا وَلَا يُعِينُوا كَافِرًا عَلَى مُسْلِمٍ مِنَ الْعَرَبِ وَلَا مِنَ الْعَجَمِ.. وَجَعَلْتُ لَهُمْ أَيَّمَا شَيْخٍ ضَعْفٌ عَنِ الْعَمَلِ أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الْآفَاتِ أَوْ كَانَ غَنِيًّا فَافْتَقَرَ وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ طَرَحَتْ جَزِيَّتَهُ وَعَيْلٌ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ"^(٣).

وجاء في كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، وفيه: "وَأَنْظُرْ مَنْ

(١) الأموال للقاسم بن سلام ٥٤.

(٢) الخراج لأبي يوسف ١٣٩.

(٣) الخراج لأبي يوسف ١٥٧-١٥٨.

قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، قَدْ كَبُرَتْ سُنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، فَأَجْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ. فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ كَبُرَتْ سُنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، كَانَ مِنْ الْحَقِّ عَلَيْهِ أَنْ يَقُوَّتَهُ أَوْ يَقْوِيَهُ، حَتَّى يُفْرَقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ عِتْقٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ، فَقَالَ: مَا أَنْصَفْنَاكَ إِنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجَزِيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ، ثُمَّ ضَيَعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ. قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ“ (١).

إجابة دعوة أهل الكتاب وطلبهم:

ومن صور الرحمة في الإسلام إجابة الدعوة وطلبهم، فقد كان عليه السلام يجب دعوة أهل الكتاب إذا دعوه لوليمة ونحوها، ومن ذلك ما تقدم معنا في قصة الشاة المسومة، وكيف أنه عليه السلام أجاب دعوة اليهودية لوليمتها، وكان الأصل عنده عليه السلام السلامة وإحسان الظن.

ومن ذلك أيضاً ما رواه أنس رضي الله عنه أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم إِلَى خُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةِ سِنْحَةٍ (٢)، فَأَجَابَهُ (٣)، فلم ينظر عليه السلام إلى دين الرجل أو أصل معتقده، بل بادره بالإجابة.

قال ابن حجر: ”وفي الحديث جواز معاملة الكفار فيما لم يتحقق تحريم عين المتعامل فيه، وعدم الاعتبار بفساد معتقدهم ومعاملاتهم فيما بينهم“ (٤).

ومن مظاهر رحمة المسلمين عموماً والصحابة خصوصاً مع أهل الكتاب إعطاؤهم طلبهم، وإجابة سؤلهم، ومن ذلك ما ورد عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها:

(١) الأموال لابن زنجويه (١٦٩/١-١٧٠).

(٢) الإهالة السنخة يراد بها الدسم الزائد أو المتغير، انظر: لسان العرب (٢٧/٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٢٠) رقم ١٢٢٠١، وصححه الألباني في تحقيقه لمختصر الشماثل

المحمدية مختصر الشماثل: ١٧٧.

(٤) فتح الباري (١٤١/٥).

دَخَلَتْ عَلَيْهَا يَهُودِيَّةٌ اسْتَوْهَبَتْهَا طَيْبًا، فَوَهَبَتْ لَهَا عَائِشَةً، فَقَالَتْ: أَجَارَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَتْ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِلْقَبْرِ عَذَابًا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُمْ لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ»^(١).

فاليهودية طلبت من عائشة رضي الله عنها أن تهبها طيباً، فبادرتها طلبها، وأعطتها مرادها مع كونها يهوديةً ولذا بادرت اليهودية بالدعاء لها، وهو دليل رضى وقبول.

احترامهم أحياءً وأمواتاً:

دعا النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى صيانة أهل الكتاب وحفظ حقهم الذي أعطاهم الله إياه، ما داموا ملتزمين بما بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، ولم يكن كفرهم مانعاً لهم من ذلك الحق، فعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مِنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا، فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَكُمُ أَنْ تَذْبَحُوا حُمْرَنَا، وَتَأْكُلُوا ثَمْرَنَا، وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا، فَغَضِبَ -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ- وَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ ثُمَّ نَاد: أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ، وَأَنْ اجْتَمَعُوا لِلصَّلَاةِ»، قَالَ: فَاجْتَمَعُوا، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ: «أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكْتِهِ، قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ، أَلَا وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ وَعَظْتُ، وَأَمَرْتُ، وَنَهَيْتُ، عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ، أَوْ أَكْثَرُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ، وَلَا أَكْلَ ثَمَارِهِمْ، إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٩/٤٠) رقم ٢٤١٧٨، قال محقق المسند شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه (١٧٠/٣) رقم ٣٠٥٠، وصححه الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥٤٢/٢).

وكما أن النبي ﷺ أعطاهم حقهم واحترمهم في حياتهم ما لم يكن هناك موجبٌ لغير ذلك؛ فكذلك حفظ لهم ﷺ هذا الاحترام بعد موتهم، ومن ذلك أنه ﷺ كان يقوم لكل جنازة دون النظر لدين صاحبها، فعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: «مَرَّ بِنَا جَنَازَةً، فَقَامَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَمْنَا بِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا جَنَازَةٌ يَهُودِيٌّ، قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ، فَقُومُوا»^(١).

وقد أمر النبي ﷺ بتعظيم شأن الموت بغض النظر عن معتقد الميت، فعن عامر بن ربيعة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ جَنَازَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَاشِيًا مَعَهَا، فَلْيَقُمْ حَتَّى يَخْلِفَهَا أَوْ تُخَلِّفَهُ أَوْ تُوَضَعَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُخَلِّفَهُ»^(٢).

وفي مسألة القيام للميت خلاف ليس هذا محل بسطه^(٣).

الوصية بأهل الكتاب:

كان رسول الله ﷺ يوصي بنصارى مصر خيراً، ويبيّن أن لهم رحماً، حيث كانوا هم أهل مصر قبل الفتح، فعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أَوْ قَالَ «ذِمَّةً وَصَهْرًا، فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِي مَوْضِعِ لَبْنَةٍ، فَاخْرُجْ مِنْهَا» قَالَ: فَرَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ شُرْحَبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ، وَأَخَاهُ رَبِيعَةَ يَخْتَصِمَانِ فِي مَوْضِعِ لَبْنَةٍ فَخَرَجْتُ مِنْهَا^(٤).

قال النووي: "قال العلماء: القيراطُ جزءٌ من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثر من استعماله، والتكلم به"^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٨٥/٢) رقم ١٢١١، ومسلم (٦٦٠/٢) رقم ٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٨٥/٢) رقم ١٢٠٨، ومسلم (٦٦٠/٢) رقم ٩٥٨.

(٣) راجع فتح الباري (٣/١٨٠-١٨١).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧٠/٤) رقم ٢٥٤٣.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم: (٩٧/١٦).

وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا افتتحتم مصرًا، فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمةً ورحمًا» قال الزهري: فالرحم أن أم إسماعيل منهم^(١). وكذا منهم مارية أم إبراهيم رضي الله عنه.

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي قِبْطِ مِصْرَ، فَإِنَّكُمْ سَتُظْهِرُونَ عَلَيْهِمُ، وَيَكُونُونَ لَكُمْ عِدَّةً وَأَعْوَانًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وعن أبي عبدالرحمن الحبلي وعمرو بن حريث رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم، بإذن الله» قال ابن حبان: يعني قبط مصر^(٣).



(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: (٦٠٣/٢) رقم ٤٠٣٢، وعبدالرزاق في مصنفه: (٥٨/٦) رقم ٩٩٩٦،

وقال الحاكم: (على شرط الشيخين، ولم يخرجاه)، وقال الذهبي: (على شرط البخاري ومسلم).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: (٢٦٥/٢٣) رقم ٥٦١، وقال الهيثمي: (رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح). مجمع الزوائد: (٦٣/١٠).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه: (٦٩/١٥) رقم ٦٦٧٧، وقال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح).

مجمع الزوائد: ٦٤/١٠.

المطلب الخامس

التعامل مع أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام

ومن مظاهر رحمة رسول الله ﷺ بأهل الكتاب إباحته التعامل معهم، والحرص مع التعامل على دعوتهم للإسلام، ولذلك صور، كالتبائع والشراء معهم وغيرها من مسائل المعاملات، فلم يجعلها عليه السلام محصورة بين المسلمين دون غيرهم، بل هي لهم ولغيرهم.

فمن ذلك ما جاء من أنه عليه السلام اشترى طعاماً من يهودي، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي أيضاً، فعن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ، وَرَهْنَهُ دِرْعًا مِنْ حَدِيدٍ»^(١).

وقد كان عليه السلام قادراً على الاستدانة من الصحابة، وكانوا رضي الله عنهم يفرحون بخدمته وسد حاجته، ومن قدم روحه فداءً لرسول الله ﷺ فلن يعجز أو يبخل بماله، ولكنه عليه السلام أراد والله أعلم أن يبين لأُمَّته سماحة الإسلام ورحمته في إباحة التعامل مع أهل الكتاب والاقتراض منهم.

ومن جوانب رحمة الصحابة بأهل الكتاب تكريمهم بالإهداء إليهم، فقد جاء عن مجاهد، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْحَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٦/٣) رقم ٢٠٦٨، ومسلم (١٢٢٦/٣) رقم ١٦٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٢/٤) رقم ١٩٤٣، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ٦٦.

فلم ينس ﷺ جاره من الإهداء، ولم تكن يهودية ذلك الجار مانعته من الحصول على إحسانه .

ومن مظاهر الرحمة في التعامل مع أهل الكتاب الرفق بهم في الرد عليهم، فقد كان بعض اليهود يتحايلون على رسول الله ﷺ في عباراتهم وتعاملاتهم، وكان ﷺ يدرك ذلك ويعلمه، لكن رحمته بهم جعلت حلمه عليهم سابقاً غضبه، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكُمْ» قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَفَهَمْتُهَا» فَقُلْتُ: «وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ»، قَالَتْ: «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهَلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»^(١).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: «مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَيْكَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَقُولُ؟ قَالَ: «لَا، إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(٢).

وفيهما دلالة ظاهرة على إسقاط النبي ﷺ حقه في معاقبة من دعا عليه من اليهود، لأنهم كانوا تحت عهد وذمة يلزم بمقتضاها الإذعان لرسول الله ﷺ، وعدم مناكفته، ومع ذلك تمرد بعضهم، وكان من حق رسول الله ﷺ أن يقتص منهم، وهو ما جعل بعض الصحابة يبادر بالاستئذان لإقامة الحد، ولكنه ﷺ منعهم من ذلك واكتفى بمجرد القول .

ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ بأهل الكتاب الحرص على دعوتهم للإسلام وترغيبهم فيه، وقد تقدم معنا حديث زيارة النبي ﷺ للغلام اليهودي، ودعوته للإسلام قبل وفاته .

(١) أخرجه البخاري (١٢/٨) رقم ٦٠٢٤، ومسلم (١٧٠٦/٤) رقم ٢١٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري (١٥/٩) رقم ٦٩٢٦ .

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن أبي بردة أنه سمع أباه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: الرجل تكون له الأمة، فيعلمها فيحسن تعليمها، ويؤدبها فيحسن أدبها، ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران، ومؤمن أهل الكتاب، الذي كان مؤمناً، ثم آمن بالنبي ﷺ، فله أجران، والعبد الذي يؤدي حق الله، وينصح لسيده»^(١)، وفيه تخصيص مؤمن أهل الكتاب بهذا الفضل العظيم، وهذا دال على رحمة عظيمة اختصها الله بهم حال إيمانهم.

وفي موقف آخر يضرب لنا خليفة المسلمين وأمير المؤمنين أروع الأمثلة في الرحمة بأهل الكتاب، فقد جاء عن أبي عمران الجوني، قال: «مرَّ عمرُ بنُ الخطَّابِ بديرِ راهبٍ فنَاداهُ: «يَا رَاهِبُ يَا رَاهِبُ». قَالَ: فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ فَجَعَلَ عُمَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَبْكِيكَ مِنْ هَذَا؟» قَالَ: «ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَّةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٣-٥] فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»^(٢).

وجاء في فتوح البلدان أن عمر بن الخطاب ﷺ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق مرَّ بقوم مجذمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت^(٣).

هذه جملة من المظاهر والآثار التي دلت على رحمة الإسلام ممثلاً في رسول الله وأصحابه من بعده بأهل الكتاب، وهي كما تقدم إشارات لم التزم فيها الاستقصاء والحصص، وإنما يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أخرجه البخاري (٦٠/٤) رقم ٣٠١١.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٦٧/٢) رقم ٣٩٢٥.
(٣) فتوح البلدان: ١٢١.

الخاتمة

بعد هذا التطواف يمكن إجمال ما سبق بما يلي: أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وقد تجلت لنا رحمة الإسلام بهم من خلال تعامل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده معهم، فمن ذلك التأكيد على حرمة دمائهم وأموالهم، كما جاء في حديث: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا».

ومن ذلك العدل معهم كما في حديث: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغيرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ومن صور عدل رسول الله ﷺ وإنصافه مع أهل الكتاب أنه كان يمتدح كريم صفاتهم وأخلاقهم، ولم يمنعه كفرهم من ذلك.

ومن صور الرحمة بأهل الكتاب العفو والتسامح معهم، كما ورد في عفوهِ ﷺ عن يهود بني قينقاع لما نقضوا العهد، ومن ذلك أيضاً، ما ورد في عفوهِ ﷺ وعدم قتله للبيد بن الأعصم الذي سحره، وكذا عفوهِ ﷺ عن اليهودية التي سمّته، وعفوهِ عن حبر اليهود زيد بن سَعْنَةَ.

ومن صور الرحمة بهم أيضاً الإحسان إليهم بعبادة مريضهم، ورحمة نسائهم، وإجابة دعوتهم، واحترامهم أحياءً وأمواتاً، والوصية بهم.

ومن صور الرحمة بهم أيضاً إباحة التعامل معهم والحرص على
دعوتهم للإسلام، من خلال الإهداء إليهم، والرفق بهم في الرد عليهم.

والله أعلم



فهرس المصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٢. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، المحقق: ناصر عبدالكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٣. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أحمد ابن علي بن عبدالقادر المقرئزي، المحقق: محمد عبدالحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٤. الأموال، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة المعروف بابن زنجويه، تحقيق شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٥. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، المحقق: صدقي محمد جميل.
٦. بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي بن محمد الأصبحي، المحقق: د. علي سامي النشار، الناشر: وزارة الإعلام - العراق، الطبعة: الأولى.
٧. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.



- ٨ . البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الناشر: دار الفكر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
- ٩ . تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي السلامة، الناشر: دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
- ١٠ . الجامع الكبير (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.
- ١١ . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٢ . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن وآخرون، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- ١٣ . حاشية السندي على سنن النسائي، المؤلف: محمد بن عبد الهادي السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ١٤ . حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، محمد حسين هيكل.
- ١٥ . زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ١٦ . سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى.

١٧. الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، سعد حسن محمد، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
١٨. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
١٩. سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢١. السنن الصغرى (المجتبى من السنن)، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٢. السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: مصطفى عبدالواحد،
٢٣. السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
٢٤. شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢٥. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.



٢٦. شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٧. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢٨. صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٩. صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، الطبعة: الأولى.
٣٠. الصفدية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.
٣١. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
٣٣. فتوح البلدان، المؤلف: أحمد بن يحيى البلاذري، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت.
٣٤. القواعد الحسان لتفسير القرآن، المؤلف: أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٣٥. كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، المحقق: خليل محمد هراس، الناشر: دار الفكر - بيروت.

٣٦. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
٣٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٣٨. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
٣٩. محمد نبي الرحمة، موفق الجوادي وعبدالستار الحياتي، الناشر: دار النهج - حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.
٤٠. مختصر الشمائل المحمدية، محمد بن عيسى الترمذي، الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني.
٤١. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله ابن محمد بن حمدويه، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
٤٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله ابن عبدالمحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
٤٣. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.



٤٤. المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي

٤٧. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، المحقق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٤٨. المغازي، محمد بن عمر الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي - بيروت

٤٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢م.

٥٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ.



رحمة الإسلام والمسلمين بالحيوان

إعداد:

د. يونس بوعوامر



المقدمة

الحمد لله الرحيم الرحمان، والصلاة والسلام على حبيبنا محمد المبعوث رحمة للإنس والجان والحيوان، وعلى آله وصحبه ذوي الأخلاق الحسان، ومن سار على هديهم واقتفى أثرهم بإحسان.

أما بعد:

فإن شريعة الإسلام، لو شاء إنسان أن يلخصها ومقاصدها في كلمة واحدة لما وجد أصدق من كلمة «الرحمة». وقد دل على ذلك صراحة قول ربنا الرحيم: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء]، وقول النبي ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١). لذلك وصفها الإمام ابن القيم عليه رحمة الله بأنها «رحمة كلها»^(٢). ورحمة الشريعة شملت كل الموجودات، ومنها ما خلق الله من البهائم والطير وسائر الحيوانات، وقد وردت في ذلك النصوص الكثيرة المتوافرة، الأمرة برحمتها والإحسان إليها، الزاجرة عن الإساءة والاعتداء عليها. وقد امتثل المسلمون لتلك النصوص، فضربوا

(١) المستدرک علی الصحیحین، (رقم ١٠٠/١ ج ١ ص ٩١)، وصححه الألبانی فی سلسلة الأحادیث الصحیحة، برقم ٤٩٠.

(٢) إعلام الموقعین عن رب العالمین (١١/٣).

أروع الأمثلة في الرحمة بالحيوانات والرفق بها، مما يدهش الألباب، قبل أن تظهر جمعيات الرفق بالحيوان بقرون متطاولة. وهذا ما يحاول هذا البحث تجليلته، تذكيراً للمسلمين بحق تلك البهائم الضعيفة، وتنبهها إلى الأخطاء المرتكبة في حقها مما ينافي الرحمة، وكشفاً للنماذج المضیئة في هذا الشأن المطوية في صفحات تاريخنا المجيد مما يجمله كثير من أبناء حاضرننا، وبيانا لسمو ديننا وعظم الرحمة التي ينبض بها، إذ إن من يرحم الحيوان ويبالغ في ذلك مُحال أن يُشقي الإنسان ويسيء إليه مهما تكن ملته ونحلته.

والرحمة بالحيوانات في شريعة الإسلام مبناها على أسس أربعة، هي بمثابة مفاهيم مؤطرة للعلاقة بين الإنسان والحيوان:

الأول: الحيوانات أمة من الأمم مثل أمة الإنس. قال الله ﷻ: ﴿وَمِمَّا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨]، هو سبحانه خالقها: ﴿وَمَنْ آيَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩] وهي تسجد له وتخضع: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، وله تسبح: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ [النور: ٤١]. وتخشى قيام الساعة، كما قال النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة^(١) يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس، شفقا من الساعة إلا الجن والإنس»^(٢)، ويقام القصاص بينها يوم

(١) أي مستمعة منصتة. (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٦٤/٣).

(٢) موطأ الإمام مالك. (١٥٠/٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٣٣٤.

القيامة، كما روى أبو هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تتطحها»^(١). ولها أحاسيس ومشاعر، كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة، منها ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة^(٢) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش^(٣)، فجاء النبي ﷺ فقال «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»^(٤). وأيضاً ما جاء عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنابة فقال: «مستريح ومستراح منه». قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ قال «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^(٥). وما دام الأمر كذلك فهي تستحق الرحمة وعدم الإيذاء، إلا ما كان منها مؤذياً للإنسان، كما صرح بذلك الرسول ﷺ بقوله: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم»^(٦). وعن عبيد الله بن زيادة البكري، قال: دخلنا على ابني بسر المرّميتين صاحبي رسول الله ﷺ، فقلت: يرحمكما الله، الرجل يركب منا الدابة فيضربها بالسوط أو يلجمها باللجام، فهل سمعتما من رسول الله ﷺ في ذلك شيئاً؟ فقالا: لا. قال عبيد الله: فنادتني

(١) مسند الإمام أحمد (١٢/١٢٧) برقم (٧٢٠٤) وأصله في صحيح مسلم بدون لفظ «تتطحها».

(٢) الحمرة- بضم الحاء وتشديد الميم، وقد تخفف: طائر صغير كالعصفور. (النهاية (١/٤٤٠)).

(٣) أي تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف. (النهاية (٣/٤٢٠)).

(٤) سنن أبي داود (٣/٥٥) برقم (٢٦٧٥). وأورده الألباني في الصحيحة برقم ٢٥.

(٥) صحيح البخاري (٨/١٠٧) برقم (٦٥١٢) وصحيح مسلم (٢/٦٥٦) برقم (٩٥٠).

(٦) مسند أحمد (٢٧/٣٤٣) برقم (١٦٧٨٨) والسنن الأربعة. وصححه الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب برقم ٢١٠٢.

امرأة من الداخل، فقالت: يا هذا، إن الله عَلَّمَ يقول في كتابه:
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي
الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨)، فقالا: هذه أختنا وهي
أكبر منا، وقد أدركت رسول الله ﷺ (١).

الثاني: الحيوانات مخلوقات ضعيفة في الغالب، مسخرة للإنسان.
ومنهج شريعة الرحمة الإحسان إلى الضعفاء والرأفة بهم،
مثل ما علم بالضرورة في ديننا من الإحسان إلى المرأة والطفل
واليتيم والمسكين والعبد...، يؤكد هذا الأمر قول النبي ﷺ
حين مر ببعير قد لحق ظهره ببطنه: «اتقوا الله في هذه البهائم
المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة» (٢)، والشاهد إطلاق
وصف العجمة في سياق الأمر بالتقوى في التعامل معها، وكأنه
تعليل للتقوى المطلوبة، وبيان ضعفها بسبب عجمتها التي تمنع
من معرفة حالها راحة وتعباً، رضى وحزناً، شبعاً وجوعاً...،
وإلا لو كانت تنطق لأفصحت عن حالها، كما أفصحت البقرة
التي أنطقها الله حين رُكبت ولم تخلق لذلك (٣)، وكما شكا الجمل
إلى النبي ﷺ حاله، وبكائه بين يديه كما سيأتي.

الثالث: استحضار ما تقوم به من خدمة للإنسان، والاعتراف بجميلها.
لذلك قال ﷺ «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله
إياها» (٤)، وقال: «لا تسبوا الديك، فإنه يوقظ للصلاة» (٥)، فعمل
النهي عن السب بفضلها في إيقاظ الناس للصلاة. وأيضاً نهى

- (١) شعب الإيمان للبيهقي (١٣/١٣) برقم (١٠٥٥٥).
- (٢) سنن أبي داود. (٣/٢٣ برقم ٢٥٤٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٣.
- (٣) وسيأتي ذكر الحديث الذي تضمن قصتها.
- (٤) وسيأتي تخرجه قريبا بإذن الله تعالى.
- (٥) سنن أبي داود (٤/٢٢٧ برقم ٥١٠١). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٧٩٧.



عن قتل الضفدع فقال: «كانت الضفدع تطفئ النار عن إبراهيم، وكان الوزغ ينفخ فيه، فنهى عن قتل هذا، وأمر بقتل هذا»^(١).

الرابع: الحيوانات تستحق التكريم، فكونها مسخرة للإنسان بإذن من الله تعالى لا يعني إباحة الاعتداء عليها. ومن أمارات ذلك التكريم تسمية عدد من سور القرآن بأسماء الحيوانات، فنجد البقرة، والأنعام، والنحل، والنمل، والعنكبوت والفيل. ولو كانت أشياء مهينة ما سميت بها سور القرآن الشريفة.

بناء على هذه الأسس شرع ديننا العظيم الرحمة بالحيوان، وتفصيل ذلك في سنة الحبيب المصطفى ﷺ.



المبحث الأول هدي النبي ﷺ في الرحمة بالحيوان

المطلب الأول الترغيب في الرحمة بالحيوان

وأقصد هنا الترغيب في الرحمة العامة بالحيوان دون تفصيل، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في هذا الشأن، فقد أمر الرسول ﷺ بالرفق بالحيوانات رحمة بها، كما روى المقدم بن شريح بن هانئ عن أبيه عن عائشة، قال: ركبت عائشة بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده^(١)، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٢) وأخبر النبي ﷺ أن تلك الرحمة:

١. فيها أجر عظيم، ومغفرة للذنوب ولو كانت كبيرة، فقال: «بيننا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي! فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال «في كل كبد رطبة أجر»^(٣). وقال ﷺ: «بينما

(١) وعند البيهقي في شعب الإيمان «فجعلت تضربه» (١٣/٤١١ برقم ١٠٥٣).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٤ برقم ٢٥٩٤).

(٣) صحيح البخاري (٣/١١١ برقم ٢٣٦٣) وصحيح مسلم (٤/١٧٦١ برقم ٢٢٤٤).

كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»^(١).

٢. مجلبة لرحمة الله تعالى: فقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى لأذبح الشاة وأنى أرحمها أو قال إنى لأرحم الشاة أن أذبحها؟ فقال ﷺ: «والشاة إن رحمتها رحمتك الله»^(٢). ورحمة الله تلك تنال من رحم أي حيوان مهما كان، ولو عصفورا، كما قال ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة»^(٣).

المطلب الثاني

الزجر عن أنواع الإساءة إلى الحيوان التي تنافي الرحمة به

سخر الله ﷻ للحيوان للإنسان، ومكنه منه، وجعله مذللاً له، وهذا قد يدفع الإنسان للإساءة إليه، عن قصد أو غير قصد. لكن الرحمة المهداة ﷻ نبه إلى جملة من التصرفات التي تؤذي تلك الحيوانات، وتسيء إليها، وتعد تعدياً عليها، مما ينافي الرحمة الواجبة بها. ومن تلك السلوكيات:

١. التفريق بينها - أي الحيوانات - وبين أبنائها، وحرمانها منهم: يدل على ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ

(١) صحيح البخاري (١٧٣/٤ برقم ٣٤٧٦) وصحيح مسلم (١٧٦١/٤ برقم ٢٢٤٥).

(٢) مسند أحمد (٣٥٩/٢٤ برقم ١٥٥٩٢) وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢٦.

(٣) معجم الطبراني الكبير (٢٣٤/٨ برقم ٧٩١٥). وحسنه الألباني في الصحيحة برقم ٢٧.

فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها». ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال «من حرق هذه؟» قلنا: نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»^(١). فالتعبير النبوي «فجع» يشير إلى مبلغ الرحمة التي أحس بها ﷺ تجاه ذلك الطائر الضعيف، بقدر ما يبين حجم الألم والفاجعة التي أصابته جراء فقدته فرخيه، وهو ما لا ترضى شريعة الرحمة إيقاعه بأحد.

٢. تحريقها: ودليله الحديث السابق، والذي أعطى قاعدة كلية: «لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار».

٣. وسمها في وجهها: أي وضع علامة على وجهها بكيها بالنار، فإنه نوع من التعذيب بالنار المنهي عنه كما تقدم. عن ابن عباس قال: كان العباس يسير مع النبي ﷺ على بعير قد وسمه في وجهه بالنار، فقال: ما هذا الميسم يا عباس؟ قال: ميسم كنا نسمه في الجاهلية. فقال: «لا تسموا بالحريق»^(٢). بل إن هذا الوسم يعد من كبائر الذنوب، ويستوجب اللعن. فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وُسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»^(٣). إذ الوسم مثله، والمثلة ملعون مقترفها، فعن ابن عمر قال: «لعن النبي ﷺ من مثل بالحيوان»^(٤). واللعن الطرد من رحمة الله، وترتب اللعن على عمل يدل على أنه من كبائر الذنوب، فما أعظم هذا الدين الذي يرتب لعن الإنسان المكرم المستخلف، وطرده من رحمة الله، على أذية بهيمة عجماء! وكأن الحديث يعطينا قاعدة

(١) سنن أبي داود (٥٥/٣) برقم (٢٦٧٥). وأورده الألباني في الصحيحة برقم ٢٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١١/٣٥٠) برقم (١١٩٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٠٥.

(٣) صحيح مسلم (١٦٧٣/٣) برقم (٢١١٧).

(٤) صحيح البخاري (٩٤/٧) برقم (٥٥١٥).

جليلة: من لم يرحم الحيوان، لا يستحق الدخول في رحمة أرحم
الراحمين، والجزاء من جنس العمل.

٤. ضربها في وجهها: وهو أخف من الكي والوسم، وقد نهى عنه
ﷺ كما روى جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في
الوجه، وعن الوسم في الوجه»^(١).

٥. استعمالها في غير ما خلقت له: كاتخاذها كراسي ومنابر، وهو أمر
متعب لها ومؤلم، ويتنافى مع مهمتها الأصلية وهي حمل الإنسان
وأثقاله إلى مكان لا يبلغه إلا بشق الأنفس. عن سهل بن معاذ عن
أبيه عن رسول الله ﷺ، أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب
لهم ورواحل، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اركبوها سالمة ودعوها
سالمة، ولا تتخذوها كراسي»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ
قال: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها
لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم
الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم»^(٣). ومن ذلك ركوب ما لا يركب
منها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح،
ثم أقبل على الناس فقال: «بيننا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها،
فقلت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث!»^(٤). فهذه بقرة أنطقها
الله آية للناس فشكت، فما حال من لا تستطيع الشكوى.

٦. صبر البهائم: أي حبسها لتقتل، بالرمي أو غيره، عن هشام بن زيد
قال: دخلت مع أنس على الحكم بن أيوب، فرأى غلماناً أو فتیاناً
نصبوا دجاجة يرمونها. فقال أنس: «نهى النبي ﷺ أن تُصبر

(١) صحيح مسلم (١٦٧٣/٣) برقم (٢١١٦).

(٢) مسند أحمد (٣٩٢/٢٤) برقم (١٥٦٢٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢١.

(٣) سنن أبي داود (٢٧/٣) برقم (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢٢.

(٤) صحيح البخاري (١٧٤/٤) برقم (٣٤٧١).

البهائم»^(١). وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال «لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً»^(٢)، أي لا تتخذوا الحيوان الحي غرضاً ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيره^(٣). بل إن هذا الفعل لوحشيته ومنافاته الرحمة من كل وجه، استحق صاحبه اللعن والطرده من رحمة الله، كالوسم المتقدم ذكره. عن سعيد بن جبير قال: مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا! فقال ابن عمر من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً^(٤).

٧. حبسها ومنع الطعام والشراب عنها: وهو من الظلم البين، والله تعالى حرم الظلم وجعله على نفسه المقدسة محرماً، فاستحق صاحب هذه الفعلة العقاب الأليم، كما روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٥). ومن عذابها في النار أن جاءت تلك الهرة تخدشها جزاء ما فعلت معها، كما في الصحيح^(٦). وفي صحيح ابن حبان تفصيل ذلك الخدش حيث قال عليه السلام: «فهي تنهش قبلها ودبرها»^(٧). وتقدم حديث سهل ابن الحنظلية: قال مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة».

- (١) صحيح البخاري (٩٤/٧ برقم ٥٥١٣) وصحيح مسلم (١٥٤٩/٣ برقم ١٩٥٦).
- (٢) صحيح مسلم (١٥٤٩/٣ برقم ١٩٥٧).
- (٣) شرح النووي على مسلم (١٠٨/١٣).
- (٤) صحيح مسلم (١٥٥٠/٣ برقم ١٩٥٨).
- (٥) صحيح البخاري (١٧٦/٤ برقم ٣٤٨٢) وصحيح مسلم (١٧٦٠/٤ برقم ٢٢٤٢).
- (٦) صحيح البخاري (١٤٩/١ برقم ٧٤٥).
- (٧) صحيح ابن حبان (٥٢٤/١٦ برقم ٧٤٨٩). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٧٤.



٨. إرهابها وإتعاها: عن عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ دخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه ناضح^(١) له، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فنزل رسول الله ﷺ، فمسح ذفراه^(٢) وسراته^(٣)، فسكن، فقال من رب هذا الجمل؟ فجاء شاب من الأنصار فقال: أنا. فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة، التي ملكك الله إياها، فإنه شكاك إلي وزعم أنك تُجيعه وتُدئبه^(٤). بكاء هذا الجمل وشكواه تنبئ عن حجم ما يلقاه من الظلم بتحميله ما لا طاقة له به. لكن هذا الجمل وجد رسول الله ﷺ ليشكو حاله، فماذا عن باقي البهائم التي لا يتيسر لها بث شكواها إلا إلى خالقها سبحانه؟! فما جواب مالكها الذي أساء إليها ولم يحميها؟ وفي معنى هذا الحديث ما رواه يعلى بن مرة قال: بينا نحن نسير معه يعني مع النبي ﷺ، إذ مررنا ببعير يُسنى^(٥) عليه، فلما رآه البعير جرجر^(٦)، ووضع جرانته^(٧)، فوقف عليه النبي ﷺ، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فجاء، فقال: بعينه. قال: لا، بل أهبه لك، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره. فقال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه»^(٨).

٩. قتلها بغير حق: وهو من الظلم أيضا ومن الاعتداء على مخلوقات الله ﷻ، ومن العبث، ومن القسوة التي تنافي الرحمة. عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من إنسان يقتل عصفورا

(١) ناضح: ج. نواضح. وهي الإبل التي يستقى عليها. (النهاية ٦٩/٥).

(٢) ذفرا البعير: أصل أذنيه. (النهاية ١٦١/٢).

(٣) ظهره وأعلاه. (النهاية ٣٦٤/٢).

(٤) مسند أحمد (٢٨١/٣ برقم ١٧٥٣)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٢٠.

(٥) يستقى عليه.

(٦) الجرجرة: صوت البعير عند الضجر. (النهاية ٢٥٥/١).

(٧) الجران: باطن العنق. (النهاية ٢٦٣/١).

(٨) مسند أحمد (١٠٦/٢٩ برقم ١٧٥٦٥)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٧٠.

فما فوقها بغير حقها، إلا سأله الله ﷻ عنها». قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: «حقها أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمي بها»^(١). وخصوصاً ما كان منها نافعا وغير مؤذ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ «نهى عن قتل أربع من الدواب: النحلة، والنملة، والهدهد، والصرد»^(٢).

١٠. حد الشفرة أمام عينيها قبل ذبحها: فإن ذلك يسبب لها آلاماً نفسية تنافي مبدأ الرحمة، وقد قدمنا من قبل أن البهائم لها أحاسيسها ومشاعرها، وهو أساس من الأسس التي تتبني عليها الرحمة بها. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، قال: «أفلا قبل هذا، أو تريد أن تميتها موتات؟»^(٣). فهنا نلحظ رحمة النبي ﷺ بالبهيمة وهي في آخر لحظات حياتها! ولذا أمر بمواراة الشفرة عنها في أثناء حدها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أمر النبي ﷺ بحد الشفار، وأن توارى عن البهائم، وقال «إذا ذبح أحدكم فليجهز»^(٤).

١١. عدم الإحسان في ذبحها: مثل الذبح بشفرة غير حادة، أو البطء في إمرار السكين، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»^(٥). وفي الحديث السابق: «وإذا

(١) سنن النسائي (٢٠٦/٧ برقم ٤٢٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٦٦.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٧/٤ برقم ٥٢٦٧). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٩٩٠.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٣٢٢/١١ برقم ١١٩١٦). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٦٥.

(٤) مسند أحمد (١٠٥/١٠ برقم ٥٨٦٢)، وسنن ابن ماجه (١٠٥٩/٢ برقم ٣١٧٢). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٠٩١.

(٥) صحيح مسلم (١٥٤٨/٣ برقم ١٩٥٥).



ذبح أحدكم فليجهز». بل إن مبدأ الإحسان المطلوب هنا يسري حتى على الحيوانات المؤذية، التي أذن الشرع بقتلها، كالحية والعقرب والوزغ وغيرها، فيحث الشرع على قتلها في أقل عدد من الضربات. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل وزغاً في أول ضربة كتبت له مئة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك»^(١). وهذا يندرج أيضاً ضمن قوله صلى الله عليه وسلم: «وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة».

١٢. قطع جزء منها وهي حية: وفي ذلك من الإيلاء ما لا يخفى، لذلك قطع النبي صلى الله عليه وسلم سبيل هذا الفعل باعتباره ما قطع ميتة لا يحل أكله، فعن أبي واقد الليثي قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وبها ناس يعمدون إلى أليات الغنم وأسنمة الإبل فيجبونها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة»^(٢).

١٣. ذبح الولد الصغير وإبعاده عن أمه: ففي ذلك إيذاة لأمه. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الفرع فقال: «والفرع^(٣) حق، وإن تتركوه حتى يكون بَكَراً^(٤) شغزياً^(٥) ابن مخاض أو ابن لبون، فتعطيه أرملة أو تحمل عليه في سبيل الله خير من أن تذبحه، فيلرز لحمه بوبره، وتكفء إناءك، وتوله^(٦) ناقتك»^(٧).

١٤. إتعاب الحيوان بتركه واقفاً ومقيداً لغير حاجة: وهو ما ينافي الرحمة. عن سهل ابن الحنظلية قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في

(١) صحيح مسلم (١٧٥٨/٤) برقم (٢٢٤٠).

(٢) مسند أحمد (٢٣٢/٣٦) برقم (٢١٩٠٣). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٦٥٢.

(٣) هو أول ما تلده الناقة (النهاية ٢/٢٩٩).

(٤) الفتى من الإبل. (النهاية ١/١٤٩).

(٥) وهو الذي اشتد لحمه وغلظ. (النهاية ٢/٤٨٣).

(٦) من الوله، وهو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد. (النهاية ٥/٢٢٧).

(٧) مسند أحمد (١١/٣٢٠) برقم (٦٧١٣) وحسنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

حاجة، فمر ببيعر مناخ على باب المسجد من أول النهار، ثم مر به آخر النهار وهو على حاله، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فابتغي فلم يوجد. فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله في هذه البهائم ثم اركبوها صحاحاً واركبوها سماناً» كالمسخط آتفا^(١).

١٥. عدم مراعاة مصلحتها بما يناسب تغير الأحوال: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم بالسنة فبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل». وفي رواية: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فأسرعوا عليها في السير، وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق فإنها مأوى الهوام بالليل»^(٢). قال النووي في شرح هذا الحديث: «الخصب بكسر الخاء، وهو كثرة العشب والمرعى، وهو ضد الجذب. والمراد بالسنة هنا القحط. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي بالقحوط. ونقيها بكسر النون وإسكان القاف وهو المخ. ومعنى الحديث: الحث على الرفق بالدواب، ومراعاة مصلحتها. فإن سافروا في الخصب قللوا السير، وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير، فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها. وإن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر، لأنها لا تجد ما ترعى، فتضعف ويذهب نقيها، وربما كلت ووقفت»^(٣).

(١) مسند أحمد (١٦٥/٢٩) برقم (١٧٦٢٥). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٣/١).

(٢) صحيح مسلم (١٥٢٥/٣) برقم (١٩٢٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٦٩/١٣).

١٦. إيذاؤها في أثناء الحلب: عن سودة بن الربيع قال: أتيت النبي ﷺ فسألته، فأمر لي بذود^(١)، ثم قال لي: «إذا رجعت إلى بيتك فمرهم فليحسنوا غذاء رباعهم^(٢)، ومرهم فليقلموا أظفارهم، ولا يعبطوا^(٣) بها ضرع مواشيهم إذا حلبوا^(٤)». وهذا الحديث ينبض بالرحمة بالبهاائم من رسول الرحمة ﷺ!

١٧. الإساءة في طريقة وضع الأحمال عليها: ففي ذلك أذية لها وإتعايب لا ينبغي، فهي وإن كانت مسخرة لنا لتحمل أثقالنا، فإنه ينبغي مراعاة الأيسر بالنسبة لها. قال ﷺ: «أخروا الأحمال، فإن الأيدي معلقة والأرجل موثقة»^(٥). وقد أورد هذا الحديث الإمام البيهقي ضمن باب ترجم له بقوله: «باب ما يستحب من تأخير الأحمال ليكون أسهل على الجمال وغيرها»^(٦).

١٨. عدم المبالاة بصحتها: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح»^(٧). أي لا يورد الجمل المريض على الجمل السليم، تجنباً للمرض والعدوى، رحمة بالسليم.

١٩. سبها ولعنها: ففي ذلك إيذاء لها ولمشاعرها، يتنافى والرحمة المطلوبة في حقها، وقد تقدم لنا أن الحيوانات أمة مثلنا تحس وتشعر وتتأذى...، ولو لم يكن في سبها إيذاء لها لكان النهي عنه

(١) الذود من الإبل: ما بين الشتين إلى التسع. وقيل ما بين الثلاث إلى العشر. (النهاية ١٧١/٢).

(٢) الرباع: بكسر الراء، جمع ربع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع. وقيل ما ولد في أول النتاج. وإحسان غذائها أن لا يستقصى حلب أمهاتها إبقاء عليها. (النهاية ١٨٩/٢).

(٣) أي لا يشددوا الحلب فيعقروها ويدموها بالعصر، من العبيط، وهو الدم الطري، ولا يستقصون حلبها حتى يخرج الدم بعد اللبن. (النهاية ١٧٣/٣).

(٤) مسند أحمد (٢٢٣/٢٥) برقم (١٥٩٦١). وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٣١٧.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٢٠١/٦) برقم (١١٦٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١١٣٠.

(٦) السنن الكبرى (٢٠١/٦).

(٧) صحيح البخاري (١٣٨/٧) برقم (٥٧٧٠). وصحيح مسلم (١٧٣٤/٤) برقم (٢٢٢١).

عبثاً، وقد قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة»^(١).
وعن عمران بن حصين، قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره،
وامرأة من الأنصار على ناقه، فضجرت فلعلنتها، فسمع ذلك رسول
الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونة» قال عمران:
فكأنني أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحد^(٢).

٢٠. الإساءة إليها في خلقها: فما خلق الله فيها من عضو إلا لمصلحة
لها، وتغيير خلقها حرمان لها من مصلحتها تلك، وهذا ليس من
الرحمة في شيء. عن عتبة بن عبد السلمي أنه سمع رسول الله
ﷺ يقول: «لا تقصوا نواصي الخيل، ولا معارفها، ولا أذناها، فإن
أذناها مذابها، ومعارفها دفاؤها، ونواصيها معقود فيها الخير»^(٣)
٢١. عدم إشعارها بالحنان والعطف: وكأنها ترجو شيئاً من العطف
مقابل ما تبذله من جهد وتعب خدمة للإنسان. عن أبي وهب
الجشمي، وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «ارتبطوا
الخيل، وامسحوا بنواصيها وأعجازها - أو قال: أكفأها -
وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار»^(٤).

٢٢. إساءة الظن بها: المرء أعرف بحيواناته وبطباعها، وعليه أن لا
يسيء الظن بها، مما قد يترتب عليه أذيتها بغير وجه حق. لما كان
النبي ﷺ في طريقه إلى الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال
الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء،

(١) سنن أبي داود (٤/٢٢٧ برقم ٥١٠١). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم
٢٧٩٧.

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٤ برقم ٢٥٩٥).

(٣) سنن أبي داود (٣/٢٢ برقم ٢٥٤٢). وصححه الألباني في صحيح أبي داود الأم (٧/٢٩٧ برقم
٢٢٩٢).

(٤) سنن أبي داود (٣/٢٤ برقم ٢٥٥٣) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٧/٣٠٥ برقم ٢٣٠١).



فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»^(١).

٢٣. معاقبة بعضها بجريرة بعض: عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، «أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة، أهلكت أمة من الأمم تسبح»^(٢).

هذه جملة من الأفعال والسلوكيات التي لا ينبغي إتيانها في التعامل مع الحيوانات، وجه النبي ﷺ أمته إلى اجتنابها، لأنها تنافي الرحمة الواجبة. وقد امتثل المسلمون لذلك التوجيه النبوي حق الامتثال، فسطروا مواقف مشرقة في الرأفة بالحيوان والرفق به، نستعرض فيما يلي بعضها.



(١) صحيح البخاري (١٩٣/٣) برقم (٢٧٢١).

(٢) -صحيح مسلم (١٧٥٩/٤) برقم (٢٢٤١).

المبحث الثاني تاريخ المسلمين في الرحمة بالحيوان

ولنبداً بالجيل الأول، جيل الصحب الكرام.

المطلب الأول تاريخ الصحابة رضي الله عنهم

ومما حفظه لنا تاريخهم مواقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتعجب لما تتذكر شدته وصلابته، ثم ترى لينه ورأفته الشديدة بالحيوان. روى عبدالرحمن بن زيد عن أبيه عن جده قال: قال عمر بن الخطاب يوماً: لقد خطر على قلبي شهوة الحيتان الطري. قال فيرتحل يرفأ^(١)، فيرتحل راحلة له فسار ليلتين إلى الجار^(٢) مدبراً وليلتين مقبلاً، واشترى مكتلاً، فجاء به. قال: ويعمد يرفأ إلى الراحلة فغسلها. فأتى عمر، فقال: انطلق حتى أنظر إلى الراحلة، فنظر ثم قال: نسيت أن تغسل هذا العرق الذي تحت أذنها! عذبت بهيمة من البهائم في شهوة عمر! لا والله لا يذوق عمر مكتلك^(٣). بل كان يشدد على الناس ليرفقوا بحيواناتهم، فعن عاصم بن عبيد الله بن

(١) غلام كان لعمر بن الخطاب.

(٢) الجار: بتخفيف الراء. مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم ليلة (معجم البلدان للحموي ٩٢/٢).

(٣) تاريخ دمشق (٣٠١/٤٤).

عاصم بن عمر بن الخطاب، أن رجلاً حد شفرة وأخذ شاة ليذبحها، فضربه عمر بالدرّة، وقال: أتعذب الروح؟! ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها؟!^(١). وروى محمد بن سيرين: أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يجر شاة ليذبحها، فضربه بالدرّة وقال: سقها - لا أم لك - إلى الموت سوقاً جميلاً^(٢). ويقول المسيب بن دارم: رأيت عمر بن الخطاب ضرب جمالاً، وقال: لم تحمل على بعيرك ما لا يطيق؟!^(٣). وكان أحياناً يتدخل بنفسه للتخفيف عن الحيوان، كما روى مالك أن عمر بن الخطاب مر بحمار عليه لبن، فوضع عنه طوبتين. قال: فأتت سيده عمر فقالت: يا عمر ما لك ولحماري؟ إنك عليه سلطان؟ فقال: فما يقعدني في هذا الموضع؟^(٤). أي ما الذي يمنعني من التدخل للتخفيف عنه؟! ودافعه في كل ذلك خوفه من الله تعالى أن يحاسبه على التقصير في حق تلك البهائم العجاوات، فكان يقول: «لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة»^(٥).

ولم يكن هذا الرفق مقصوراً على عمر رضي الله عنه، بل كان سلوكاً شائعاً بين الصحابة رضي الله عنهم، منطلقهم في ذلك التوجيهات الشرعية المباشرة، والتي تقدم ذكرها، ثم فقههم الدقيق والعميق لنصوص الشرع العامة، فإنهم أدخلوا فيها حتى الحيوانات، وهذا أمر يثير العجب والإعجاب حقاً! فعبد الله بن عمر مثلاً رأى راعي غنم في مكان قبيح، وقد رأى ابن عمر مكاناً أمثل منه، فقال ابن عمر: ويحك يا راعي حولها، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كل راع مسؤول عن رعيته»^(٦). فرأى بفقهاء العميق أن حرمان البهيمة من رعي أفضل تقصير في أداء الواجب تجاهها. إذ هي

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٤٧١/٩) برقم (١٩١٤٢).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٤٧٢/٩) برقم (١٩١٤٣).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٩١/٧).

(٤) البيان والتحصيل لابن رشد (٥٠٩/١٧ - ٥١٠).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥٣/١).

(٦) مسند أحمد (١١٠/١٠) برقم (٥٨٦٩).

-برغم كونها بهيمة- من الرعية التي يسأل عنها . وعدي بن حاتم الطائي كان يفت الخبز للنمل، ويقول: هن ضعيفات لا تجد القوت، وفي رواية: «إنهن جارات، ولهن حق»^(١). أي حق الجوار. فالإحسان إلى الحيوانات في نظر الصحابة -كما يتضح مما سبق من أمثلة- ليس محض تفضل، بل حق، والحق يخشى المرء السؤال عنه بين يدي الله تعالى، ولذلك كان لأبي الدرداء رضي الله عنه جمل يقال له الدمون، فكان إذا استعاره منه رجل قال: لا تحمل عليه إلا طاقته، فلما كان عند الموت، قال: «يا دمون لا تخاصمني عند ربي؛ فإنني لم أكن أحمل عليك، إلا ما كنت تطيق»^(٢).

ثم سرت تلك الرحمة وذلك الإحسان في باقي المسلمين، الذين جاؤوا بعد الصحابة الكرام.

المطلب الثاني

تاريخ التابعين فمن بعدهم من سائر المسلمين

ونستطيع أن نلاحظ تلك الرحمة من خلال مواقف العلماء وكلامهم وتوجيهاتهم ومؤلفاتهم -وهم القدوة-، ومن خلال التأطير الشرعي الفقهي لضروب التعامل مع الحيوان، ثم من خلال السلوك الاجتماعي عند عامة الناس.

١. مواقف العلماء:

ولنأخذ بعض الأمثلة، ونبدأ بالتابعي الجليل صالح بن كيسان، يقول إبراهيم بن سعد: «جئت صالح بن كيسان في منزله، فوجدته يكسر لهرة له

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٣/٤٢١ برقم ١٠٥٦٧).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا (١/١١٠).

يطعمها، ثم يفت لحمامات له أو لحمام له يطعمه»^(١). أما عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، فعن أبي عثمان الثقفي قال: كان لعمر بن عبدالعزيز غلام يعمل على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يوماً بدرهم ونصف، فقال: «ما بدا لك؟» فقال: نفقت السوق، قال: «لا، ولكنك أتعبت البغل، أرحه ثلاثة أيام!»^(٢). وعن عمرو بن قيس السكوني، قال: سمعت عمر ابن عبدالعزيز، «ينهى عن ركض الفرس، إلا في حق»^(٣). وهذا سيرا على القاعدة التي رأيناها في تعامل الصحابة سابقاً وهي الرأفة بالحيوان، وعدم إرهاقه وتحمله ما لا يطيق. ثم إنه رضي الله عنه اغتم توليه الخلافة ليشيع مبدأ الرحمة بين الناس من خلال الزجر عملاً يؤذيها، ومن ذلك أنه كتب إلى صاحب السكك أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل من هذه الرستية ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة. وكتب إلى حيان بمصر أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات، يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ست مئة رطل^(٤). بل إنه رضي الله عنه تركها سنة لعدد من الولاة بعده في التخفيف عن الحيوانات، جاء في العُتبية: «وسئل مالك: عن حديث عمر بن الخطاب حين ذكر رقيق الحوائط إذ كان يخرج إليهم فيخفف عن ثقلهم ويزيد في رزق من أقل له، أكان ذلك في رقيق الناس؟ قال: نعم وغيرهم من الأحرار من عمل ما لا يطيق. فقلت له: فإن الولاة عندنا يوكلون الشرط، فمن مر به بحمل ثقيل من جمل أو بغل أن يخففوا عنه، قال: أرى أن قد أصابوا»^(٥).

وعن إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني، قال: سمعت إبراهيم بن أدهم، يقول: «بلغه أنه كان في بني إسرائيل رجل ذبح عجلاً بين يدي أمه، فأبى الله يده فبينما هو ذات يوم جالس إذا بفرخ قد سقط من وكره وهو

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٣/٤٢١ برقم ١٠٥٦٦).

(٢) حلية الأولياء (٥/٢٦٠).

(٣) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٠٢ برقم ٢٤٤٠).

(٤) سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لابن عبدالحكم (ص ١٤١).

(٥) البيان والتحصيل (١٧/٥١٠).

يتصبص إلى أبويه، وأبواه يتبصبسان إليه، فأخذه وردّه إلى وكره، رحمة له، فرحمه الله برحمته لهما، ورد عليه يده بما صنع»^(١).

والمقريزي لما تحدث في كتاب «الخطط» عن المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة ذكر مسجد أبي صادق، ثم تحدث عن أبي صادق هذا، فقال عنه: «كان قارئ المصحف بالجامع، ومصلياً به، ومصدراً فيه لإقراء السبع، وكان فيه حنة على الحيوانات، لا سيما على القطط والكلاب، وكان مشارف الجامع، وجعل عليه جارياً من الغدد كل يوم لأجل القطط، وكان عند داره بزقاق الأبقال من مصر كلاب يطعمها ويسقيها، وربما تبع دابته منها شيء يمشي معه في الأسواق، قال الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة في كتاب النقط على الخطط: حدّثني الشيخ منجب غلام أبي صادق قال: ... ولدت كلبة في مستوقد حمام، وكان المؤذن يأتي خلف مولاي سحراً كل يوم لقراءة المصحف، وكان مولاي يأخذ في كفه كل يوم رغيفاً، فإذا حاذى موضع الكلبة قلع طيلسانه، وقطع الخبز للكلبة ويرمي لها بنفسه إلى أن تأكل، ثم يستدعي الوقاد ويعطيه قيراطاً ويقول له: اغسل قدحها واملاها ماء حلواً، ويستحلفه على ذلك. فلما كبر أولادها صار يأخذ بعد رغيفين إلى أن كبروا وتفرّقوا. وحدّثني قال: كان قد جعل كراء حانوت برسم القطاط بالجامع العتيق من الأحباس، وكان يأتي بالغدد مقطعة، فيجلس ويقسم عليها، وإن قطة كانت تحمل شيئاً من ذلك وتمضي به، وفعلت ذلك مراراً، فقال مولاي للشيخ أبي الحسن ابن فرج: امض خلف هذه القطة، وانظر إلى أين تؤدّي ذلك، فمضى ابن فرج فإذا بها تؤدّيه إلى أولادها، فعاد إليه وأخبره، فكان بعد ذلك يقطع غدا صغاراً على قدر مساغ القطط الصغار، وغدا كباراً للكبار، ويرسل بجزء الصغار إليهم إلى أن كبروا»^(٢). وسمعت

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٣/٤٢٣ برقم ١٠٥٧١).

(٢) المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/٣٣٨-٣٣٩).

بعض شيوخ الأزهر في محاضرة له يتحدث عن الشيخ أحمد الدردير إمام المالكية في زمانه، أنه جلس مرة في مجلسه بالأزهر، فدخل هر فأزاحه أحد الطلبة بشدة، فغضب الإمام وانفعل، وقام من مجلسه، وأخذ الهر إلى كرسيه، وأخرج له من طعامه وصار يقربه، واستمر على ذلك كل يوم يخرج له من طعامه، حتى صارت القطة تأتي إليه عندما يدخل مجلسه.

وقد نظم أمير الشعراء في عصرنا أحمد شوقي قصيدة في الحيوان

فقال:

الحيوان خلق	له عليك حق
سخره الله لك	وللعباد قبلكا
حمولة الأثقال	ومرضع الأطفال
ومطعم الجماعة	وخادم الزراعة
من حقه أن يرفقا	به وألا يرهقا
إن كل دعه يسترح	وداوه إذا جرح
ولا يجع في دارك	أو يظلم في جواركا
بهيمة مسكين	يشكو فلا يبين
لسانه مقطوع	وما له دموع!

بل إن عدداً من العلماء ألفوا كتباً خاصة عن الحيوانات، ومن تلك الكتب: كتب الإبل، لأبي سعيد (لأبي زيد) ابن أوس الخزرجي، ولأبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني، ولإسماعيل بن قاسم أبي علي القالي، ولأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني^(١).. ومثلها كتب في الخيل، والغنم والشاء، والطيور، والهر، وغيرها.

٢. التأطير الشرعي الفقهي للتعامل مع الحيوانات:

من مظاهر الرحمة بالحيوان عند المسلمين أن علماءهم أدرجوا ضمن

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٣٨٣).

مصنفاتهم الحديثية والفقهية أبواباً وفصولاً تعنى بأمر الحيوانات، محورها الرحمة بها والرفق والإحسان إليها. فمن يطالع كتب الحديث الستة المعتمدة أساساً عند المسلمين يجد أبواباً في هذا الموضوع، بل وفي غيرها من كتب الحديث. وعلى سبيل التمثيل نجد في صحيح البخاري - وهو أهم الكتب وأصحها بعد كتاب الله تعالى - من ضمن أبوابه: باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة. وفي صحيح مسلم نجد: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها. وفي سنن أبي داود نجد: باب في قتل الضفدع. وهكذا في باقي الكتب الحديثية، بل وفي كل كتاب نجد أبواباً متعددة.

والفقهاء كذلك عُنوا ببيان الأحكام الواجب مراعاتها في التعامل مع الحيوان، وهي كثيرة جداً، وتستحق أن تفرد بالتصنيف، بل لو تُبعت في مؤلفات الفقهاء، وجردت لجات في سفر ضخمة، تدور حول النفقة وتفاصيلها، والضمان، وكيفية الإحسان في ذبحها، وفي قيادتها والتعامل معها، وغير ذلك...

ولنأخذ أمثلة على ذلك نتأملها. يقول سلطان العلماء العزبي عبد السلام: ”حقوق البهائم والحيوان على الإنسان، وذلك أن ينفق عليها نفقة مثلها ولو زمنت أو مرضت، بحيث لا ينتفع بها، وألا يحملها ما لا تطيق ولا يجمع بينها وبين ما يؤذيها من جنسها أو من غير جنسها، بكسر أو نطح أو جرح، وأن يحسن ذبحها إذا ذبحها، ولا يمزق جلدها، ولا يكسر عظمها، حتى تبرد وتزول حياتها، وألا يذبح أولادها بمرأى منها، وأن يفرد لها، ويحسن مباركتها وأعطانها، وأن يجمع بين ذكورها وإناثها في إبان إتيانها، وأن لا يحذف صيدها ولا يرميه بما يكسر عظمه أو يرديه بما لا يحلل لحمه“^(١)، ويقول ابن عابدين الحنفي: «لا يحملها فوق طاقتها، ولا يضرب وجهها، ولا رأسها إجماعاً، ولا تضرب أصلاً عند أبي حنيفة، وإن كانت ملكه. قال

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٦٧).

رسول الله ﷺ «تضرب الدواب على النفار، ولا تضرب على العثار» لأن العثار من سوء إمساك الراكب اللجام والنفار من سوء خلق الدابة»^(١).

٣. السلوك الاجتماعي:

وأقصد به التطبيق العملي لدى عامة المسلمين، لتلك التوجيهات القولية والفعلية الصادرة عن علمائهم، وللأحكام الفقهية المتعلقة بهذه العجماوات. ومن أبرز ما يتجلى فيه ذلك هو «الوقف»، حيث عرف المجتمع الإسلامي أوقافاً عديدة على الحيوانات، حرص عليها المسلمون في مختلف بلادهم، حكاهم ومحكوموهم، أغنياؤهم وفقراؤهم، حرصوا من خلالها على رصد جزء من أموالهم للإحسان إلى الحيوانات قربة إلى ربهم ﷻ. ولناخذ أمثلة على ذلك... من ذلك ما قام به محمود غازان، أحد سلاطين المغول الذين أسلموا، حيث أنشأ «الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه، لكي تتزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية، التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعداداً كثيرة من هذه الطيور كانت تلقى حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها غازان هذه الأجران رحمة بها»^(٢). ويحكي الدكتور مصطفى السباعي أن المسلمين أنشأوا «أوقافاً خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافاً لرعي الحيوانات المُسنّة العاجزة، ومنها أرض المرج الأخضر (التي يقيم عليها الآن الملعب البلدي بدمشق)، فإنها وقف للخيول العاجزة، التي يأبى أصحابها أن ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها، فترعى في هذه الأرض حتى تموت. ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينّة، التي يقدم لها

(١) رد المحتار على الدر المختار (٤٠٢/٦).

(٢) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي.

الطعام كل يوم، وهي مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة»^(١). وتحدث الشيخ علي الطنطاوي عن وجود وقف بالشام «للقطط الضالة يطعمها ويسقيها، وللكلاب الشاردة المريضة يداويها ويؤويها»^(٢).

وفي المغرب الأقصى يحكي العلامة محمد المنوني صوراً للوقف على الحيوانات، فيقول: «... فنلتقي -أولاً- مع محمد بن موسى الحلفاوي الإشبيلي نزيل فاس...، وقد جاء في ترجمته أنه دفع به الرفق بالحيوانات المتخذة والأليفة إلى أن يعد داراً يجمعهم فيها، ويسهر على إطعامهم بيده، ويتحدث ابن السكاك عن جمع من القطط شاهدتهم مجتمعين على موزع يفرق عليهم لحمًا، ويعدل في قسمته بينهم، وابن السكاك توفي عام ١٥/٨١٨... هذا إلى أنه كان في حوز مدينة فاس، بلاد موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور، حتى تلتقطها كل يوم من المرتفع المعروف بكذبة البراطيل عند باب الحمراء داخل باب الفتوح، وأيضاً عند (كدية البراطيل) خارج باب الحبيسة»^(٣).

كما كان الفقراء يقيمون مساق للمياه بجانب بيوتهم، لتشرب منها الحيوانات.

وهكذا تستمر الرحمة بالحيوانات والاهتمام بها إلى يومنا هذا، حيث أصبحت عدد من الدول الإسلامية تسن قوانين لحماية الحيوان مما يسيء إليه، ومثاله قانون (نظام) الرفق بالحيوانات، الذي اعتمده مجلس التعاون الخليجي في دورته الثانية والثلاثين في مدينة الرياض، في شهر محرم ١٤٣٣هـ^(٤).



(١) من روائع حضارتنا (ص ١٨٤).

(٢) الذكريات (٣٥٥/٧).

(٣) مجلة دعوة الحق، العدد ٢٣٠ شوال-ذو القعدة ١٤٠٢ / يوليو-غشت ١٩٨٢.

(٤) <https://www.boe.gov.sa/ShowPDF.aspx?filename=f66a6943-e965-4199-b51b-4ab175e7f571&SystemID=350&VersionID=326>

المبحث الثالث

مظاهر قسوة بعض أهل العصر على الحيوان

المطلب الأول

قسوة غير المسلمين

يتشدد كثير من غير المسلمين بأنهم أهل الرحمة والرفق بالحيوانات، ويتباهون بذلك، ويتهمون المسلمين بأنهم يعاملون الحيوانات بوحشية، وذهبت بعض دولهم إلى حد منع المسلمين المقيمين على أراضيها من إقامة شعيرة ذبح أضحية العيد هذا العام^(١)، بدعوى أن طريقة ذبح المسلمين تعذب الحيوانات. والواقع أنه -عند التأمل- لا تجد أرحم بالحيوان من المسلمين، سواء في الماضي أو الحاضر. فالمسلمون رحموا الحيوانات منذ ١٥ قرناً، منذ نزل دينهم كما يظهر من خلال ما تقدم ذكره من النصوص الشرعية والشواهد التاريخية، في الوقت الذي كان غير المسلمين يعاملون الحيوانات معاملات تتسم بالوحشية والسذاجة في آن واحد، حيث كانوا يعدون الحيوان مسؤولاً عن تصرفاته، يتحمل تبعاتها، ومن ثم كانوا يعتقدون له المحاكمات، التي تنتهي بالحكم عليه بأحكام قاسية، بقطع أعضائه حياً أو تحريقه أو قتله أو سجنه، حتى يموت...^(٢)، ولم تبدأ عندهم فكرة

(١) ١٤٣٦ هـ.

(٢) تراجع أمثلة ونماذج لتلك المحاكمات، ورؤية غير المسلمين للحيوانات ضمن كتاب «من روائع

حضارتنا» (ص ١٨٥-١٩٢).

الرحمة بالحيوان إلا قبل أقل من قرنين، حين أسست أول جمعية للرفق بالحيوان عام ١٨٢٤ بإنجلترا. ومع هذا سبق الزمنى الكبير، فإن رحمة المسلمين بالحيوان تتميز عن رحمة غير المسلمين، وذلك من جهتين: (١) رحمة المسلمين عبادة يتعبدون بها لربهم، مبنية على أساس عقدي، وسيجازون عليها يوم لقاء ربهم. بينما عند غيرهم مجرد عمل إحساني إنساني تطوعي. (٢) الشمول لكل مناحي حياة الحيوان والدقة في صوغ الأحكام لكل ناحية من النواحي.

ثم إن الواقع يشهد أن غير المسلمين لا زالوا يعاملون الحيوانات بوحشية، برغم ما يحرصون عليه من الرفق والرحمة، وشواهد ذلك كثيرة، منها:

١. رياضة مصارعة الثيران:

وهي رياضة متواجدة بعدد من الدول كإسبانيا والبرتغال وبعض دول أمريكا اللاتينية، وفيها يتم الاستمتاع بتعذيب الثور وقتله ببطء ووحشية، تشمئز منها النفوس السوية. وفي إسبانيا وحدها يقتل ٣٠٠ ألف ثور سنوياً بهذه الطريقة^(١). وهذه الرياضة تدخل ضمن نهي النبي ﷺ عن اتخاذ ما فيه الروح غرضاً كما تقدم.

٢. صراع الخيول:

وهي رياضة موجودة في الصين، تقوم على جعل فرسين يتصارعان، ويحاول كل واحد منهما عض الآخر وهزيمته، في مشهد فظيع تنتج عنه جروح وتطاير للدماء من تك الحيوانات البريئة. وقد روي عن النبي ﷺ النهي عن التحريش بين البهائم.

(١) https://ar.wikipedia.org/wiki/مصارعة_الثيران



٣. صراع الديكة:

حيث يتم التحريش بين ديكين قد زودا بحديدة في رجل كل منهما،
ليتمكن كل واحد من إيذاء الآخر.

٤. أكل دماغ القردة:

تناول دماغ القرد وهو حي، وذلك بوضعه في طاولة مخصصة، حيث
يتم وضع كامل جسمه تحت الطاولة وجعل رأسه فقط يظهر فوقها، ليتم
فتح دماغه وهو حي، وتناوله بملاقط خاصة^(١). وهذا موجود في الصين
والفلبين.

٥. إساءة قتل الحيوان الذي يؤكل:

حيث إنه فراراً من عملية الذبح -التي يعدونها تعذيباً- يلجؤون إلى
قتل الحيوان بطريقة وحشية عن طريق الصعق الكهربائي، أو الطلق
الناري، أو ضربه بآلة حديدية على رأسه، أو رطمه بقوة مع الأرض،
ونتف ريش الطير حياً، بل إن بعض الحيوانات تُلقى حية في آلة تفرمها
وهي حية^(٢).

المطلب الثاني قسوة بعض المسلمين

شريعتنا العظيمة أوجبت الإحسان إلى الحيوان، والرحمة به كما
تقدم. لكن بعض المسلمين لجهلهم بأحكام دينهم ربما يسيئون معاملة ما
سخر الله لهم من بهائم، وأشير هنا إلى بعض ما يحضرنى مما شاهدته

(١) <http://www.3refe.com/vb/showthread.php?t=109261>

(٢) <https://www.youtube.com/watch?v=ifJQCBMsCo>

بعيني، مما ينافي مبدأ الرحمة، تنبيهها إلى ضرورة تركه، والدليل على منع ما ذكره يعلم مما تقدم من النصوص الشرعية.

١. تكديس البهائم عند نقلها، بحيث لا تتمكن من الوقوف المريح لها.
٢. تحميلها ما لا تطيق، من الأمتعة أو النباتات أو غيرها.
٣. ضربها بقسوة، ولمرات متتالية، وربما بعصا غليظة، وعلى الوجه، لتسرع أكثر، وتجرب ما لا طاقة لها به.
٤. استخدامها برغم مرضها أو كبر سنها.
٥. التقصير في علفها، حتى إن بعضها يرى عليه أثر الهزال نتيجة سوء التغذية بشكل جلي.
٦. ذبح البهائم أمام بعضها، كما يقع في بعض المسالخ.
٧. المبادرة إلى سلخها قبل تمام خروج روحها.
٨. صراع الديكة، ويوجد في بعض البلاد العربية نقلا عن سواهم من غير المسلمين وتقليداً.
٩. عدم المبالاة بدهس النمل وإخافة الدجاج والطيور.
١٠. التسلي بأذية القطط أو الطيور أو نحوها، خصوصاً من الصغار.



المبحث الرابع سبل تفعيل الهدي النبوي في عصرنا الحاضر

إن هذا الذي رأيناه من رحمة الإسلام والمسلمين بالحيوان ينبغي إعادة إحيائه في واقعنا بشكل جلي وواضح، تعبدنا لربنا ﷻ، ورحمة بتلك المخلوقات التي سخرها، وذلكها لنا المولى الرحيم، وإظهاراً لسمو ديننا وعظمته. وفيما يلي بعض الخطوات التي تساعد على هذا الأمر:

١. تنشئة الصبية على هذا المبدأ من صغرهم حتى يشبوا عليه.
٢. إدماج مفاهيم الرحمة بالحيوانات ضمن المناهج التعليمية.
٣. تشجيع الصغار على الإحسان إلى الحيوانات، وتخصيص مكافآت لمن يبدع ويتميز في ذلك.
٤. تخصيص محاضرات وخطب جمعة للموضوع.
٥. إطلاق وصلات إعلامية تحسيسية بوسائل الإعلام تذكر بالتوجيهات النبوية في هذا الموضوع، وتنبه إلى أنواع الإساءة للحيوانات الملاحظة داخل المجتمع.
٦. سن عقوبات رادعة لمن يسيء إلى الحيوانات.
٧. إدراج مراعاة مصالح الحيوانات ضمن مهمة رجال الأمن والحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٨. التواصل مع مربّي الحيوانات لتحسيسهم بالأمر.



الخاتمة

وبعد، فهذا ختام بحثي حول الرحمة بالحيوان في الإسلام وعند المسلمين، وإنما ذكرت قلاً من جل، ونزراً من بحر، خصوصاً ما يتعلق بالرحمة عند المسلمين، من جهة كلام علمائهم، ومن سلوكهم العملي في ذلك. وعسى ربي أن يكتب القبول لهذا البحث، فيعم نفعه، ويكون ذخراً لكتابه عند ربه.

وقد خلصت فيه إلى ما يلي:

- الحيوانات أمة من الأمم التي خلقها الله، وتستحق التكريم لا الإهانة.
- من لم يرحم الحيوان، لا يستحق رحمة أرحم الراحمين، والجزاء من جنس العمل.
- يجب الرفق بالحيوان، وتوفير طعامه وشرابه.
- لا يجوز إيذاء الحيوان في شريعة الإسلام، سواء بضرب أو تحريق أو تحميل فوق الطاقة أو غير ذلك.
- لا يوجد من يضاهاي الإسلام والمسلمين في الرحمة بالحيوان.
- دين الإسلام دين الرحمة الشاملة.

ومما يمكن أن يوصي به هذا البحث:

- العمل على تفعيل ما سطرته ضمن المبحث الرابع.
 - تتبع كلام الفقهاء حول الأحكام المتعلقة بالحيوان تتبعاً استقصائياً، وترتيبه وتبويبه وتنظيمه ليسهل الرجوع إليه.
 - إنشاء جمعيات للرفق بالحيوان داخل المجتمعات المسلمة، تتطرق من النصوص الشرعية والتراث الفقهي الإسلامي.
 - إنجاز مطويات وكتيبات صغيرة في الموضوع، وتوزيعها على أصحاب الحيوانات.
 - ترجمة تلك المطويات والكتيبات إلى لغات مختلفة وتوزيعها على غير المسلمين تعريفاً بعظمة ديننا وتميزه.
- والله تعالى أعلى وأعلم.
- وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
- وصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ١. ابن أبي الدنيا. أبو بكر عبدالله بن محمد. تحقيق أبي عبدالله محمد بن حمد الحمود نشر الدار السلفية - الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٣. ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع. الطبقات الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. نشر دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٤. ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز عابدين الدمشقي الحنفي. رد المحتار على الدر المختار. نشر دار الفكر-بيروت. الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٥. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله. تاريخ دمشق. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي. نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٦. ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق محمد عبدالسلام إبراهيم. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٧. أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، المصنف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. نشر المجلس العلمي - الهند. الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.



٨. ابن ماجه أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
٩. أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة تحقيق: د محمد حجي وآخرون. نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٠. أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، المصنف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. نشر المجلس العلمي - الهند. الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١١. أبو حاتم محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. نشر مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
١٢. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
١٣. أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١٤. أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٥. أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
١٦. الألباني أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته. نشر المكتب الإسلامي.

١٧. الألباني أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داود الأم. نشر مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت. الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٨. الألباني محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

١٩. الألباني محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٠. البخاري أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١. البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى. تحقيق محمد عبدالقادر عطا. نشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٢. البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان. حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبدالعلي عبدالحميد حامد. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند. نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٣. الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الكبير - سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.



٢٤. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله. كشف الظنون عن أسامي
الكتب والفنون. نشر مكتبة المثنى - بغداد. تاريخ النشر: ١٩٤١م.
٢٥. الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان.
نشر دار صادر، بيروت. الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
٢٦. سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني أبو عثمان، سنن
سعيد بن منصور. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. نشر الدار
السلفية - الهند. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.
٢٧. الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير،
تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،
الطبعة الثانية.
٢٨. الطنطاوي، علي بن مصطفى الطنطاوي. الذكريات. راجعه
وصححه وعلق عليه: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية. نشر
دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية. الطبعة
الخامسة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٩. عبدالله بن عبدالحكم بن أعين، أبو محمد المصري. سيرة عمر بن
عبدالعزیز علی ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه. تحقيق أحمد
عبید. نشر عالم الكتب، بيروت - لبنان. الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ -
١٩٨٤م.
٣٠. عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، أبو محمد. قواعد الأحكام في
مصالح الأنام. راجعه وعلق عليه: طه عبدالرؤوف سعد. نشر مكتبة
الكلبيات الأزهرية - القاهرة. طبعة ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.
٣١. مالك بن أنس، الموطأ. تحقيق محمد مصطفى الأعظمي. نشر
مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية -
أبو ظبي. الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٢. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٣. المقرئ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. نشر دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٣٤. النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، سنن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٣٥. النووي. أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. نشر دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٢.



رحمة الرسول ﷺ بالحيوان المذكي

إعداد:

أسماء بنت العربي بن محمد الإدريسي



المقدمة

الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمةً للعالمين، وسراجاً نهدي به إلى يوم الدين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد :

فإن الرحمة خلق يتربع على عرش الأخلاق العليا في الإسلام، وبه تسمو النفس الإنسانية، وتفضل على سائر المخلوقات، من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً، ومن نزعت من قلبه فقد فاته فضل عظيم وحرم من رحمة الله الكبرى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»^(١).

والرحمة هي تلك الفضيلة العليا التي من أجلها نعيش بالأمل في الدنيا، وهي التي نركن إليها ونعول عليها لتقودنا إلى النجاة في الآخرة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (ص/١١٦٢)، برقم (٥٩٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (ص/٩٤٨)، برقم (٢٣١٨).

ولولاها لما كان لأعمالنا الهزيلة الضئيلة قيمة أو وزن عند الله تعالى، ولا طمعت أنفسنا بدخول الجنة والتعم بنعيمها الخالد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحدًا عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمة فسدوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا فعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فعله أن يستعذب»^(١). ورحمة الله تعالى إنما تُستجلب وتُطلب برحمة الإنسان لخلق الله، والرفق بهم، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢).

والرحمة هي قاعدة قضاء الله صلى الله عليه وسلم في خلقه، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة، وهي الأصل في كل شيء؛ لسعتها وشمولها، ولأنها مكتوبة؛ كتبها الله عز وجل على نفسه بإرادته وفضله، لم يوجبها عليه موجب، ولم يقترحها عليه مقترح، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١١٢]^(٣).

وقد ضرب لنا نبينا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم أجمل وأكمل مثال للرحمة بجميع جوانبها، فكان أرحم الخلق بالخلق وأرأفهم بهم، فشملت رحمته كل شيء، حتى البهائم والطيور، الحجر والشجر، الحي والميت، وكأنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلمنا برحمته أن الرحمة هي أساس الأخلاق الفاضلة، وهي الوجه الحقيقي للدين السمح، وحيثما وجد التشريع الإسلامي رافقته الرحمة والتيسير في جميع تطبيقاته وفرائضه، وأدق تفاصيله وأصغرها، حتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، (ص/١١١٤)، برقم (٥٦٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، (ص/١١٣٢)، برقم (٢٨١٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، (ص/١٤٢١)، برقم (٧٤٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، (ص/٣٥٨)، برقم (٩٢٣).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/٤٨٣).



شريعة ذبح الحيوان وتذكيته في الإسلام نجد الرحمة والإحسان يحتويانها في جميع مراحلها التي تمر بها .

إن أصعب شريعة يمكن تصور الرحمة فيها هي شريعة الذبح والتذكية، ومع ذلك فقد استطاع النبي ﷺ أن يوظف الرحمة فيها، ويطبقها ويجليها في جميع خطواتها وتفصيلها ليضمن بذلك تمتع الحيوان بالرحمة والرفق حتى وهو يموت. ولنا أن نتصور بعد ذلك حجم الرحمة التي تتمتع بها تكاليف الدين الإسلامي، إذا كان يهتم بحصول الحيوان على الرحمة قبل موته وفي أثنائه وبعده .

وفي ظل التضيق الذي تمارسه السلطات اليوم في العالم الغربي على الأقليات الإسلامية في مجال الذبح والزكاة، لاستبدال الزكاة الشرعية بالطرق الحديثة من تدويخ ونحوه، بحجة عدم مراعاتها لحقوق الحيوان وانتفاء الرحمة فيها، جاء مؤتمر الرحمة بمحاوره المهمة، التي تستهدف الرحمة في الإسلام بالدراسة، وتسلط الضوء على جميع شرائحها من الكائنات الحية، التي حث الإسلام على رحمتها، بما فيها الحيوان بشكل عام، والحيوان المذكى بشكل خاص، وقد وفقت جامعة الملك سعود ممثلة بقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية في اختيار مثل هذا الموضوع لمؤتمرها الأول - وليس بمستغرب عنها - وهي الرائدة في تبني الكراسي العلمية واحتضان الأبحاث ورعاية المؤتمرات العلمية، وبفضلها جاء اختيار عنوان هذا البحث الموسوم بـ (رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكى)؛ ليساهم بشكل متواضع في إبراز جانب من جوانب الرحمة في الإسلام، ويحقق بعضاً من الأهداف التي يصبو إلى تحقيقها هذا المؤتمر المبارك، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أهداف البحث:

١ . التعريف بالرحمة والتذكية من الناحية اللغوية والاصطلاحية .

٢. إبراز جوانب من رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكى في جميع مراحل التذكية.

٣. المقارنة بين التذكية الشرعية وبعض الطرق المستخدمة في هذا المجال في العالم الغربي، من حيث مدى تحقيقها لمبدأ الرحمة بالحيوان ومراعاة حقوقه.

أسئلة البحث:

١. ما تعريف الرحمة والتذكية لغةً واصطلاحاً؟
٢. ما أبرز جوانب رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكى، حال تذكيتهم وقبل التذكية وبعدها؟
٣. ما أهم الفروق التي تظهر عند مقارنة التذكية الشرعية بما عداها من الطرق المستخدمة في العالم الغربي، من حيث مدى تحقيقها لمبدأ الرحمة بالحيوان ومراعاة حقوقه؟

منهج البحث وإجراءاته:

سأسلك في دراسة هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وسألتزم -بإذن الله- في كتابته الإجراءات التالية:

١. الاعتماد على المصادر الأصلية والفرعية، وتوثيق النقول والأقوال بذكر المصدر، والجزء، والصفحة، وترتيبها في الهامش بحسب الأقدمية، مع الاكتفاء بذكر اسم المؤلف عند أول ظهور للكتاب في الهامش.
٢. بيان المعاني اللغوية الواردة في البحث، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية المعتمدة، وتوثيقها بذكر المصدر، والجزء، والصفحة، والمادة في الهامش.



٣. كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها إلى مكان ورودها في المصحف بذكر اسم السورة، ورقم الآية في الهامش.

٤. تخريج الأحاديث والآثار الواردة في البحث، من مصادرها الأصلية، وتوثيقها بذكر المصدر، واسم الكتاب، والباب، والجزء والصفحة، ورقم الحديث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، اكتفيت بالتخريج منهما دون بيان الحكم على الحديث؛ لتلقي الأمة لما فيهما بالقبول، وإن كان الحديث في غيرهما، نقلت حكم أهل الفن على درجة الحديث، مع بيان السبب بإيجاز. وفي حال تكرار ورود الحديث، فإني أحيل على تخريجه الأول في البحث بذكر رقم الصفحة في الهامش.

٥. تتبع سيرة النبي ﷺ في مجال التذكية وبيان مواطن رحمته بالحيوان في جميع مراحلها القبلية والبعدية، وتطبيقها بتتزييلها فيما استجد من مسائل معاصرة في هذا المجال.

٦. إحاطة الآيات القرآنية بقوسين زهراويين به، وأقوال النبي ﷺ بأقواس: «»، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم بأقواس: ()، وأقوال ما عداهم من أهل العلم بأقواس التنصيص المعروفة «».

٧. تتضمن الخاتمة في آخر البحث: أهم الأفكار والنتائج، التي انقدحت في الذهن بعد كتابة هذا البحث.

٨. كتابة الفهارس العلمية في نهاية البحث، وترتيبها على النحو التالي:
أ. فهرس الآيات القرآنية مرتبة على حسب ورودها في المصحف، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية.

ب. فهرس الأحاديث النبوية والآثار الموقوفة مرتبة على حروف المعجم.

- ج . فهرس المصادر والمراجع، التي تم الاعتماد عليها في كتابة البحث مرتبة على حروف المعجم، واشتملت بيانات كل كتاب على اسمه، واسم مؤلفه، ومحققه إن كان محققاً، وناشره، ومكان نشره، ورقم طبعته، وتاريخها .
- د . فهرس الموضوعات .

٩ . تضمين البحث في نهايته بملحق للصور التوضيحية .

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس .
المقدمة: تضمنت أهداف البحث، ومنهج البحث، والإجراءات المتبعة عند كتابته، وخطة البحث .

المبحث الأول: تعريف الرحمة بالحيوان المذكي، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: تعريف الرحمة .

المطلب الثاني: تعريف الحيوان المذكي .

المطلب الثالث: مشروعية الزكاة والحكمة من تشريعها .

المبحث الثاني: جوانب من رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بالحيوان قبل تذكيتة .

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بالحيوان حال تذكيتة .

المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالحيوان بعد تذكيتة .

المبحث الثالث: مقارنة التذكية الشرعية بما عداها من الطرق المعمول



بها من حيث تحقيق مبدأ الرحمة والرفق بالحيوان ومراعاة حقوقه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طرق التدويخ الشائع استخدامها في معظم دول العالم.
المطلب الثاني: أثر طرق التدويخ في التخفيف من معاناة الحيوان، ومقارنتها بالتذكية الشرعية من حيث تحقيقها لمبدأ الرفق بالحيوان.

الخاتمة: تضمنت أهم الأفكار والنتائج، التي انقدحت في الذهن عند كتابة هذا البحث.

وفي ختام هذه المقدمة أحمد الله ﷻ أن سهل ويسر وأعان ووفق بجميل رحمته وإحسانه، وكريم لطفه ورعايته، لهذا البحث حتى وصل إلى هذه الصورة المتواضعة، التي لا أدعي فيها انتفاء العيب والزلل؛ لأنها تظل مجهوداً بشرياً تعتريه صنوف النقص والتقصير، فما كان فيه من صواب فبتوفيق من ذي الكمال والجلال سبحانه، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي المقصرة والشيطان، وأسأل الله أن يتوب ويصفح ويعفو عن الزلل، فهو أهل لذلك، وأن يرزقني الإخلاص وصلاح الحال وحسن الختام عند الممات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



المبحث الأول تعريف الرحمة بالحيوان المذكي

وفيه مطلبان:

المطلب الأول تعريف الرحمة

١. الرحمة في اللغة: هي الرقة واللين والعطف والرأفة والمغفرة^(١)، وقد ترحمت عليه، أي: رحمته، ودعوت له بالرحمة، وتراحم القوم؛ إذا رحم بعضهم بعضاً، واسترحمه أي: سأله الرحمة، والرحوم كثير الرحمة، وتستعمل للمذكر والمؤنث، والجمع رحماء^(٢)، والمرحمة: الرحمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَاصُواْ بِالصَّبْرِ وَوَاصُواْ بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، والرُّحْمُ - بالضم: الرحمة، وما أقرب رُحْم فلان إذا كان ذا مرحمة وبر، أي: ما أرحمه وأبره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَارْزُقْنَا أَن يُبَدِّلَهُمَا رِئْصًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]، والرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، وهما من أسماء الله تعالى، وكلاهما من أبنية

(١) الصحاح في اللغة، للجوهري (ص/٢٤٩)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص/١٤٣٦)، لسان العرب، لابن منظور (٥/١٧٩)، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣/٣٢٧)، مختار الصحاح للرازي (ص/٢٦٧)، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/٤١٤)، مادة: (رحم).

(٢) لسان العرب (٥/١٧٩)، مختار الصحاح (ص/٢٦٧)، مادة: (رحم).

المبالغة، إلا أن الرحمن أبلغ من الرحيم، والرحمن اسم اختص الله تعالى به، وهو ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء ولا يجوز أن يوصف أو يسمى به غيره ﷻ، والرحيم يمكن أن يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمن، ولهذا قال ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فعدال به الاسم الذي لا يَشْرُكُهُ فيه غيره^(١). والرحمة في بني آدم عند العرب: رِقَّة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه ومغفرته^(٢). والرَّحِم: علاقة القرابة، وقد سميت رَحِمَ الأنثى رَحِمًا من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يُرَحِم ويُرَق له من ولد^(٣).

٢. والرحمة في الاصطلاح: عرفها العلماء بتعريفات متعددة بمعان متقاربة، أذكر منها: هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلاناً، وإذا وصف به الباري، فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الأدميين رقة وتعطف^(٤). وقيل: هي رقة في النفس تبعث على سَوْق الخير لمن تتعدى إليه^(٥).

المطلب الثاني تعريف الحيوان المذَكَّى

١. الحيوان المذَكَّى هو الحيوان المراد تذكيتته، والتذكيتة في اللغة: مصدر

(١) لسان العرب (٥/١٧٩)، مختار الصحاح (ص/٢٦٧)، مادة: (رحم).

(٢) لسان العرب (٥/١٧٩)، مادة: (رحم).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢/٤١٤)، مادة: (رحم).

(٤) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص/١٩١).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/٢٤).

ذكى، والاسم الذكاة، وأصل الذكاة في اللغة: تمام الشيء وإتمامه، ومنه الذكاء في الفهم إذا كان الرجل تامّ العقل سريع القبول^(١). ومعنى التذكية: الذبح والنحر والشق، يقال: ذكيت الشاة تذكيةً، إذا ذبحتها، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]^(٢)، ووجه الارتباط بين الذكاة والذكاء: أن الذكاة وهي الذبح تكون بألة حادة ونافاذة، والذكاء حدة في الذهن وبصيرة نافذة^(٣).

٢. أما التذكية في اصطلاح العلماء^(٤) فهي: إزهاق روح الحيوان البري^(٥) المأكول بإنهار دمه، إما في العنق إن كان مقدوراً عليه^(٦)، أو في أي محل من بدنه إن كان غير مقدور عليه^(٧)؛ ليتوصل إلى حل أكله، والانتفاع به بنية القصد لله تعالى وذكره عليه^(٨).

٣. وبهذا يكون معنى الرحمة بالحيوان المذكى: الرأفة والرفق بالحيوان المراد ذبحه أو نحره أو صيده، بهدف الانتفاع به أو منع

(١) لسان العرب (٥٢/٥)، المصباح المنير، للفيومي (ص/٣١٠). مادة: (ذكا).

(٢) لسان العرب (٥٢/٥)، مختار الصحاح (ص/٢٢٦). مادة: (ذكا).

(٣) الشرح الممتع على زاد المستنقع للعثيمين (٥٣/١٥).

(٤) تعددت تعريف العلماء للتذكية وتنوعت، وقد تم الجمع والتوفيق بينها والخروج بهذا التعريف رغبة في الاختصار ومنعاً من الإطناب.

(٥) الحيوان البري قيد في التعريف يخرج به حيوان البحر وصيده، فإنه لا يحتاج إلى ذكاة؛ لأن ميته حلال.

(٦) وذلك بفري الأوداج في المذبوح، بقطع الحلقوم والمريء والعرقان اللذان يحيطان بهما ويسميان الوذجين، ويكون للغنم والبقر والماعز والطيور والدواجن. أو بنحره قطعاً في اللبّة. وهي: الحفرة في وسط الصدر عند أصل العنق. ويكون للإبل، وتسمى الذكاة الاختيارية. ينظر: بدائع الصنائع للكاساني (٤٠/٥). المنتقى شرح الموطأ، للباجي (١٠٦/٣). الحاوي الكبير، للمواردي (٢٦/١٥)، المقنع، لابن قدامة (١٢٠٨/٣).

(٧) وذلك بعقره، وتسمى الذكاة الاضطرارية، وهي الجرح في أي موضع كان من البدن عند العجز عن الحيوان، وتستعمل للضرورة في المعجوز عنه من الصيد والأنعام. ينظر: بدائع الصنائع (٤٣/٥)، روضة الطالبين للنووي (٢٤٠/٣)، المغني، لابن قدامة (٢٦٨/١٣).

(٨) ينظر في تعريف العلماء للذكاة: الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي (٢٧٨/٧)، المغني، لابن قدامة (٣٠٣/١٣)، الشرح الممتع على زاد المستنقع، للعثيمين (٥٣/١٥).



ضرره، والحرص على اتباع أساليب الرقعة واللين، التي دعا إليها الشارع الرحيم، وسنها نبي الرحمة في جميع المراحل المتعلقة بذبح الحيوان أو نحره أو صيده.

المطلب الثالث مشروعية الذكاة، والحكمة من تشريعها

١. مشروعية الذكاة.

لقد ثبتت مشروعية الذكاة في أصول الشريعة الإسلامية وقواعدها بأكثر من صيغة ودلالة، منها على سبيل المثال لا الحصر؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وقوله ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله فكل»^(١)، بالإضافة إلى إجماع المسلمين على حرمة لحم غير المذكي^(٢)، إلى غير ذلك من النصوص الصريحة الصحيحة، القاطعة بوجوب التذكية.

٢. الحكمة من مشروعية الذكاة.

التذكية أمر شرعي صادر من أحكم الحاكمين ﷺ، فلا غرو في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما أنهر الدم من القصب والمروة والحديد، (ص/١٠٨٦)، برقم (٥٥٠٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، (ص/٨١٥)، برقم (١٩٦٨).

(٢) قال ابن حزم - رحمه الله - في مراتب الإجماع: «واتفقوا أن ما قدر عليه من الأنعام وهي الضأن والبقر والإبل والماعز، وما قدر عليه من الصيد، وفي كل ما يؤكل لحمه من دواب البر فقتل بغير ذبح من حلق أو قفا في صدر أو لبة أنه لا يحل أكله». (ص/١٤٨).

اشتمالها على كم هائل من المقاصد والحكم عقلها من عقلها وجهلها من جهلها^(١)، ولعل أبرزها ما يأتي:

أ. فيها تطيب للذبيحة وتطهير لها: حساً ومعنى؛ حساً بإخراج الدم الفاسد الذي يضر بصحة الإنسان؛ ومعنى بذكر اسم الله على الذبيحة وتطهيرها من رجس الشيطان.

ب. تحقيق الرفق والرأفة والرحمة بالحيوان على أوسع نطاق وأكبره.

ج. تفرق بين النجس والطاهر، والخبيث والطيب من اللحوم التي يتناولها الإنسان، وبها يتميز طعام المسلم عن طعام المشرك.

د. من خلالها يتميز الإنسان عن الحيوانات التي تفترس طرائدها بهمجية ووحشية، وفي ذلك تحقيق لتكريم الإنسان وتفضيله على باقي المخلوقات.

هـ. أجلُّ حكمة وأعظمها: تحقيق المعنى التعبدي بامتثال أوامر الله ﷻ، والسمع والطاعة على أكمل وجه.



المبحث الثاني

جوانب من رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكي

إن الرحمة التي بثها الله ﷻ في قلب نبيه ﷺ هي رحمة كبرى للعالم أجمع، لا يمكن حصرها أو تحجيمها أو تقدير مداها، هي الرحمة التي كانت ولا زالت سبباً في حب الناس لدين الإسلام، وانجذابهم نحوه، ولفنت أنظارهم إليه، والتي كانت كفيلاً بهدايتهم على مر العصور، كما أخبر عنه ربه عز وجل في قوله: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. الرحمة التي تجعلنا نؤمن ونصدق أنه ما بُعث وأرسل إلا من أجل الرحمة، تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان أرحم الناس بالناس، وأرحمهم على خلق الله، ولنا أن نتخيل حجم الرحمة التي ملأت قلبه، لتستوعب وتشمل كل شيء، حتى الحيوان وهو يساق إلى النهاية، التي من أجلها خلقه الله للإنسان، ليموت ميتةً هينةً لينة، ترافقها الرحمة في جميع مراحلها القبلية والبعدية. وفي هذا المبحث سنتتبع سيرة المصطفى ﷺ، في التعامل مع الحيوان المذكي قبل تذكيتة وفي أثنائها وبعدها، ليتجلى لنا بعض من جوانب رحمته ﷺ التي حُفظت ونُقلت إلينا؛ حتى تكون لنا نبراساً نقفدي به، وأنموذجاً نحتذي به في ممارسة شعيرة الذبح التي استطاع النبي ﷺ أن يوظف ويجلي فيها الرحمة بأكبر معانيها، ويسبق بذلك كل

من ادعى حماية الحيوان، وطالب بحفظ حقوقه بأزيد من قرن من الزمان. وفيما يلي عرض أبرز جوانب رحمته ﷺ بالحيوان المذكى.

المطلب الأول رحمته ﷺ بالحيوان قبل تذكيتها

ويتجلى ذلك في عدة أمور، أهمها:

أولاً: نهيه ﷺ عن قتل الحيوان ظلماً وعدواناً بغرض الإفساد والإسراف في القتل، وحصر إباحة ذبحها في حال إرادة الانتفاع بها أو منع ضررها^(١). فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، سأله الله عنها يوم القيامة» قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «حقها أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها»^(٢). وعن عمرو بن الشريد قال: سمعت الشريد رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة»^(٣).

وتتجلى رحمة النبي ﷺ في نهيه عن قتل الحيوان - صغيراً كان أو كبيراً وعدم الإسراف في إهدار دمه لغير حاجة أو ضرورة،

(١) ومثال ذلك: إباحة قتل الحيوانات المريضة والمصابة بأمراض معدية بغرض كف ضررها وانتشار مرضها بين الناس والحيوانات.

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة أكل العصافير، (٣٦٦/٤)، برقم (٤٥١٩). والحديث إسناده حسن ومحتج به. ينظر: الأم للشافعي (٥٩٥/٥)، المحلى لابن حزم (٢٩٥/٧).

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة أكل العصافير، (٣٦٦/٤)، برقم (٤٥٢٠). والحديث روي من عدة طرق، وقد صحح الأئمة بعضها. ينظر: السيل الجرار للشوكاني (٣٨٠/٤).



أو قتله بغرض التعدي عليه ظلماً وبغياً، وما يترتب على ذلك من مساءلته عن سبب قتله ومحاسبته أمام خالقه يوم القيامة .

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها في النهي عن قتل الحيوانات وصيدها، بغرض التسلية والهواية، أو التمرن على الرماية، والإلقاء بها دون الاستفادة منها في مآكل ونحوه .

ثانياً: نهيه ﷺ عن تخويف الحيوان وإفزاعه أو ترويعه قبل ذبحه، ويتفرع من ذلك:

أ . الحرص على ذبحه نهاراً لا ليلاً؛ لأن الليل إنما خلق وجُعِل للراحة والسكن، والذبح ينافيهما. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١] .

ب. قوده وسوقه إلى مكان الذبح برفق ولين. فعن ابن سيرين رضي الله عنه قال: رأى عمر بن الخطاب رجلاً يسحب شاةً برجلها ليذبحها، فقال له: (ويلك، قدها إلى الموت قوداً جميلاً)^(١) .

ج . النهي عن ذبح الحيوان أمام أخيه . فعن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: «كان عمر بن الخطاب ينهى أن تذبح الشاة عند الشاة»^(٢) .

د . مواراة آلة الذبح وإخفاؤها عن الحيوان المراد ذبحه، وعدم إظهارها إلا عند إرادة ذبحه، وعدم إمضائها وحدها أمام ناظره . فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أضجع شاةً وهو يحُدُّ شفرتة، فقال النبي ﷺ: «أتريد أن تميتها موتتين! هلا حددت

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب المناسك، باب سنة الذبح، (٤/٤٩٣)، برقم (٨٦٠٥). والأثر إسناده حسن . ينظر: الترغيب والترهيب للمنزدي (١٦٢/٢) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب المناسك، باب سنة الذبح، (٤/٤٩٤)، برقم (٨٦١٠). والحديث إسناده مسكوت عنه، وعلى حدود بحثي المتواضع لم أقف على من حكم على إسناده .

شفرتك قبل أن تضيعها»^(١). وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرتة، وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «أفلا قبل هذا؟ أتريد أن تميتها موتات!»^(٢). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أمر رسول الله ﷺ بحد الشفار، وأن توارى عن البهائم، وقال: «إذا ذبح أحدكم فليُجهز»^(٣).

وتتجلى رحمة النبي ﷺ في مراعاته لمشاعر الحيوان المراد ذبحه، بسوقه إلى مكان الذبح سوفاً ليناً رقيقاً، وإخفاء كل ما من شأنه أن يفرعه ويرعب قلبه؛ كآلة الذبح، ومنظر أخيه المذبوح أمامه ودماؤه، حفاظاً على سلامة قلبه من الخوف والفرع والحزن؛ حتى لا يموت الحيوان موتتين^(٤).

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها في النهي عن ذبح الحيوانات بعضها أمام بعض، لا سيما في المذابح الآلية المنتشرة اليوم، والتي لا يُراعى فيها مواراة آلة الذبح عن الحيوان، ولا إخفاء ذبحه عن أخيه، حيث تُعلق الحيوانات في الرفاعات الآلية المتحركة وتُصَف لتُساق إلى الموت، وهي تنظر إليه، فيموت قلبها موتات من الفرع والخوف، قبل أن تموت بآلة الذبح، وبما أن المذابح الآلية اليوم

(١) أخرجه الحاكم في مستدرکه، کتاب الأضاحی، (٣٥٨/٤)، برقم (٧٦٤٤). وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، کتاب الضحایا، باب الذکاة بالحديد وبما يكون أخف على المذکی وما يستحب من حد الشفار ومواراته عن البهیمة، (٢٨٠/٩)، برقم (١٩٦١٥)، والطبرانی في معجمه الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، برقم (٣٢٢/١١)، برقم (١١٩١٦). والحديث إسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٦٣).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، کتاب الضحایا، باب الذکاة بالحديد وبما يكون أخف على المذکی وما يستحب من حد الشفار ومواراته عن البهیمة، (٢٨٠/٩)، برقم (١٩٦١٤). والحديث إسناده صحيح، وقد تراجع الشيخ الألباني رحمته الله عن تضعيفه له. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/٣٦٠).

(٤) ينظر: صورة رقم (١) في ملحق الصور التوضيحية.



أصبحت ضرورة محتمة لا يمكن الاستغناء عنها بسبب كثرة الطلب عليها من قبل المستهلك في سوق اللحوم، فيمكن أن نضيف تعديلاً بسيطاً عليها، بفصل كل حيوان عن أخيه بوضع حاجز معدني أو بلاستيكي قاتم اللون بينها في الرافعة الآلية، يحول دون رؤية الحيوان لآلة الذبح أو منظر أخيه المذبوح ودمائه، وبهذا نكون قد راعينا حاجتنا الملحة للمذابح الآلية، وطبقنا هدي النبي ﷺ في عدم إفزاع الحيوان وتخيفه قبل ذبحه.

ثالثاً: نهيه ﷺ عن تعذيب الحيوان بمختلف أنواع وصنوف العذاب الجسدي والنفسي، والأمر بالإحسان إليه، والرفق به وإطعامه وسقايته قبل تذكيته، ويتفرع من ذلك:

أ. النهي عن صبر^(١) البهائم. فعن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال: دخلت مع جدي أنس بن مالك دار الحكم بن أيوب، فإذا قوم قد نصبوا دجاجةً يرمونها، فقال أنس ﷺ: (نهى رسول الله ﷺ أن تُصَبَّرَ البهائم)^(٢). وعن ابن عمر ﷺ: أنه دخل على يحيى بن سعيد وغلّام من بني يحيى رابط دجاجة يرميها، فمشى إليها ابن عمر حتى حلها، ثم أقبل بها وبالغلّام معه، فقال: (ازجروا غلامكم عن أن يصبر هذا الطير للقتل، فإني سمعت النبي ﷺ نهى أن تُصَبَّرَ بهيمة أو غيرها للقتل)^(٣). وعن

(١) أصل الصبر في اللغة: الحبس، وصبر البهائم حبسها حتى الموت، كأن تُحبس وتُجاع حتى تموت، أو تمسك وتتخذ غرضاً يعني هدفاً للرمي والرمية، بحيث يتراماها الناس. ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٠٧/١٣)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٤٢/١)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٢٧/٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، (ص/١٠٨٨)، برقم (٥٥١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، (ص/٨١٠)، برقم (١٩٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، (ص/١٠٨٨)، برقم (٥٥١٤).

سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: كنت عند ابن عمر رضي الله عنهما فمروا بفتية أو بنفر نصبوا دجاجةً يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رضي الله عنه: (من فعل هذا؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا)^(١). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل شيء من الدواب صبراً)^(٢).

ب. النهي عن وسم الحيوان أو وشمه بالنار أو ضربه في وجهه. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمار قد وُسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»^(٣). وعن جابر رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الحيوان في الوجه، وعن الوسم في الوجه)^(٤). وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يسير مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعير قد وسمه في وجهه بالنار، فقال: «ما هذا الميسم يا عباس؟» قال العباس: ميسم كنا نسمة في الجاهلية، فقال: «لا تسموا بالحريق»^(٥). ومعنى لا تسموا: أي لا تعلموا الحيوانات بالكي بالنار، والميسم هي الحديدية التي يُكوى بها^(٦).

ج. النهي عن التمثيل^(٧) بالحيوان وترتيب الوعيد الشديد على

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجتمعة، (ص/١٠٨٨)، برقم (٥٥١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، (ص/٨١٠)، برقم (١٩٥٨).
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، (ص/٨١٠)، برقم (١٩٥٩).
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، (ص/٨٧٧)، برقم (٢١١٧).
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، (ص/٨٧٧)، برقم (٢١١٦).
- (٥) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، (٣٥٠/١١)، برقم (١١٩٨٣). والحديث إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٦١٤).
- (٦) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/١٨٦).
- (٧) المثلة - بضم الميم وإسكان التاء - هي قطع أطراف الحيوان أو بعضها وهو حي، أو التشويه به. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٢٩٤).



من فعله. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل بالحيوان)^(١). وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه رضي الله عنه قال: مر الرسول صلى الله عليه وسلم بأناس وهم يرمون كبشاً بالنبل فكره ذلك وقال: «لا تمثلوا بالبهائم»^(٢). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (من مثل بذي روح ثم لم يتب مثل الله به يوم القيامة)^(٣). وعن عبد الله ابن يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه نهى عن النهبة والمثلة»^(٤).

وتتجلى رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في إكرامه لروح الحيوان، وتحريم تعذيبه بصنوف العذاب المختلفة حرقاً بالنار، أو ضرباً، أو حبساً، أو تجويعاً، أو تمثيلاً، ووجوب استشعار كونه كائنًا حيًا يمتلك أحاسيس الألم كالإنسان.

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها في النهي عن تعذيب الحيوان واتخاذ هداً للرمية ونحوها، أو إقامة التجارب العلمية والمختبرية التي لا جدوى من إجرائها، والتي لا تعود على البشرية بالنفع، ومراعاة إحساس الحيوان بالألم وعدم تعذيبه والرفق به، وعدم حبسه عن الطعام والشراب، أو إجباره على تناول كميات كبيرة من الطعام لغرض الحصول على كبده بحجم مضاعف ودهون مركزة، كما هو الحال في بعض مزارع تربية البط والإوز المنتشرة في العالم الغربي، والتي تسعى وراء الربح المادي أكثر من سعيها وراء حفظ حقوق الحيوان^(٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، (ص/١٠٨٨)، برقم (٥٥١٥).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب الضحايا، باب النهي عن المجثمة، (٣٦٥/٤)، برقم (٤٥١٤). والحديث إسناده حسن ورجاله ثقات. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٥٧/٥).


(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، (٤٧٤/٩)، برقم (٥٦١١). والحديث إسناده صحيح ورجاله ثقات. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمى (٢٥٢/٦)، فتح الباري لابن حجر (٥٦١/٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، (ص/١٠٨٩)، برقم (٥٥١٦).

(٥) ينظر: صورة رقم (٢) في ملحق الصور التوضيحية.

المطلب الثاني رحمته بالحيوان حال تذكته

أولاً: نهيه  عن إغراق الحيوان في الماء، أو ضربه حتى الموت، أو خنقه، أو إلقائه من شاهق. وقد حرم الله  أكل جميع هذه الأصناف بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فقد دلت الآية بصريح العبارة على تحريم المنخقة وهي التي ماتت خنقاً بحبل ونحوه، والموقوذة وهي التي ماتت مضروبةً بعضاً أو حجر، والمتردية وهي التي ماتت مترديةً وساقطةً من شاهق مثل السطح والجبل، والنطيحة وهي التي ماتت بسبب نطح أختها لها بقرونها أو رأسها^(١)، كما نهى  أيضاً عن حرق الحيوان بالنار، فعن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله  قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»^(٢).

وتتجلى رحمة النبي  في تحريم أكل الحيوان المقتول خنقاً، أو حرقاً، أو غرقاً، أو تردياً من شاهق واعتباره ميتة لا يحل أكلها إلا في حال الضرورة؛ وذلك ليردع البشر عن اتخاذ مثل هذه الوسائل الوحشية والمؤذية والمؤلمة في حق الحيوان، ويشرع الزكاة عن طريق الذبح أو النحر، لتكون الوسيلة الأمثل والأسرع والأسهل والأكثر إراحة للحيوان، فبالزكاة يتميز الإنسان على سائر الحيوانات التي تفترس طرائدها بكل عنف وهمجية دون مراعاة أو رحمة.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢١/٣)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٩/٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، (ص/٤٧٠)، برقم (٢٦٧٥). والحديث إسناده صحيح. ينظر: سنن أبي داود بأحكام الألباني

(ص/٤٧٠)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٤/١).

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها في تحريم صعق الحيوان بالكهرباء، أو إدخاله في المكائن التي تسحق جسده وعظامه وهو حي، أو ضرب جمجمته بمقبض معدني بغرض إماتته دماغياً، وغيرها من الوسائل التي درج استعمالها في المذابح الغربية أو الشرق آسيوية التابعة لغير المسلمين.

ثانياً: أمره ﷺ بإعداد آلة الذكاة وإمضائها وحدها بعيداً عن نظر الحيوان، والنهي عن ذبحه بألة كالة غير حادة. فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»⁽¹⁾. وتتجلى رحمة النبي ﷺ في تأكيده على حد آلة الذبح وتمضيبتها بشكل يسمح بقطع أوداج الحيوان بسهولة ويسر؛ لتتم عملية الذكاة في ثوان معدودة، مما يؤدي إلى إراحة الذبيحة والتقليل من شعورها بالألم.

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها في الاستعانة بالمعدات والآلات المخصصة لهذا المجال، والتي انتشرت في الآونة الأخيرة، وهي ذات جودة عالية، يدوية كانت أو كهربائية، مصنعة بمواد معدنية لا تصدأ، ويمكنها أن تُحد وتُمضى باستمرار؛ لتضمن سهولة في عملية الذبح، وإراحة للذبيحة.

ثالثاً: أمره ﷺ بذكر اسم الله على الحيوان عند إرادة ذبحه بغرض طمأنته، وعدم تنفيره، وإبعاد الشيطان عنه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤُحُونَ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، (ص/ ٨٠٩)، برقم (١٩٥٥).

إِلَىٰ أَوْلِيَآيِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١٢١].
وعن رافع بن خديج رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنهر الدم
وذكر اسم الله فكل ليس الظفر والسن أما الظفر فمدي الحبشة،
وأما السن فعظم»^(١). ولأن الحيوانات تؤمن بربها أكثر من بعض
البشر، نراها تستكين وتستسلم وتتقاد للذبح بمجرد سماعها
لاسم الله، وكأنها تعلم أنه ما خلقها إلا ليستفيد الإنسان منها،
فتتقاد لأمر الله تعالى، وتسعى لتحقيق الغاية التي من أجلها
خلقها ربها.

رابعاً: أمره صلى الله عليه وسلم بقطع الأوداج^(٢) عند الذبح، والنهي عن شريطة
الشیطان^(٣). فعن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه
نهى عن شريطة الشيطان)^(٤)، قال عكرمة رضي الله عنه: «كانوا يقطعون
منها الشيء اليسير، ثم يدعونها حتى تموت، ولا يقطعون الودج،
فنهى عن ذلك»^(٥).

وتتجلى رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في أمره بالإسراع والإجهاز على الذبيحة
بقطع أوداجها بهدف إنجاز عملية الذكاة في وقت وجيز وألم

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأوداج جمع وُدَج - بفتحين -، وهي العروق التي تكتنف الحلقوم، وما أحاط بالعنق من العروق
التي يقطعها الذابح. وقيل: الودجين هما عرقان محيطان بالحلقوم، وقولهم: الأوداج تغليبا على
الحلقوم. مجرى النفس، والمريء - مجرى الطعام - فسميت الأربعة أوداجاً. ينظر: سبيل السلام،
للصنعاني (٨٧/٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٥/٥).

(٣) شريطة الشيطان: هي الذبيحة التي يجرح بعض حلقها، ولا تقطع أوداجها؛ كشرط الحجام،
وتترك حتى تموت، وكان أهل الجاهلية يفعلونه، وإنما أضافها إلى الشيطان؛ لأنه هو الذي حملهم
على ذلك وحسن هذا الفعل لديهم، وسوله لهم. ينظر: معالم السنن، للخطابي (٢٨١/٤).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الضحايا، باب في المبالغة في الذبح، (ص/٥٠١)، برقم (٢٨٢٦)،
وابن حبان في صحيحه، كتاب الذبائح، ذكر الزجر عن ترك قطع الودج عند الذبح، (٢٠٦/١٣).
والحديث في إسناده عمرو بن عبد الله الصنعاني، وقد تكلم فيه غير واحد. ينظر: سنن أبي داود
بأحكام الألباني (ص/٥٠١)، السيل الجرار، للشوكاني (٦٣/٤).

(٥) صحيح ابن حبان (٢٠٦/١٣).



ضئيل؛ لأن قطع الأوداج يساهم في موت الذبيحة بسرعة^(١)، ويسمح بخروج كمية أكبر من الدماء، وبذلك تطيب الذبيحة ويتخلص لحمها من الجراثيم والفضلات المحتبسة بداخلها، على خلاف شريطة الشيطان التي تؤدي إلى تعذيب الذبيحة، وتأخير موتها، ومضاعفة معاناتها، واحتباس الدم الملوث بداخلها.

ويمكن تنزيل هذه الرحمة وتطبيقها عند الاستعانة بآلات الذبح الميكانيكية، والتي تجمع في أداؤها بين السرعة والإجهاز على الذبيحة، شرط أن يشرف على تشغيلها ومتابعتها من يحرص على تحقيق الرحمة بالحيوان، ويراعي حقه، بحيث يراقبها حتى لا يؤدي عملها إلى إفراط في الذبح؛ كشریطة الشيطان، أو تفريط فيه؛ كقطع رأسها كله، أو انحرافها عن موضع الذبح، إلى غير ذلك من الاختلالات والأخطاء التي يرد وقوعها عند الاستعانة بالآلات في الذبح.

المطلب الثالث

رحمته ﷻ بالحيوان بعد تذكّيته

نهيه ﷻ عن سلخ جلد الحيوان المذكي، أو نتف ريشه، أو غمسه في الماء المغلي، أو قطع أعضائه قبل خروج روحه. قال ﷻ: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وقد دلت الآية الكريمة على وجوب التريث بعد ذبح الحيوان، وعدم التعجيل بسلخ جلده أو قطع أعضائه قبل التأكد من زهوق روحه وسكون أنفاسه، وغياب الإحساس عنه بالموت.

(١) ينظر: صورة رقم (٢) في ملحق الصور التوضيحية.

قال الإمام القرطبي رحمته الله: « قوله تعالى: (فإذا وجبت جنوبها) يقال: وجبت الشمس إذا سقطت، ووجب الحائط إذا سقط.. فقوله: (فإذا وجبت جنوبها) يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة، كنى عن الموت بالسقوط على الجنب كما كنى عن النحر والذبح بقوله تعالى: (فاذكروا اسم الله عليها)، والكنيات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح.. والوجوب للجنب بعد النحر علامة نزع الدم وخروج الروح منها، وهو وقت الأكل، أي وقت قرب الأكل؛ لأنها إنما تبدأ بالسليخ وقطع شيء من الذبيحة ثم يطبخ، ولا تسليخ حتى تبرد؛ لأن ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه (لا تعجلوا الأنفس أن تزهق) ^(١)» ^(٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة» ^(٣). وعن معاوية بن قره عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وإني أرحمها، أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال النبي ﷺ: «والشاة إن رحمتها رحمتك الله» ^(٤). وأمره ﷺ برحمة الحيوان المذكي هو أمر عام، يدخل فيه كل حيوان تضاعل حجمه أو كبر، وطالما لم تفارقه روحه، فالرحمة يجب أن تظل ملازمة له حتى تخرج روحه، ويزول عنه الإحساس بالكلية، ويسكن جسده بسلام، ويترتب على الأمر بالرحمة الوارد بصيغة العموم: النهي عن قطع عضو من أعضاء الحيوان، أو سليخ جلده، أو نتف ريشه، أو المبالغة في قطع رأسه، أو تحريكه من مكانه، والتريث قليلاً قبل فعل

(١) قال الإمام البغوي - رحمته الله - في شرح السنة: «أراد بقوله: (لا تعجلوا الأنفس أن تزهق)، أي: لا يسليخها بعد قطع مذبوحها ما لم يفارقها الروح» (٢٣١/١١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٦٢/١٢).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، باب الصاد، صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي، (٢٣٤/٨)، برقم (٧٩٣١). والحديث إسناده حسن، ورجاله ثقات. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٥/١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، مسند البصريين، حديث قره المزني رضي الله عنه، برقم (٤٧٢/٣٣)، برقم (٢٠٣٦٣)، والطبراني في معجمه الكبير، باب القاف، قره بن إياس المزني، برقم (٤٤). والحديث إسناده صحيح ورجاله ثقات. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٥/١).



ذلك كله حتى تفارقه روحه، فعن نافع مولى ابن عمر رضي الله عنه: أن ابن عمر نهى عن النَّخَع^(١)، وكان يقول: (يقطع ما دون العظم حتى تموت)^(٢).



(١) النَّخَع: هو أن يباليغ في قطع حلقها حتى يبلغ النخاع، والنخاع هو الخيط الأبيض الذي بداخل فقار العنق والظهر. ينظر: شرح السنة، للبلغوي (٢٢١/١١)، غريب الحديث، لابن سلام (١٥٣/٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب الذبائح والصيد، باب النحر والذبح، (ص/١٠٨٨).

المبحث الثالث

مقارنة التذكية الشرعية بما عداها من الطرق المعمول بها من حيث تحقيق مبدأ الرحمة والرفق بالحيوان ومراعاة حقوقه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

طرق التدويخ الشائع استخدامها في معظم دول العالم

تنوعت وتعددت طرق تدويخ الحيوانات المعتمدة لدى كثير من أصحاب الديانات الأخرى في العالم، وقد بدأ استخدامها في أمريكا وأستراليا وكندا، التي اشتهرت بمراعي الأبقار الشاسعة، وذلك كوسيلة للسيطرة على الأبقار الشرسة لذبحها باستعمال المسدس الواقد، أو التدويخ عن طريق ضرب العظم الجبهي للحيوان بمطرقة ضخمة تفقده الوعي، ولعل من أهم الطرق المستخدمة طريقة التدويخ بواسطة الصعق الكهربائي، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً في مجازر الدول المصدرة للحوم ك(الدايمرك، وهولندا، وأستراليا، وأمريكا، والبرازيل، وفرنسا، ونيوزيلاندا).

وتعتمد هذه الطريقة على تحريض نوبة صرع في الحيوان، يفقد



من خلالها الوعي، وتتم ممارستها على الحيوانات الكبيرة والمتوسطة، ومع تطور الزمن صارت عمليات تدويخ الحيوانات في بلاد الغرب مفروضة بموجب قانون الطب البيطري، الذي يسري على كافة الذبائح المصدرة إلى العالم، ومستندهم في ذلك عدة دوافع، منها: تخفيف آلام الذبح رحمةً بالحيوان، حسب ادعاء جمعيات الرفق بالحيوان، وسلامة العاملين في تلك المسالخ، وتيسير العمل وتسريعه وتقليل التكلفة المالية، وذلك بإنجاز ذبح الحيوانات بسرعة؛ لكثرة الطلب عليها من قبل المستهلك وتوفير الجهد والوقت للقوة العاملة في المسالخ.

والحق الذي لا يمكن لأحد إنكاره هو أنهم اتجهوا وعمدوا إلى استخدام هذه الطرق؛ للحصول على أكبر كمية من اللحم في مدة وجيزة، وتحقيق مكاسب تجارية على أوسع نطاق^(١). وفيما يلي عرض أهم الطرق المستخدمة في هذا المجال:

أ. التدويخ بالصعق الكهربائي.

وتعتمد هذه الطريقة على إمرار تيار كهربائي متغير ومنخفض الجهد لفترة قصيرة من الوقت، وذلك بواسطة جهاز ذي قطبين يثبت في مكان من رأس الحيوان^(٢)، فيحدث تشنجاً شديداً لعضلات الجسم ويتوقف التنفس، وعند انتهاء فترة تمرير التيار الكهربائي يسقط الحيوان أرضاً وهو يرجف لعدة ثوان، وتتحرك أرجله بطريقة منتظمة، كما يحدث نزف الدم في العضلات وبعض أجزاء الجسم الأخرى، وخاصة في الرئة، ويتوقف القلب لمدة (٨٥) ثانية وبعدها يعود للنض، وإذا ترك الحيوان ولم يذبح فإنه يعود إلى وعيه مرةً أخرى^(٣).

(١) ينظر: أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٦).

(٢) ينظر: الصورة رقم (٤) في ملحق الصور التوضيحية.

(٣) ينظر: بحوث في قضايا فقهية معاصرة (ص/٤٢٠)، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٨).

وإذا لم تتم عملية التدويخ بالدقة المطلوبة فإنها تتقلب من إنسانية مدعاة إلى وحشية متناهية؛ إذ تسبب شللاً كاملاً للحيوان مع بقاءه على وعيه، وتُعرف علمياً بالصدمة الضائعة أو التائهة، وقد تكون تلك الصدمة قاتلةً إن كان الضغط الكهربائي أقوى مما يطيقه الحيوان، فإن كانت ضعيفة فإنها لا تفقده الوعي ويتعذب بها، حسب ما يقدره الخبراء، فإن كانت الصعقة قاتلة فالحيوان موقوذة، ولا ينبغي استخدام هذه الطريقة على الدواجن؛ لأنها لا تتحمل قوة الصعق، فيموت بعضها قبل ذبحها، كما جاء ذلك في قرار مجمع الفقه الإسلامي بقوله: «ولا يجوز تدويخ الدواجن بالصدمة الكهربائية، لما ثبت بالتجربة من إفضاء ذلك إلى موت نسبة غير قليلة منها قبل التذكية»^(١).

ب. التدويخ بالطرق الآلية.

وتشترك معظم هذه الطرق في توجيه ضربة شديدة إلى جمجمة الحيوانات، ويستخدم لذلك المطرقة الحديدية، التي تُحدث ارتجاجاً شديداً في الدماغ، أو بواسطة المسدس بنوعيه ذو القضيبي المعدني أو ذو الطلقات^(٢)، فيضعونه في جبهة الحيوان ويطلقونه، ويتسبب المسدس في كسر الجمجمة والنفوذ إلى الدماغ، وفي بعض المسالخ يعقب ذلك إدخال سلك معدني من خلال الفتحة التي حدثت في الجمجمة ليخترق الدماغ، ويصل إلى الأعلى من النخاع الشوكي فيئلفه، مما يؤدي إلى توقف التنفس وموت الحيوان إذا لم يذبح بسرعة، وتُعدُّ هذه الطريقة -في الواقع- تطويراً للبلطة أو المطرقة التي لاقت هجوماً عنيفاً من جمعيات الرفق بالحيوان لما فيها من ممارسات همجية وغير إنسانية، ولعل الطريقة المتطورة يكون لها المصير نفسه، فلا فرق بينهما في أذية الحيوان.

(١) مجلة مجمع الفقه الإسلامي (٥٢/١)، وينظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٤/٢٨٠٠).

(٢) ينظر: الصورة رقم (٥) في ملحق الصور التوضيحية.

ومما هو مقرر هنا أنه إذا تم الاكتفاء بقتل الحيوان بتلك الطريقة، ولم يذبح بالطريقة الشرعية، فهو موقوذة، لا يحل أكلها، وكذلك لو ذُبح بعد أن فارقت الروح^(١)، وإن ذبح فوراً بعد الضربة وقبل أن يموت، فلا يجزئ عند بعض أهل العلم، لأن هذا الضرب إنفاذ لمقاتل الحيوان، فيكون قد قُتل بسببين: مبيح وحاضر، بل نسبة الزهوق إلى الضرب أقرب من نسبتها إلى الذبح^(٢).

ومن الطرق أيضاً: طريقة الخنق، كما هو المتبع في الطريقة التي تسمى الطريقة الإنجليزية، والتي يتم فيها خرق الصدر بين الضلعين، وينفخ فيها حتى يختنق الحيوان بضغط هواء المنفاخ على رئتيه، ولا يخرج من الحيوان الدم، ومن البديهي أن الحيوان في هذه الصورة داخل في المنخقة التي حرّمها الله.

وقد قرر مجمع الفقه الإسلامي أنه لا يجوز تدويخ الحيوان المراد تذكيته باستعمال المسدس ذي الإبرة الواقذة أو بالبلطة أو بالمطرقة، ولا بالنفخ على الطريقة الإنجليزية^(٣).

ج. التدويخ بالطرق الغازية.

وهي الطريقة المستعملة حالياً في التخدير، حيث يحبس الحيوان في هواء يحتوي على ثاني أكسيد الكربون بنسبة معلومة، ويتم التخدير بإدخال الحيوان في نفق به سيران متحركان للأعلى، وفيه حواجز تسمح بدخول كل حيوان على حدة إلى غرفة التخدير، ويعرض الحيوان للغاز لمدة معينة، فيؤثر على دماغه ويفقده الوعي، ثم إلى صالة الذبح، وقد

(١) ينظر: بحوث في قضايا فقهية معاصرة للعثماني (ص/٤٣٠)، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي

الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٦)، أبحاث هيئة كبار العلماء (٢/٥٦٨).

(٢) ينظر: الذخيرة، للقرافي (٤/١٧٩)، بداية المجتهد (ص/٣٦١، ٣٦٢)، الفقه الإسلامي وأدلته (٤/٢٠٨).

(٣) ينظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (١/٥٢)، فتاوى اللجنة الدائمة (٢٢/٤٢٢، ٤٦٢، ٤٢٤، ٤٦٨).

شاع استعمال هذه الطريقة في كثير من مجازر أوروبا، نظراً لسهولة العملية مقارنة بالتدويخ الكهربائي^(١)، وهذه الطريقة مع ما فيها من تعذيب للحيوان فإنه إذا مات جرّاء هذا الخنق يكون منخقة محرمة بنص القرآن، والتدويخ بواسطة هذه الطريقة محرم إن كان يؤدي إلى موت الحيوان قبل ذبحه، كما قرر ذلك مجمع الفقه الإسلامي^(٢).

المطلب الثاني

أثر طرق التدويخ في التخفيف من معاناة الحيوان، ومقارنتها بالتذكية الشرعية من حيث تحقيقها لمبدأ الرفق بالحيوان

تؤكد الأبحاث المعاصرة أنه لا توجد إلى الآن طريقة دقيقة لقياس شعور الحيوان بالألم، وأما الاعتقاد السائد بأن مظهر الحركات التي يقوم بها الحيوان بعد الذبح تعكس شعوره بالألم فهو اعتقاد خاطئ، فما يقوم به من حركات بعد الذبح عبارة عن نشاط عضلي منعكس لا علاقة له بالشعور بالألم، ولا تتوفر دراسات كافية في الفترة الراهنة تؤكد أن ذبح الحيوان بعد صعقه أقل إيلاًماً من ذبحه بدون صعق، فالأمر مشكوك فيه، ولا يوجد لدينا ما يثبت أن طريقة الصعق تريح الحيوان وتسكن ألمه، وإذا كان الأمر كذلك فالأفضل هو تركها، لعدم وجود أدلة كافية تبرهن على أن الحيوان فيها لا يشعر بالألم، فما هذه الطرق إلا وسيلة لتحقيق مكاسب تجارية كبرى، لأنها تؤدي إلى بقاء الدم في الحيوان مما يزيد من

(١) ينظر: بحوث في قضايا فقهية معاصرة للعثماني (ص/٤٣٠)، أبحاث اجتهادية في الفقه الطبي للأشقر (ص/١٨٦)، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٦)، فتاوى اللجنة الدائمة (٢٢/٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) ينظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (١/٥٣).

وزنه، وبصفة عامة فإن جميع طرق التدويخ الكهربائية والآلية والغازية تعرّض الحيوان البريء الصامت لمعاناة شديدة قبل ذبحه مقارنةً بطريقة الذبح بدون تدويخ^(١).

فالصدمة الكهربائية لا تؤدي مقصودها في جميع الأحوال؛ فإذا كانت الصدمة مثلاً خفيفة بالنسبة لضخامة الحيوان فإنها لا تفقده الوعي؛ فيتعذب ويشعر بالألم مرتين، الأولى: بالصدمة الكهربائية أو بضربة المسدس، والثانية: عند الذبح، أما إذا كانت الصدمة الكهربائية شديدة لا يتحملها الحيوان فإنها تؤدي إلى موته بتوقف القلب، فيصير ميتةً لا يجوز أكله، ويبقى أن الطريقة المتبعة لدى المسلمين أرحم بالحيوانات، وذلك لأن الذبح يتم بسكين حاد وبسرعة فائقة، ومن الثابت أن الشعور بالألم ناتج عن تأثير الأعصاب الخاصة بالألم تحت الجلد، وكلما كان الذبح بالطريقة المذكورة خف الشعور بالألم أيضاً، وقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليجد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»^(٢) أدل دليل على حرص الدين الإسلامي على الرفق بالحيوان وإراحته^(٣)، ويمكن أن نستفيد من قوله ﷺ: «فليرح ذبيحته» أن الطريقة الإسلامية التي شرعها الله ﷻ، والتي تتم عن طريق التذكية المحضة هي الوسيلة المثلى لإراحة الحيوان والتقليل من ألمه، وإذا كانت الأبحاث المعاصرة لم تتوصل إلى قياس يؤكد ويثبت ما إذا كانت طرق التدويخ تخفف من معاناة الحيوان أو تزيده سوءاً، فالواجب علينا بوصفنا مسلمين أن نتمسك بالنص الذي بين أيدينا، والذي قال فيه من لا ينطق عن الهوى: «وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»؛ لأن شعور

(١) ينظر: أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي (ص/٧١٩)، أبحاث هيئة كبار

العلماء (٥٩٢، ٥٩٢/٢).

الحيوان الصامت بالألم أمر مغيب مخفي عنا، ولا يمكننا معرفته في الوقت الراهن، وإذا أردنا أن نصل إلى مراعاة حق الحيوان، وتخفيف ألمه، وإراحته، فعلينا أن نلتزم في إزهاق روحه بالذكاة الشرعية؛ دون تعريضه لتدويخ ونحوه؛ لأنها الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نركن ونطمئن إليها في هذا المجال؛ كونها مستقاة من هدي المبعوث رحمةً للعالمين، وستؤدي بنا يقيناً إلى تحقيق الأمر النبوي على أكمل وجه: «فليرح ذبيحته».

قال ابن الجوزي رحمته الله: «وأما ألم الذبح فإنه يستر، وقد قيل: إنه لا يوجد أصلاً؛ لأن الحساس للألم أغشية الدماغ؛ لأن فيه الأعضاء الحساسة؛ ولذلك إذا أصابها آفة من صرع أو سكتة لم يحس الإنسان بالألم، فإذا قطعت الأوداج سريعاً لم يصل ألم الجسم إلى محل الحس، ولهذا قال عليه السلام: «إذا ذبح أحدكم فليحد شفرته، وليرح ذبيحته»^(١).

وقد شهد بذلك العالم الألماني البروفيسور (شتولتز) حيث قال: «إن طريقة الذبح الحلال الإسلامي أو اليهودي، غير مؤلمة للحيوان إذا تمت بطريقة صحيحة، وأن استعمال الطريقة الغربية أقل كفاءة»، وهذه شهادة أخرى من البروفيسور (جي سي هانس) يقول فيها: «في نظري أن الذبح الإسلامي واليهودي من الناحية العملية أفضل برغم الدعاية التي تثار في أوروبا ضده، أما الصعق فإنه يشل الحيوان، وهذا يعني أنه يفقد الإحساس والشعور، بل يتألم ولا يزول هذا الإحساس بالألم إلا بعد انقطاع الدم عن الدماغ»^(٢).

وفي ظل المضايقات التي تمارسها بعض السلطات ضد الجاليات الإسلامية في أوروبا، والتي تثار ضد الدين، يُسن قانون منع التذكية

(١) تلييس إبليس (ص/٦٢).

(٢) ينظر: الذبح الإسلامي ومزاياه والذبح الغربي وخفاياه، للبرازي نقلاً من موقع: <http://www.islam.gov.kw/site/ads/Gulfi-Halal>

الشرعية على المسلمين في مذابحهم في جميع ولايات ومحافظات بلجيكا، تزامناً مع عيد الأضحى المبارك لهذا العام (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)^(١)، ويُجبر المسلمون على استخدام طرق التدويخ قبل التذكية، وتُفرض رقابة شديدة على منازل المسلمين ومذابحهم، ويهدد كل من خالف هذا القانون بدفع غرامة قد تصل إلى ألف يورو، ادعاءً منهم وزعمًا أن هذا القانون يحفظ حقوق الحيوان، ويراعي مشاعره، ويحميه من الذبح بطريقة وحشية، وما علموا أن الحيوان الصامت لو نطق لاختار أن يُذبح على الطريقة الشرعية، التي سنها أرحم الناس بالخلق.

ويتكاتف المسلمون في هذا البلد، ويجتمع علماءه وأئمته، وتنتهي الهيئة العلمية الشرعية بقرار مقاطعة لحوم الحيوانات التي تعرضت للتدويخ قبل ذبحها، وإعلام جميع المسلمين عبر المنابر في المساجد، وأماكن تجمعاتهم بقرار المقاطعة؛ بغرض الضغط على الحكومة والبلديات لسحب قانون منع التذكية الشرعية والسماح للمسلمين بممارسة شعيرة الذبح، كما سنها لهم نبي الرحمة ﷺ، وحتى ساعة كتابتي لهذه الأسطر لا يزال المنع قائماً من قبل السلطات، وما يزال المسلمون ملتزمون بقرار مقاطعة اللحوم في بلجيكا، حتى يغلب الحق الباطل، وتسود الرحمة التي بُعث سيد الخلق من أجلها، لتستوعب كل الخلق، حتى الحيوان المذكى.



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنال المكرمات، أحمده على ما أنعم به عليّ من إتمام هذا البحث سائلةً المولى أن يجعله خالصاً لوجهه مقرباً إلى رضوانه، وأن يصل إلى تحقيق ما يصبو إليه مؤتمر الرحمة المبارك، وقد استخلصت منه بعض النتائج والتوصيات التي انقذت في الذهن بعد كتابته، أذكر من أهمها:

١. أن الرحمة التي نجدها في قلوبنا ما هي إلا جزء ضئيل من رحمة الله الكبرى بثها الله في قلوبنا، لنرحم بها خلقه، وننال رحمته ﷻ في الدنيا والآخرة؛ لأن رحمته لا تُتال إلا برحمة خلق الله، فمن لا يرحم لا يرحم.
٢. أن النبي ﷺ هو أرحم الخلق بالخلق، وأحنهم عليهم، وما بعثه الله وأرسله إلا ليكون رحمةً للعالم أجمع إلى قيام الساعة.
٣. أن النبي ﷺ جاءت رحمته شاملةً لجميع خلق الله حتى الحيوان وهو يساق إلى نهايته التي خلقه الله من أجلها - الذكاة - شملته الرحمة في جميع مراحلها القبلية والبعدية.
٤. من مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان قبل تذكيتته؛ عدم إزهاق روحه

إلا لمنفعة أو دفع ضرر، وعدم تخويفه وإفزاعه قبل ذبحه، ويتحقق ذلك بذبحه نهاراً لا ليلاً، وقوده إلى مكان الذبح برفق ولين، وعدم ذبح أخيه أمامه، وموارة آلة الذبح، وعدم إمضائها وحدها أمام ناظره، وعدم تعذيبه بصنوف وأنواع العذاب المختلفة: حسيّة كانت أو معنوية؛ كحبسه وتجويعه، أو ربطه، واتخاذ هدفًا للرماية، أو وسمه بالنار، أو ضربه في وجهه، أو التمثيل به بقطع أطرافه وتشويهه وهو حي، والأمر بالإحسان إليه، والرفق به، وعرض الماء عليه قبل تذكّيته.

٥. من مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان حال تذكّيته؛ تحريم إغراقه، أو خنقه، أو إلقائه من شاهق، أو ضربه حتى الموت، أو حرقه، والأمر- بحد آلة الذكاة وإمضائها بعيداً عن نظر الحيوان، وعدم ذبحه بآلة غير حادة، وإضجاعه برفق ولين، وذكر اسم الله عليه بغرض طمأننته، والإجهاز عليه بسرعة بقطع أوداجه؛ لتتم عملية ذكاته في وقت وجيز لا يتعدى بضع ثوان.

٦. من مظاهر رحمته ﷺ بالحيوان بعد تذكّيته؛ إذا قطع الأوداج وتمت التذكية أن يتمهل ولا يقطع رأسه في الحال، ولا يزيد في القطع حتى يبلغ النخاع، ولا يبادر إلى سلخ جلد الحيوان، أو نتف ريشه، أو غمسه في الماء المغلي، ولا يقطع أعضائه ولا يحركه ولا ينقله من مكانه، بل يترك جميع ذلك حتى تفارقه الروح ويسكن جسده.

٧. إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ في التعامل مع الحيوان المذكى يدرك أنه ﷺ وازى بين الرحمة والذكاة في جميع تطبيقاتها، ابتداءً من اختيار التوقيت الزمني المناسب للذكاة، واختيار الأداة المستخدمة في الذكاة وتقنينها بشروط معينة، ومراعاة كلا

الجانبين النفسي المعنوي، والعضوي الحسي للحيوان المذكي، ليكفل بذلك تمتعه بكافة حقوقه حتى وهو يساق إلى الموت، وفي ذلك تدريب للأمة المحمدية على رحمة خلق الله وعدم التسلط عليهم، والاعتراف له بالمنة، والشكر له بالنعمة، بأنه سخر لنا ما لو شاء لسلطه علينا، وأباح لنا ما لو شاء لحرمه علينا.

٨. التذكية مشروعة بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

٩. من الحكم التي شرعت الذكاة من أجلها؛ الرحمة بالحيوان، والرفق به، والتقليل من ألمه، وإراحته على أوسع نطاق.

١٠. التذكية الشرعية إذا طبقت بالشكل السليم، ورُوعي في تطبيقها هدي النبي ﷺ، والتزم المذكي بجميع أوامر النبي ﷺ في جميع مراحل الذكاة القبلية والبعديّة، فإنها ستؤدي إلى إراحة الحيوان، والتقليل من ألمه، ومراعاة حقوقه أكثر مما عداها من طرق التدويخ الشائع استخدامها في العالم.

١١. لقد درجت الأمة الإسلامية على العمل بشعيرة الذكاة، لأنها من شرائع الإسلام والأصل فيها أن تكون بدون تدويخ للحيوان، لأن طريقة الذبح الإسلامية بشروطها وآدابها هي الأمثل، رحمة بالحيوان وإحساناً لذبحته، وتقليلاً من معاناته إلى أن طُرحت قضية تدويخ الحيوانات وصعقها، ثم ذبحها آلياً، فكان لزاماً على علماء المسلمين أن يتصدّوا لهذه النازلة وقيموا الحجة والبرهان على تفوق شرع الله ورحمته، ورعايته لحقوق خلقه، على ما دونه من تشريعات وقوانين وضعيّة.

١٢. ومما ينبغي أن توصي به هذه الدراسة نشر ثقافة الرحمة بين أفراد المجتمعات الإسلامية بجميع شرائحها، وإذاعتها عبر مختلف



المنابر الدينية والتربوية والأكاديمية والصحية والنفسية، وتكثيف الدورات والمؤتمرات التي تسلط الضوء على دراسة موضوع الرحمة في الإسلام، وتشجيع الباحثين على خوض غمار بحثه وتقنيته، وترجمة الدراسات المقدمة إلى المؤتمر لمختلف اللغات؛ ليستفيد منها الناطقون بغير العربية، لاسيما وأن موضوع الرحمة هو موضوع عالمي يحتاجه الإنسان في جميع الأقطار، ليعيش بسلام مع أخيه الإنسان.

١٣. فيما يتعلق بموضوع رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكى توصي هذه الدراسة بأن يتم نشر هدي النبي ﷺ في تعامله مع الحيوان المذكى، وتبليغه للناس وتوعيتهم به، لاسيما وقت ذبح الأضاحي في العيد والحج، وذلك بنشره عبر وسائل الإعلام وفي أماكن الذبح كالمسالخ ونحوها، عبر المنشورات المكتوبة، والبرامج المرئية والمسموعة، وفي مواقع التواصل الاجتماعي ونحو ذلك من وسائل الاتصال.



فهرس المصادر والمراجع^(١).

١. أبحاث اجتهادية في الفقه الطبي. محمد سليمان الأشقر. دار النفائس. عمان: ط١. ١٤٢٦هـ.
٢. أبحاث هيئة كبار العلماء. الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية. الرياض: ط١. ١٤٠٩هـ.
٣. أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي. المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. ربيع الأول ١٤٠٧هـ.
٤. الأم. أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: رفعت فوزي عبدالمطلب. دار الوفاء. المنصورة: ط١. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٥. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان: ط١. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٦. بداية المجتهد ونهاية المقتصد. أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي. دار ابن حزم. بيروت - لبنان: ط١. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٧. الترغيب والترهيب. عبدالعزيز بن عبدالقوي المنذري. حكم على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف. الرياض. المملكة العربية السعودية: ط١. ١٤٢٤هـ.
٨. تفسير القرآن العظيم. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. تحقيق: سامي سلامة. دار طيبة. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط١. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(١) تم ترتيبها على حروف المعجم.

٩. تفسير التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور. الدار التونسية للنشر. تونس: ١٩٨٤م.
١٠. تلبيس إبليس. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. دار الفكر. بيروت - لبنان: ط١. ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١١. تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير. أحمد بن علي ابن محمد بن حجر العسقلاني. تحقيق: حسن قطب. مؤسسة قرطبة. ط١. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
١٢. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق: عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة. ط١. ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
١٣. الحاوي الكبير. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي. تحقيق: محمود مطرجي. ياسين الخطيب. وآخرون. دار الفكر. بيروت - لبنان: ط ب. ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
١٤. الذبح الإسلامي ومزاياه والذبح الغربي وخفاياه. د. محمد فؤاد البرازي، ضمن أبحاث مؤتمر الخليج الأول لصناعة الحلال وخدماته نقلًا عن موقع: <http://www.islam.gov.kw/site/ads/Gulf1-Halal>
١٥. روضة الطالبين. أبو زكريا يحيى بن شرف النووي. ومعه المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ومنتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. علي محمد معوض. دار عالم الكتب. الرياض - المملكة العربية السعودية: طبعة خاصة. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٦. سبل السلام شرح بلوغ المرام للحافظ ابن حجر العسقلاني. محمد ابن إسماعيل الصنعاني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط١. ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٧. الذخيرة. شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي. تحقيق: محمد حجي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: ط١. ١٩٩٤م.
١٨. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف. الرياض - المملكة العربية السعودية: طبعة جديدة منقحة ومزودة. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
١٩. سنن أبي داود. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط٢. ١٤٢٤هـ.
٢٠. السنن الكبرى. أحمد بن الحسين البيهقي. وبذيله الجوهر النقي. ابن التركماني علاء الدين علي بن عثمان المارديني. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد - الهند: ط١. ١٣٤٤هـ.
٢١. السنن الكبرى. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. إشراف: شعيب الأرنؤوط. تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي. مؤسسة الرسالة. بيروت - لبنان: ط١. ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٢٢. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار. محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: محمود إبراهيم زايد. لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة - مصر: ط١. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٣. شرح السنة. الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد الشاويش. المكتب الإسلامي. بيروت: ط٢. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٤. شرح صحيح البخاري. ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك. تحقيق: ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشد. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط٢. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٥. الشرح الممتع على زاد المستنقع. محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي. ط١. ١٤٢٢هـ.



٢٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. إسماعيل بن حماد الجوهري.
تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت - لبنان:
ط٤. ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٧. صحيح البخاري. أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم
البخاري. اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. بيت الأفكار الدولية للنشر.
الرياض. المملكة العربية السعودية: ط ب. ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٨. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. علاء الدين علي بن بلبان
الفارسي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت:
ط٢. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢٩. صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. بيت الأفكار الدولية للنشر. الرياض.
المملكة العربية السعودية: ط ١. ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٠. غريب الحديث. أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: حسين شرف،
وعبدالسلام هارون. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة
- مصر: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣١. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئاسة العامة
لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. دار العاصمة.
الرياض: ط١. ١٤١٩هـ.

٣٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني. تحقيق: عبدالعزيز بن باز. محمد فؤاد عبدالباقي.
محب الدين الخطيب. دار المعرفة. بيروت - لبنان: ط١. ١٣٧٩هـ.

٣٣. لسان العرب. ابن منظور. اعتنى به: أمين عبدالوهاب ومحمد
العبيدي. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان: ط٣. ١٤١٩هـ -
١٩٩٩م.

٣٤. الفقه الإسلامي وأدلته. وهبة الزحيلي. دار الفكر. دمشق: ط٢.
١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
٣٥. القاموس المحيط. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
الشيرازي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط٣. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٣٦. في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. القاهرة- بيروت: ط٣٢.
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٣٧. مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي. منظمة التعاون الإسلامي.
دار البشير. جدة: ١٩٩٧هـ.
٣٨. المحكم والمحيط الأعظم. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده
المرسي. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت -
لبنان: ط١. ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٣٩. المحلى. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. تحقيق: أحمد
محمد شاكر. إدارة الطباعة المنيرية مطبعة النهضة. مصر: ط١.
١٣٤٧هـ.
٤٠. مختار الصحاح. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. تحقيق:
محمود خاطر. مكتبة لبنان. بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٤١. مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات. أبو محمد
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. ويليه نقد مراتب الإجماع. ابن
تيمية. مكتبة القدسي. ط١. ١٣٥٧هـ.
٤٢. المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. وبذيله
تتبع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي لمقبل الوادعي. دار
الحرمين. القاهرة - مصر: ط١. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٤٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون.
مؤسسة الرسالة. بيروت: ط١. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.



٤٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. المطبعة الأميرية. القاهرة: ط٥. ١٩٢٢م.
٤٥. المصنف. عبدالرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. المكتب الإسلامي. بيروت: ط٢. ١٤٠٣هـ.
٤٦. معالم السنن. أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي. وهو شرح سنن الإمام أبي داود. مطبعة محمد راغب الطباخ العلمية. حلب: ط١. ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
٤٧. المعجم الكبير. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. مكتبة العلوم والحكم. الموصل: ط٢. ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
٤٨. معجم مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: محمد عوض مرعب. فاطمة أصلان. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان: ط١. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٤٩. المغني. موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي. شرح مختصر الخرقى. أبو القاسم عمر بن الحسين. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. عبدالفتاح محمد الحلو. دار عالم الكتب. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط٣. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٥٠. المفردات في غريب القرآن. أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة. بيروت - لبنان: بدون طبعة. بدون تاريخ.
٥١. المنتقى شرح موطأ مالك. أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي. تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٢. المقنع. موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي. والشرح الكبير. شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي. والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف. علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد المرداوي. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. عبدالفتاح محمد الحلو. دار هجر. ط ١. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٥٣. النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق: طاهر الزاوي. محمود الطناحي. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان: ط ٤. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٥٤. نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار. محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق. دار ابن الجوزي. الرياض - المملكة العربية السعودية: ط ١. ١٤٢٧هـ.



ملحق الصور التوضيحية



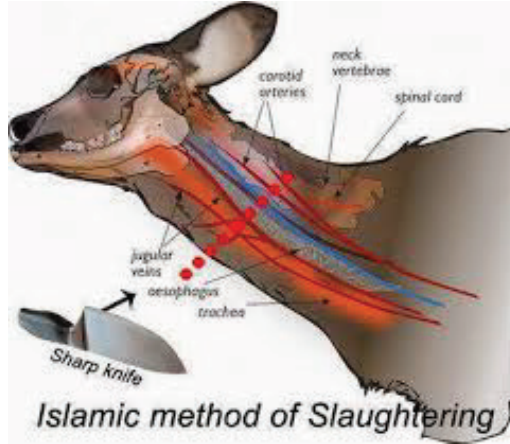
صورة رقم (١)

جزء من المخالفات التي يقع فيها بعض الناس في الذبح، التي تتنافى مع هدي النبي ﷺ الذي يقضي بوجوب مراعاة الجانب النفسي للحيوان المراد ذبحه، ووجوب مواراة وإخفاء كل ما من شأنه إخافته أو ترويعه؛ كمنظر أخيه المذبوح، ودمائه، وأعضائه، وآلة الذبح؛ لأنه كائن حي يشعر ويتألم ويخاف ويحزن.



صورة رقم (٢)

شكل من أشكال العنف الممارس ضد البط والإوز في مزارع الدواجن الفرنسية، حيث يتم احتجازها في أقفاص ضيقة تحول دون حركتها، وتجبر على تناول كمية كبيرة من الطعام كل يوم حتى تموت بصورة وحشية تتنافى مع رحمة الحيوان ومراعاة حقوقه، كل ذلك لغرض الحصول على كبدها المتضخم بسبب احتباس الدهون، واستعماله في الأطباق الفاخرة التي يجني أصحابها أرباحاً وفيرة لقاء بيعها.



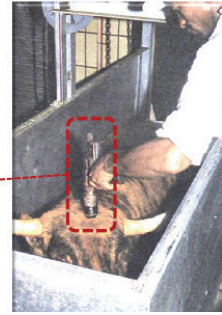
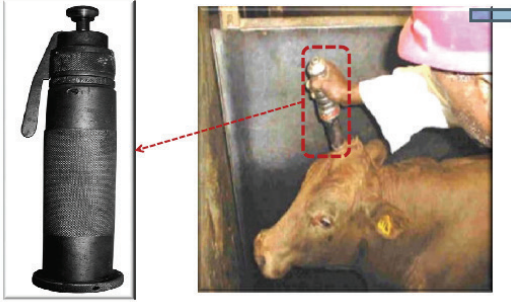
صورة رقم (٤)

الذبح بالطريقة الإسلامية يتم في وقت وجيز ويريح الذبيحة



صورة رقم (٥)

التدويخ بطريقة الصعق الكهربائي



صورة رقم (٦)

التدويخ بطريقة المسدس بنوعيه ذو القضيب المعدني، وذو الطلقات



رحمة الرسول ﷺ

بأصحابه ﷺ

إعداد:

د. عبدالله بن وكيل الشيخ

الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية سابقاً



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، وبعد :

بين الله تعالى سبب بعثة النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهذه الرحمة ظاهرة في كل أمر أو نهي أو توجيه جاء به الإسلام، إذ الرحمة غاية هذه البعثة وهدف هذه الرسالة، فأحكامها رحمة، وقرآنها رحمة، ونبيها المبعوث رحمة للخلق أجمعين، وحيث كان ﷻ مثلاً حياً لهذا الدين، فلا غرو حينئذ أن ترى الرحمة تتجلى في كل أقواله وأفعاله ﷻ مع أصحابه ومع الخلق أجمعين، وفي هذا البحث إشارة إلى جانب من جوانب رحمة النبي ﷻ بأصحابه ﷺ، وهي دعوة للاقتداء بسيرته ﷻ، وترسم خطاه في رحمة كريمة تفيض على من حولنا من خلق الله، فتكون أعظم دعوة وأجل هداية للناس وأوضح بيان لما اشتمل عليه هذا الدين الكريم من مبادئ ومثل، البشرية أحوج ما تكون إليها في عصر تعلقت معظم نفوس الناس بالمادة وأسبابها ونضب من حياتها ميراث التراحم والتأخي.

أولاً: مشكلة البحث:

من المقرر عند كل مسلم اتصاف النبي ﷺ بالرحمة، وأن من أظهر المجالات التي تتجلى فيها تلك الصفة رحمته ﷺ بأصحابه، وهنا يقع التساؤل هل كانت تلك الرحمة شاملة لكل مناحي الحياة أم كانت خاصة بناحية معينة لا تتجاوزها .

ثانياً: أسئلة البحث:

يجيب البحث على عدد من الأسئلة منها:

١. هل رحمة النبي ﷺ كانت خاصة بفئة معينة من الصحابة أم عمتهم أجمعين؟
٢. هل كانت رحمة النبي ﷺ في جوانب محددة أم عامة؟
٣. كيف يمكن الاستفادة من صور وتجليات رحمته ﷺ؛ بالنسبة للمسلم عامة وللعالم والداعية بصفة خاصة؟

ثالثاً: أهداف البحث:

١. بيان ما كان يتمتع به النبي ﷺ من الرحمة والأخلاق العظيمة.
٢. إيضاح أهمية هذا المسلك وأثره في الناس؛ لكسب قلوبهم، وتثبيت إيمانهم، وتعليمهم، وتربيتهم.
٣. توجيه الدعاة والمربين الى العناية بخلق الرحمة في التعامل مع الجاهل والعاصي والناس كافة.

رابعاً: المنهج:

اتبعت في دراسة الموضوع المنهج الاستقرائي الوصفي بالرجوع لكتب الحديث وشروحها وجمع ما له صلة بالموضوع، ثم إدارة الفكر لالتماس

العبرة والعظة وإظهار موضع الأتساء، كما قمت بعزو الآيات بذكر اسم السورة ورقم الآية، وتخريج الأحاديث من مصادرها، وبيان درجاتها، مكتفياً لما كان في الصحيحين أو أحدهما بالعزو إليه، وشرحت الألفاظ الغريبة من مصادرها الأصلية؛ كتب اللغة وغريب الحديث.

خامساً: خطة البحث:

نظمت محتوى هذا البحث في مبحثين، وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: مفهوم الرحمة.

المطلب الأول: الرحمة لغة.

المطلب الثاني: الرحمة اصطلاحاً.

المطلب الثالث: مكانة الرحمة في الإسلام.

المبحث الثاني: قواعد في التعامل النبوي الرحيم مع أصحابه.

المطلب الأول: قاعدة مراعاة اختلاف أحوال الصحابة.

المطلب الثاني: قاعدة مراعاة مآلات الأفعال.

المطلب الثالث: قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

الخاتمة: وذكرت فيها: نتائج البحث، وأبرز التوصيات.

وفي الختام أسأل الله أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث، وأن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن أخطائي وعثرتي، إنه سميع مجيب...

المبحث الأول مفهوم الرحمة

المطلب الأول الرحمة لغة

الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، فهي انفعال كريم، يولد عائدة حميدة، فإذا قيل: تراحم القوم، فالمراد لان بعضهم لبعض، وأشفق عليه، وعاد عليه بالبر والحسنى، ومن هنا سميت علاقة القربى التي تولد هذا الإحسان بالرحم، وسمي مستقر الولد من أمه بالرحم؛ لأن نتاج ذلك الرحم مخلوق تغشاه الرحمة، ويمتد إليه الوداد^(١) وفي الكتاب العزيز: ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البند: ١٧]، أي: أوصى بعضهم بعضاً برحمة الضعيف والتعطف عليه.

المطلب الثاني الرحمة اصطلاحاً

اختلفت عبارات المعرفين للرحمة، فمنهم من نظر إليها من حيث هي، فعرفها بأنها: حالة وجدانية تعرض لمن به رقة القلب ويرى على غيره

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، والصحاح للجوهري (٥/ ١٩٢٩)، ولسان العرب لجمال الدين بن منظور (١٢/ ٢٣٠) مادة: رحم.

ما يوجب رحمته، فالرحمة إذا مركبة من الوُدِّ والجَزَع، فهي في أصلها وُدٌّ، ومتعلقها حالة من الجزع على ما نال أو يخشى أن ينال المرحوم من المنغصات^(١).

ومنهم من عرف الرحمة بما تستلزمه من الإحسان وإرادة الخير والبر وسوقه لمن يحبه الراحم^(٢).

وأجاز بعضهم إطلاقها على المعنيين السابقين إذا اجتمعا، أو على أحدهما في حالة الانفراد، حيث عرفها الراغب بأنها: «رَقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المَرْحُوم، وقد تستعمل تارة في الرَقَّةِ المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرَقَّةِ»^(٣).

لكن ينبغي أن يعلم أن تفسير الرحمة بإيصال الخير للمرحوم قد يتلبس أحياناً بنوع من الألم؛ ولكنه ألم مغتفر بالنظر إلى المال الذي يرجى لمن فعل به ذلك، كما قال الإمام ابن القيم رحمته: «ومما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك، فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفقه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة بعض الأمهات»^(٤).

(١) انظر: الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: (٢/ ٣٧٦)، وتهذيب الأخلاق

للجاحظ (ص ٢٤)، والأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني (٢/ ٣).

(٢) انظر: التعريفات (١١٠)، والمقصد الأسنى، للغزالي، (٦٢).

(٣) مفردات القرآن، للراغب (١/ ٣٤٧)، وانظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢١).

(٤) إغاثة اللهفان، ١٦٩/ ٢ - ١٧٥.

المطلب الثالث مكانة الرحمة في الإسلام

للرحمة منزلتها العظيمة ومكانتها العالية في الإسلام، ومما يعظم شأنها، ويعلي مكانتها: أنها صفة من صفات الله تعالى، ومنها اشتق اسمان له ﷺ فهو (الرحمن الرحيم)، فالرحمن دال على الصفة القائمة به ﷺ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفاعل، وتأمل ذلك في ورود الاسمين في الكتاب العزيز كما قال ﷺ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته^(١).

ومن رحمته ﷺ وأجزل نعمه علينا: أن بعث فينا نبينا صلى الله عليه وسلم المتصف بهذه الصفة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، فجعل ﷺ الرحمة هدفاً من أهداف الرسالة، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهي رحمة شاملة لجميع الخلق، وما جعله الله في هذا الكتاب العزيز من الأوامر والنواهي غايته إدخال الرحمة على الخلق وإنما تكون المشقات حين يتولى المكلف عن رحمة ربه، ويركب ظهر العناد، متبعاً شهوات النفس سالكاً دروب الهوى في سير حثيث يظن أنه بالغ ما يسعد وليس وبالغه، ولعلك تجد هذا ما يكون وأجله في قول ربنا جل في علاه ﴿أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [الغنكبوت: ٥١]، وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٤).



ولما كان الإنسان بطبعه لا يعيش وحده؛ بل هو متحرك في وسط بشري، يأخذ منهم ويعطي، ويبادلهم المنافع، وقد يتعرض منهم للأضرار كان من خير ما يهديه في تعامله معهم هذا الخلق الجليل الذي أشاعته النصوص الشرعية في حياة العبد المسلم، مما تجد بعض دلائله في الصفحات القادمة إن شاء الله.



المبحث الثاني

قواعد في التعامل النبوي الرحيم مع أصحابه

آثرت أن أتكلم عن جوانب رحمته ﷺ بأصحابه من خلال مطالب محددة، دون أن أسردها سرداً عاماً؛ طلباً لنظمها في وحدات محدودة، تشكل منارات للمربين والمؤتسين به عليه الصلاة والسلام؛ فإن الأمر إذا عرفت معاقده انطوت البراجم على حفظه، وأمكن للنفس أن تتعلق به، وأن تنتقل من الصورة الواحدة إلى المبدأ العام، فتتهدي بتلك المعالم الثابتة الراسخة، وهذا دين خاتم، جاء ليخط للبشرية دربها المبارك في هذه الحياة المفضي إلى بركة تامة في منازل الآخرة.

وثمة أمر آخر، وهو أن المطالع لرحمته ﷺ من خلال هذه المنهجية يدرك أن رحمته ﷺ لم تكن عاطفة جياشة يملئها الظرف الراهن فحسب؛ ولكنها كانت منهجاً منضبطاً، ينطلق من أسس راسخة، ومبادئ واضحة، ومن هنا يكون لهذا الخلق مكان أمين في النفس البشرية، فلا يتقلب الراحم في منازل التناقضات، فيرحم أحياناً وتغيب عنه الرحمة أحيان، ولا يبأس المرحوم من معرفة منهجية الراحم؛ حيث تكون رحمته بغير خطام ولا زمام؛ على أن هذا لا يعني بحال إنكار منزلة العاطفة من الرحمة، بل هي أساسها الباعث وغذاؤها الدائم، يهون بها مسلك الرحمة على الراحم وإن كان شاقاً، وإنما نعني أن هذه العاطفة المباركة مَقْوَدَةٌ بقواعد ثابتة يملئها الشرع الحنيف والعقل الحصيف.



المطلب الأول قاعدة: مراعاة اختلاف أحوال الصحابة

من المبادئ الأساسية لرحمة النبي ﷺ في التعامل مع الصحابة ﷺ مراعاة اختلافهم؛ من حيث العمر، والجنس، والقوة، والضعف، والغنى، والفقر، ثم هو يراعي اختلاف بيئاتهم، واهتماماتهم، وقدراتهم على الفهم والمعرفة، فكان ﷺ يراعي ذلك كله في أمره لهم، ونهيه إياهم، وتوجيهه لهم؛ حتى يقع كلامه من نفوسهم موقعاً يجعله أحظى بالقبول، وأولى بالرعاية، وأمثلة هذه القاعدة في رحمته ﷺ كثيرة لا تنتهي وإنما نسوق لك معاهد منها مقرونة ببعض أفرادها في فروع متوالية:

الفرع الأول: التنوع في الجواب والفتوى بما تقتضيه حال السائل والمستفتي:

بعث ﷺ معلماً، ومربياً، ومفتياً، وللبشر في تلقي هذا التعليم والانفعال بالتربية واستقبال الفتوى طرائق قديداً، ولكن رحمته ﷺ كانت تراعي كل هذا التنوع، وتستوعبه؛ بغية الوصول لهدف التعليم، والتربية، والإفتاء؛ فالتعليم والإفتاء مقصود به تهذيب هذه النفس الإنسانية، وغرس الرشد في سلوكها، فاستحضار حال من توجه إليه أعظم معين في الوصول إلى المبتغى:

- جاء إلى النبي ﷺ عدد من أصحابه يستوصونه أمراً يستقيم به السلوك، وتصلح به النفس، والمرء حينما يأتي يطلب الوصية يكون قد بلغ من الصدق غايته؛ فهو يطلب لنفسه حظها من مرضاة الله، وهذا يقتضي أن يراعى هذا الجانب في شخصه غاية المراعاة، حتى إذا سمع الوصية وجدها تلامس نفسه، وتعالج حاله، وتصلح ما جاء لإصلاحه، جاء أحد أصحابه إليه ﷺ فقال: أَوْصِنِي، قال: "لا تغضب" فردد مراراً، قال: "لا تغضب"⁽¹⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم ٥٧٦٥.

لقد عرف ﷺ من حال ذاك الرجل أنه سريع الغضب، والغضب خصلة متى استحكمت من المرء حملته على حماقات لا تنتهي، وجنایات لا تعد، فأجاب بهما يحتاجه، ويصلح حاله، ولم يكن يصرفه عن الإصرار على هذه الوصية دون غيرها إصرار الرجل على التنوع، فالرجل كان يقدر أن هناك ما هو أنفع وأبلغ في ترقّيه وأعم من هذه الوصية الجزئية، لكن المربي ﷺ كان يعلم أن هذه الوصية -على جزئيتها- بوابة لرشد في السلوك لا تنتهي أفرادها، فهي وإن كانت جزئية في بادئ النظر لكنها كلية في واقع الحال^(١).

وجاءه صحابي آخر يطلب الوصية أيضاً، فأوصاه ﷺ بغير ما أوصى به الصحابي السابق، فعن أبي هريرة ؓ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دئني على عمل إذا عملته، دخلت الجنة قال: "تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولى قال ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا"^(٢).

فالذي يظهر من حال هذا الرجل أنه كان حديث العهد بالإسلام، فكان الأنسب أن ترسم له شجرة هذه الشريعة؛ ليعرف المعالم، والحدود، وأركان الديانة الكبرى، بعيداً عن الخوض في التفاصيل؛ خشية أن تثقل عليه التكليف، وقد ظهر في نهاية قصته ما يبين عن حاله، فهو رجل يبحث عن الكليات المنجيات، لم يوطن نفسه في تلك الحال على الاستكثار من أعمال البر، وهنا تظهر حكمته، ورحمته ﷺ حيث قدر حال السائل حق قدره، فوقع التقدير في موقعه،

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/٥١٩، ٥٢٠)

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: ١٢٢٣.

فَسَهَّلْ على الرجل أمر التكليف، وأدرك أن النجاة مسلكها قريب،
ومأخذها سهل، وتكاليفها واضحة لا لبس فيها، ولا كثرة تحول دون
تمثلها^(١).

وفي موقف ثالث يقصه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن
المباشرة^(٢) للصائم، فرخص له، وأتاه آخر فسأله عنها، فإذا الذي
رخص له شيخ، والذي نهاه شاب^(٣).

هما رجلان يسألان عن حالة واحدة؛ ولكن الواقع من كل منهما بعيد
عن الآخر، فالرجلان في فريضة الصيام التي يبطلها معاشرته الرجل
زوجيه، بل تلك المعاشره من أعظم صور الانتهاك لحرمة الصوم،
ولذا جاء فيها من تغليظ العقوبة ما جاء من تشريع الكفارة الكبرى؛
لكنهما في حال يخشى من أحدهما ما لا يخشى من الآخر، فالأول
قد وهنت قواه، وشبعت رغائبه، واستبد به السن بضعفه وعجزه،
والآخر شاب، لا تزال الرغائب تسري في بدنه، والشهوة تتغلغل في
مفاصله، فهو حري إذا قارب هذه الأعمال أن يهجم على المكروه،
ويهتك الستر، ويرتكب الجناية، فمن الحكمة البارعة، والرحمة
السابغة أن لا يؤذن له بما أذن للأول؛ وخاصة أنه جاء يطلب الخلاص
لنفسه، والاحتياط لدينه، ولذا حرم من رخصة وسعت الأول ولم
تسعه، وإنما كان ذلك الحرمان رحمة به من الخسران^(٤).

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر، (٢/٢٦٥).

(٢) أراد بالمباشرة الملامسة. وأصله من لَمَسَ بَشْرَةَ الرَّجُلِ بَشْرَةَ الْمَرْأَةِ. وقد تكرر ذكرها في الحديث.
وقد تردّ بمعنى الوطء في الفرج وخارجاً منه، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير
(١/٣٢٣).

(٣) سنن أبي داود، كتاب: الصيام، باب: كراهيته للشباب، حديث رقم ٢٣٨٧، ووسنن ابن ماجه، كتاب:
الصيام، باب: ما جاء في المباشرة للصائم، حديث رقم ١٦٨٨، قال الألباني في سنن أبي داود
(ص ٣٦٢): «حسن صحيح».

(٤) انظر: عمدة القاري (١/١٨٩)، ونيل الأوطار للشوكاني (٤/٥٨٧).

• ومن لطائف رحمته ﷺ بالسائلين رؤية البيئة التي نشأوا فيها، ووسائل الإقناع التي تربوا عليها، والأمثلة التي سارت مسار القواعد في وضوح الحجة وقوة الدليل، أتى أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً! وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: "هل لك من إبل؟" قال: نعم، قال: "فما ألوانها؟" قال: حُمْر، قال: "هل فيها من أَوْرَق؟"، قال: إن فيها لَوْرَقًا، قال: "فَأَنَّى تُرَى ذلك جَاءَهَا؟"، قال: يا رسول الله عَرِقُ نزعها، قال: «ولعل هذا عرق نزعها، ولم يرخص له في الانتفاء منه»^(١).

لقد ضاقت نفس هذا الأعرابي بما رآه في ولده من لون فارق لونه، حتى جعله يشك في نسبه، ويكاد أن يجزم بأنه ليس من ولده، وهو هاجس في غير محله، وظن في غير موضعه، وما رآه من تغير لون ولده ليس مسوغاً لانتفائه منه، ورمي أمه بعظيمة الزنى، لكنه ﷺ لم يتكئ على هذه القاعدة في خطاب هذا الأعرابي، ولكنه أراد أن يجيبه جواباً يبلغ به من نفسه غاية القناعة، حتى يذهب ذلك الهاجس كأمس الدابر، فنظر ﷺ في بيئة الرجل فإذا هو أعرابي يتقلب في إبله، يشاهد ولادتها، ويتفكر في ألوانها، فلا يريه من إبله ما يراه من ألوان لا تماثل فيه الأولاد أماتها، ولكنه رابه من ولده ما ماثل تلك الصورة من إبله، فذكره ﷺ بتلك الحقيقة التي يعاينها الوقت كله، وكان ينبغي أن يهتدي لها في الحكم على شأن ولده، فقد جعل الله أقداراً من التماثل بين المخلوقات، كما جعل بينها أقداراً من التفاوت، فإبلك أيها الأعرابي نزعها عرق، وما يمنع أن ينزع العرق ولدك!

وما أجمل ترجمة أبي عبد الله البخاري حين صاغ هذا المسلك

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما جاء في التّعريض، رقم: ٥٢٠٥، صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، رقم: ١٥٠٠.



في الجواب في هذه القاعدة الثمينة، فقال: "باب من شبهه أصلاً معلوماً بأصل مبین، قد بین الله حکمهما لیفهم السائل"^(١).

• وقد يشتغل السائل بأمر كان غيره أولى به، وأنفع له؛ إذ الأسئلة في الشريعة ليست ضرباً من الترف العقلي والتكثر المعرفي، ولكنها أدوات لاستخراج طرائق العمل، ومن ثم الانغماس في العمل ذاته، وأنت تشهد في هذه القصة كيف يصرف النبي ﷺ السائل عن سؤال لا ينفعه إلى ما هو نافع حقاً في حاله، يروي أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: "ويلك وما أعددت لها"، قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: "إنك مع من أحببت"، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: "نعم"، ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً"^(٢)، تأمل معي: ما يفيد السائل أن يعرف موعد الساعة، اليوم، أو غداً؟! وإنما نجاته عند ربه بعمله، ولا ارتباط بين عمله وبين الساعة، على أن لكل امرئ ساعته التي لا بد له منها، وهي فراقه لهذه الدار إلى دار القرار، وإذا كان الأمر كذلك فليتجه السؤال عن العمل، لا عن الزمن، وثم لطيفة أخرى فالرجل يبدو أنه كان أعرابياً كما يقول الحافظ ابن حجر، أو حديث الإسلام قد امتلأ قلبه ثقة بنبيه فظن أنه ﷺ يملك جواباً عن كل سؤال، وأنه لا يغيب عن علمه شيء، فلو قال له ﷺ لا أدري لربما وقع في نفسه شيء من الريبة، فصرفه عن جواب لربما وقعت له بسببه ريبة إلى جواب تؤمن من جهته تلك الغائلة المرتقبة، فقال له: ما أعددت لها. وهذا مسلك لا يهتدي إليه إلا الحكماء، ومن امتلأت قلوبهم رأفة ورحمة بمن يخاطبون"^(٣).

(١) صحيح البخاري (٢٦٦٧/٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك، رقم: ٦١٦٧، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم: ١٦٣.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/٥٥٦-٥٦٠)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٤/١٥٧، ١٥٩).

الفرع الثاني: النظر إلى الاحتياج في ثاني الحال:

جاءه ﷺ من يسأله عن مسألة هو بها مهتم فأجابه لما سأل عنه، وزاده جواباً عما لم يسأل؛ قال أبو هريرة: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر، فقال رسول الله ﷺ: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته"^(١).

لم يكتف ﷺ بالجواب عن سؤال الماء؛ فإن أولئك القوم يركبون البحر، والذي يظهر أنهم قوم من الصيادين أو أصحاب أسفار متكررة، وإذا كان قد خفي عليهم حكم الماء فليس ببعيد أن يخفى عليهم حكم ميتة البحر، بل هي بالخفاء أخرى، فإن ملوحة البحر لم تخرجه عن كونه ماءً، وقد تقرر أن الماء طهور ومع ذلك رابهم أمره، بينما ميتة البحر الأصل أن تجري على الأصل في الميتات، وأنها محرمة -ولكن الشرع أعطاهما حكماً مغايراً فأحلها رحمةً بالعباد- ولعلمهم لم يسألوا عن ذلك لأنهم حملوا من الزاد ما يظنون أنهم لا يحتاجون إلى السؤال عما يطفو على البحر من ميتاته، ولكن من يضمن عوادي البحر، وعواصفه، فربما أدركهم بسبب ذلك زمن تقضى فيه أزوادهم فيهلكون، والطعام الذي أحله الله بين أيديهم، ومن هنا بين لهم ﷺ حكم ما لم يسألوا عنه، رحمه بهم، وإشفافاً عليهم، وقد استلهم البخاري هذا المعنى، فقال: "باب إجابة السائل بأكثر مما سأله"^(٢).

الفرع الثالث: الامتناع عن ذكر بعض الحقائق خوفاً من سوء التأويل:

عرف رسول الله ﷺ خصائص النفوس، وما جُبلت عليه، وأنها قد

(١) سنن النسائي، كتاب: الطهارة، باب: ماء البحر، رقم: ٥٩، وأبو داود، كتاب: الطهارة، باب: الوضوء بماء البحر، رقم: ٨٢، وقال الألباني في الإرواء (٤٣/١): «وهذا إسناد صحيح».

(٢) صحيح البخاري (٦١/١) وانظر: معالم السنن للخطابي (٨١/١)



تندفع إلى مواقف غير مرضية بسوء تأويل؛ طلباً للراحة أحياناً، وتوسعاً في الإباحة أحياناً أخرى، أو قد تفهم الحقائق بصورة تخالف ما بُنيت عليه تلك الحقائق، فمن الخير في مثل هذه الأحوال تأجيل الصدع بتلك الحقائق إلى حين آخر تؤمن فيه تلك الفوائت، أو يفرق بين الأفراد بحسب فهمهم، وعزائمهم، فيبلغ لشخص ما لا يبلغ لآخر؛ جرياً وراء المصلحة وطلباً لها، حكى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل، قال: "يا معاذ بن جبل، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً، قال: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا، قال: إذا يتكلموا"، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(١)، وفي رواية: «قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلموا».

إن سعة رحمة الله حقيقة ينبغي أن تمتلئ بها القلوب، وتعمر بها الأفتدة، وقد كرر صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في مواقف متعددة، لكنه صلى الله عليه وسلم خشي في هذا المقام أن يُساء استعمال هذه البشرية، فيظن ظان أن الشهادتين كافية في عصمة العبد من عذاب الله، فيجره ذلك إلى تراخ في تحصيل العمل الصالح، فنهى صلى الله عليه وسلم حينئذ معاذاً عن تبليغه هذه البشرية تبليغاً عاماً، ويمكنه أن يبلغها من أمن منه سوء التأويل، ولذا أخبر بها معاذ قبل موته، حتى لا يكون كاتماً لعلم علمه من الشريعة، ولم يفهم من نهيه صلى الله عليه وسلم النهي المطلق لكل زمن، وهذه أمانة أن النهي كان محصوراً في ملابسات خاصة، أوماً إليها معاذ ولم يصرح بها تصريحاً، فعمل النهي كان عن الحديث مع عوام الناس الذين ربما يحملهم التبشير على الاتكال فتفتوتهم الأجور

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من حَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم: ١٢٨، ومسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان، رقم: ٤٨.

كما هو واقع الحال في كل وقت وحين، وأما أهل الإيمان والصلاح فإنما تحملهم مثل هذه الأخبار على الزيادة في العمل، "فالخواص كلما بشروا زادوا في العبادة، كما وقع للعشرة المبشرين وغيرهم"^(١).

ونظير هذا ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال: "لولا أن تبطر قريش"^(٢)؛ لأخبرتها بما لها عند الله عز وجل^(٣).

فقد خشي صلى الله عليه وسلم أن تتكل قريش على ما لها عند الله من حسن الجزاء فتترك العمل أو تطغى فيما تليه من الأمور، خاصة وأنها ستلي من أمر الأمة شيئاً ليس بالقليل^(٤).

الفرع الرابع: مراعاته صلى الله عليه وسلم للجبلية البشرية:

تمر بالعبد حالات من الامتثال الشرعي والرغبة في الخير، فيندفع المرء بها إلى عمل كبير ظاناً أنه في طاقته، وواقع الأمر أنه فوق ما يطيق، وربما حمله على ذلك إحساسه بنعمة سابغة من ربه جل جلاله، فيرى أن من حق الشكر عليه أن يصنع ذلك الصنيع؛ أداء لبعض ما يجب من الشكر، وربما جنى جناية فأدركته حالة من الندم، فظن أنه لن يبيّض صفحته إلا بذلك العمل الكبير، وفي كل الأحوال يقع في عجز لم يحسب حسابه، ولم يتأمل في عاقبته، وهنا تظهر رحمته صلى الله عليه وسلم فيرشد من سلك هذا المسلك أن يعود في تقديره لاستطاعته إلى ما هو المعهود منه؛ حتى لا يقع في نقيصة نقض العهد بينه وبين ربه، فيعود من حال طاعة إلى حال معصية، ومن كرامة الوفاء إلى ذلة النكث، وفي ذلك قصص عدة تروى

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١/١٧٥.

(٢) تَبَطَّرَ قُرَيْشٌ: البَطْر الطُّغْيَانُ عند النُّعْمَةِ وطُولُ الْغِنَى، والمعنى لولا أن تطغى قريش عند سماعها ما أعد الله لها من فضل. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/٣٤٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده وانفرد به عن التسعة، (٦/١٥٨)، رقم: ٢٥٢٨٨، وإسناده صحيح ووضحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/٦)، رقم: ١٠٠٧.

(٤) انظر: فيض القدير (٤/٥١٢).



نكتفي ببعضها، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال: "أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك"، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخبير" (١).

وقصة كعب رضي الله عنه في تخلفه عن غزوة تبوك مشهورة طفحت بها الكتب، وقد بلغ به الألم مبلغه، وأبلغ وصف ما حكاه الله عنه في قوله ﷺ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، فلما جاءته البشرية بتوبة الله عليه كانت فرحته بقدر حزنه، فأراد أن يشكر ربه على هذه النعمة السابغة بأن ينخلع من ماله كله شكراً لله على هذه التوبة عليه، ولكنه ﷺ منعه من ذلك لما يخشى عليه من احتياج يضر به، أو بمن يعول، وربما ندم على هذه الصدقة.

وإذا كان هذا المنع منه ﷺ رحمة بالمنوع لما يخشى عليه من هذه المفسدة، فإنه ﷺ أذن بمثل صدقة كعب لمن انتفى في حقه هذا الاحتمال، فأذن لعمر رضي الله عنه بالصدقة بنصف ماله، ولأبي بكر رضي الله عنه بالصدقة بكل ماله، ولم يزد على أن قال لكل منهما: ﷺ "ما أبقيت لأهلك؟ فقال عمر: مثله، وقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله" (٢).

ويقيني أن أبا بكر وعمر كانا سيألمان لو منعهما ﷺ من هذا الصنيع، وقد كانا يفيئان إلى إيمان راسخ، وتوكل جم، وحسن رجاء لما عند الله ﷻ، فكان من غير المناسب منعهما من خير تؤمن غوائله (٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، رقم: ٢٦٠٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب: الزكاة، باب: في الرخصة في ذلك، رقم: ١٦٧٨، والترمذي، كتاب: المناقب عن رسول الله، باب: في مناقب أبي بكر وعمر كليهما، رقم: ٣٦٧٥، وقال: «حديث حسن صحيح»، قال الحافظ: «تفرد به هشام بن سعد عن زيد، وهشام صدوق فيه مقال من جهة حفظه»، فتح الباري ٢/٢٩٥.

(٣) انظر: زاد المعاد، لابن القيم، ٣/٥٨٩-٥٩٠.

وإذا كان هذا في تعامل المرء مع ماله فمن باب أولى تعامله مع غيره، فقد فطر الله النفوس على حب المال؛ ولذا لما بعث ﷺ معاذاً إلى اليمن أوصاه في جمعه للصدقة بأن يتقي أخذ كرائم الأموال؛ فإن ذلك مما يشق على النفوس، وربما وقعت بسبب ذلك في كراهة الأمر الشرعي، وفي ذلك من المفسدة ما لا يخفى^(١).

الفرع الخامس: تركه ﷺ العقوبة خشية على إيمان أصحابه:

من رحمة النبي ﷺ بالصحابة ﷺ تركه معاقبة المنافقين، فحين قال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: "دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"^(٢).

وتركه ﷺ معاقبة المنافقين مسألة لها جوانب متعددة، منها ما يتصل بالمنافقين أنفسهم؛ استتباعاً لانقيادهم وتأييماً لغيرهم، وجمعاً لكلمة المسلمين، ولئلا يُنفر الناس عنه ممن يرغب في الدخول في الإسلام، وهي من وجه آخر من كمال الشفقة والرحمة بمن تعلق بشخص لسابق مكانته أو منزلته، إذ كان عبدالله بن أبي سيد الخزرج، وكان ولده عبدالله رجلاً صالحاً^(٣) ولقد أسلم من الخزرج عدد غير قليل ويخشى النبي ﷺ عليهم لو عاجل عبدالله بن أبي بالعقوبة؛ فإن الناس يرون الظاهر، ولا يعرفون بواطن الأمور، ولربما غلبت على بعضهم العصبية أو غيرها^(٤).

(١) فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم: أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم: أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لك بذلك. فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم. فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"، أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم: ١٤٢٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام، رقم: ١٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المنافقين، باب قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾، رقم: ٤٦٢٤، واللفظ له.

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٧/ ١٥٩)، وفتح الباري لابن حجر (٨/ ٣٢٦)، وعارضة الأحوذى (٢٠١/١٢).

(٤) انظر: كشف مشكل الصحيحين، لابن الجوزي (٧٠١/١)



فكانت حكمة النبي ﷺ كالماء الذي يطفئ نار ابن سلول وخططه لتفريق المسلمين، فقد كان له أنصار يدفعهم الحماس أو العصبية للوقوف معه، والنبي صلى الله عليه وسلم يدرك أن هؤلاء الأنصار عندما تتضح لهم الحقائق في المستقبل فإن حماسهم، وتعصبهم له سيزول، وقد جاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ قال لعمر بن الخطاب حين بلغه ما فعل ابن أبي: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت -أي انتفخت واضطربت حمية- له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»، فقال عمر: «قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»^(١).

الفرع السادس: مراعاته ﷺ لحال المرأة والطفل:

خلق الله البشر على صفات متنوعة، وخصائص متعددة، فكان صلى الله عليه وسلم يراعي هذه الخصائص في خطابه ومعاملته، وكمثال على هذا الذي نقول نقف ملياً مع معاملته ﷺ للنساء والأطفال، فلقد كان هذان الصنفان يحظيان برعاية خاصة منه ﷺ، أساسها ما جبل عليه هذان النوعان من خصائص تقتضي قدرًا خاصًا من الرفق والعطف والمواساة؛ فالمرأة تكدح في بيتها سحابة اليوم في عمل مكروور، فيسرها أن ترى من زوجها تقديرًا يتناسب مع ما تبذله من جهد، وتقدمه من عطاء؛ فكان ﷺ يشارك أهله في بعض عمل البيت نوعًا من الاعتراف بجميلها، والتخفيف عنها، وعندما سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله-^(٢) فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»^(٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٩٠ - ٢٩٢ والحديث رجاله ثقات ولكنه مرسل، وابن جرير الطبري في تاريخه: ٢ / ٦٠٥، وله شاهد مرسل من طريق عروة عند ابن أبي حاتم قال فيه ابن حجر: أنه مرسل جيد، فتح الباري: ٨ / ٦٤٩، وأصله في الصحيحين كما سبق من حديث زيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله وبهذا يكون الحديث حسنًا لغيره.

(٢) المهنة: الخدمة بفتح الميم، ويقال: مهنة بالكسر، أي: خدمة أهله، انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ص٢٦٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم: ٦٤٤، =

ومن ذلك إدخال السرور على الزوجة بالمزاح معها، ومعلوم ما كان فيه من مزيد عمل، وانشغال بال، ولكنه كان يقدر هذه الحاجة لامرأته حق التقدير: روت عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: "هذه بتلك السابقة"^(١).

ومن ذلك أيضاً إذنه وإقراره صلى الله عليه وسلم للترويح واللغو المباح: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أَلْعَبُ بالبَنَاتِ^(٢) عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يَتَقَمَّعَنَّ^(٣) منه فَيَسْرِبُهُنَّ^(٤) إلي فيلعبن معي^(٤).
لقد كانت أم المؤمنين شابة صغيرة ترنو إلى اللعب واللغو وتحتاج إلى التدريب على ما هي مقبلة عليه من مهنة الأنثى فيأذن لها صلى الله عليه وسلم بالتصاوير التي ورد في شأنها الوعيد الشديد، وما ذاك إلا رعاية لهذه الحاجة عند الأنثى^(٥).
وفي موقف آخر تقف خلف النبي يسترها بردائه لتشاهد الحبشة وهم يلعبون في المسجد بحرابهم^(٦)، قال ابن بطال: «فيه جواز نظر النساء إلى اللغو واللعب، لاسيما الحديثة السن^(٧). وكان يتسامر مع السيدة عائشة رضي الله عنها، فيسمع منها، وتسمع منه، كما في حديث أم زرع وأبي زرع^(٨).

وكان صلى الله عليه وسلم يدخل في الصلاة عازماً على إطالتها؛ لما جعل الله فيه من

= وانظر: فتح الباري لابن حجر (٤٦١/١٠).

- (١) سنن أبي داود، كتاب: الجهاد، باب: في السبق على الرجل، رقم ٣٩١، وابن ماجه، كتاب: النكاح، باب: حسن معاشره النساء رقم ١٩٧٩، وقد صححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود (ص ٣٩١).
- (٢) البَنَاتُ: أي التَّمَائِيلُ التي تَلْعَبُ بها الصَّبَايا. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤١٧/١).
- (٣) تَقَمَّعَنَّ: أي تَغَيَّبَنَّ ودَخَلَ في بيت أو من وراء سِتْر. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٧٥/٤).
- (٤) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الانبساط إلى الناس، رقم: ٥٧٧٩.
- (٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥٢٧/١٠).
- (٦) صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: نظر المرأة على الحبشة ونحوهم من غير ربية، رقم ٤٩٣٨.
- (٧) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٦٤/١٣)، وعمدة القاري، لليعيني (٢١٧/٢٠).
- (٨) صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: حسن المعاشره مع الأهل، رقم: ٤٨٩٣.



محبة القيام بين يدي الله، فيسمع بكاء الصبي فتدركه الشفقة على أمه،
فينصرف عما كان عازماً عليه، روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"إني لأدخل في الصلاة، فأريد إطلالتها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز^(١)
مما أعلم من شدة وجد^(٢) أمه من بكائه"^(٣).

وكان صلى الله عليه وسلم يعرف طبيعة النساء وما جبلن عليه من الغيرة الشديدة،
فيقدرها حق قدرها، ولكنه يحافظ على حق الغير، فلا خير في مواساة
تذهب بحقوق الآخرين، قال أنس: كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه
فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام فضربت التي النبي
صلى الله عليه وسلم في بيتها^(٤) يد الخادم فسقطت الصحفة، فانفلقت، فجمع النبي
صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة،
ويقول: غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتى أتت بصحفة من عند التي هو
في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك
المكسورة في بيت التي كسرت^(٥).

وما لنا نذهب في تعداد الصور وقد أوصى صلى الله عليه وسلم بهذه الوصية الجامعة:
"استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه^(٦)،
فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء"^(٧).

- (١) فَأَتَجَوَّزُ: أي أَحْفَفُهَا وأَقْلَبُهَا، انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (١/٨٣٧).
- (٢) وَجِدٌ: أي من بهما الشديد له وخوفها عليه. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٥/٣٣٤).
- (٣) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: من أخف عند سماع الصبي، رقم ٦٧٨. وانظر: صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بالتخفيف رقم (٤٧٠) وشرح النووي على مسلم (٤/١٨٧)، وفتح الباري، لابن حجر (٢/٢٠٢).
- (٤) فَضْرَبَتِ التي النبي صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِهَا: هي عائشة وأما المرسله فهي زينب بنت جحش وقد تكررت القصة مع بعض نسائه فجاء في بعض الروايات أن المرسله كانت أم سلمة، وفي قصة أخرى أن المرسله كانت صفية. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/١٢٤-١٢٥).
- (٥) صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: الغيرة، رقم ٤٩٢٧، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/١٢٦).
- (٦) وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ: فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل: من ضلعه القصير. وقوله «أعلاه» فيه إشارة إلى أن أعوج ما في المرأة لسانها، انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/٣٦٨).
- (٧) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، رقم ٢١٥٢، وانظر: فتح الباري لابن حجر (٩/٢٥٤).

وأما الأطفال فهم أحوج بني الإنسان إلى الرحمة؛ لضعفهم، وقلة حيلتهم، وكثرة أخطائهم، واعتمادهم على غيرهم، ومعاملتهم بالرحمة تغرس في قلوبهم الرحمة، وتحملهم على التراحم إذا شبّوا، وتكون مفتاحاً لقبول التوجيه والتأديب والنصح^(١).

ولذا كان من هديه ﷺ أن يمازحهم، ويخفف عنهم أحزانهم، ويطيب خواطرهم، ويدخل السرور عليهم، عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال: أحسبه فطيمًا، وكان إذا جاء قال: "يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْرُ"، نُغْرَ كان يلعب به..^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نُقِبُّهُمْ، فقال النبي ﷺ: «أَوْ أَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرحمة»^(٣).

وفي هذا تنبيه بليغ إلى أن هذه الرحمة كمال يهبه الله لمن يحب من عباده، وأن من الشقاوة أن تقل تلك الرحمة من قلب الإنسان أو تتعدم.

المطلب الثاني

قاعدة: مراعاة مآلات الأفعال

لم تكن رحمته رهينة الساعة الحاضرة، بل كانت تحسب للمآل حسابه، ونعني بالمآل النتائج المترتبة على الأحكام أو على أفعال المكلفين^(٤) وقد تجلّى أعمال هذه القاعدة في رحمته في فروع عدة منها:

- (١) انظر: النبي المرابي، د. أحمد رجب الأسمر (ص ١٩٩).
- (٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم ٥٨٥٠، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/٥٨٤-٥٨٥).
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومُعَانَقَتِهِ، رقم: ٥٩٩٨.
- (٤) انظر: الموافقات، للشاطبي، ٢/٢٣٤. ومعجم مقاييس اللغة، مادة: أول.



الفرع الأول: التكليف بالمستطاع خشية ترك العمل:

كان من هديه ﷺ أن يخفف على المسلمين - الأعراب - التكاليف مراعاة لحالهم، وخشية أن يؤول الأمر مع كثرة التكاليف وضعف الإيمان إلى ترك الفرائض، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دني على عمل إذا عملته، دخلت الجنة قال: "تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولى قال ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا"^(١).

قال الحافظ ابن حجر: «ولعل أصحاب هذه القصص، كانوا حديثي عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال؛ لئلا يثقل ذلك عليهم فيملوا، حتى إذا انشرفت صدورهم لفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهلت عليهم»^(٢).

وقال الغزالي: «وبالجملة ترك النوافل جائز، والكلام في الأفضل، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء»^(٣).

الفرع الثاني: رحمته ﷺ بالمخطئ والمعاصي:

خط النبي ﷺ للدعاة من بعده منهجاً في التعامل مع المخطئ، وذلك بمراعاة مآلات التعامل معه، ومن هنا تراه ﷺ آية في صبره عليهم ورفقه بهم، والأخذ بأيديهم إلى الصواب، والإشفاق عليه من جريرة المعصية والخطيئة، وترك العنف أو القهر أو الاحتقار أو الفضح، قال عقبة بن الحارث: أُتِيَ النَّبِيَّ ﷺ بِنُعَيْمَانَ، أَوْ بَابِنِ نُعَيْمَانَ وَهُوَ سَكَرَانٌ وَفَشَقَ عَلَيْهِ،

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وقد سبق تخريجه (حديث رقم ٧٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/٢٦٥)، وانظر: جامع العلوم والحكم (ص ٩١) لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ إبراهيم باجس.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٢٣).

وأمر من في البيت أن يضربوه، فضربوه بالجريد والنعال، وكنت فيمن ضربه" (١).

فقد شق عليه وقوع هذا الصحابي رضي الله عنه في تلك المعصية، فما زاد عن إيقاع الحد عليه، ليكون له زاجراً عن العودة، ومكفراً للخطيئة، وهذا المسلك الرفيق لم يجعله رضي الله عنه من خصائص من وقع منه الذنب أول مرة، بل إنه ليسع من عاود الذنب مرة بعد أخرى، وقد اشتهرت قصة ذلك الذي أولع بالخمير في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ضرب مراراً، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبدالله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم عنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله" (٢).

لقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعن صاحب المعصية بعينه؛ فهو رضي الله عنه لا يرضى بلعنه وطرده من رحمة الله، ولا إخراجة من نطاق المؤمنين، بل يثبت الأخوة بينه وبينهم، وينهاهم أن يفتحوا ثغرة للشيطان إلى قلبه إذا سبوه وأذلوه علانية، لأن حالة الضعف التي تعتريه وتقحمه في المعصية لا تزول بهذا السب والشتم، بل هي حرية بأن تجعله يتمادى في غيه، ويسرف في غوايته، ومن لطائف هذا الحديث ما يدل عليه من كون النبي صلى الله عليه وسلم يمازحه ويؤانسسه ويداعبه، فلم تقطع تلك المعصية الوشائج بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعله -والله أعلم- كان مغلوباً على أمره، قد استبد به حُبُّ الخمر واستولت على عزمته، فلم يبق فيه مقاومة لشيطانه، والعرب قوم كانوا يعاقرون الخمر ليل نهار، ويرون فيها سلوتهم، بل منهم من يرى فيها رجولته وكرامته.

(١) صحيح البخاري كتاب: الحدود، باب: الضرب بالجريد والنعال، رقم: ٦٣٩٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة،

رقم: ٦٧٨٠.

وتفيض رحمته ﷺ على نوع آخر من أصحاب المعاصي، وهو الذي ارتكب جناية عقوبتها تذهب بنفسه، وتزهق بها روحه، فكان ﷺ يدرأ عنه الحد ما استطاع، ويشير إليه بطرف خفي إلى المخرج الذي يقيه وقوع الحد عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أتى معاذ بن مالك النبي ﷺ قال له: "لعلك قبلت، أو غمزت، أو نظرت"، قال: لا يا رسول الله، قال: "أنكتها^(١) لا يكني، قال: فعند ذلك أمر برجمه"^(٢).

فهذه جناية بين العبد وربّه ما دام لم يطالب الطرف الثاني بشيء، وللعبد مع ربه سعة لا تنقطع من خلال توبة نصوح يمحو بها أوزار السيئات، ويستكثر بها من الحسنات، أما كان أجمل به أن يتوب بينه وبين ربه!! ثم يجتهد في العمل الصالح، وكل دقيقة من حياة العبد مستودع عظيم لأعمال بر لا تنتهي؛ لكن معاذًا رضي الله عنه كان يريد أن يتطهر من ذنبه بيقين، ويكره أن يعتمد على نفس أمنها فخائته، وأكرمها فأهانته، فرضي الله عنه وأرضاه، وقد كان له سعة في رحمة دَلَّه عليها الرحيم ﷺ.

ورحمته ﷺ كانت عاطفة تجري على سنن العقل، لا كرحمة غيره من الناس، يرقب فيها حال العاصي في مستقبله القريب والبعيد، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام أعرابي، فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: "دعوه وهريقوا على بوله سَجَلًا من ماء، أو ذنوبًا^(٣) من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"^(٤)، قال ابن حجر رحمته الله: «وإنما تركوه

(١) أنكتها: لفظ صريح لأن الحدود لا تثبت بالكنايات. انظر: المغرب في ترتيب المغرب (٣٢٧/٢)، المطرزي، قال الشاطبي: «أنكتها هكذا من غير كناية مع أن ذكر اللفظ في غير معرض البيان مكروه أو ممنوع، غير أن التصريح هنا أكد فاغتفر لما يترتب عليه»، الموافقات، (٣/٣٢٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الحدود، باب: هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست، أو غمزت، رقم: ٦٤٢٨، انظر: فتح الباري لابن حجر (٥٧٧/٦)، والتيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (١/١٣٥).

(٣) الذنوب: الدلو العظيمة، وقيل: لا تسمى ذنوبًا إلا إذا كان فيها ماء. انظر: النهاية في غريب الحديث (٤٢٣/٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد، رقم: ٢١٧.

يبول في المسجد؛ لأنه كان شرع في المفسدة، فلو منع لزادت، إذ حصل تلوّث جزء من المسجد، فلو منع لدار بين أمرين: إما أن يقطعه فيتضرر، وإما أن لا يقطعه فلا يأمن من تتجسس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد»^(١).

الفرع الثالث: أمره ﷺ بالاستر على أصحاب المعاصي:

من دلائل رحمته ﷺ الوافرة أمره صلى الله عليه وسلم بالستر على صاحب المعصية، وبخاصة إذا كانت هذه المعصية فردية، ولم يكن صاحبها مجاهرًا بها، ولا معروفًا بفسقه، ففي قصة ما عز السابقة قال رسول الله ﷺ له ولقيمه: «يا هزال، أما لو كنت سترته بثوبك، لكان خيرًا مما صنعت به»^(٢).

وعن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه عليّ. قال: وحضرت الصلاة، فصلى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى الصلاة قال: يا رسول الله إني أصبت حدًا، فأقم فيّ كتاب الله، قال: "هل حضرت الصلاة معنا" قال: نعم، قال: "قد غُفِرَ لك"^(٣).

فالرجل لم يفصح عن ذنبه، ورسول الله ﷺ لم يبيح خفاياه، ولم يفتش عن ذنبه؛ إما لأن ذلك قد يدخل في التجسس المنهي عنه، وإما إيثارًا للستر^(٤).

(١) فتح الباري لابن حجر (١/٢٢٣).

(٢) مسند أحمد، (٢١٩ / ٣٦)، رقم: ٢١٨٩٣، قال الزيلعي - رحمه الله: «إسناده صالح وهشام بن سعد روى له مسلم وقد تكلم فيه من قبل حفظه، ويزيد بن نعيم، روى له مسلم أيضًا وذكره بن حبان في الثقات وأبوه نعيم ذكره في الثقات أيضًا وهو مختلف في صحبته، فإن لم تثبت صحبته فأخر هذا الحديث مرسل»، نصب الراية، ٣/٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الحدود، باب: باب إذا أقر بالحد ولم يبين هل للإمام أن يستر عليه، رقم: ٦٤٣٧.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١٢/١٢٥ ١٣٤).



المطلب الثالث قاعدة: الموازنة بين المصالح والمفاسد

الموازنة مفاعلة يرقب المرء فيها شيئين يبتغي أن يكون أحدهما على مثل الآخر في صفته، يقال: هذا يوازن هذا: إذا كان على زنته أو كان محاذيه، ولا يكون هذا إلا بعد أن يقدر المرء الشيء تقديراً دقيقاً ليكون الثاني في مقدار الأول، ومن هنا قالوا: زَنُّ كلامك، بمعنى قَدْرُه تقديراً يليق بالرجل العاقل، فيكون صواباً، وفي موضعه المناسب، وكلما كان الشيء على هذه الصفة كان أمكن في الوزن، ولذا قال في الرجل معتدل الرأي: وَزَيْنَ الرَّأْيِ، ويقولون: رَاجِحُ الْوَزْنِ، إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ^(١).

والموازنة عند أهل الاصطلاح: لا تخرج عن المعنى اللغوي، ولكنهم يتجاوزن بها المعنى الحسي ليجروها بين الأدلة، والمصالح والمفاسد، يبتغون بها النظر الدقيق في الخصلة المنظور فيها، بحسب آثارها، هل يلحقونها بباب المحظور مثلاً؛ لأنها توازيه، أو بباب المأذون به - باختلاف درجاته - لأنها تجري في الحسن والخير مجراه، ونحو ذلك من النظر العقلي الدقيق، المنطلق من قواعد الشريعة، وكلياتها الجامعة، وأدلتها التفصيلية^(٢).

ولذا عُرِّفَتْ بأنها: مجموعة المعايير والأسس التي يُرَجَّحُ بها بين ما تتازع من المصالح والمفاسد، وتتضمن ثلاثة أمور: الأول: الموازنة بين المصالح والمفاسد، الثاني: الموازنة بين المصالح بعضها وبعض، الثالث: الموازنة بين المفاسد بعضها وبعض^(٣).

(١) انظر: مادة: وزن، مقاييس اللغة، ١٠٧/٦، ولسان العرب، ٤٤٧/١٣، وتاج العروس، ٢٥٣/٣٦، السيد محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا: بنغازي، ط١، د.ت.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر، للسيوطي، ٨٧/١، والفروق، للقرافي، ٣٧٠/٤، والفتاوى، لابن تيمية، ٤٨/٢٠، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، للغز بن عبد السلام (ص ٥١).

(٣) فقه الموازنة في الشريعة الإسلامية، ص ١٣، د. عبد المجيد محمد السوسوة، دار القلم: دبي، ط١، ١٤٢٥هـ، تأصيل فقه الموازنات، د. عبدالله الكمالي، دار ابن حزم: بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، =

فإذا عُدنا إلى الحديث عن رحمته ﷺ وجدناها تستصحب هذا المبدأ العظيم في تعامله مع أصحابه ﷺ وسنذكر أفراداً من هذا النوع يستدل بها على ما يشابهها .

• كان ﷺ مع أصحابه في مكة يأمرهم بأن يستسروا بإسلامهم؛ رحمة بهم، وخوفاً عليهم من أذى يهلكهم، أو يفترقهم عن دينهم؛ فإن للعبد طاقة محدودة في التحمل، قد يفقد بعدها ثباته، ويستسلم لمضطهده، وفي ذلك قصة أبي ذر المشهورة حينما دخل على النبي ﷺ فقال: "اعرض عليّ الإسلام، فعرضه، قال: فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر اكنم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل، فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخنّ بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب عليّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار! ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عني، فلما أن أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس، فأكب عليّ، وقال مثل مقالته بالأمس" (1).

لقد اختار ﷺ لأبي ذر أن يكتم إسلامه خوفاً عليه من قريش لا يمسوه بأذى، وهو رجل لم يصب عوده في الإسلام بعد، ولكنه اختار لنفسه أن يجهر؛ فقد كان رجلاً يأنف أن ينقم بقناعاته،

ص = ٤٩ - ٥٠، فقه الموازنات الدعوية - معالمة وضوابطه، د. معاذ بن محمد البيانوني، دار اقرأ للنشر والتوزيع: الكويت، ط٢، ١٤٢٧هـ، ص ٢٧.

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قصة زمزم، رقم: ٣٢٢٨.

مهما كان آثارها عليه، وفي البشر فصيل من هذا النوع آتاهم الله من صلابة الرأي، وقوة العزيمة ما يؤمن منه الوقوع في سلبية الجهر، ولعله فهم أن أمر النبي ﷺ له بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه أن به قوة على ذلك، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك، كما اتجه إليه الحافظ ابن حجر في شرحه للقصة^(١)، وأنت إذا استحضرت أن هذا الأمر بالإسرار قد دام عشر سنين، وذلك ما يقارب نصف زمن الرسالة تدرك كم كان ﷺ يمتلئ بهذه الرحمة السابغة، ويزداد إدراكك لها حينما تتبعها النظر بتوجيههم للهجرة للحبشة طلباً للأمن على دينهم، مع أنهم بهذا الفعل يبتعدون عن نبيهم وقدوتهم وباعث الصبر فيهم، لكنها الموازنة في النظر بين المصلحة والمفسدة.

• وتبلغ به ﷺ الرحمة بأصحابه حتى يدع أمراً مشروعاً يحبه غاية الحب، لما يحذره من مفسدة تقع لبعض صحبه، تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: "ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة، اقتصروا عن قواعد إبراهيم"، فقلت يا رسول الله: ألا تردها على قواعد إبراهيم، قال: "لولا حدثان قومك بالكفر لفضلت"^(٢).

لقد غيرت قريش معالم البيت العتيق الذي بناه إبراهيم عليه السلام بالاختصار على بعضه في البناء لما قصرت بها النفقة، وقد يلتبس لها العذر بقلة ذات اليد يوم أن شادت البناء، لكنه ﷺ اليوم قادر أن يعيد البيت على صفته يوم أن بناه أبوه إبراهيم عليه السلام، إلا أنه بعد تأمل في الأمر وروية فيه صدف عما كان يجب؛ خشية أن تتسلسل فتنة الشك إلى قلوب قوم أسلموا قريباً، وذلك لما كانوا يعتقدون من

(١) انظر: فتح الباري، ٧/١٧٥.

(٢) البخاري، كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنائها، رقم: ١٥٠٦.

فضل الكعبة، ويرون تغييرها عظيمًا، فأعرض ﷺ عما عزم عليه وترك البيت وشأنه لتبقى قلوب أصحابه على ما أكرمها الله به من نعمة الإسلام؛ لأن بقاءهم على إسلامهم أهم وأجل من السعي في أمر فيه سعة كما يفيدُه نظر الحافظ ابن بطال^(١).

• ويدخل في هذا الباب مشروعية الرخص الشرعية وهي وإن كانت للأمة بأسرها إلا أن أصحابه ﷺ أول المستفيدين منها

- قال حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه: يا رسول الله أجد بي قوة على الصيام في السفر، فهل علي جناح؟ فقال رسول الله ﷺ: "هي رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه"^(٢).

- وعن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصةً، وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ، أخبر بذلك، فقال: "قتلوه، قتلهم الله!! ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر - أو يعصب - على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده"^(٣).

- ولما أخذ المشركون عماراً بن ياسر فعذبوه حتى يقول كلمة الكفر، فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما وراءك؟

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٢١٧). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠/ ٥١٢).

وشرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٩٥).

(٢) مسلم، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر، ١٨٩١.

(٣) أبو داود، كتاب الطهارة، باب في المجرّوح يتيمم، رقم: ٢٣٦، قال الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود: صحيح وضعيف سنن أبي داود: حسن، دون قوله: "إنما كان يكفيه.....".



قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال: "فإن عادوا فعد" (١).

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، فيُفرق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة؛ ليقدم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن من لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» (٢).



(١) سنن البيهقي الكبرى، ٢٠٨/٨، باب المكره على الردة، رقم: ١٦٦٧٣، وانظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٢٨٦/٦، رقم: ٢٢٢٥٦، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨١/١٤.
(٢) قاعدة في المحبة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد، مكتبة التراث الإسلامي: القاهرة، ط ١، دت، ١١٩/١.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

أختم بحثي بالإشارة إلى أهم النتائج والتوصيات لموضوع رحمة النبي ﷺ بأصحابه، وهي كالآتي:

أولاً: النتائج: توصل البحث إلى نتائج منها:

١. أن هناك مجموعة كبيرة من الآيات والأحاديث، والمواقف التي عنيت بالحديث عن رحمة النبي بأصحابه.

٢. يجب على الدعاة الاقتداء برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وفي منهج دعوته، ووسائلها وأساليبها.

٣. أن من رحمة النبي ﷺ أن لكل صنف من أصناف الناس طريقة دعوية تناسبه، فلا بد من مراعاة اختلاف الناس ومخاطبتهم بما يناسب حالهم وأفهامهم وقدراتهم وبيئتهم.

٤. الرحمة والرفق واللين تفتح مغاليق القلوب، وبها يقبل الناس على الحق.

٥ . أن الجاهل والمخطئ والمذنب أحق بالرحمة من غيره، ليرجع ولا يتمادى.

أن من الواجب التدرج في الدعوة إلى الله تعالى، وترتيب الأولويات، وتقدير المصالح والمفاسد .

ثانياً: التوصيات:

١ . أوصي الجهات الرسمية المعنية بإعداد الخطباء والأئمة والدعاة بإقامة دورات في كيفية التعامل مع الناس وما هو الخطاب الأنسب لتقرب الناس ونحبهم إلى دعوة الإسلام مستتيرين بهديه صلى الله عليه وسلم.

٢ . الدعوة إلى التراحم بين المؤمنين، ونبذ الخلاف والفرقة فيما بينهم .

٣ . أوصي الدعاة بتقدير أحوال الناس، وبالتعرف على الظروف المحيطة والمؤثرة بالمدعويين، فتنوع الخطاب من الأساسيات التي ينطلق منها الداعية إلى الله تعالى .

٤ . الاهتمام بدراسة السنة النبوية دراسة موضوعية، بما يخدم طلبية العلم، والدعاة إلى الله، والناس كافة .

٥ . أن يعي المربون أهمية فهم النفس البشرية، ويتخذوا الوسائل المناسبة من أجل رعايتها وتزكيتها والإفادة من نماذج رحمة النبي بأصحابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة - بيروت
٣. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
٤. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٥. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ليوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة: الأولى دار الجيل - بيروت - ١٤١٢ هـ.
٦. الأسلوب الأمثل في تربية البنات في الإسلام، تأليف: أيوسف رشاد، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
٧. الأشباه والنظائر، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط ١، ١٤٠٣ هـ.
٨. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن القيم) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣ م.
٩. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت و ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
١٠. بدائع الفوائد، محمد ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي: بيروت، ط ١، د.ت.



١١. تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا: بنغازي، ط ١، د.ت.
١٢. تأصيل فقه الموازنات، د. عبدالله الكمالي، دار ابن حزم: بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ.
١٣. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي لأبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٤. التعريفات، المؤلف علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، ١٩٩٠م.
١٥. تفسير التحرير والتوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.
١٦. تهذيب الأخلاق، الجاحظ، دار الصحابة للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
١٧. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد الداية، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، ١٤١٠هـ.
١٨. التيسير بشرح الجامع الصغير، الإمام الحافظ زين الدين عبدالرؤوف المناوي، الطبعة الثالثة، مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥هـ.
٢٠. الجامع الصحيح المختصر من سنن رسول الله ﷺ وأيامه المشهور بصحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢١. جامع العلوم والحكم، عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي،

- تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ إبراهيم باجس، ط ٧، مؤسسة الرسالة
-بيروت -١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
٢٢. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان الصديقي،
القاهرة، دار الريان، ١٤٠٧هـ.
٢٣. ركائز الدعوة الإسلامية، تأليف: د. مجدي الهلالي، الطبعة الأولى،
دار البشير للثقافة والعلوم الإنسانية، ١٤١١هـ.
٢٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن قيم الجوزية، تحقيق:
شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - مكتبة
المنار: بيروت - الكويت، ط ١٤، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
٢٥. سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، لمحمد بن إسماعيل
الصنعاني الأمير، تحقيق: محمد عبدالعزيز الخولي، الطبعة:
الرابعة، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٧٩هـ.
٢٦. السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف -
الرياض.
٢٧. سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني،
تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، خرج أحاديثه وفهرسه: دكتور
مصطفى حسين الذهبي، دار الحديث القاهرة، ط الأولى ١٤١٩هـ
١٩٩٨م.
٢٨. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم
على أحاديثه الشيخ الألباني، أعتنى به: مشهور بن حسن سليمان،
الطبعة الأولى، مكتبة المعارف: الرياض.
٢٩. السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي،
تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ
-١٩٩٤م.



٣٠. سنن النسائي، تأليف أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حكم على أحاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، أعتى به: مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٣١. شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز الحنفي الدمشقي، ط الرابعة، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩١هـ.

٣٢. شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر - الرياض، ط ١، ١٤٢٦هـ.

٣٣. شرح صحيح البخاري لأبي الحسين، علي بن خلف ابن بطلال، ضبط نصه وعلق عليه: ياسر إبراهيم، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣٤. الصحاح في اللغة، الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٣٥. صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف بن مري النووي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢هـ.

٣٦. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٣٧. طريق الدعوة الإسلامية، لجاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، الطبعة الأولى، دار الدعوة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٨. عمدة القاري، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، ط ١، د.ت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٩. عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبي الطيب، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٥هـ.

٤٠. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٨ م.
٤١. غريب الحديث لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، الطبعة الأولى، مطبعة العاني - بغداد . ١٣٩٧هـ .
٤٢. الفتاوى، أحمد ابن تيمية، مجمع الملك فهد: المدينة المنورة، ط١، ١٤١٦هـ .
٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت . ١٣٧٩هـ .
٤٤. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، أ. د. موسى شاهين لاشين، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
٤٥. الفروق، أحمد القرافي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .
٤٦. فقه الأولويات - دراسة في الضوابط، محمد الوكيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فيرجينيا، ط١، ١٩٩٧م .
٤٧. فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، سعيد بن علي بن وهب القحطاني، الطبعة: الأولى، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: السعودية، ط١، ١٤٢١هـ .
٤٨. فقه الموازنات الدعوية - معاملة وضوابطه، د. معاذ بن محمد البيانوني، دار اقرأ للنشر والتوزيع: الكويت، ط٢، ١٤٢٧هـ .
٤٩. فقه الموازنة في الشريعة الإسلامية، د. عبدالمجيد محمد السوسوة، دار القلم: دبي، ط١، ١٤٢٥هـ .
٥٠. فنون الحوار والإقناع لمحمد ديماس، الطبعة الأولى، دار ابن



حزم، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥١. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي، المكتبة

التجارية الكبرى: مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٥٢. قاعدة في المحبة، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق: د. محمد

رشاد، مكتبة التراث الإسلامي: القاهرة، ط١، د.ت.

٥٣. كشف المشكل من حديث الصحيحين، لأبي الفرج عبدالرحمن ابن

الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض - ١٤١٨هـ

١٩٩٧م.

٥٤. الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ط٢ مؤسسة

الرسالة، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٨٨م.

٥٥. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، الطبعة:

الأولى، دار النشر: دار صادر - بيروت.

٥٦. مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، د. نافذ حسين حماد،

الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر - المنصورة، ١٤١٤هـ -

١٩٩٣م.

٥٧. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي سلطان القاري، تحقيق:

جمال عيتاني، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٥٨. المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، د.ت، مؤسسة قرطبة -

القاهرة.

٥٩. معالم السنن لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، المطبعة

العلمية: حلب، ط١، ١٣٥١هـ.

٦٠. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي

السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ١٤٠٤هـ -

١٩٨٣م

٦١. معجم مقاييس اللغة لابن فارس لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية، دار الجيل: بيروت- لبنان ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩ م.
٦٢. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني لأبي القاسم الحسين بن محمد، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة - لبنان.
٦٣. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، قبرص، ١٤٠٧ هـ.
٦٤. الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة: بيروت، ط ١، د.ت.
٦٥. نصب الراية، عبد الله الزيلعي، تحقيق: محمد البنوري، دار الحديث: مصر، ط ١، ١٣٥٧ هـ.
٦٦. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٦٧. نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد الشوكاني، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣ م.



معالم الرحمة
بالبيئة ومكوناتها
في السنة النبوية الشريفة

إعداد:

د. محمد عبد القادر الفقي



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة العاملين، ورحمة الله للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين: محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كثرت الدراسات التي تعنى بالبيئة وحمايتها ورعايتها، بحيث صارت الشغل الشاغل لكثير من المنظمات الدولية والإقليمية، ومراكز الأبحاث الحكومية، فضلاً عن المؤسسات التعليمية، وأخذت الجهات المختصة تصدر تشريعات قانونية تسعى إلى التعامل الرحيم مع البيئة والتخفيف من الهجوم الشرس عليها، ذلك الهجوم الذي يتمثل بالاعتداء على عوالمها المختلفة، وتدنيس ما بها من ماء وهواء وأنهار وبحار وجبال وفضاء، واستنزاف ما بها من موارد نباتية وحيوانية ومعدنية وطاقة وغيرها.

وقد بدأ الاهتمام العالمي بقضايا البيئة منذ مؤتمر استكهولم الذي عقد في عام ١٩٧٢م. وعلى الرغم من صدور العديد من التشريعات البيئية، وإنشاء العديد من المنظمات المعنية بالبيئة، فإن وضع البيئة في العالم لا يزال متردياً. فثمة مشكلات كبرى مثل: التلوث، والاحتباس الحراري، وفقدان التنوع الحيوي، وثقب الأوزون، والتغير المناخي، لا تزال تهدد

بهلاك الحرث والنسل. وترجع هذه المشكلات -في الأساس- إلى غياب البعد الأخلاقي في التعامل مع البيئة ومكوناتها، ونزعة الجشع التي يتسم بها الإنسان المعاصر، الذي يقدم مصالحه المادية على كل شيء.

والقارئ للمصادر الإسلامية، وبخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، يجد أن الإسلام اعتنى عناية فائقة بالبيئة، ولم يقتصر هذا التعامل على رعايتها وحماية مكوناتها، بل امتد إلى الرفق بها، وبكل ما فيها من نباتات وحيوانات وجمادات. وقد جعل هذا الرفق جزءاً من عقيدة المسلم؛ إذ يثاب عليه في حالة قيامه به، ويعاقب عليه عند تجاوزه.

مشكلة البحث:

على الرغم من ثراء التراث الإسلامي في مجال الرفق بالبيئة وحمايتها، لا سيما في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وكتب الفقه والحسبة والطب الإسلامي، فإن الهيئات والمنظمات البيئية - بما في ذلك الموجودة في عالمنا الإسلامي - لم تلتفت إلى هذا التراث عند إعداد برامجها وتشريعاتها وخططها وسياساتها المتعلقة بحماية البيئة ومواردها. فثمة انفصال بين الجانب التطبيقي والعملي في هذه البرامج، وبين الأسس النظرية للرفق بالبيئة ومواردها في المصادر الإسلامية. ويرجع ذلك في الأساس إلى عدم إلمام العاملين في مجال البيئة بأسس التعامل الرحيم مع البيئة ومواردها في القرآن والسنة، وتقصير الدعاة الإسلاميين في تعريف الآخرين بمظاهر الرحمة بالبيئة في سيرة النبي محمد ﷺ وفي سنته الشريفة. ومن ناحية أخرى، فإن معظم الشركات والمؤسسات الصناعية في العالم أهملت البعد الأخلاقي في استخدامها للثروات البيئية؛ مما أدى إلى استنزاف ونضوب العديد منها. ومما يزيد الطين بلة، أن التعليم البيئي يركز على الجانب المعرفي، حيث تتضمن الكتب



الدراسية والأكاديمية حشداً من المعلومات البيئية، في حين أن السلوك البيئي يكاد يكون مغيباً وجدانياً ومهارياً في هذه الكتب، مما يجعل ارتباط الطلاب والمتعلمين بالقضايا البيئية في حكم الهامش!

والتأمل لمصادر السنة والسيرة النبوية الغراء يتبين له أن رسول الله ﷺ لم يكن رحمة مهداة للبشر فقط، بل إن نطاق رحمته اتسع ليشمل كل الموجودات على الأرض، بما في ذلك المكونات غير الحية للبيئة الطبيعية. وقد اعتنى القدامى بإبراز مظاهر رحمته ﷺ بالبشر والزرع والنسل في السلم والحرب، وبيان مدى عنايته بالبيئة الروحية للإنسان المؤمن. وإلى جانب ذلك، اعتنى بعض المحدثين بتناول صور رحمته ﷺ في مجال الرفق بالحيوان، وبمظاهر اهتمامه بالبيئة الحية ورعايته لها. ومع ذلك، فإن مجالات رحمته ﷺ بالبيئة المادية بوجه عام، وبمفرداتها المختلفة بشكل خاص، لم تحظ ببحث مستقل فيما وقع بين أيدينا من دراسات سابقة حول الإسلام والبيئة. ولهذا، فإن المشكلة التي يعالجها هذا البحث تتلخص في الإجابة عن السؤال التالي: ما هي معالم الرحمة بالبيئة ومكوناتها في السنة النبوية الشريفة؟

منهج البحث:

يتبع البحث المنهج الاستقرائي في المقام الأول ثم المنهج الوصفي التحليلي في المقام التالي، حيث يقوم البحث على إجراء مسح شامل للأحاديث النبوية المتعلقة بالبيئة، واستقرائها في مظانها المختلفة، لاسيما الكتب الستة⁽¹⁾، واختيار ما هو مناسب منها لموضوع البحث، وبيان ما في هذه الأحاديث من أوجه الرحمة بالبيئة الطبيعية ومكوناتها، مع الاستعانة بالمصادر والمراجع الإسلامية والغربية ذات الصلة.

(1) إلى جانب الكتب الستة رجع الباحث إلى مسند أحمد، ومستدرک، الحاكم وصحيح، الجامع الصغير والأدب المفرد (بأحكام الألباني).

الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

١. تركيز الأضواء على معالم رحمة النبي ﷺ بالبيئة الطبيعية، وتوضيح مظاهر هذه الرحمة في التعامل مع مكونات تلك البيئة، وذلك من خلال تجلية ما في السنة النبوية من جوانب تتعلق بالرحمة بالبيئة الحية (الحيوان والطير والزروع والنباتات)، وكشف جوانب الرحمة بالبيئة غير الحية (المتمثلة في الجمادات).
٢. توفير مادة علمية ودينية يمكن الاستفادة منها في أنشطة حماية البيئة وبرامج التوعية البيئية، وتعريف غير المسلمين بالسبق النبوي في مجال الرحمة بالبيئة.
٣. بيان أهمية تطبيق أخلاقيات الرحمة بالبيئة في سلوكيات الأفراد والمؤسسات والشركات الصناعية والتجارية على كافة المستويات الدولية والإقليمية والوطنية.

الدراسات السابقة:

- هناك عدة دراسات تناولت موضوع البيئة في الإسلام، منها ما يلي:
- البيئة والإنسان: رؤية إسلامية، د. زين الدين عبدالمقصود (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
 - دراسة عن حماية البيئة في الإسلام، أبو بكر باقادر وآخرون (١٤٠٩هـ).
 - البيئة من منظور إسلامي، علي علي السكري (١٩٩٤م).
 - البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، عبدالحكم الصعيدي (١٩٩٤).



- قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، ماجد راغب الحلو (١٩٩٥م).
- قضايا البيئة من منظور إسلامي، د. عبدالمجيد النجار (١٩٩٩م).
- أضواء على مشكلة الغذاء بالمنطقة العربية الإسلامية، عبدالقادر الطرابلسي (مارس ١٩٩٩م).
- رعاية البيئة في شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي (٢٠٠٦م).
- دور السنة في رعاية البيئة والمحافظة عليها، د. سعيد بن عبدالرحمن بن موسى القزقي (محرم ١٤٢٨هـ / يناير ٢٠٠٧م).
- حماية الإسلام للبيئة، د. محمد عجاج الخطيب (دراسة منشورة على شبكة الإنترنت في موقع نسيم الشام).

وهي دراسات مفيدة في مجالها، وقد استفاد الباحث منها ومن غيرها في دراسته، كما استفاد من العديد من الدراسات التي صدرت باللغة العربية أو بالإنجليزية عن البيئة بوجه عام، وأشار إليها في هوامش البحث. وقد تميزت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في كونها تخصصت في موضوع الرحمة بالبيئة في السنة النبوية، وهو موضوع لم يطرق بالتفصيل في حدود قراءات الباحث حتى الآن^(١).

خطة البحث:

يتكون البحث من التمهيد، والمباحث الأربع الموضحة أدناه:

المبحث الأول: الرحمة بالبيئة الطبيعية بوجه عام

المبحث الثاني: الرحمة بالبيئة الحيوانية

(١) استفاد الباحث أيضاً من دراساته التي سبق نشرها مثل: القرآن الكريم وتلوث البيئة (١٩٨٥)، والبيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث: رؤية إسلامية (١٩٩٣)، وحماية البيئة من التلوث: رؤية إسلامية (١٩٩٥)، والمحافظة على البيئة من منظور إسلامي (٢٠٠٨).

المبحث الثالث: الرحمة بالبيئة النباتية
المبحث الرابع: الرحمة بالبيئة غير الحية (الجمادات).
ثم الخاتمة التي تتضمن أهم النتائج والتوصيات.



التمهيد

قد يكون من المفيد في بداية هذا البحث أن نعرّف بأهم مصطلحين تضمّنهما عنوانه، وهما: الرحمة والبيّنة.

أولاً: الرحمة في اللغة والاصطلاح:

اشتقت لفظة الرحمة في العربية من رَحِمَ المرأة. وهي تأتي في لغتنا بعدة معانٍ أو دلالات^(١)، نذكر منها:

١. الرقة والعطف على الآخرين. يقال: رَحِمَ فلان فلاناً رحمة، وَرُحْمًا، ومرحمة: رقّ له وعطف عليه. وفي التنزيل العزيز: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانُوا وَاقْرَبْ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

٢. المودة، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، يعني: مودة.

٣. الخير والنعمة^(٢) ففي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنَّا بَعْدَ ضَرَأٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١].

(١) ذكر الدامغاني ١٤ وجهاً لكلمة الرحمة في القرآن الكريم فقط، وهي: الإسلام، والجنة، والمطر، والنبوة، والنعمة، والقرآن، والرزق، والنصر، والعافية، والمودة، والإيمان، والتوفيق، وعيسى عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم. انظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الإمام أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ٢٢٤: ٢٢٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤، صفحة ٢٢٥.

٤. الإحسان. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، أي: إلا من أحسن (الله) إليه وعطف عليه^(١).

والرحمة في الاصطلاح هي «حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»^(٢)، الذي يكون بالمعنوي كما يكون بالمادي. وهكذا، فالرحمة عاطفة حية تتبض بالحب والرأفة واللين والشفقة. وهي صفة عظيمة تجعل المرء يرقّ لآلام الخلق ويشعر بها وكأنها آلامه، فيسعى جاهداً لإزالتها. وهي لذلك تُعدّ "فضيلة يتصف بها من ﷺ، وأودع في قلبه قدراً من الرقة واللين والعطف على خلقه"^(٣).

ثانياً: البيئة في اللغة والاصطلاح

لم ترد كلمة (البيئة) في القرآن الكريم^(٤)، وإنما جاء فعلها (باء) في قوله تعالى: ﴿وَبَاءٌ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، وآل عمران: ١١٢]، أي رجعوا... ومن مراجعة فهارس الحديث النبوي الشريف يتبين أن كلمة (البيئة) لم ترد أيضاً في أي حديث من أحاديث النبي ﷺ^(٥)، وإنما جاء فعلها (باء)، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا)^(٦).

- (١) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، صفحة ٢٠٣.
- (٢) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مقابلة وإعداد وفهرسة: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٤٧١.
- (٣) مصطلحات علوم القرآن، د. عبدالحليم عويس وآخرون، دار الوفاء، المنصورة، ج ٢، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، صفحة ٢٠٨.
- (٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة جمال للنشر، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ١٣٩.
- (٥) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أ. ي. ونسلك: مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٦م، الجزء الأول، صفحة ٢٢٨.
- (٦) رواه الشيخان. انظر: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح =



وجاء في المعجم الوسيط: «البيئة: المنزل. والبيئة: الحال. ويقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية...»^(١). وفي (اللسان): «ويقال: إنه لحسن البيئة، أي: هيئة التبوؤ»^(٢)، بمعنى كيفية استقصاء مكان النزول وموضعه. وفي (تاج العروس): باء إليه: رجع... وبوآه منزلاً، وبوأ فيه وبوآه له بمعنى هبأه له: أنزله ومكن له فيه... ويقال تبوأ فلان منزلاً إذا نظر إلى أحسن ما يرى وأشده استواء وأمكنه لمبأته فاتخذ. وتبوأ: نزل وأقام»^(٣). وقد عرفت موسوعة فان نوسترانند العلمية البيئة بأنها: «مجموعة الظروف والعوامل المادية المحيطة بالكائن الحي ومكوناته»^(٤). وهناك من الباحثين من عرفها بأنها: «الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر»^(٥). أما (ي. ك. سنغ Y. K. Singh) فقد عرفها بأنها هي: «الظروف الخارجية المحيطة المؤثرة في نمو الناس والحيوانات والنباتات، والمؤثرة أيضاً في مجمل حياتهم وأنشطتهم»^(٦).

ويرى الباحث أن البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من جمادات

(= البخاري)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، شرح وتحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم الحديث: ٦١٠٢، المكتبة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ، ج ٤، صفحة ١١٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، كتاب الإيمان، رقم الحديث: ٦٠-١١١، مؤسسة قرطبة، الجيزة، ط٢، ١٤١٤هـ، ج ٢، صفحة ٦٤: ٦٥.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤، صفحة ٧٥.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، المجلد الأول، ج ٥، صفحة ٣٨٢.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الأول، صفحة ١٥٢: ١٥٨.

(٤) Van Nostrand's Scientific Encyclopedia· Douglas M. Considine (Editor)· Van Nostrand Reinhold Company· New York· U. S. A· 1976· Page 961

(٥) البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد ومحمد صباريني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩، صفحة ٢٦.

(٦) Environmental Science· Y. K. Singh· New Age International (P) Limited· New Delhi· 2006. Page 1

كالهواء والماء والتربة والجبال والإنشاءات والطاقة)، وأحياء (حيوانية ونباتية)، وظواهر طبيعية (كالرعد والبرق والرياح).

والبيئة في الإسلام ملكٌ لله وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، تسري عليها السنن الكونية، فهي تسبّح لله، وهي ذات أمدٍ محدود، ونحن مستخلفون فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولهذا، يجب أن تكون العلاقة بين الإنسان وبينها وبين مواردها علاقة تتسم بالتعقل والتوازن، فلا إفراط ولا تفريط. ولتحقيق التوازن البيئي المنشود لا بد من الالتزام بأخلاقيات الرحمة والرفق والإحسان من قبل الإنسان، بحيث يتم التعامل مع البيئة ومكوناتها من شجر وحجر وحيوان من منطلق مسؤولية كل امرئ عن كل ما يفعله؛ إذ يثاب خيراً إن أحسن واقتصد، ويجازى شراً إن أساء وظلم. وما مأساة البيئة في عالمنا المعاصر إلا نتيجة طبيعية للخلل الذي أحدثه الإنسان في التوازن البيئي، وهو خلل ناجم أساساً عن أزمة الأخلاق والقيم، التي تتمثل في انتشار حالات الجشع والطمع وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه بيئة الأرض التي نعيش فيها وما فيها من أحياء.



المبحث الأول الرحمة بالبيئة الطبيعية بوجه عام

اهتم الإسلام بموضوع البيئة، وأكد على رعاية كل مكوّناتها والرفق بها. فعلى الإنسان أن يكون رحيماً معها، فلا يجافي سنن الله في خلقه في تعامله معها، بل يعطيها كما يأخذ منها، ويرعى لها حقوقها لتؤتي له حقه. وتتضمن تلك الرحمة قيامه بعمارة الأرض بالغرس والزرع والبناء وإحياء الموات والبعد عن كل فساد وتدمير، والمحافظة على الثروات الزراعية والحيوانية، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ومن هذا المنطلق تأتي رعاية البيئة في قمة أولويات مقاصد الشريعة الإسلامية. فهذه الرعاية تستهدف الحفاظ على ضرورتين من ضرورات الحياة: النفس والمال؛ إذ إن فساد البيئة ينعكس سلباً على صحة الإنسان وعلى سلامة الموارد الطبيعية من حرث ونسل ومعادن وطاقة وصحارى وبحار. ونصوص كل من القرآن الكريم والسنة النبوية غنية جداً بالتعاليم التي تحث على رعاية البيئة وحمايتها بعدم إفساد الأرض بعد إصلاحها، أو إلحاق الأذى بأحيائها ومواردها.

وقد التفت القدماء إلى عناية النبي ﷺ برحمة الحيوان والرفق به، فحظي هذا الموضوع باهتمام مصنفى كتب الحديث النبوي، حتى

أنهم بؤبوا لجملة من الأحاديث التي تتعلق بذلك في مصنفاتهم. فعلى سبيل المثال نجد الإمام البخاري يقول في صحيحه: (باب رحمة الناس والبهائم). وجاء في صحيح ابن حبان: (ذكر استحباب الإحسان إلى ذوات الأربع، رجاء النجاة في العقبي بها) أو (ذكر الزجر عن ترك تعاهد المرء ذوات الأربع بالإحسان إليها). أما سعيد بن منصور فقد خصص في سننه باباً عنونه بقوله: (باب ما جاء في الرفق بالبهائم في السير). ومثل ذلك كثير في كتب الحديث، وهو لا يقتصر فقط على الحيوان، بل يشمل النباتات والجمادات أيضاً.

والمطالع للقرآن الكريم وكتب السنة النبوية الشريفة يجد أنهما يتضمنان عدداً كبيراً من النصوص التي تحض على احترام البيئة الطبيعية ومكوناتها، ومنع العبث بكل معلم من معالمها أو عوالمها، والنظر برحمة إلى ما فيها من بشر وشجر ومدر ووبر وحجر وحيوان وطيروماء وهواء ومبان وأسواق، وحتى مرافق الخلاء وأماكن الراحة، على نحو ما سنوضحه بالتفصيل بعد ذلك في هذا البحث.

ومن الأمثلة على عناية مصادر الشريعة الإسلامية بالمحافظة على سلامة البيئة ما ذكره القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، ٨٥]، فقد قال "إنه ﷺ نهى عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر. . . وقال الضحاك: معناه لا تغوروا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً"^(١). فالنهى عن الفساد في الأرض يتضمن عدم الإضرار بمواردها المائية والنباتية والحيوانية. كما أنه يتضمن أيضاً العمل بواجبات الاستخلاف، فقد قال النبي ﷺ: (إِنَّ

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، صفحة ٢٤٩.



الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟^(١).
وكون الدنيا حلوة خضرة يعني -فيما يعني- أن بيئتها الطبيعية تروق
الناظرين في رونقها وحسنها، وأن الله جعل زينتها ابتلاء للعباد وامتحاناً
لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ۗ ﴾ [الكهف: ٧]. كما يمكننا أن نقول: إن إبقاءها حلوة خضرة على
حالتها التي جعلها الله عليها هو لون من العمل الحسن الذي يتوجب على
الإنسان القيام به في إطار مهام الاستخلاف.

ويفهم من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أن بين الإنسان والبيئة
علاقة نسب وأخوة، فالأول خلق من تراب الأرض، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقال ﷺ:
﴿ وَاللَّهِ أَتْبَعُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا ﴾ [نوح: ١٧]، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه
أن رسول الله ﷺ قال: (أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِّنْ تُرَابٍ...) ^(٢). وخلق الإنسان
من تراب الأرض من شأنه أن يوَلِّد في النفس ثقافة الأخوة والتراحم

- (١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق، رقم الحديث: ٩٨ - (٢٧٤٢)، ج ١٧، صفحة ٨٧.
(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي كما أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار)، والطبراني في معجمه
الكبير. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. والحديث حسنه الألباني في أحكامه على
سنن أبي داود، والترمذي وحسنه الألباني أيضا في (صحيح الجامع الصغير) وفي (صحيح
الترغيب والترهيب). انظر: سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم
على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب الأدب، باب في التفاضر بالأحساب، رقم
الحديث: ٥١١٦، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٧هـ، صفحة ٩٢٦. وانظر: سنن الترمذي، الإمام
محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الدين الألباني،
كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، رقم الحديث: ٣٩٥٥، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٧هـ،
صفحة ٨٨٥. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني،
المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق، ط ٣، ١٤٠٨هـ، رقم الحديث: ١٧٨٧ - ٧٩٢، المجلد الأول،
صفحة ٣٦٧: ٣٦٨. وجاء في (مجمع الزوائد): فيه محمد بن عياش، وفيه ضعف، وثمة رواية
أخرى للحديث رواها البزار: عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (لكم بنو آدم، وآدم من تراب.
لبنتهين قوم يفتخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان)، وقال الهيثمي عن سند هذه
الرواية: "وفيه الحسن بن الحسين العرنبي، وهو ضعيف". انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،
علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، كتاب الأدب، باب فيمن افتخر بأهل
الجاهلية، رقم الحديث: ١٢٠٨٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ج ٨، صفحة ١٠٧.

بين الإنسان والبيئة، تلك الثقافة التي تنتفي منها معاني العداة والصراع والمغالبة والعنف والتدمير، لتسود معاني المحبة والرأفة والمحافظة والصيانة، وذلك ما أشار إليه حديث نبوي قال فيه النبي ﷺ في جبل أحد لما بدا له: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) (١).

وهذا الارتباط المتبادل بين الإنسان وعناصر البيئة، يعني أن الإنسان إذا أساء استخدام عنصر من عناصر البيئة الطبيعية أو استنزفه استنزافاً، فإن العالم برُمته سوف يُضَارُّ أضراراً مباشرة، ومن ثمَّ فقد وضع رسول الله ﷺ قاعدة عامّة لكل البشر الذين يَحْيَوْنَ على ظهر الأرض، وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذه البيئة أو مكوناتها، فقال ﷺ: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) (٢).

وثمة أحاديث نبوية تناولت الرحمة، ولم تقصرها على فئة معينة من المخلوقات، بل جاءت بصيغة العموم لتشمل كل ما في بيئة الأرض وما يدبُّ عليها أو يطير في هوائها. ومن ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الحيس، رقم الحديث: ٥٤٢٥، الجزء الثالث، صفحة ٤٤٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٦٢ - (١٣٦٥)، الجزء التاسع، صفحة ١٩٧.

(٢) سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم الحديث: ٢٣٤٠، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م، ج ٤، صفحة ٢٧. وأخرج الحديث أيضاً: أحمد والدارقطني والطبراني في الأوسط وغيرهم، وذلك عن عدد من الصحابة. وقال البوصيري في الزوائد: «رجاله ثقات إلا أنه منقطع لأن إسحاق بن الوليد قال الترمذي وابن عدي: لم يدرك عبادة». انظر: سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، تحقيق: خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ط١، ١٤١٦هـ، صفحة ١٠٦. والحديث حسن، وممن حسَّنه ابن الصلاح: حيث قال: «هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجه ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه». وقد قوّى الحديث الإمام النووي رحمه الله في الأربعين النووية فقال: «له طرق يقوي بعضها بعضاً». انظر: كتاب الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، خرَّج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبدالرازق البكري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ١٤٢٨هـ، صفحة ٢٤: ٢٥. وانظر: جامع العلوم والحكم، عبدالرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، ج ٢، صفحة ٢١٠.



غلبت غضبي^(١)، وفي رواية أخرى عند مسلم: (سبقت رحمتي غضبي)^(٢). فهذا إعلان واضح يؤكد على أن الرحمة بكل مخلوقات الله - بما فيها البيئة ومكوناتها - مقدمة على الغضب، وأن الرفق مقدم على الشدة.

ومن صور الرحمة الإلهية بالمخلوقات التي تعيش في البيئة معنا، والتي بينها لنا الحديث النبوي، أن الله أنزل من السماء جزءاً واحداً من رحمته إلى الأرض، لكي تتراحم به هذه المخلوقات فيما بينها. فعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِثَّةَ جُزْءٍ، فَأَمَسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمَنْ ذَلِكَ الْجُزْءُ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ)^(٣). فهذا الحديث النبوي الشريف يوضح لنا جانباً من جوانب الرحمة المهداة، إذ يفهم من سياق الحديث حرص النبي ﷺ **صظ** على تذكير أتباعه بمنزلة الرحمة، وبيان أنها ليست خلقاً جمالياً تكميلياً، بل هي أمر واجب. كما أن الحديث يؤكد على أهمية التراحم في بيئة الأرض. ولعل التنويه برحمة الفرس بولدها إشارة لطيفة إلى التراحم بين الحيوانات التي تستوطن البيئة. والأهم من ذلك هو إبراز مدى حاجة الإنسان إلى تطبيق خلق التراحم مع المخلوقات الأخرى في بيئة الأرض، على نحو ما نراه جلياً في قوله ﷺ: (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَم)

(١) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، رقم الحديث: ٣١٩٤، ج ٢، صفحة ٤١٩. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٦ - (٢٧٥١)، ج ١٧، صفحة ١٠٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٥ - (٢٧٥١)، ج ١٧، صفحة ١٠٦.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم الحديث: ٦٠٠٠، ج ٤، صفحة ٩١: ٩٢. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٧ - (٢٧٥٢)، ج ١٧، صفحة ١٠٧.

(١)، وقوله كذلك: (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)^(٢)، وقوله أيضاً (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ)^(٣). وكلمة (مَنْ) الأولى في الحديث الأخير تشمل كل من يعيش في بيئة الأرض.

وقد كان النبي ﷺ يدرك أهمية العناية بالبيئة، فعلمنا أن الإنسان خليفة الله على الأرض، وحقُّ على الخليفة أن يترفق بما أستخلف فيه، ويستثمر ما خلق له وهياً من أجله من دون إسراف أو جور أو تدمير أو إفساد. فقال ﷺ: (مَا كَانَ الرَّفِيقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)^(٤).

كما كان النبي ﷺ يعلم الناس أن الرفق صفة من صفات الله ﷻ، ومظهر من مظاهر رحمته ﷻ، فقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ)^(٥)، وقال أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ)^(٦).

وإذا كان الرفق بالبيئة خلقاً كريماً حثَّ عليه النبي ﷺ، فإن الارتفاق البيئي نهجٌ دعا النبي ﷺ إلى اتباعه في تعاملنا مع البيئة ومكوناتها.

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: ٥٩٩٧، ج ٤، صفحة ٩١. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، رقم الحديث: ٦٥ - (٢٣١٨)، ج ١٥، صفحة ١١١.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت بيبكاء بعض أهله عليه، رقم الحديث: ١٢٨٤، ج ١، صفحة ٣٩٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجنائز، رقم الحديث: ١١ - (٩٣٢)، ج ٦، صفحة ٣١٨: ٣١٩.

(٣) أخرجه الحميدي وأحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والدارمي والطبراني والبيهقي، وصححه جمع منهم الحاكم، وكذا الألباني في السلسلة الصحيحة. كما رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم الحديث: ١٩٢٤، صفحة ٤٣٩.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٨ - (٢٥٩٤)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم الحديث: ٦٠٢٤، الجزء الرابع، صفحة ٩٥: ٩٦.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٧ - (٢٥٩٣)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢٠.



والارتفاق مصطلح مأخوذ من مادة (رفق)، وهو يجمع بين معنيي الانتفاع والتلطف. ونعني بالارتفاق البيئي استثمار ما في البيئة من موارد نباتية وحيوانية وجمادات، والانتفاع بها، ولكن في رفق يحافظ عليها من الفساد أو الضرر أو الأذى. فعلينا أن ننتفع بما سخره الله لنا في البيئة، ولكن في إطار الرحمة بما ذلله الله لنا. وقد جاء في حديث نبوي شريف أن (رَكِبَتْ عَائِشَةُ بَعِيرًا، فَكَانَتْ فِيهِ صُعُوبَةً فَجَعَلَتْ تُرِدُّهُ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ)^(١). ونموذج الارتفاق البيئي الواضح في بعير عائشة ﷺ، يمكن تعميمه على كل ما في البيئة من مخلوقات.

وعليه، يمكننا أن نقول: إن هذا الجانب الأخلاقي المتميز المستتب من حديث نبي الرحمة ﷺ مع أم المؤمنين عائشة ﷺ، يعني أن المسلم أمين على بيئة كوكبنا الأرضي، ومن حقه -كمستخلف فيها- أن يستفيد منها ومما فيها في إطار (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)^(٢)، وفي الوقت نفسه فإنه يكون حريصاً على ألا يكون مفسداً فيها، أو أن يكدر صفوها بأن يستغل عناصرها أو أحياءها في غير ما أمر الله وأراد. وعلى المسلم أن يشعر بالغضب والأسى لأي سلوك غير رحيم بالبيئة، كأن يقع اعتداء في حالة حرب أو سلم على غابة خضراء أو ماء طاهر أو هواء نقي أو أمة من أمم الحيوان أو الطير. وما الكوارث البيئية التي تعاني منها الأرض حالياً (كالاتباس الحراري والتغيرات المناخية وتلوث البيئة) إلا مظهر من مظاهر الإخلال بنهج الارتفاق البيئي، حيث يقوم البشر باستهلاك موارد البيئة بشكل مسرف وضار بالبيئة وأحيائها وجماداتها، بل بأنفسهم أيضاً.



(١) المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٩ - (٢٥٩٤)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢١.

(٢) سبق تخريجه.

المبحث الثاني الرحمة بالبيئة الحيوانية

تسهم موارد البيئة الحيوانية في توفير الغذاء لأنواع المختلفة من الأحياء بما في ذلك الإنسان. فالأنعام والدواجن والأرانب والحمام - على سبيل المثال - لها دورها في التنمية الاقتصادية وتحقيق الأمن الغذائي للمجتمعات البشرية. والطباء والأياثل والأرانب البرية لها أهميتها في غذاء المفترسات من الضواري كالأسود والفهود والنمور. ولكن موارد البيئة الحيوانية تتعرض لضغوط متزايدة من قبل الإنسان المعاصر^(١). فالطلب الحضري على اللحوم والألبان والبيض يتزايد، ويؤدي إلى تآكل التنوع الوراثي للأبقار والدواجن والأغنام والماعز والأسماك، وانقراض بعض السلالات الحيوانية المحلية المتميزة التي استطاعت أن تتكيف مع الظروف البيئية والمناخية لقرون عديدة. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الضغوط الناجمة عن المشكلات البيئية - مثل التلوث والتغير المناخي - تتسبب في تهيئة الظروف المواتية لانتشار مسببات الأمراض من الطفيليات والفيروسات؛ مما يؤدي إلى الإصابة بأمراض حيوانية خطيرة وانتشارها (مثل جنون البقر، وإنفلونزا الطيور)^(٢). ومن ناحية أخرى، فإن الأحياء

(١) Wildlife Ecology and Forest Habitat. Janean H. Creighton and David M. Baumgartner. College of Agriculture and Home Economics. Washington State University. Washington. 1997. Page 3: 14

(٢) The epidemiology and evolution of influenza viruses in pigs. Veterinary Microbiology. Volume 74. 2000. Page 29: 31



البرية (كالفيلة ووحيد القرن والدببة) مهددة بالانقراض من جراء تدمير موائلها الطبيعية، وعمليات قنصها وقتلها، والتلوث البيئي^(١). ولم يخلق الله هذه الأحياء عبثاً، فلكل منها فوائد قد نعرفها، وقد لا نعرفها. وما يزال العاملون في مراكز الأبحاث يكتشفون أدوية جديدة من السلالات الحيوانية الغريبة التي توجد في البيئات البعيدة عن تدخل البشر، مثل الغابات المطيرة، والصحارى النائية^(٢).

ومن قبل اهتمام المنظمات البيئية بالمحافظة على الأنواع الحيوانية، حثّت السنة النبوية على ذلك، من خلال دعوة الرسول ﷺ إلى الرفق بالحيوانات، وجعل ذلك جزءاً من عقيدة المسلم، يثاب عليه بنوال مغفرة الله والفوز بالجنة إذا أحسن للحيوان، ويجازى شراً إن أساء إليه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطْشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَعِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَزَرَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَّتَهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ)^(٣). وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (عُدِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَّتَهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)^(٤). فمراعاة خلق الرحمة مع حيوان أعجم كالكلب أحد موجبات دخول جنة الخلد. وفي المقابل، فإن القسوة مع حيوان ضعيف كالهرة يُعدّ أحد موجبات دخول النار في الحياة الآخرة.

(١) Species Extinction: The Facts، The International Union for Conservation of Nature (IUCN)، Gland، Switzerland، 2008، Page 1: 4

(٢) Economic and Environmental Benefits of Biodiversity، David Pimentel et al. • BioScience، Vol- ume 47، No. 11، Dec. ، 1997، Pages 747: 757

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم ٥٤، رقم الحديث: ٣٤٦٧، ج ٢، صفحة ٤٩٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث ١٥٤ - (٢٢٤٥)، ج ١٤، صفحة ٣٤٨. ويطيف: يدور. وركيئة: بئر ذات ماء، لم تطو. والموق: الخف.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم ٥٤، رقم الحديث: ٣٤٨٢، ج ٢، صفحة ٥٠٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث: ١٥١ - (٢٢٤٢)، ج ١٤، صفحة ٣٤٤.

وقد تعددت صور الرفق بالبيئة الحيوانية في أحاديث نبي الرحمة ﷺ. ومن هذه الصور ما يلي:

١. المحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات بمختلف أنواعها:

يقصد بالتنوع الحيوي: تعدد أنواع الأحياء الموجودة في كوكبنا الأرضي من الحيوانات والنباتات، والكائنات الحية الدقيقة، وتعدد النظم التي تعمل بها هذه الأنواع^(١).

والمحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات نوع من أنواع الرحمة التي حرص الإسلام على إيجادها وإشاعتها في المجتمع الإسلامي. فكل نوع من الأحياء له دوره في السلسلة الغذائية للحيوانات^(٢). وأي خلل في هذه السلسلة يضر بمكوناتها، ويحرم بعض الأنواع من قوتها. كما أنه يحرم البشر من الانتفاع من فوائد هذا النوع.

ولم ينتبه العالم إلى أهمية المحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات إلا في ثمانينيات القرن العشرين، وذلك بعد أن تسببت الممارسات الخاطئة للإنسان في إبادة أنواع عديدة من الأحياء الحيوانية وانقراضها تماما من الحياة البرية. ومن المدهش أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أشارا إلى التنوع الحيوي منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. ولعل في قصة سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم أول إشارة إلى أهمية الحفاظ على

(١) التنوع الأحيائي، د. عبدالحكيم بدران، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٥م، صفحة ٨: ١١.

(٢) تدعى العلاقات التي تربط الكائنات الحية بعضها ببعض بالسلاسل الغذائية Food Chains، حيث تبين هذه السلاسل الأكل والماكول من الحيوانات. والملاحظ أن كل سلسلة غذائية تتألف من نباتات خضراء وحيوانات مستهلكة لها، وحيوانات مفترسة لهذه المستهلكات. فالفأر مثلا يأكل النباتات، والأفعى تأكل الفأر، والحدأة تأكل الأفعى. وعند موت الحدأة تأكلها الحيوانات الرميّة. ويسمى هذا مثلا - أن يقصّر من طول السلسلة الغذائية بأن يتغذى على الأعشاب، ولا يستطيع الصقر كذلك أن يقصر من هذه السلسلة ويتغذى على أوراق الأشجار. انظر: البيئة ومشكلاتها، مرجع سابق، صفحة ٥٩: ٦٢.



التنوع الحيوي، فقد أمره الله ﷻ أن يأخذ معه في الفلك من كل زوجين اثنين. قال تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٤٠٠]. وقد نهى النبي ﷺ عن إفناء أمم الطير والحيوان، حتى لو كان ذلك للكلاب؛ حفاظاً على التنوع الحيوي. فعن عبد الله بن مغفل أنه ﷺ قال: (لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كُلِّهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ)^(١). وما ينطبق على أمة الكلاب ينطبق على سائر أمم الحيوان، فلا يتم قتل أحد منها إلا في حالة الدفاع عن النفس، أو ما كان مؤذياً منها.

٢. النهج الرحيم في التعامل مع الموارد الحيوانية المباح أكلها:

أباح الشرع أكل بهيمة الأنعام، والدجاج، وصيد البحر، والأرنب، وغيرها. أما الأحياء الفطرية، فقد أباح النبي ﷺ منها أكل الجراد والحمار الوحشي. فعن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما، أنه قال: (غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ أَوْ سِتًّا كُنَّا نَأْكُلُ مَعَهُ الْجَرَادَ)^(٢). وعن أبي قتادة: (... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَصَبْتُ حِمَارَ وَحْشٍ، وَعِنْدِي مِنْهُ فَاضِلَةٌ؟ فَقَالَ -أي النبي ﷺ- لِلْقَوْمِ: كُلُوا، وَهُمْ مُحْرَمُونَ)^(٣). وأباح ﷺ أيضاً أكل الضب، مع أنه لم يأكله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (الضَّبُّ لَسْتُ أَكُلُّهُ، وَلَا أُحْرِمُهُ)^(٤). وهذه الأنواع من الحيوانات، مثلها

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجع وأبو عوانة في مستخرجه والدارمي وابن أبي شيبة والطحاوي في مشكل الآثار وغيرهم. وقال أبو عيسى: "حديث عبد الله بن مغفل حديث حسن صحيح". والحديث صححه الألباني. انظر: سنن الترمذي، كتاب الصيد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في قتل الكلاب، رقم الحديث ١٤٨٦، صفحة ٣٥٢. (وبهيم) أي: خالص السواد.

(٢) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب أكل الجراد، رقم الحديث: ٥٤٩٥، ج ٣، صفحة ٤٥٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٢ - (١٩٥٢)، ج ١٣، صفحة ١٥٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب إذا صاد الحلال فأهدى للمحرم الصيد أكله، رقم الحديث: ١٨٢١، ج ٢، صفحة ٨: ٩.

(٤) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب الضب، رقم الحديث: ٥٥٣٦، ج ٣، صفحة ٤٦٣. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح، =

مثل بهيمة الأنعام والدواجن والأرانب، من الأحياء الحيوانية التي تتكاثر بأعداد كبيرة. وفي الأغلب الأعم، فإنه لا يُخشى إفناؤها. فإن حدث، وأسرف الناس في صيدها، بحيث أصبحت على شفا الانقراض، فهنا تتم مراعاة البند السابق الخاص بالمحافظة على التنوع الحيوي.

وفي هذا السياق فإن تعاليم السنة النبوية تهج نهجاً وسطاً ورحيماً في التعامل مع الموارد الحيوانية المباح أكلها. فهي لا تحبذ الإسراف في القتل عبثاً، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: (لا تَتَّخِذُوا شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً) (١)، أي: نهى عن تثبيت أي حيوان وجعله هدفاً للتدريب على الرماية والقنص! كما (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُصَبَّرَ الْبَهَائِمُ) (٢)؛ أي: تحبس حتى تموت. ولا تتخذ هذه التعاليم سبيل بعض المهوسين بحماية البيئة ممن يقيمون الدنيا ولا يقعدونها بسبب ذبح المسلمين للخراف في عيد الأضحى. ولا تجنح تعاليم السنة النبوية إلى قبول قول جماعات الرفق بالحيوان التي تدعو إلى منع قتل الحيوانات بالكلية تذرّاً بحماية حقوقها.

٣. الحث على الرفق بالحيوان:

يعود اهتمام العالم الغربي بموضوع الرفق بالحيوان إلى عام ١٨٢٢، حيث أسفرت جهود الأيرلندي ريتشارد مارتين Richard Martin، عضو البرلمان الإنجليزي، وقتذاك، عن صدور القانون الذي حمل اسمه (قانون

= رقم الحديث: ٣٩ - (١٩٤٣)، ج ١٣، صفحة ١٤٣. والضَّبُّ: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العظاء، غليظ الجسم خشنه، وله ذنبٌ عريضٌ حَرَشٌ أَعْقَدُ، يكثر في الصحاري. انظر: المعجم الوسيط، صفحة ٥٣٢.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الصيد والذبائح، رقم الحديث: ٥٨ م - (١٩٥٧)، ج ١٣، صفحة ١٥٩.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث: ٥٥١٣، الجزء الثالث، صفحة ٤٦٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٨ - (١٩٥٦)، الجزء الثالث عشر، صفحة ١٥٨. وصبر البهائم: أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه.



مارتين (Martin's Act)، والذي يجرم الاعتداء على المواشي والأغنام والخيل والبغال والحمير. وقد استثنى القانون الثيران من المعاملة الرحيمة^(١). وبعد ذلك بعامين (في عام ١٨٢٤م) تم تأسيس أول جمعية للرفق بالحيوان في بريطانيا، وهي الجمعية الملكية لحماية الحيوان^(٢). وقد أُلغِيَ قانون مارتن بموجب قانون آخر صدر في سنة ١٨٤٩م وشمل كل الحيوانات^(٣). وفي سنة ١٨٦٦ م أسس هنري برج Henry Bergh جمعية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية لرعاية الحيوانات الضالة ومساعدة المزارعين على رعاية المواشي بتوعيتهم صحياً^(٤). وبعد ذلك، انتشرت جمعيات الرفق بالحيوان في معظم دول العالم.

والمطلع على السنة النبوية يجد أن مفهوم الرحمة بالحيوان كان من بين مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ ليتممها. وقد تعددت صور هذه الرحمة في السنة النبوية، ومن ذلك: عدم السماح بالقسوة في التعامل مع الحيوانات، أو تكليفها بما يشق عليها، أو العبث بها، أو إيذائها بضربها. وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الحيوانات والطيور عبثاً، فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ، فَمَرُّوا بِفَتِيَّةٍ، أَوْ بِنَفَرٍ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهَا، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: (مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا)^(٥).

ومن الرفق والرحمة بالحيوان عدم إزعاجه في عشه ليلاً. فعن أم

(١) The Rights of Persons According to the Text of Blackstone: Incorporating the Alterations Down to the Present Time Sir William Blackstone and James Stewart, Edmund Spettigue, Law Book-seller And Publisher, London, 1839, Page 79

(٢) <http://www.animalethics.org.uk/i-ch6-4-martin.html>

(٣) How to Do Animal Rights Legally, with Confidence, Ben Isacat, Oxford, Britain, 2013, Page 165

(٤) Friend of Animals: The Story of Henry Bergh, Mildred Mastin Pace, New York: Charles Scribner's Sons, 1942, Page 145

(٥) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث: ٥٥١٥، ج ٣، صفحة ٤٦٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذبائح، رقم الحديث: ٥٩ - (١٩٥٨)، ج ١٣، صفحة ١٥٩.

كرز قالت: أتيت النبي ﷺ فسمعتة يقول: (أقروا الطير على مكناها).
وفى رواية (... فى وكناها) ^(١).

ومن الرفق والرحمة به أيضاً عدم تصرّيته بحبس اللبّن في ضرع
الأنثى، تمهيداً لبيعها؛ إذ إن هذا السلوك يؤذي الحيوان. فعن أبي هريرة
رضي الله عنه قال: (لَا تُصَرُّوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ ...) ^(٢).

٤. الاهتمام برعاية صغار الحيوانات وحمايتها:

شملت الرحمة النبوية بالحيوانات حماية صغار الحيوانات والمحافظة
عليها وإتاحة الفرصة لها للنمو والحياة. ومن الأحاديث النبوية التي تتعلق
بذلك ما رواه عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، حيث قال: كنا مع رسول الله
ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيهما،
فجاءت الحُمرة، فجعلت تُفَرِّش (تُعَرِّش)، فجاء النبي ﷺ فقال: (مَنْ فَجَعَ
هذه بولدها؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا) ^(٣). فسأله ﷺ عن هوية الصحابي الذي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في (المعجم الكبير) وأبو نعيم في (الحلية)، وابن حبان في صحيحه،
والحميدي في مسنده، وغيرهم. كما رواه الحاكم في مستدركه وصححه وقال: "هذا حديث صحيح
الإسناد ولم يخرجاه". انظر: المستدرک على الصحيحين في الحديث وفي ذيله تلخيص المستدرک للإمام
الذهبي، الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري، كتاب الذبائح، ج ٤،
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الدکن (الهند)، الطبعة الأولى، ١٢٤٠ هـ، صفحة ٢٢٧:
٢٢٨. وقال الذهبي عن هذا الحديث: «تفرد به عبيد الله ابن أبي يزيد المكي، وله علة». وقال الهيثمي:
«رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق، كتاب
الطب، باب أقروا الطير على مكناها، رقم الحديث: ٨٤٢٠، ج ٥، صفحة ١١٨.

(٢) رواه الشيخان، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب النهي للبايع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم
وكل محفلة، رقم الحديث: ٢١٤٨، ج ٢، صفحة ١٠٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب
البيوع، رقم الحديث: ١١ - (١٥١٥)، ج ١٠، صفحة ٢٢٤: ٢٢٦.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم الحديث: ٢٦٧٥، صفحة
٤٧٠. وجاء في (عون المعبود): «قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمِ الرَّازِيِّ أَنَّ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ، وَصَحَّحَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ
فِي جَامِعِهِ. انْتَهَى. . . وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ
رَوَاهُ: (حُمْرَةٌ) طَائِرٌ صَغِيرٌ كَالْعَصْفُورِ. (فَجَعَلَتْ تُفَرِّشُ): مَنْ فَرَّشَ الطَّائِرَ إِذَا فَرَّشَ جَنَاحِيهِ. وَفِي
رِوَايَةٍ: تُفَرِّشُ أَي تَفَرَّقَتْ بِجَنَاحَيْهَا، وَتَقَرَّبَتْ مِنَ الْأَرْضِ». انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود
عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط ١، ١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م، ج ٧، صفحة
٣٣٤: ٣٣٥، والجزء ١٤، صفحة ١٨٠: ١٨١.



أخذ الفرخين يحمل في طياته استكثاراً لهذا العمل، وتوبيخاً لمن تسبب في حرمان صغار الحمرة من حقهم في الحياة ومن رعاية الحمرة لهم. وأمره برد ولد هذا الطائر هو ملمح من ملامح الرحمة التي لا يفيض بها إلا قلب نبي كريم يؤمله أن يُتْرَك طائرٌ برِّي بلا أفراخ ليعاني من قسوة الحياة بعد أخذ صغاره، ومن الحسرة على فقدهم.

ومن مظاهر الرحمة النبوية أيضاً: نهيه ﷺ عن ذبح الحلوب من الأنعام؛ إذ إن ذلك يعني جوع الصغار الذين لم يصلوا بعد إلى مرحلة الفطام والاعتماد على غذاء خارجي غير حليب الأم. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلأَنْصَارِيِّ، الَّذِي اسْتَضَافَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٍ، حِينَ هُمْ بِذَبْحِ شَاةٍ إِكْرَامًا لَهُمْ: (إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ) (١).

إنها رحمة سبقت بقرون دعاة الرفق بالحيوان من غير المسلمين الذين يذرفون دموع التماسيح على طائر بحري تلوّث بالنفط من جراء غرق ناقلة نفط في عرض البحر، ولا يحركون ساكناً لحرق المسلمين أحياء في دولة مثل بورما، أو لفرق الأطفال في أثناء فرارهم من جحيم الحرب في ديارهم.

٥. النهي عن قتل أنواع محددة من الحيوان لفوائدها البيئية:

لم يخلق الله ﷻ شيئاً عبثاً، وإنما خلقها لغاية قد نعلمها، وقد يخفى علينا سر خلقها، لكن الأحياء جميعها -بوجه عام- مسخرة لخدمة الإنسان ولفائدته. ولكل منها دوره في تحقيق التوازن البيئي (الإيكولوجي) في الأرض. وقد خصّ الرسول ﷺ حيوانات محددة بالنهي عن قتلها، فعن ابن عباس، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ:

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الأشربة، رقم الحديث: ١٤٠ - (٢٠٢٨)، الجزء الثالث عشر، صفحة ٣٠٥.

النَّمْلَةَ وَالنَّحْلَةَ وَالْهُدْهُدَ وَالصُّرَدَ^(١). وفي علة ذلك قال الخطابي: «إنما جاء في قتل النمل عن نوع منه خاص وهو الكبار ذوات الأرجل الطوال لأنها قليلة الأذى والضرر. وأما النحلة فلما فيها من المنفعة وهو العسل والشمع. وأما الهدهد والصرد فلتحريم لحمها؛ لأن الحيوان إذا نهي عن قتله ولم يكن ذلك لاحترامه أو لضرر فيه كان لتحريم لحمه؛ ألا ترى أنه نهي عن قتل الحيوان بغير مأكلة؟ ويقال: إن الهدهد منتن الريح فصار في معنى الجلالة. والصرد تتشائم به العرب وتتطير بصوته وشخصه، وقيل إنما كرهوه من اسمه من التصريد وهو التقليل»^(٢). وتشير المراجع العلمية الحديثة إلى فوائد عديدة لهذه الحيوانات، فمنها ما يفيد في التخلص من النفايات وبقايا الغذاء (كالنمل)^(٣)، أو في تلقيح الأزهار وإنتاج العسل (كالنحل)^(٤)، أو الحد من طغيان ديدان الأرض (كالهدهد)^(٥)، أو اصطياد الحشرات الضارة والجنادب (كالصرد)^(٦)، ومكافحة كل من الذباب ويرقات البعوض بالاعتداء عليهما (كالضفدع)^(٧).

(١) أخرجه أبو داود وعبدالرزاق وأحمد وابن ماجه والبيهقي والبيهقي في المختارة، وحكم على إسناده بالصحة الألباني كما في إرواء الغليل وفي أحكامه على أحاديث سنن أبي داود من حيث بيان صحيحها وضعيفها. انظر: سنن أبي داود (بأحكام وتعليقات الألباني)، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم الحديث: ٥٢٦٧، صفحة ٩٥١. وانظر: سنن ابن ماجه، كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، رقم الحديث: ٣٢٢٤، ج ٤، صفحة ٦١٥. وقال النووي: «رواه أبو داود عن ابن عباس مرفوعاً بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم. وكذا صححه الإمام الحافظ عبدالحق الأشبيلي». انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج ١٤، صفحة ١٧٩. والصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنتقار، يصيد صغار الحشرات. انظر: المعجم الوسيط، صفحة ٥١٢.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، ج ١٤، صفحة ١٧٩.

(٣) Book of Common Ants· Eleanor Spicer Rice· Rob Dunn Lab. · North Carolina State University· 201· Page 20

(٤) Crop Pollination By Bees· K. S. Delaplane and D. F. Mayer· CABI· New York· 2000· Page 8

(٥) المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، محمد عبدالقادر الفقي، المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، الكويت، ٢٠٠٨، صفحة ٢٢٠.

(٦) الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٩ هـ، المجلد ١٥، صفحة ٩٠:٩١.

(٧) Best Management Practices for Mosquito Control· Department of Ecology· Washington State · Department of Ecology· Olympia· WA· USA· May 2004· Page 50



وحرّم الرسول ﷺ أيضاً قتل الضفدع. فعن عبدالرحمن بن عثمان (أنّ طبيباً سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها)^(١). ولا يخفى أن النهي عن قتل هذه الأحياء لا يقتصر على الفوائد التي ذكرناها، بل هو أيضاً لون من ألوان الرحمة بتلك الأحياء من جهة، وبالبيئة الحيوانية من جهة أخرى. فهذه البيئة متوازنة من حيث عدد الأنواع، ومن حيث تماسك سلسلها الغذائية. وهي في توازنها معرضة للانهايار إذا ما حدث أي تدخل بشري أو غير بشري يفقدها هذا التوازن. ولهذا فالحرص على استقرار السلسل الغذائية للأنواع الحيوانية المختلفة نوع من الرحمة بهذه الأنواع لا يقدره إلا المتخصصون في علوم البيئة.

٦. السماح للأحياء البرية، بما في ذلك المؤذية منها، بالهرب من قتل الإنسان لها لتتعم بحياتها:

وصف النبي ﷺ هروب حيّة من محاولة بعض الصحابة ﷺ قتلها، بدخولها إلى جحرها، بأنها قد وقيت شرهم، ووقاهم الله شرها. فعن عبد الله بن مسعود، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ، فَانزَلَتْ (وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا)، فَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ مِنْ جُحْرِهَا، فَأَبْتَدَرْنَاهَا لَنَقْتَلَهَا، فَسَبَقْتَنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَقِيَتْ شَرُّكُمْ كَمَا وَقِيْتُمْ شَرَّهَا)^(٢). قال ابن حجر في شرحه للحديث: «(وقيت شركم، ووقيتم

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قتل الضفدع، رقم الحديث: ٥٢٦٩، صفحة ٩٥١. وانظر: سنن النسائي المسمى بالمجتبى وبهامشه حاشية الإمام السندي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج وترقيم وضبط: صدقي جميل العطار، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع، رقم الحديث: ٤٣٦١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥، صفحة ١٠٢٧. وقال الزيلعي: "ورواه أحمد، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود الطيالسي في مسانيدهم، والحاكم في (المستدرک في الفضائل) عن عبدالرحمن بن عثمان التيمي، وسكت عنه، وأعادته في (الطب)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال البيهقي: هو أقوى ما ورد في الضفدع، وسعيد بن خالد هو القارظي ضعفه النسائي، ووثقه ابن حبان. وقال الدارقطني: مدني، يحتج به". انظر: نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد عبدالله الزيلعي، تصحيح: محمد عوامة، كتاب الذبائح، الحديث الثاني والعشرون، دار القبة للثقافة الإسلامية، جدة، ج ٤، ١٩٩٧، صفحة ٢٠١.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، =

شرها)، أي قتلكم إياها هو شر بالنسبة إليها، وإن كان خيراً بالنسبة إليهم^(١). وقال أيضاً في موضع آخر: «وقيت شركم، ووقيتم شرها»، أي: أن الله سلمها منكم كما سلمكم منها^(٢). ولما لم يطلب الرسول ﷺ من الصحابة قتلها في جحرها، بل التمس لها العذر لهروبها، وقال قولته التي سبقت، يمكننا أن نفهم من ذلك أنه ﷺ راضٍ عن السلوك الذي اتخذته الحية للنجاة بنفسها. وهو ما يتوافق مع مفهوم المحافظة على التنوع الحيوي الذي سبق أن أشرنا إليه، والذي اعتبرناه لوناً من ألوان الرحمة بالأحياء.

٧. تحريم صيد الحيوان في منطقة الحرم، وعلى المحرم بحج أو عمرة:

حرم الإسلام الصيد في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما حظره أيضاً على من أحرم بحج أو عمرة، فقال تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]. ومن الأحاديث النبوية التي تتعلق بتحريم الصيد في أثناء الإحرام ما قاله الصَّعْبُ بْنُ جَنَاطَةَ اللَّيْثِيُّ (أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَحَشِيًّا، وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ، أَوْ بُوْدَانَ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ، قَالَ: إِنَّا لَمَّ نَرُدُّهُ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ)^(٣). وقد ذكر العلماء القدامى أسباباً وراء ذلك التحريم، منها اختبار مدى خشية المؤمن لربه، وإظهار مدى خوفه من الله ﷻ، ومراقبته له، وتفرغته لأداء النسك، والابتعاد وقتذاك عن اللهو والاشتغال

= رقم الحديث: ٣٣١٧، ج ٢، صفحة ٤٤٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السَّلام، رقم الحديث: ١٣٧ - (٢٢٣٤)، ج ١٤، صفحة ٣٣٤: ٣٣٥. وقوله: (فابتدرناها): أي: تسابقنا إليها.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م، ج ٦، صفحة ٤١١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الرابع، صفحة ٤٩.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب إذا أهدى للمحرم حماراً وحشياً حيا لم يقبل، رقم الحديث: ١٨٢٥، ج ٢، صفحة ١٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٥٠ - (١١٩٢)، ج ٨، صفحة ١٤٧: ١٤٨.



بالصيد. ويمكن أن نضيف إليها أيضاً: الرحمة بالحيوانات (البرية) التي تعيش في تلك المنطقة الصحراوية الفقيرة بأحيائها الحيوانية والنباتية، وإتاحة المجال أمامها للاستمرار في الوجود والحياة.

٨. إنشاء المحميات الطبيعية للحيوانات:

قبل أن تتجه دول العالم الحديث إلى إنشاء المحميات الطبيعية للمحافظة على الحيوانات والنباتات المهددة بالانقراض، فإن شريعة الإسلام كانت سباقة إلى ذلك بقرون عديدة، من خلال تخصيص مكة المكرمة والمدينة المنورة كمحميتين طبيعيتين للحياة البرية من حيوانات ونباتات. وقد حمى خليل الله إبراهيم عليه السلام منطقة الحرم في مكة. وحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة. وكون مكة والمدينة محميتين يوجب ألا يمس فيهما حيوان إلا المؤذي، ولا نبات إلا ما اقتضته الضرورة. فعن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال علي رضي الله عنه: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة، قال: فأخرجها، فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل. قال: وفيها: (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدَّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ...) (١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: لَوْ رَأَيْتُ الظُّبَاءَ تَرْتَعُ بِالْمَدِينَةِ مَا ذَعَرْتُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا حَرَامٌ)، وزاد في رواية بعد قول أبي هريرة: ما ذعرتها: (وَجَعَلَ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ حِمًى) (٢).

وقد حمى الرسول صلى الله عليه وسلم أماكن خاصة لإبل الصدقة ودواب بيت المال

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، رقم الحديث: ٦٧٥٥، ج ٤، صفحة ٢٤٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٦٧ - (١٣٧٠)، ج ٩، صفحة ٢٠١: ٢٠١.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لابتي المدينة، رقم الحديث: ١٨٧٣، ج ٢، صفحة ٢٢: ٢٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٧١ و٤٧٢ - (١٣٧٢)، ج ٩، صفحة ٢٠٥: ٢٠٦.

وخيل الجهاد، فلا يرمى فيها غيرها. فعن الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ) وَقَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ، وَأَنَّ عُمَرَ حَمَى السَّرْفَ وَالرَّبِذَةَ»^(١). وعن ابن عمر ﷺ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ لِحَيْلِهِ)^(٢).

ولا يخلو إنشاء هذه الحمى من ملامح الرحمة النبوية؛ إذ إن تخصيص هذه الحمى لأنواع خاصة من الحيوان يعني توفير بيئة آمنة لهذه الأحياء لا تمس فيها بأذى، ولا تعاني تلك الأحياء مشقة في الحصول على غذائها، ولا يُخاف عليها من هجوم المفترسات عليها.

وقد أدرك العالم الآن أهمية إنشاء المحميات الطبيعية في المحافظة على الأحياء المعرضة لأخطار الانقراض أو المهتدة حياتها بالخطر، فشرعت دول العالم في تخصيص مناطق برية وبحرية فيها لإنشاء هذه المحميات وإدارتها.

(١) صحيح البخاري، كتاب الشرب والمساقاة، باب لا حمى إلا لله ولرسوله ﷺ، رقم الحديث: ٢٢٧٠، الجزء الثاني، صفحة ١٦٧. و(النقيع): موضع قريب من المدينة كان يستتق فيه الماء، أي يجتمع. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، الجزء الثامن، صفحة ٣٤٠. و(الشرف): كبد نجد. و(الربذة): من قرى المدينة على ثلاثة أيام من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة. والربذة: هي الحمى الأيمن. انظر: معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الثالث، صفحة ٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده والبيهقي في (السنن الصغير) وحמיד بن زنجويه في (الأموال) وعبد ابن حميد وغيرهم. والحديث حكم عليه العلامة شعيب الأرناؤوط بقوله: «حسن لغيره، وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن عمر - وهو العمري -، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح». انظر: مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، رقم الحديث: ٥٦٥٥، تعليق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ، الجزء الثاني، صفحة ٩١.

وجاء في (تتقيح التحقيق): "وأخرجه حميد بن زنجويه في «الأموال» (١١٠٥) عن أبي عبيد... وأخرجه أحمد (٥٦٥٥) عن ابن عمر، والبيهقي في الكبرى (١٤٦/٦) من طريق القعنبى عن العمري به. وخالفه عاصم بن عمر بن حفص، فرواه عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر به. ولكن عاصم ضعيف، وقد يكون أضعف من عبد الله العمري، وهو أخوه، والراوي عنه عبد الله بن نافع فيه بعض الضعف». انظر: تتقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق: سامي جاد الله وعبد العزيز الخباني، أضواء السلف، الرياض، ط ١، ٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، صفحة ٢٠: ٢١.



٩. النهي عن قتل الحيوان إلا لضرورة، والإحسان إليه في قتله:

نهى رسول الله ﷺ عن قتل أي حيوان أو حشرة دون سبب مشروع أو عذر مقبول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحث شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة؟^(١). فتحريم حرق النمل وإضرار النار في بيوته لون من ألوان الرحمة بأمة النمل. وقد سبق أن أشرنا إلى تحريمه ﷺ قتل أمة الكلاب، وأوضحنا علاقة ذلك بالمحافظة على التنوع الحيوي.

وإذا كان الحيوان مما يؤكل، فإن الرحمة به في السنة النبوية تبلغ الذروة، فقد نهى النبي ﷺ عن تعذيب الحيوان في أثناء الذبح، سواء أكان التعذيب جسدياً بسوء اقتياده للذبح، أو برداء آلة الذبح، أم كان التعذيب نفسياً بروية السكين؛ ومن ثم يجمع عليه أكثر من مائة! فمن الإحسان إليه ساعتئذ أن تُحدَّ الشفرة، وأن يُسقى الماء، وأن يراح بعد الذبح قبل السلخ. فعن شداد بن أوس قال: شتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليجد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)^(٢). وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة)^(٣).

(١) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم الحديث: ٢٣١٩، الجزء الثاني، صفحة ٤٤٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث: ١٤٨ - (٢٢٤١)، الجزء ١٤، صفحة ٣٤٢.

(٢) رواه مسلم وأبو داود. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذباح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٧ - (١٩٥٥)، ج ١٣، صفحة ١٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شعب الإيمان. والحديث حسنه الألباني. انظر: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، باب رحمة البهائم، رقم الحديث: ٢٨١، دار الصديق، الجيل (السعودية)، ط ٢، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م، صفحة ١٣٤.

١٠. عدم أخذ كرائم الأنعام في الزكاة:

في نصيحة النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى أهل اليمن قال له: (وتوقَّ كرائمَ أموال الناس)^(١)، أي: أنفَسَهَا. وقد ذكر شرح الحديث أن أخذ كرائم الأموال وأنفسها ظلم لأصحابها. وهذا صحيح، فعادة ما تكون كرائم الأموال هي الأفضل في نتاجها وإنتاجها، سواء أكانت ذكورا أم إناثاً. وإبقاء هذه الكرائم يعني ضمان استمرارية الذرية الجيدة بإذن الله. وفي العمل بهذا الحديث رحمة بأصحاب هذه الكرائم، لأن فيه حفظاً وصيانة للسلاسل الجيدة المنتجة، كما لا يخفى علاقة هذا العمل بخلق الرحمة المتمثل في حماية التنوع الحيوي.



(١) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم الحديث: ١٤٥٨، ج ١، صفحة ٤٥٠: ٤٥١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب السَّلام، رقم الحديث: ١٣٧ - (٢٢٣٤)، ج ١٤، صفحة ٢٣٤: ٢٣٥.

المبحث الثالث الرحمة بالبيئة النباتية

تمثل البيئة النباتية أحد أهم الموارد الحيوية في كوكبنا الأرضي. فهي توفر الغذاء والدواء لملايين البشر والحيوانات العاشبة. كما أن بعض أنواعها توفر الألياف الضرورية لصناعة الملابس وبعض المنتجات الأخرى. وتقوم النباتات بتوفير الأكسجين الذي لا غنى عنه لتنفس الكائنات الحية، بما فيها الإنسان. وتوفر الأشجار مأوى للعديد من الحيوانات والطيور والحشرات والهوام، فضلاً عن دورها في توفير الظل لها، وللإنسان. وهذا يعني أن وجود هذه البيئة النباتية منافع لنا، وهي أيضاً رحمة لنا ولغيرنا من المخلوقات التي تعتمد عليها في غذائها ومأواها. ولأنها رحمة، فقد دعت الشريعة الإسلامية إلى معاملتها بالرحمة أيضاً، مع الاستفادة منها في غير إسراف أو إفساد. وقد تضمنت السنة النبوية أحاديث تتضمن صوراً مختلفة للرحمة التي على الإنسان أن يراعيها مع البيئة النباتية، ومن ذلك ما يلي:

١. المحافظة على الحياة النباتية الفطرية:

لما كانت الصحاري فقيرة بغطائها النباتي لاسيما الأشجار، فقد حثت السنة النبوية على المحافظة على ما يوجد في تلك البيئة الجافة من نباتات. فعن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَطَعَ سِدْرَةَ

صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ^(١). وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ السِّدْرَ يَنْبِتُ فِي الْبُوَادِي، وَيَصْبِرُ عَلَى الْعَطَشِ، وَيَقَاوِمُ الْحَرَّ، وَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِتَفْيِئِ ظِلَالِهِ وَالْأَكْلَ مِنْ ثَمَارِهِ إِذَا اجْتَازُوا الْفِيَاظِي. فِلْمَحَافِظَةِ عَلَى السِّدْرِ، بَعْدَ قِطْعِهِ، فِيهَا رَحْمَةٌ بِهَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَفِيهَا أَيْضاً رَحْمَةٌ بِمِرْتَادِي الصَّحْرَاءِ إِذْ إِنهَا تَوْفِّرُ لَهُمُ الثَّمَارَ وَالظِّلَّ فِي بَيْئَةٍ تَتَسَمُّ بِشِدَّةِ الْقَيْظِ فِيهَا صَيْفًا. كَمَا أَنَّ فِيهَا كَذَلِكَ رَحْمَةٌ بِالطَّيُورِ الَّتِي تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ أَوْ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا.

وقد سبق أن أشرنا إلى تخصيص مكة المكرمة والمدينة المنورة كمحميتين طبيعيتين للحيوانات والنباتات البرية الموجودة فيهما. ومن الأحاديث النبوية المتعلقة بذلك: ما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا: لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا)^(٢). وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حرّم قطع العضاه، أي: الأشجار التي بها شوك، فإن تحريم الأشجار المثمرة أو المفيدة أولى. وهذا التحريم يستهدف المحافظة على ملامح الحياة الفطرية في مكة والمدينة. فهو لون من ألوان الرحمة بتلك البيئة القاحلة التي ينذر نمو النبات والشجر فيها. وفي الوقت نفسه، فإن عدم الاعتداء على تلك النباتات بالقطع أو الكسر يعني استمرارها في توفير المأوى والغذاء للطيور والحيوانات والحشرات التي تأوي إليها. فهي رحمة عامة بالبيئة وما فيها.

ومن ناحية أخرى، حظرت الشريعة الإسلامية على كل مسلم أن يقطع شجرة في الحرم أو يكسرها أو يحرقها، أو يزيل نباتاً إلا ما كان منه

(١) رواه أبو داود في سننه، وصحّحه الألباني. وقد سئل أبو داود عن معني هذا الحديث فقال: «هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوّب الله رأسه في النار». انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، رقم الحديث: ٥٢٣٩، صفحة ٩٤٧. وقال الهيثمي: «رواه أبو داود خلا من قوله: من سدر الحرم، ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الحج، باب في حرمة مكة والنهي عن غزوها واستحلالها، رقم الحديث: ٥٦٩٨، ج ٢، ٢٠٠١م، صفحة ٤٦٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٥٨ - (١٣٦٢)، الجزء التاسع، صفحة ١٩٢. وقال النووي: (اللابتان): الحرّتان، واحدهما (لابة)، وهي الأرض الملبسة بحجارة سوداء. والعضاه: كل شجر فيه شوك، واحدها عضاهة.



يابسا ولحاجته. وقد خصص الإمام البخاري في صحيحه باباً حول ذلك، جعل عنوانه (لا يُعْضَدُ شَجَرُ الْحَرَمِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: لا يعضد شوكة)^(١). وهذا الحظر يُعَدُّ من آيات الرحمة بالبيئة الفطرية في منطقة الحرم المكي التي وصفها القرآن بأنها (بوادٍ غير ذي زرع).

كما حثَّ الرسول ﷺ على منع العبث بمعالم البيئة الطبيعية وعواملها في مكة المكرمة، فقد قال ﷺ يوم فتح مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقْطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يَخْتَلِي خَلَاهَا)، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبَيوتِهِمْ، فَقَالَ: (إِلَّا الْإِذْخِرَ)^(٢).

٢. حماية النبات من الهلاك بالحيوان والإنسان:

أكدت السنة النبوية على حق النبات في الرفق به وحمايته من الهلاك بالحيوان والإنسان والإفساد في الأرض. فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الْعَجْمَاءُ جَرَحُهَا جَبَارٌ...) ^(٣). وقال النووي في ذلك: «إن البهيمة إذا كان معها سائق أو قائد أو راكب فاتلفت بيدها أو برجلها أو فمها ونحوه، وجب ضمانه في مال الذي هو معها، سواء كان مالكا أو

(١) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب جزاء الصيد، الجزء الثاني، صفحة ١٢. ولا يعضد: لا يقطع.
(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم الحديث: ٢١٨٩، ج ٢، صفحة ٤١٧. وقال النووي: «قوله: (لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ): قال أهل اللغة: (العَضْدُ): القَطْعُ، وَ (الْخَلَا): هُوَ الرُّطْبُ مِنَ الْكَلَاءِ. وَمَعْنَى (يَخْتَلِي): يُوْخِذُ وَيَقْطَعُ، وَمَعْنَى (يُخْبِطُ): يُضْرِبُ بِالْعَصَا وَنَحْوِهَا لِيَسْقُطَ وَرَقُهُ. وَ (الْإِذْخِرَ) نَبْتُ مَعْرُوفٍ طَيْبِ الرَّائِحَةِ. . . (فَيْنَهُمْ): هُوَ الْحَدَادُ وَالصَّائِغُ. وَانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٤٥ - (١٢٥٢)، ج ٩، صفحة ١٧٥: ١٨٠.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب في الركاز الخمس، رقم الحديث: ١٤٤٩، ج ١، صفحة ٤٦٥. وانظر: أيضا: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الحدود، رقم الحديث: ٤٥ - (١٧١٠)، ج ١١، صفحة ٢١٩. والعجماء هي: كل الحيوان سوى الأدمي، وَسُمِّيَتْ الْبَهِيمَةَ عَجْمَاءً؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ. وَالْجَبَارُ: الْهَدْرُ.

مُسْتَأْجَرًا أَوْ مُسْتَعِيرًا أَوْ غَاصِبًا أَوْ مُودَعًا أَوْ وَكَيْلًا أَوْ غَيْرَهُ. أما إذا كان ذلك بغير تَفْرِيطٍ مِنْ مَالِكِهَا، أو لم يكن معها أَحَدٌ فَهَذَا غَيْرُ مَضْمُونٍ»^(١). وهذا يعني أن صاحب الحيوان ضامن إذا خرجت حيواناته ليلاً، وأهلكت زرع أحد؛ لأن عليه حماية حيواناته من الخروج ليلاً. كما أن صاحب الزرع مسؤول عن زرعه نهاراً وعليه حراسته، وإذا اعتدت عليه الحيوانات فهو الضامن لنباته^(٢)، وفي هذا حماية للنبات المزروع من الهلاك والرعي الجائر والتخريب بالليل والنهار، أي أن ذلك رحمة بالنبات المزروع وبصاحبه.

وقد سبق أن ذكرنا الحديث الذي رواه أبو داود عن قطع السدر، وأوضحنا جانب الرحمة فيه، حيث إن العمل به يعني حماية أشجار البر من القطع الظالم أو الجائر.

وقد حرم الإسلام قطع نبات الحرم أو إتلافه، وفي هذا حفاظ على النبات في بيئة مكة المكرمة.

٣. تمهيد الأرض واستصلاحها وريها لزراعة النبات:

من أوجه الرحمة النبوية بالنباتات: حث الإنسان على إحياء الموات وتمهيد الأرض واستصلاحها لزراعة النبات فيها، وإحيائها بالماء لإتاحة الفرصة أمام الزروع والشجر للنمو والإثمار والاستمرار في الحياة. فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهِيَ أَحَقُّ)^(٣)، أي أحق بها من غيره. وقال عمر رضي الله عنه: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ)^(٤).

وقد دعا النبي ﷺ إلى الاهتمام بالغرس والتشجير والزرع. فعن أنس

- (١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، صفحة ٢١٩.
- (٢) انظر: تفاصيل ذلك في: المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ود. عبدالفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط ٢، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ج ١٢، صفحة ٥٤١: ٥٤٣.
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، الحديث رقم: ٢٣٣٥، ج ٢، صفحة ١٥٧.
- (٤) المرجع السابق، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، ج ٢، صفحة ١٥٧. وقال ابن حجر: «قوله: (وقال عمر من أحيا أرضاً ميتة فهي له) وصله مالك في (الموطأ) عن ابن شهاب عن سالم عن أبيه مثله». انظر: فتح الباري، ج ٥، صفحة ٢٣.

ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَغْرِسْهَا) ^(١). وتتبع أهمية هذه الدعوة من دور النباتات في حفظ التوازن البيئي للأرض، وفي دعم مختلف أنواع الحياة الحيوانية بها، من خلال قيامها بإنتاج الأكسجين الذي لا غنى عنه لحياة البشر والحيوانات والنباتات أيضاً. فهذه الدعوة تحمل في طياتها رحمة بكل هذه المخلوقات.

٤. حماية بيئة النبات من التلوث:

حث النبي ﷺ على الرحمة بالنبات من خلال حفظ حقه في النمو في بيئة أرضية نظيفة. ويتجلى ذلك في نهيه ﷺ عن قضاء الحاجة (التبول والتبرز) تحت الأشجار وأماكن ظلها وسقوط ثمارها، وعدد ذلك من الملائعن التي توجب لعنة المسلمين على فعلها. فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةَ الطَّرِيقِ، وَفِي الظِّلِّ) ^(٢).



(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد)، وأحمد، وعبد بن حميد في مسنده، والبخاري في مسنده. والحديث صححه الألباني. انظر: الأدب المفرد الجامع للأدب النبوية (الأدب المفرد)، مرجع سابق، باب اصطناع المال، رقم الحديث: ٤٧٩، صفحة ١٦٢.

(٢) رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم. وقال أبو داود عنه: هذا مرسل، وهو مما انفرد به أهل مصر. والحديث حسنه الألباني. انظر: سنن أبي داود، مرجع سابق، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، رقم الحديث: ٢٦، صفحة ١٠. وقال المزي: روى عن معاذ بن جبل، أراه مرسلًا. انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج ٢٣، صفحة ٢٥٤. وقد جاء هذا الحديث في رواية عند أحمد، أن ابن هبيرة قال: أخبرني من سمع بن عباس رضي الله عنه يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ)، قيل: مَا الْمَلَاعِنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْ يَقْعُدَ أَحَدِكُمْ فِي ظِلِّ يَسْتَتَلُّ فِيهِ، أَوْ فِي طَرِيقٍ، أَوْ فِي نَقْعِ مَاءٍ). انظر: مسند أحمد بن حنبل، مسند عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، رقم الحديث: ٢٧١٥، ج ١، صفحة ٢٩٩. وقال الهيثمي: «وفيه ابن لهيعة ورجل لم يسم». وجاء في تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لإبهام روايه عن ابن عباس. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق، كتاب الطهارة، باب ما نهى عن التخلي فيه، رقم الحديث: ٩٩٧، ج ١، صفحة ٢٧٩.

المبحث الرابع الرحمة بالبيئة غير الحية (الجمادات)

عُرِّفَ الجماد في معجم اللغة العربية المعاصرة بأنه: «قسم من أقسام الكائنات، وهو ما لا ينمو، ولا حياة له خلاف الإنسان، والحيوان، والنبات»^(١).

والجمادات هي القوت الأساسي للأحياء، وبخاصة للكائنات البسيطة (كالطحالب). فلإعالة الحياة في الأرض قدر الخالق ﷻ فيها أوقاتها، وجعلها متاحة لما خلقه، وما بثه فيها من أصناف النبات والحيوان. وتشمل هذه الأوقات جميع الجمادات الموجودة في الأرض من هواء وماء وحرارة وضوء وتربة وصخور ومعادن وطاقة^(٢). ومن الملاحظ أن جميع الأحياء النباتية أو الحيوانية (بما في ذلك البشر)، عند موتها تتحلل وتتحول إلى التراب، ويتبخر منها الماء والهواء، أي: تتحول إلى جمادات^(٣). ويندرج تحت الجمادات ما يسمى بالبيئة المشيدة، التي تتمثل في جميع المنشآت التي يبنها الإنسان أو يغير بها معالم سطح الأرض أو البحر، مثل المدن والقرى والمنازل والمدارس والمساجد والطرق والأسواق والجزر الصناعية

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، المجلد الأول، صفحة ٣٩١.

(٢) البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث - رؤية إسلامية، محمد عبدالقادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٢٦.

(٣) المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، مرجع سابق، صفحة ٤٤: ٤٦.

ومراكز الترفيه والبنى التحتية^(١).

ولما كانت الرحمة عاطفة حية تتبض بالحب والرأفة واللين والشفقة، فإننا نجد خير تمثيل لها في شخصية النبي ﷺ. فقد اتسعت رحمته لتشمل الأحياء والجمادات. وقد تناولنا في المباحث السابقة بعض مظاهر الرحمة النبوية بالبيئة بوجه عام وبالحيوانات والنباتات. أما صور رحمته ﷺ بالجمادات فمتعددة. فمن ذلك:

١. العطف والشفقة على جذع النخل:

قد يكون من المألوف أن يرحم الإنسان إنساناً مثله، أو أن يرفق بحيوان ما، أو يرقّ لحال شجرة تعاني من الجفاف فيسقيها، ولكن أن يوجه الإنسان رحمته إلى جماد لا يتحرك ولا يتكلم، فهذا لون من الرحمة لا يمكن أن يمارسه إلا نبي كريم. ولعل حادث حنين الجذع خير مثال يمكن أن نسوقه في هذا السياق لبيان الرحمة التي كان يفيض بها قلب نبينا محمد ﷺ حتى بالجمادات. ومن المعروف أن النباتات إذا اجتثت من الأرض فقدت وظائفها الحيوية، ومن ثم سرت عليها قوانين الجماد. وقد ورد حديث الجذع في كتب الصحاح. فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جَذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمَنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجَذْعُ فَاتَّاهُ يَمْسَحُ يَدَهُ عَلَيْهِ)^(٢). ومع أن في هذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ، تمثلت في حنين الجذع بصوت مسموع كصوت الناقة العشاء، فإن رد الفعل الانفعالي للنبي ﷺ كان أعظم. فلم يتركه يئن، وهو يعلم أنه جماد لا روح فيه، بل أقبل عليه يمسح يده عليه، وكأنه يتعامل مع رضيع يبكي، وهو سلوك عظيم من صاحب قلب رحيم. وثمة رواية أخرى

(١) البيئة ومشكلاتها، صفحة ٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٢٥٨٣، ج ٢،

صفحة ٥٢٥.

للحديث نفسه، تذكر أن الرسول ﷺ ضمَّ الجذع إلى صدره. فعن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مَنْبَرًا؟ قَالَ: (إِنْ شِئْتُمْ). فَجَعَلُوا لَهُ مَنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمَنْبَرِ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَتَنُّ أَنْبِنِ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ»^(١). إنها الرحمة التي تفيض بها جوانح النبي ﷺ، فتجعله يرق ويشفق على جذع ميت من جذوع النخل، لا قيمة اقتصادية له إذا ما قورن بينه وبين جذع أي شجرة أخرى.

٢. الإحسان إلى الأرض:

تدل كلمة الرحمة -فيما تدل- على الإحسان، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴿﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، أي: إلا من أحسن (الله) إليه وعطف عليه^(٢). وتعدُّ عمارة الأرض لوناً من ألوان الإحسان إليها، أي الرحمة بها وبما فيها من مخلوقات. والرحمة بالإحسان أقوى من الرحمة التي تقوم على الرقة واللطف أو المودة أو العفو؛ لأن الإحسان لا يكون إلا عن سجية طيبة وخلق كريم ونفس تفيض بالعطف وتتسم باللين والرفق ورهافة الحس. وعمارة الأرض نوع من أنواع الرحمة العامة؛ إذ تتضوي تحتها كل عناصر البيئة الحية وغير الحية. ولهذا، حثَّت السنة النبوية على الإحسان إلى الأرض بفرسها وتشجيرها، وجعلت ثواب ذلك أجراً عظيماً، فكل ما يصاب من ثمار الأشجار والزررع هو صدقة ينميها الله ﷻ لصاحبها إلى يوم القيامة، بما في ذلك ما تصيبه أحياء البيئة من طير وسباع وحيوان ودواب وحشرات، حيث يقول النبي ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ

(١) المرجع السابق، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٥٨٤، ج ٢، صفحة ٥٢٥.

(٢) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، صفحة ٢٠٣.

زَرَعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بِهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ^(١). وإذا عجز المرء عن الإحسان إلى الأرض بزراعتها فإن عليه ألا يتركها لتبور، بل عليه أن يعطيها للقادر على زراعتها. فقد قال ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبِي فَلْيَمْسِكْ أَرْضَهُ)^(٢).

٣. إماطة الأذى عن الطرق:

من صور الإحسان إلى البيئة المشيدة: إماطة الأذى عما فيها من الطرق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَيَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)^(٣).

وإماطة الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس ممن يستعملون الشوارع والطرق. وقد أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (وَأِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوْكَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ)^(٤).

ويندرج تحت إماطة الأذى: تنظيف الشوارع من القمامة والنفايات وما شابه ذلك مثل العوادم الضارة لوسائل النقل.

٤. الإحسان إلى بيئة المسجد:

المساجد بيوت الله في الأرض. ومن الواجب على كل مسلم أن يحسن

(١) صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فَضْلِ الزَّرْعِ وَالْعَرَسِ إِذَا أَكَلَ مِنْهُ، رقم الحديث: ٢٢٢٠، ج ٢، صفحة ١٥٢.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة، رقم الحديث: ٢٦٢٢، ج ٢، صفحة ٢٤٥. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البيوع، رقم الحديث: ٨٩ - (١٥٣٦)، ج ١٠، صفحة ٢٨٠: ٢٨١.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم الحديث: ٢٩٨٩، ج ٢، صفحة ٣٥٥: ٣٥٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، رقم الحديث: ٥٦ - (١٠٠٩)، ج ٧، صفحة ١٣٢.

(٤) رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: (هذا حديث حسن غريب). والحديث صححه الألباني. انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صنائع المعروف، رقم الحديث: ١٩٥٦، صفحة ٤٤٥.

إلى بيئتها بأن يحافظ عليها من الملوّثات بشتى أنواعها. ومن هذه الملوّثات: النخامة والبصاق والقمامة والنجاسات. فاجتنب هذه الملوّثات لون من ألوان الرحمة ببيئة المسجد وما تضمنه من مكونات حية (مصلين) وغير حية (أرض المسجد وعمارته). وفي النخامة يقول النبي ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا. فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يَمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النَّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ) (١). وفي النهي عن البصق على أرض المسجد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَرَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا» (٢). ورغم أن الحديث ذكر أرض المسجد فإنه يشمل طرق المسلمين عامة، بل الأرض جميعها، ومما يشجعنا على القول بذلك حديث قول النبي ﷺ: «... وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» (٣).

وإذا حدث أن تنجست بيئة المسجد، فإن من الإحسان إليها تطهيرها من الفور. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاولَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (٤).

وقد أتى النبي ﷺ على من أحسن إلى بيئة المسجد بتطهيرها على القمامة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه «أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ - أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ - كَانَ يَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: (أَفَلَا كُنْتُمْ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٧ - (٥٥٢)، ج ٥، صفحة ٥٧: ٥٨.

(٢) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم الحديث: ٤١٥، ج ١، صفحة ١٥١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٥ - (٥٥٢)، ج ٥، صفحة ٥٥: ٥٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم الحديث: ٤٢٨، ج ١، صفحة ١٥٨.

(٤) المرجع السابق، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم الحديث: ٢٢٠، ج ١، صفحة ٩١.



أَذْتَمُونِي بِهِ؟ دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ - أَوْ قَالَ: قَبْرِهَا - فَآتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ»^(١).

٥. الإحسان إلى الماء:

لما كان الماء بركةً وخيراً يغاث به الناس والدواب والحرث، وكان عماد الحياة، لذلك فإن الإحسان إليه يعد ضرورياً حتى يستمر هذا المورد البيئي المهم في أداء دوره في إعالة الحياة. ويكون الإحسان إلى الماء بعدم الإسراف في استخدامه لغير حاجة تستدعي ذلك. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْسِلُ، أَوْ كَانَ يَغْتَسِلُ، بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ، وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ)^(٢).

٦. الإحسان إلى المعالم الجغرافية:

امتدت رحمة رسول الله ﷺ إلى كثير من المعالم الجغرافية، بما في ذلك المدن والجبال والوديان، وحتى بعض الأحجار. وقد كانت لبعض معالم المدينة منزلة خاصة في قلب النبي ﷺ، فأولاهها برحمته المعنوية، المتمثلة في الحب والمودة. ومثال ذلك: جبل أحد. فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بدا له أحد فقال: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)^(٣).

ومن صور رحمته المعنوية ﷺ بالمدينة المنورة دعاؤه لها بالبركة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ قَالَ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمْرِنَا؛ وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا؛

(١) نفسه، كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيذان، رقم الحديث: ٤٥٨، ج ١، صفحة ١٦٤: ١٦٥.

(٢) نفسه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، رقم الحديث: ٢٠١، ج ١، صفحة ٨٥. وجاء في الموسوعة الفقهية: «المد: كيل مقداره رطل وثلاث عند أهل الحجاز، وهو ربع صاع». انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف، الكويت، ط ٣، ١٧٤١هـ، ج ٣٦، صفحة ٢٨٤. وقوله: (وبارك لنا في مدنا) ليس المراد منه البركة بذات المد ولكن المقصود هو ما فيه من الثمار. جاء في (فتح المنعم): «والمراد بالبركة فيما يكال». انظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د. موسى شاهين لاشين، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ، ج ٥، صفحة ٤٤٧.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في الحاشية ٢٠.

وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا؛ وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا. اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمَثَلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ^(١).

وقد طالت دائرة الرحمة النبوية الأحجار أيضاً، وبلغت المودة بينه وبين حجر منها أنه ﷺ كان يلقي عليه السلام، فيرد عليه الحجر سلامه، وهذا من معجزاته ﷺ، كما أنه من مظاهر تواضعه ولينه ومودته ورحمته حتى مع الحجر الأصم. فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي لِأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ. إِنِّي لِأَعْرِفُهُ الْآنَ)^(٢).



(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كِتَابُ الْحَجِّ، رقم الحديث: ٤٧٣ - (١٣٧٣)، الجزء التاسع، صفحة ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، كتاب الفضائل، رقم الحديث: ٢ - (٢٢٧٧)، الجزء الخامس عشر، صفحة ٥٣.

الخاتمة

لقد أدى سوء استغلال الموارد البيئية، والابتعاد عن القيم الدينية والأخلاقية في التعامل مع البيئة في المجتمعات الصناعية المعاصرة إلى تفاقم المشكلات البيئية، مثل: التلوث، ونضوب الأوزون، والاحتباس الحراري، وانقراض العديد من الأنواع الأحيائية الحيوانية والنباتية. ومما يزيد الطين بلة أن الإنسان المعاصر تعامل مع البيئة وكأنها ملكيته الخاصة وليست ميراثاً لجميع البشر حاضراً ومستقبلاً، فعجل بإفسادها. وبينما يعاني العالم من تدنُّ في أحواله البيئية نجده ينفق مليارات الدولارات كل عام على الحروب والأنشطة العسكرية التي تدمر البيئة. واللافت للنظر أن الدول ذات الدخل المحدود تصرف معظم دخلها على التسلح كل عام، وتهمل مشروعات الزراعة وتأمين المياه الصحية وتوفير المأوى اللائق والتعليم وبرامج المحافظة على الصحة العامة لسكانها.

ولعلاج هذه المشكلات، فإن البشرية بحاجة إلى اعتناق المبادئ الإسلامية المتعلقة بالمحافظة على البيئة والرفق بمواردها، وتطبيق ما يعرف بالرحمة البيئية التي تعني احترام البيئة والتعامل معها في

إطار الرفق بها، مع الاستفادة من مواردها دون إفراط أو تفريط، ودون استنزاف أو هدر أو تلويث وإفساد لها ولخصائصها وأنظمتها. ومن استقراء الأحاديث النبوية التي أوردناها في هذا البحث، وفي الدراسات السابقة التي تعرضت للبيئة في الإسلام، ندرك أن الرحمة النبوية بالبيئة طالت الأنفس البشرية والأحياء التي تشاركنا المعيشة على كوكبنا الأرضي من حيوانات ونباتات، كما امتد نطاقها لتشمل المكونات غير المادية للبيئة من الجمادات. وهذه الأحاديث ذات أهمية عظيمة في برامج حماية البيئة إذا تم توظيفها في التوعية البيئية وفي إعداد البرامج والخطط الخاصة بالمحافظة على البيئة؛ لأنها تحث على حماية المخلوقات التي تعيش على الأرض والإحسان إليها، مع الاستفادة مما في الأرض من موارد ومقدرات وفق ضوابط خاصة من غير إفراط ولا تفريط أو إسراف أو تدمير.

ولهذا، فإن واجب الباحثين المسلمين المعنيين بقضايا البيئة، إبراز هذا الجانب لغير المسلمين، وتعريفهم بمظاهر الرحمة البيئية في سيرة الحبيب ﷺ وأقواله وأفعاله، لاسيما وأن حماية البيئة أصبحت قيمة من قيم الحضارة المعاصرة، وهي تحظى حالياً باهتمام العالم أجمع. ولن تحل المشكلات البيئية الكبرى التي تعاني منها البشرية الآن إلا من خلال تطبيق مبدأي الرحمة والعدالة البيئية. فقد أخفقت التشريعات البيئية الوضعية في معالجة تلك المشكلات بسبب غياب هذين المبدأين من تلك التشريعات، وبسبب إصدار القوانين والأنظمة التي تراعي مصالح من يهّمهم الكسب السريع على حساب استنزاف الموارد وتلويث البيئة.

أهم النتائج:

١. إن نصوص السنة النبوية الشريفة غنية جداً بما ورد على لسان الرسول ﷺ من أقوال وأفعال تتعلق بالرفق بالبيئة والرحمة بمكوناتها.

٢. تبدي السنّة اهتماماً خاصاً بقضية الرفق بالحيوان والنبات والجماد.

٣. إن استقراء الأحاديث النبوية المتعلقة بالبيئة يؤكد أن الرسول ﷺ كان من أكثر الناس رحمة بالبيئة ومكوناتها، وأن رحمته امتدت حتى إلى الأشجار والأحجار.

أهم التوصيات:

١. ضرورة التّأصيل لقيم حماية البيئة استناداً إلى سيرة النبي ﷺ وسنته الشريفة.

٢. إعادة قراءة السنة النبوية من منظور عصري لاستخلاص المبادئ والأفكار التي تفيّد في حل القضايا المعاصرة بما فيها قضية المحافظة على البيئة وثرواتها، وضرورة ترجمة هذه المبادئ إلى اللغات الأخرى لتعريف غير المسلمين بالدور العظيم لنبي الإسلام في هذا الموضوع، وكيف أنه كان رحيماً بالبيئة محسناً لها، على النقيض من أولئك الزعماء الذين يتشدقون الآن ببرامجهم البيئية وفي الوقت نفسه لا يتورعون عن تدمير البيئة باستخدام أسلحة الدمار الشامل في الحرب.

٣. التأكيد على أهمية التعاون بين الباحثين الشرعيين والبيئيين لمعالجة قضايا البيئة.

٤. يجب أن تراعى القيم الأخلاقية المتعلقة بحماية البيئة والمستفادة من الأحاديث النبوية في برامج التنمية ومشروعاتها التي يجري تنفيذها في دول العالم الإسلامي.

٥. تضمين مناهج التعليم في المراحل المختلفة موضوعات عن

مظاهر الرحمة النبوية في مجال التعامل مع مختلف مكونات البيئة والمحافظة عليها .

٦ . دعوة المفكرين والفقهاء والباحثين وخبراء البيئة إلى التعاون فيما بينهم لعرض الرؤية الإسلامية الشاملة لقضايا البيئة استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، والعمل على تصحيح المسار وبيان مواطن الخلل كلما أتاحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية .

٧ . دعوة المؤسسات البيئية والهيئات الدينية في العالم الإسلامي إلى تطبيق المبادئ الإسلامية المتعلقة بالمحافظة على البيئة والرفق بمواردها، وتطبيق ما يعرف بالرحمة البيئية التي تعني احترام البيئة والتعامل معها في إطار الرفق بها مع الاستفادة من مواردها دون إفراط أو تفريط، حتى نكون قدوة لغيرنا من غير المسلمين .



المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. الأدب المفرد الجامع للأدب النبوية، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل (السعودية)، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٣. البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب الثاني والعشرون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٧٩م.
٤. البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث - رؤية إسلامية، محمد عبدالقادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
٦. تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله وعبدالعزیز ابن ناصر الخباني، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٧. التنوع الأحيائي، د. عبدالحكيم بدران، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٥م.
٨. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، شرح وتحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٩. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٠. جامع العلوم والحكم، عبدالرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
١١. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، صفحة ٢٤٩.
١٢. سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي وبحاشيته تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
١٣. سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
١٤. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ.
١٥. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.



١٦. سنن الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٧. سنن النسائي المسمى بالمجتبى وبهامشه حاشية الإمام السندي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج وترقيم وضبط: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٨. صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة، الجيزة، مصر، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
١٩. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ضبط وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٢٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
٢١. كتاب الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، خرج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبدالرازق البكري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٢٢. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مقابلة وإعداد وفهرسة: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- ٢٣ . فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- ٢٤ . لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- ٢٥ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
- ٢٦ . المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، محمد عبدالقادر الفقي، المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، الكويت، ٢٠٠٨م.
- ٢٧ . المستدرك على الصحيحين في الحديث وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، الحافظ الكبير أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الدكن (الهند)، الطبعة الأولى، ١٣٤٠هـ.
- ٢٨ . مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، تعليق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٩ . مصطلحات علوم القرآن، د. عبدالحليم عويس وآخرون، دار الوفاء، المنصورة، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- ٣٠ . معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٣١ . معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- ٣٢ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أ. ي. ونسك؛ مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٦م.
- ٣٣ . المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.



٣٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي؛
مؤسسة جمال للنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٥. المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر،
مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٦. المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن
التركي ود. عبدالفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة
الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٧. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع،
الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٨. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت،
ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٩. نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد عبدالله
الزليعي، تصحيح: محمد عوامة، دار القبله للثقافة الإسلامية/
مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع/ المكتبة المكية، جدة/
بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٠. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الإمام أبو عبدالله
الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبدالحميد
علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ٢٢٤: ٢٢٧.

٤١. Best Management Practices for Mosquito Control، Department
of Ecology، Washington State Department of Ecology، Olympia،
WA، USA، May 2004.

٤٢. Book of Common Ants، Eleanor Spicer Rice، Rob Dunn .
Lab. ، North Carolina State University، 2010.

٤٣. Crop Pollination By Bees، K. S. Delaplane and D. F. Mayer،
CABI، New York، 2000.

- Economic and Environmental Benefits of Biodiversity, David . ٤٤
Pimentel et al. , BioScience, Volume 47, No. 11, Dec. , 1997.
- Environmental Science, Y. K. Singh, New Age International . ٤٥
(P) Limited, New Delhi, 2006.
- The epidemiology And evolution of influenza viruses in pigs, . ٤٦
Veterinary Microbiology, Volume 74, 2000.
- Friend of Animals: The Story of Henry Bergh, Mildred . ٤٧
Mastin Pace, New York: Charles Scribner's Sons, 1942.
- How to Do Animal Rights Legally, with Confidence, Ben . ٤٨
Isacat, Oxford, Britain, 2013.
- The Rights of Persons According to the Text of Blackstone: . ٤٩
Incorporating the Alterations Down to the Present Time, Sir
William Blackstone and James Stewart, Edmund Spettigue,
Law Bookseller And Publisher, London, 1839.
- Species Extinction: The Facts, The International Union for . ٥٠
Conservation of Nature (IUCN), Gland, Switzerland, 2008.
- Van Nostrand's Scientific Encyclopedia, Douglas M. Considine . ٥١
(Editor), Van Nostrand Reinhold Company, New York, U.S.A,
1976.
- Wildlife Ecology and Forest Habitat, Janean H. Creighton . ٥٢
and David M. Baumgartner, College of Agriculture and Home
Economics: Washington State University, Washington, 1997.
- <http://www.animaletics.org.uk/i-ch6-4-martin.html> . ٥٣



رحمة الرسول ﷺ

بالمخالفين في أثناء الحرب

إعداد:

د. عبد المحسن أحمد محمد علي

أستاذ مساعد بجامعة نجران - فرع شرونة

كلية العلوم والآداب

قسم الدراسات الإسلامية



المقدمة

الحمد لله الواحد المعبود، الذي عمت حكمته الوجود، وشملت رحمته كل موجود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الغفور الودود، وأشهد أن نبينا محمداً عبداً لله ورسوله، صاحب المقام المحمود الذي أرسله ربه رحمة للمؤمن المحب الودود والكافر العدو اللدود، فاللهم صلي وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، الركع السجود، والتابعين ومن تبعهم من المؤمنين الشهود.

أما بعد :

فلقد بعث الله تعالى رسوله الكريم ﷺ هدى ورحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال ﷺ: «إنما بعثت رحمة»^(١)، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٢).

ولقد كانت رحمة النبي ﷺ خلقاً من أخلاقه الكريمة وأسلوب حياة تعامل به مع أتباعه الموافقين، وإن تعجب فعجب أن نقول وأيضاً مع أعدائه الكافرين

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ لمسلم بن الحجاج: ٤/ ٢٠٠٦ حديث رقم: ٢٥٩٩، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيره، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری: ١/ ٩١ حديث رقم: ١٠٠، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١-١٩٩٠، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

المخالفين من اليهود والنصارى والمشركين، ورحمته ﷺ بهؤلاء بلغت غايتها ومداهما، حيث إنها لم تقتصر على الرحمة بهم في السلم فقط، بل وفي الحرب أيضاً- فغمرت رحمته ﷺ في أثناء الحرب المحاربين والمدنيين والمستأمنين والأسرى وغيرهم من المخالفين، وأيضاً بيئتهم التي يعيشون فيها ومقدراتهم وممتلكاتهم، وقد وفقني الله ﷻ لاختيار هذا البحث، لأتحدث فيه عن هذا الجانب من جوانب رحمة النبي ﷺ، وجعلته بعنوان (رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين في أثناء الحرب)، اقتصرت فيه على الحديث عن رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين له في أثناء الحرب ومظاهر ذلك، وذلك خشية الإطالة، ولأن الرحمة في الحرب أمر بعيد وغير متوقع، لكن سلكه النبي ﷺ مع مخالفيه، ويحتاج إلى مزيد من الإيضاح والبيان أكثر من غيره.

وفيما يلي أسباب اختياري لموضوع البحث، وأهدافه، ومشكلته، ومنهجي فيه، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

أولاً: أسباب اختياري لموضوع البحث:

كان من أسباب اختياري لهذا الموضوع ما يلي:

١. إظهار جانب من جوانب رحمة النبي ﷺ العامة، وهو رحمته ﷺ بالأعداء المخالفين من أهل الكتاب والمشركين في الحرب والقتال بينهم وبين رسول الله ﷺ والمؤمنين.

٢. الرد من خلاله على أولئك المسيئين لرسول ﷺ بالقول أو الفعل واصفين له بالعنف والقسوة والإرهاب، مبيناً أن النبي ﷺ كان رحيمًا، بلغت رحمته مداها مع مخالفيه قبل متبعيه، حتى في حالة لا يتوقع فيها رحمة أو رأفة، وهي حالة الحرب والقتال، وأنه لم يكن أبداً قاسياً ولا عنيفاً ولا إرهابياً، كما يفترى أولئك الأفاكون.

٣. المشاركة به في مؤتمر الرحمة الذي ستعقدّه -بمشيئة الله تعالى-
جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية.

ثانياً: أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى عدة أهداف، منها:

١. التأكيد على أن الإسلام دين الرفق الرحمة، وليس دين العنف والإرهاب، وأن نبيه ﷺ نبي الرأفة الرحمة وليس نبي القسوة والعنف حتى مع غير الأتباع والأحباب.

٢. الرد من خلاله على من يسيئون لرسول الإسلام، ويصفونه والإسلام بالإرهاب، وهو منه برئ، ببيان جانب من جوانب رحمته ﷺ بالمخالفين من أعدائه، ودعوتهم إلى قراءة سيرة رسول الله ﷺ، ليقفوا على منهجه ﷺ في تعامله مع أسلافهم، وهم الذين لم يدعوا وسيلة من وسائل العنف والإرهاب والقسوة والغدر إلا وقد مارسوها معه ومع أصحابه، من ضرب وتعذيب وطرد ومحاربة وحصار ونقض للعهود والمواثيق ومحاولة اغتيال أكثر من مرة، ومع ذلك كانت رحمته ﷺ بهم هي الغالبة على الانتقام والعفو هو الغالب على المعاملة بالمثل، فقد فاقت رحمته الوصف، وزادت عن الحد إذا قسناها بمنظور البشر.

٣. دعوة المسلمين إلى الاقتداء برسول الله ﷺ في تخلقه بخلق الرحمة، حتى مع المخالفين لهم في العقيدة أو الرأي.

٤. بيان أن قتاله ﷺ للمخالفين في الدين والعقيدة إنما كان رحمة بهم، أما بالنسبة لمن آمن منهم عقب الحرب أو الغزو فظاهر، وبالنسبة لمن قتل منهم في ميدان الحرب والقتال فوجه الرأفة والرحمة في

ذلك أن قتله منعه من التماذي في غيه وضلاله، فلا يزيد عذابه وعقابه عند الله ﷻ، وبالنسبة لمن بقي منهم فلعله يراجع نفسه عندما يرى انتصار المسلمين في الحروب، فيعلم أنهم على الحق المبين فيسلم أو يكف عن قتال المسلمين، ويأمنوا شره أجمعين.

ثالثاً: مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في بيان مظاهر رحمة النبي ﷺ بالمخالفين له في ميدان الحرب والقتال ببيان أن النبي ﷺ لم يكن قاسياً أو عنيفاً في الحروب والغزوات، بل كان رؤوفاً رحيماً لا يقاتل إلا من حمل السلاح عليه وقاتله، ولم يتعد حدود القتال والقتل، وإن شئت فقل: إن النبي ﷺ حارب أعداء المخالفين له بالرحمة، وانتصر عليهم بها، وكانت سبباً في إسلام الكثير منهم.

رابعاً: منهجي في البحث:

اتبعت في هذا البحث -بفضل الله ومنه- المنهج الاستقرائي الاستنباطي، بجمع الأحاديث والآثار التي تدل على مظاهر وصور رحمة النبي ﷺ بالمخالفين له في الحرب والقتال من كتب الصحاح والمسانيد والسنن والآثار والسير، وبيان الحكم على ما يحتاج إلى حكم منها، مقتصرًا في الغالب على الصحيح أو الحسن من تلك الأحاديث والآثار، ثم استنباط مظهر الرحمة منها، والله الموفق.

خامساً: الدراسات السابقة:

ألفت عدة كتب وسمرت عدة أبحاث لها صلة وثيقة بموضوع هذا البحث منها:

١. الرحمة في حياة الرسول ﷺ للدكتور/ راغب السرجاني وهو

بحث حائز على جائزة المركز الأول بالمناسبة في مسابقة معالي السيد / حسن عباس الشربتلي العالمية للتعريف بنبي الرحمة ﷺ، عام ١٤٢٨ هـ، تحدث المؤلف في هذا البحث عن عموم رحمة النبي ﷺ وعقد فصلاً كاملاً عن رحمته ﷺ في أثناء الحرب.

٢. أخلاق النبي ﷺ في الحرب لأماني زكريا الرمادي، وهو كتاب تحدثت فيه مؤلفته عن عموم أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها والتي منها أخلاقه ﷺ في الحرب مع الأعداء من الحلم والرفق والوفاء وحسن معاملة الأسرى، وغير ذلك.

٣. الهدى النبوي في التعامل مع نساء المشركين في المعارك للدكتور/ أحمد حلمي سعيد، وهو بحث شارك به المؤلف في مؤتمر الحوار وأثره في الدفاع عن النبي ﷺ، الذي عقد في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ٧-٨ صفر ١٤٣٥ هـ، تحدث فيه مؤلفه عن الوصايا النبوية بعدم قتل النساء في المعركة، والموقف من المشركة المقاتلة ومن في حكمها، ومواقف نبيلة من أسيرات المعركة من المشركات، والهدى النبوي في مبادلة الأسرى، وتشبع الصحابة بالخلق النبوي في المعركة.

ويلاحظ أن هذه المؤلفات تناولت إما عموم رحمة النبي ﷺ، أو عموم أخلاقه ﷺ في الحرب وغيرها، أو خصوص رحمته ﷺ بصنف معين أثناء الحرب وهو: نساء المشركات وحسن معاملته ﷺ لهن، لذا أردت ان أفرد بحثاً خاصاً بخلق من أخلاقه ﷺ، وهو الرحمة وفي مواقف معينة وهي الحروب وبجميع الأصناف في الحروب، وهم الرجال والنساء والصبيان والشيوخ، وغير ذلك، وأسميته (رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين في أثناء الحرب) وفيما يلي خطة هذا البحث:

سادساً: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه -بعد توفيق الله تعالى وتيسيره- إلى مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة، فبينت فيها أسباب اختياري لموضوع البحث، وأهدافه ومشكلته ومنهجي فيه والدراسات السابقة، وخطة البحث.

أما المباحث الخمسة للبحث فهي كما يلي:

المبحث الأول: رحمة النبي ﷺ بالمحاربين من الأعداء المخالفين وقد قسمته إلى خمسة مطالب، وهي:

المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بالمحاربين في تقديم السلم على الحرب.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ في استجابته لتوسلات أعدائه وقبول المفاوضة معهم.

المطلب الثالث: رحمته ﷺ في منع التمثيل بجثث القتلى.

المطلب الرابع: رحمته ﷺ في منع استخدام الوسائل المحرمة في القتل.

المطلب الخامس: رحمته ﷺ في تأمين مصابي الحرب والفارين منها والمستسلمين.

المبحث الثاني: رحمته ﷺ في حماية المستكرهين على الحرب والمستأمنين وقد قسمته إلى مطلبين، وهما:

المطلب الأول: رحمته ﷺ في حماية المستكرهين على الحرب.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ في حماية المستأمنين.

المبحث الثالث: رحمته ﷺ في حماية المدنيين في أثناء الحرب وقد قسمته إلى مطلبين وهما:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بالمدينين في عدم الإغارة على العدو ليلاً حتى لا يروعهم:

المطلب الثاني: رحمته ﷺ في التحذير من قتل المدينين في الحرب.
المبحث الرابع: رحمته ﷺ في حماية البيئة عند الحرب، وقد قسمته إلى مطلبين وهما

المطلب الأول: تعريف البيئة.

المطلب الثاني: مظاهر رحمة النبي ﷺ في حماية بيئة الأعداء أثناء الحرب والقتال.

المبحث الخامس: رحمته ﷺ بأسرى الحرب وقد قسمته إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: المراد بالأسرى وموقف القرآن الكريم منهم.

المطلب الثاني: رحمة النبي ﷺ بالأسرى في دعوتهم إلى الإسلام.

المطلب الثالث: رحمة النبي ﷺ في العفو عن أسرى الحرب وإطلاق سراحهم بلا فداء.

المطلب الرابع: رحمته ﷺ في إطلاق سراح أسرى الحرب بفداء.

المطلب الخامس: رحمته ﷺ بالأسرى في حال الاحتفاظ بهم.

الخاتمة نسأل الله حسنها: وقد ذكرت فيها نتائج البحث، وأهم التوصيات.

ثم ذيلت البحث بالمراجع والمصادر ثم فهرس للموضوعات.

والله تعالى ولي التوفيق

المبحث الأول

رحمة النبي ﷺ بالمحاربين من الأعداء المخالفين

لقد عمت رحمة النبي ﷺ المحاربين من أعداء الدين المخالفين في كثير من المواقف والمظاهر تتضح من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

رحمة النبي ﷺ بالمحاربين في تقديم السلم على الحرب

إنَّ الحرب لم تكن بالنسبة للنبي ﷺ غاية، بل كانت وسيلة لدفع الظلم، ورد العدوان، ودفاع عن الحقوق وإعلاء لكلمة الله ﷻ وضماناً لحرية الاعتقاد للمؤمنين، وحماية للدعوة، ورحمة بأعدائه، حتى لا يستمروا على ضلالهم وكفرهم، فيزداد عذابهم في الآخرة، لذا كان ﷺ لا يبدأ أحداً بالقتال بل كان لا يقاتل إلا من قاتله ولا يعتدي إلا على من اعتدى عليه، كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. فلم يحارب ﷺ إلا إذا كان مضطراً للحرب، ولم يهاجم ﷺ عدواً قبل أن يعرض عليه الإسلام والسلام والأمان قبل الحرب والقتال والخوف وكان هذا منهجاً له ﷺ وأسلوباً رسمه الله له في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا

خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وأمره بتطبيقه، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوٌّ لِلَّهِ وَعَدُوٌّ لَكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠] وطبق النبي ﷺ هذا المنهج عملياً فلم يبدأ ﷺ عدواً مخالفاً له بالحرب، بل كان ﷺ يكره كلمة حرب في حد ذاتها ولا يجب أن يسمى بها أحداً من الأطفال، فعن علي، قال: "لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: "أروني ابني، ما سميتموه؟" قال: قلت: حرباً. قال: "بل هو حسن..."^(١) الحديث "وكان كان يكره لقاء العدو ووصى أصحابه بعدم تمنى لقائه فقال لهم: "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية"^(٢).

وهناك مواقف كثيرة كان النبي ﷺ يقدم فيها السلم على الحرب والأمن على الخوف وحقن الدماء على سفكها، ويعدُّ فيها السلم هو القاعدة والحرب شذوذاً عن هذه القاعدة، لأنه نبي الرحمة والرفقة، من ذلك:

١. العهود التي عقدها النبي ﷺ مع أعدائه المخالفين له حيث "كان النبي ﷺ يفضل عقد المعاهدات مع خصومه، ويسارع في إبرامها ليغلق الباب أمام الحرب، وتكاد المعاهدات تبلغ عدد الغزوات^(٣)، وما هذا إلا لحرصه على تجنب الحرب"^(٤) وهي معاهدات قائمة على

(١) المسند لأحمد بن حنبل: ٢ / ١٥٩ حديث رقم: ٧٦٨ الناشر: مؤسسة الرسالة - تحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال المحقق: إسناده حسن.

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري ٤ / ٥١ حديث رقم: ٢٩٦٥ - كتاب الجهاد والسير - باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس الناشر: دار طوق النجاة، صحيح مسلم: ٣ / ١٢٦٢ حديث رقم: ١٧٤٢ كتاب الجهاد والسير - باب كراهة تمنى لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء.

(٣) عدد غزوات الرسول ﷺ تسع عشرة غزوة فقد روى أبو إسحاق أنه سأل زيد بن أرقم ﷺ: كم غزا رسول الله ﷺ؟ فقل: "تسع عشرة غزوة" صحيح مسلم: ٣ / ١٤٤٧ حديث رقم: ١٢٥٤ كتاب الجهاد والسير - باب عدد غزوات النبي ﷺ، وفي رواية: عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ «غزا تسع عشرة غزوة قاتل في ثمان»، المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر ابن أبي شيبة: ٢ / ٣٥١ حديث رقم: ٣٦٦٤٦ - تحقيق: كمال يوسف الحوت - الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.

(٤) مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ للدكتورة/ سارة آدم: ص: ١٢١ إعداد زيد عمر عبدالله العيص بدون طبعة.

الرحمة والوفاء والعدل وحب السلم وتقديمه على الحرب، من هذه المعاهدات: صلح الحديبية الذي عقده الرسول ﷺ مع المشركين ”برغم معاناة رسول الله ﷺ منهم تسعة عشر عاماً كاملة سبقت هذا الصلح، حيث تعرض رسول الله ﷺ وأصحابه للاضطهاد والتعذيب، ولكن رسول الله ﷺ كان حريصاً على إتمام هذه المعاهدة؛ مما يدل على مدى سماحته ﷺ مع أعدائه وحبّه ﷺ للسلم، إنه مع كل هذه المعاناة التي شاهدها رسول الله ﷺ نجده يفكر في الذهاب إلى عقر دار المشركين في سكينة وسلام؛ ليؤدي مناسك العمرة التي أريها في الرؤيا، ثم يعود إلى المدينة المنورة دون قتال ولا نزال“^(١).

فقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء بن عازب، يقول: كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية، فكتب: «هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله»، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي ﷺ: «لعلي: «امحه»، فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه النبي ﷺ بيده، قال: وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا مكة، فيقيموا بها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح، قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: «القرباب وما فيه»^(٢).

وإن تعجب فعجب قوله ﷺ يوم الحديبية: (والله، لا تدعوني قريش إلى خطة توصل بها الأرحام، وتَعْظُم فيها الحُرُمات إلا أعطيتهم إياها)^(٣) يقول ﷺ هذا وهم الذين آذوه هو وأصحابه بمكة وأخرجوه

(١) أخلاق الحروب في السنة النبوية، لراغب السرجاني: ص: ٢٢١، الناشر/ ط١ - مؤسسة اقرأ -

القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٨٤ حديث رقم: ٢٦٩٨ كتاب الصلح باب: كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، صحيح مسلم: ٣/ ١٤٠٩ حديث رقم: ١٧٨٢ كتاب الجهاد والسير - باب صلح الحديبية في الحديبية واللفظ له

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣١/ ٢١٢، ٢١٣ حديث رقم: ١٨٩١٠، صحيح البخاري: ٣/ ١٩٣ حديث رقم: =

منها وحاربوه في حروب عديدة بعد الهجرة وقبل صلح الحديبية إنها رحمة النبوة وأخلاق الرسالة والرغبة في السلم وحقق الدماء.

٢. هذا الموقف العظيم الذي حدث في غزوة خيبر عندما جاء علي بن أبي طالب عليه السلام يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أيبداً المشركين بالقتال والحرب فأبى النبي صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يبدأ بالسلم قبل الحرب، بالرحمة قبل القسوة، بالأمن قبل الخوف، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي عليه السلام يوم خيبر: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم»^(١).

«فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف وهو القائد، وكان من المتوقع أن يلهب حماس جنده، راح صلى الله عليه وسلم يهدئ من حماسة علي عليه السلام، ويأمره ومن معه بالهدوء في الأمر كما هو واضح في قوله: "انفذ على رسلك" ويأمرهم بدعوة هؤلاء القوم إلى الإسلام، وما يجب عليهم نحو الله - سبحانه وتعالى - ثم هو صلى الله عليه وسلم يخبرهم بالأجر العظيم المترتب على هداية فرد واحد مما يجعل هم الكتيبة المسلمة ليس القتل وسفك الدماء، وإنما هداية البشر إلى الله، حتى ينالوا هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل من رب العالمين»^(٢).

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم»^(٣) فتأمل كيف قدم النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة على القسوة والسلم

(١) = ٢٧٣١ كتاب الجهاد والسير، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. صحيح البخاري: ٤/ ٦٠ حديث رقم: ٢٠٠٩ كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، صحيح

مسلم: ٤/ ١٨٧١ حديث رقم: ٢٤٠٤ كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لراغب السرجاني ص: ٢٦٦ الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٣) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني: ٥/ ٢١٧ حديث رقم: ٩٤٢٤ كتاب الجهاد، باب دعاء العدو تحقيق:

حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: المجلس العلمي - الهند - المكتب الإسلامي - بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ. وقال الألباني: وإسناده صحيح، ولكنه معضل أو مرسل، وقد وصله الطبراني في =

على الحرب إنها فعلاً أخلاق النبوة الراقية، و” هذا الحديث قاعدة مهمة في دعوة الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، فإن استجابوا فيها ونعمت، وإلا فرضت عليهم الجزية، (إن كانوا من أهلها) فإن رفضوا قوتلوا، وعلى هذا جرى النبي ﷺ وأصحابه“^(١) تقديماً للسلم على الحرب، رحمة بمخالفيهم، ورأفة بهم.

٣. ما فعله النبي ﷺ مع المخالفين له من يهود بني النضير، حيث عرض عليهم الإسلام والسلم قبل الحرب والإجلاء، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: «بينما نحن في المسجد، خرج النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود»، فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس، فقال: «أسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»^(٢).

فتأمل كيف عرض الرسول ﷺ على هؤلاء اليهود السلم قبل الحرب، والأمان قبل الخوف.

٤. وصيته رضي الله عنه لأمرائه وقادة جيوشه من الصحابة، بأن ينتهجوا هذا المنهج مع أعدائهم، وهو تقديم السلم وعرض الإسلام قبل الحرب والقتال، رحمة بهم في الدنيا والآخرة:

فغن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً

= «الأوسط» من حديث أنس، فقد ذكره الهيتمي في «مجمع الزوائد» (٣٠٥/٥) مختصراً نحوه، وقال: «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال «الصحيح» غير عثمان بن يحيى القرطاسي، وهو ثقة» سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها محمد ناصر الدين الألباني ٦/٢٩٣ حديث رقم: ٢٦٤١، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى.

سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ٦/ ٢٩٥.

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٩٩ حديث رقم: ٣١٦٧ كتاب الجهاد والسير: باب: باب قول النبي ﷺ لليهود: «أسلموا تسلموا»، صحيح مسلم: ٣/ ١٣٨٧ حديث رقم ١٧٦٥: كتاب كتاب الجهاد والسير: باب إجلاء اليهود من الحجاز.



على جيش، أو سرية، أو وصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: «... وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال^(١) - فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم...» الحديث^(٢) فتدبر كيف كان رسول الله ﷺ يقدم في وصيته لأمرائه وقادته جيوشه الدعوة إلى السلم وحقق الدماء للحيلولة دون وقوع الحرب وإسالة الدماء، رحمة بمخالفه، وفي الحديث دليل على: **«وجوب تقديم دعاء الكفار إلى الإسلام قبل المقاتلة»^(٣).**

أين هذا مما تقوم به تلك الجماعات والتنظيمات الضالّة المضلة أمثال داعش^(٤) والحوثيين^(٥) وغيرهما، الذين يشنون الغارات على

(١) «إلى ثلاث خلال»، خلال: جمع خلة، المراد بها الخصال، وفسّر الثلاث بقوله: «ادعهم إلى الإسلام» إلى آخره، والمراد دعوتهم قبل القتال انظر: التّحبير لإيضاح معاني التّيسير لمحمد الأمير: ٤٤ / ٣، الناشر: مكتبة الرّشد، الرياض ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

(٢) صحيح مسلم: ٣ / ١٣٥٧ حديث رقم: ١٧٣١ كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، واللفظ له، سنن الترمذي: ٣ / ٢١٤ حديث رقم: ١٦١٧ كتاب السير عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال وقال حديث حسن صحيح.

(٣) نيل الأطار لمحمد بن علي الشوكاني: ٧ / ٢٧٢، الناشر: دار الحديث، مصر ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م. داعش هي: اختصار للحروف الأولى من كلمات الدولة الإسلامية في العراق والشام.. ويتم اطلاق صفة الدولة علي التنظيم في المناطق التي تسيطر عليها في سوريا (والعراق) وهو تنظيم مسلح اراهابي يدعي أنه يتبنى الفكر السلفي الجهادي (التكفير) ويدعي المنضمون إليه أنه يهدف الى إعادة مايسمونه «الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة»، يتخذ من العراق وسوريا مسرحاً لعملياته (وجرائمه) نبت تنظيم «داعش» عبر السجون الأمريكية في العراق، حيث حدث تواطؤ كبير بين إيران ونظام «المالكي» مع أمريكا من أجل إطلاق هذا الوحش الجديد، تشكل تنظيم «داعش» الارهابي في أبريل عام ٢٠١٣ م، انظر: جريدة أخبار مصر الالكترونية على هذا الرابط: [http://www.egnews.net/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%88-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-](http://www.egnews.net/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%88-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-net/)

(٤) حركة تمرد باطنية تأسست في صعدة شمال اليمن. انشقت عن المذهب الزيدي. تسيطر على نمط (حزب الله) في لبنان دينياً وسياسياً. يعتنقون أفكار وعقائد الرفضة الإثني عشرية ينتسبون إلى زعيم التمرد الأول حسين بدر الدين الحوثي. يسمون أنفسهم تنظيم «الشباب المؤمن» زعيمهم الروحي: هو بدر الدين بن أمير الدين بن الحسين بن محمد الحوثي ولد في ١٧ جمادى الأولى سنة (١٣٤٥هـ) بمدينة ضحيان، ونشأ في صعدة وقائدهم الأول: هو حسين بدر الدين الحوثي. هو الابن الأكبر لبدر الدين الحوثي. القائد الثاني للحوثيين: هو عبد الملك الحوثي ولد في صعدة عام ١٩٧٩، موقع طريق الإسلام على هذا الرابط <http://ar.islamway.net/article/5573/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%AB%D9%8A%D9%88%D9%86>

(٥) حركة تمرد باطنية تأسست في صعدة شمال اليمن. انشقت عن المذهب الزيدي. تسيطر على نمط (حزب الله) في لبنان دينياً وسياسياً. يعتنقون أفكار وعقائد الرفضة الإثني عشرية ينتسبون إلى زعيم التمرد الأول حسين بدر الدين الحوثي. يسمون أنفسهم تنظيم «الشباب المؤمن» زعيمهم الروحي: هو بدر الدين بن أمير الدين بن الحسين بن محمد الحوثي ولد في ١٧ جمادى الأولى سنة (١٣٤٥هـ) بمدينة ضحيان، ونشأ في صعدة وقائدهم الأول: هو حسين بدر الدين الحوثي. هو الابن الأكبر لبدر الدين الحوثي. القائد الثاني للحوثيين: هو عبد الملك الحوثي ولد في صعدة عام ١٩٧٩، موقع طريق الإسلام على هذا الرابط <http://ar.islamway.net/article/5573/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%AB%D9%8A%D9%88%D9%86>

الأمين بلا سابق إنذار وبلا رحمة ولا هودة، فأى دين يتبعون،
وعلى أي منهج يسبيرون وقد خالفوا رسول رب العالمين: ﴿أَسْتَحْوَذَ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ
الْمُخْسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]

المطلب الثاني رحمته ﷺ في استجابته لتوسلات أعدائه وقبول المفاوضة معهم

من رحمته ﷺ بأعدائه أنه كان يستجيب لتوسلات الأعداء ويحاولهم،
ويتفاوض معهم، ففي غزوة بني قريظة لما أصبحوا وأعلن عن نزول بني
قريظة على حكم رسول الله ﷺ توافد رجال الأوس على رسول الله ﷺ
وقالوا: يا رسول الله إنهم مواليينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا
بالأمس ما قد علمت، وهو أنه وهب بني قينقاع لابن أبي الخزرجي لما ألح
عليه في ذلك شافعاً فيهم بوصفهم مواليه أي أحلاف الخزرج، فقال لهم
صلوات الله وسلامه عليه: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم
رجل منكم؟» قالوا: «بلى»، فقال «فذلك إلى سعد بن معاذ» وفي نفس
الغزوة لما أعدم النبي ﷺ زولاً على حكم سعد بن معاذ فيهم - كل من أنبت
الشعر واحتلم من ذكران بني قريظة، إلا رفاعة، فقد استوهبته سلمى
بنت قيس أم المنذر النجارية النبي ﷺ، فقالت: «بأبي أنت وأمي يا رسول
الله، هب لي رفاعة فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه
لها، فاستحيته»^(١).

(١) القصة بطولها في السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام: ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٤، الناشر: شركة مكتبة
ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، وهذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب لأبي بكر
الجزائري: ص: ٢١٧ - ٢٢٠ ط: دار الشروق - جدة، وأصل القصة في صحيح البخاري: ٥/ ١١١
حديث رقم: ٤١٢١، ٤١٢٢، كتاب المغازي - باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب.

وعند فتح مكة سمع أبو سفيان سعد بن عبادَةَ يقول اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة! اليوم أذل الله قريشاً! فأقبل رسول الله ﷺ حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟ زعم سعد ومن معه حين مر بنا قال: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة! اليوم أذل الله قريشاً!» وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. قال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان: يا رسول الله، ما نأمن سعداً أن يكون منه في قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ: اليوم يوم المرحمة! اليوم أعز الله فيه قريشاً! قال: وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد^(١).

فتوسل أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده بالله تعالى وذكر ببعض صفاته وأخلاقه ﷺ بأنه أكثر الناس براءً وأعظمهم رحمةً وأوصلهم رحماً فقبل النبي ﷺ توسلاته ومناشدته ولم يغر على قريش ولم يقاتلهم وما ذلك إلا رحمة بهم وبذويهم ومراعاة لحرمة مكة المكرمة، ورفض قول سعد ﷺ بأن يوم الفتح يوم الملحمة ووصفه ﷺ بيوم المرحمة الذي رحم فيه أهل مكة وعفا عنهم وأطلق سراحهم.

المطلب الثالث

رحمته ﷺ في منع التمثيل بجثث القتلى

لقد كان رسول الله ﷺ يرحم من يقاتله من الأعداء ويحترم تكريم الله له بوصفه إنساناً فحذر من التكيل به ومن تشويه خلقته وصورته أو قطع شئ من أعضائه قبل قتله أو بعده مع أنه عدوه وكان يسعى إلى قتله وقتل

(١) القصة بأكملها في المغازي للواقدي: ٢/ ٢٢٠ - ٢٢٥، الناشر: دار الأعلمي - بيروت، ط٢، ١٩٨٩/١٤٠٩، وأصل القصة في صحيح البخاري: ٥/ ١٤٦، ١٤٧ حديث رقم: ٤٢٨٠ كتاب المغازي - باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟

أصحابه لكنه القلب الرحيم والخلق الكريم، وقد ورد النهي عن التمثيل بجثث القتلى في أحاديث كثيرة منها:

ما رواه بريدة بن الحصيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: "أغزوا باسم الله. وفي سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً"^(١). «وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر وتحريم الغلول وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى والرفق بأتباعهم وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره، وما يستحب قوله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

وما رواه عبد الله بن يزيد الأنصاري، قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النهبى والمثلة...»^(٣).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا، فيأمرنا بالصدقة، وينهانا عن المثلة"^(٤).

(١) صحيح مسلم: ١٢٥٧ / ٢ / حديث رقم: ١٧٣١ كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث واللفظ له، سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي: ٣ / ٢١٤ حديث رقم: ١٦١٧ كتاب السير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال وقال حديث حسن صحيح الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ليجي بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) :: ١٢ / ٣٧، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢،

(٣) النهبى بضم النون وسكون الهاء ثم بالوحدة مقصور أي أخذ مال المسلم قهراً جهراً ومنه أخذ مال الغنيمة قبل القسمة اختطافاً بغير تسوية، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ٩٠ / ٦٤٤ الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

(٤) المثلة هي: تشويه خلقة القتل والتكيل به، يقال: مثلت بالقتيل، إذا جذعت أنفه، أو أذنه، أو مذاكيره، أو شيئاً من أطرافه. والاسم: المثلة.. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، للمبارك محمد ابن الأثير: ٤ / ٢٩٤ - الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

(٥) صحيح البخاري: ٣ / ١٣٥ حديث رقم: ٢٤٧٤ كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه.

(٦) مسند الإمام أحمد: ٣٣ / ٢٠٢، حديث رقم: ١٩٩٩٧، وقال المحقق: إسناده صحيح، سنن أبي داود =

وما جاء في هذا الحديث الصريح المتفق عليه الذي حذر فيه النبي ﷺ من ضرب الوجه لشرفه ولما فيه من المثلة، فيقول ﷺ: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه"^(١)، «قال العلماء هذا تصريح بالنهي عن ضرب الوجه لأنه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة وأكثر الإدراك بها فقد يبطلها ضرب الوجه، وقد ينقصها، وقد يشوه الوجه والشين فيه فاحش، لأنه بارز ظاهر، لا يمكن ستره، ومتى ضربه لا يسلم من شين غالبا ويدخل في النهي إذا ضرب زوجته أو ولده أو عبده ضرب تأديب فليجتنب الوجه»^(٢).

"وبرغم ما حدث في غزوة أحد من تمثيل المشركين بحمزة عم الرسول ﷺ فإنه ﷺ لم يُغيّر مبدأه، بل إنه ﷺ هدّد المسلمين تهديداً خطيراً إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة، رجل قتله نبي، أو قتل نبيا، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين»^(٣). ولم تردّ في تاريخ رسول الله ﷺ حادثة واحدة تقول بأن المسلمين مثلوا بأحدٍ من أعدائهم»^(٤).

"وهذه النصوص ظاهرة في النهي عن المثلة، والأصل في النهي التحريم، فلا يجوز التمثيل بالكافر، بل يُكتفى بقتله المعتاد في المعارك بضربه بالسيف أو طعنه بخنجر أو رميه بحجر أو قذيفة أو نحو ذلك، ولا يزداد على ذلك بقطع بعض أطرافه أو جذع أنفه وما أشبه ذلك"^(٥).

= لسليمان بن الأشعث السجستاني: ٤ / ٣٠١ حديث رقم: ٢٦٦٧ كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة، الناشر: دار الرسالة العالمية، وقال المحقق: إسناده حسن.

(١) صحيح البخاري: ٣ / ١٥١ حديث رقم: ٢٥٥٩ كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه، صحيح مسلم: ٤ / ٢٠١٦ حديث رقم: ٢٦١٢ كتاب البر والصلة والآداب - باب النهي عن ضرب الوجه.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ٦ / ١٦٥.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٦ / ٣١٤ حديث رقم: ٣٨٦٧، وقال المحقق: إسناده حسن.

(٤) أخلاقيات الحروب في الإسلام متاح على هذا الرابط لراغب السرجاني: <http://www.ansarunna.com/vb/showthread.php?t=10846>

(٥) شرح كتاب الجهاد من (صحيح الترغيب والترهيب) لعبدالله قادري الأهدل الفرع الثاني: آداب القتال في أثناء المعركة ص: ٨٧ متاح على هذا الرابط: <https://www.saaaid.net/Doat/ahdal/016.htm>.

لكن ”الملاحظ في حروب الجماعات التي تسمى بالجهادية الإسلامية أنهم يغالون في التمثيل بالجثث بعد القتل بأبشع الطرق، كقطع الرؤوس ووضعها على صدور القتلى، بل اللعب بالرؤوس المقطوعة، وتشويه جثث القتلى بالرصاص، وهذا مخالف للتعاليم النبوية الصريحة التي تؤكد على النهي عن التمثيل بالجثث“^(١).

المطلب الرابع

رحمته ﷺ في منع استخدام الوسائل المحرمة في القتل

من منطلق رحمته ﷺ حث على الإحسان في قتل المحارب وغيره ممن يباح قتله، ونهى عن عدم تعذيب المقتول ما دام أنه يمكن قتله دون أن يبالغ في تعذيبه، فقال: ”إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته“^(٢). «والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه، وأسهلها، وأرجاها من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه. وهذا النوع هو الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث، ولعله ذكره على سبيل المثال، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال،... والقتلة والذبحة بالكسر، أي الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل، وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس، التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه... وأسهل وجوه قتل الأدمي ضربه بالسيف على العنق، قال الله تعالى في حق الكفار:

(١) آداب الحرب في الإسلام لأحمد هاشم: متاح على هذا الرابط: <http://www.masrawy.com/Is->

[lameyat/Makalat-Other/details/2015/2/16/461614](http://www.lameyat.com/Makalat-Other/details/2015/2/16/461614)

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٤٨ حديث رقم ١٩٥٥، كتاب الصيد والذبائح - باب الأمر بإحسان الذبح

والقتل، وتحديد الشفرة.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢)

[الأنفال: ١٢] وقد قيل: إنه عيّن الموضع الذي يكون الضرب فيه أسهل على المقتول، وهو فوق العظام ودون الدماغ^(١).

وهناك وسائل تقتل بل وتفتك بالمقتول وتؤلمه ألماً شديداً مدة من الزمن حتى يموت تنافي هذا الإحسان ورحمة النبي اقتضت أن يحذر تحذيراً شديداً من استخدامها في الحرب وهي القتل بالحرق أو القتل صبراً^(٢).

وفيما يلي بعض مظاهر رحمته ﷺ في النهي عن استخدام الوسائل المحرمة في القتل في أثناء الحرب:

أولاً: رحمته ﷺ في النهي عن استخدام الحرق في القتل:

لقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل العدو حرقاً بالنار رحمة ورأفة به وتخفيفاً من آلامه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث^(٣)، فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً^(٤)، فأحرقوهما بالنار» ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما»^(٥).. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»^(٦)

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي: ١ / ٢٨٢، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) القتل الصبر هو: أن يحبس الرجل حياً أو يوثق ثم يستهدف بالسهم أو النبال حتى يقتل قهراً: عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني: ٢١ / ١٤٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) وفي رواية «في سرية»: سنن أبي داود: ٤ / ٣٠٧ حديث رقم: ٢٦٧٣ كتاب الجهاد - باب في كراهية حرق العدو بالنار.

(٤) هما هبار بن الأسود وأبو العاص بن الربيع: فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٦ / ١٤٩، ١٥٠، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

(٥) صحيح البخاري: ٤ / ٦١ حديث رقم: ٣٠١٦ كتاب الجهاد والسير - باب لا يعذب بعذاب الله، سنن الترمذي: ٣ / ١٨٩، حديث رقم: ١٥٧١ أبواب الأضاحي عن رسول الله ﷺ وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) صحيح البخاري: ٤ / ٦٢ حديث رقم: ٣٠١٧ كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله.

فتأمل هذا الحديث الذي أمر فيه النبي ﷺ بقتل هذين الرجلين حرقاً بعد ذلك رق قلبه ﷺ عليه عليهما فنهى عن حرقهما .

أين هذه الرحمة من تلك الجرائم البشعة التي يقوم أعداء الإسلام ضد المسلمين من التحريق والإبادة الجماعية والتفجيرات الحارقة والأسلحة الفتاكة التي يمارسونها ضد المسلمين الأبرياء العزل الذين لا حول لهم ولا قوة مثل ما يحدث في بورما وما حدث ويحدث في غيرها ولم يجرؤ أحد من الغرب الذين يدعون كذباً: أنهم يحافظون على حقوق الإنسان^(١) على وصفهم بالإرهاب مع أنه هو الإرهاب بشحمه ولحمه .

ثم أين هذا مما يفعله بعض من يتمنون إلى الإسلام كأولئك الذين يقتلون شعوبهم بالمتفجرات أو ببراميل البترول الحارقة، ثم أين هذا مما يفعله بعض المحسوبين على الإسلام من تفجير للمساجد وحرق للأبرياء من المسلمين، لأنهم يعدونهم كفرية ويفتون بحل ذلك أمثال داعش وغيرها^(٢) ولم يقتدوا برسول الله ﷺ في رحمته ورأفته ورفقه سلماً وحرباً وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، بل نزع من قلوبهم الرحمة وزاغت أبصارهم وعميت بصائرهم وضلت عقولهم حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وحسبي الله ونعم الوكيل .

ثانياً: رحمته ﷺ في التحذير من القتل صبراً:

لقد حذر النبي ﷺ تحذيراً شديداً ونهى نهياً أكيداً عن قتل العدو صبراً أي عن طريق حبسه أو توثيقه بالوثاق واستهدافه بالسلاح لأن هذه

(١) لعلمهم يقصدون بالإنسان غير المسلم، كما هو ملاحظ من خلال إدانته للصغائر من الجرائم قبل الكبائر إذا ارتكبت ضد أحد من غير المسلمين، وصم بكم عمي عن جرائم الإبادة التي ترتكب ضد المسلمين في معظم البلاد .

(٢) انظر: جريدة الوطن الإلكترونية بتاريخ: ٢٠١٥/٢/٣م على هذا الرابط <http://www.elwatannews.com/news/details/654891>

أعمال ينافي الرحمة والإحسان في القتل، لما فيه من تعذيب للمقتول وقهر له وزيادة تحسره لفقدانه الأمل في النجاة حيث إنه يرى موته بعينه ولا يستطيع الفرار:

فعن عبيد بن يعلى قال: غزونا مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد فأتى بأربعة أعلاج^(١) من العدو فأمر بهم فقتلوا صبورا بالنبل فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: «سمعت رسول ينهى عن قتل الصبر فو الذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبدالرحمن الله فأعتق أربع رقاب»^(٢).

وعن عبدالله بن مطيع، عن أبيه، قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول يوم فتح مكة: «لا يقتل قرشي صبورا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»^(٣) أي لا تقتلوا قرشياً صبوراً لأن: «النفى - في الحديث - بمعنى النهي وهو أبلغ من صريح النفى»^(٤).

فهل يعقل بعد هذا التحذير من القتل صبوراً أن تأتي تنظيم أمثال داعش محسوب على المسلمين برجل مسلم وتحبسه في قفص من حديد، وتشعل فيه النيران، حتى الموت، ويفتون بحل ذلك^(٥) من هم هؤلاء؟ وإلى أي دين ينتمون؟ وبمن يقتدون؟ إنهم قد أساءوا إلى الإسلام أيما إساءة، وشوهوا صورته وهو الذي جاء بالسلام والأمان والرفق والرحمة والإحسان، حتى بالأعداء وليس بأبناء الدين فقط.

(١) أعلاج: جمع عالج وهو: الرجل من كفار العجم وغيرهم. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٢٨٧ / ٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٨ / ٥٦١ حديث رقم: ٢٣٥٩٠، سنن أبي داود: ٢٢٣ حديث رقم: ٢٦٨٧ باب في قتل الأسير بالنبل، وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط): صحيح لغيره.

(٣) صحيح مسلم: ٣ / ١٤٠٩ حديث رقم: ١٧٨٢ كتاب الجهاد والسير - باب لا يقتل قرشي صبورا بعد الفتح.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، لشرف الدين الطيبي: ١٢ / ٢٨٢٧، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض).

(٥) انظر: جريدة الوطن الإلكترونية بتاريخ: ٢٠١٥/٢/٣ م على هذا الرابط <http://www.elwatannews.com/news/details/654891>

المطلب الخامس رحمته ﷺ في تأمين مصابي الحرب والفارين منها والمستسلمين

عندما كانت تدور رحى الحرب بين المسلمين والأعداء المخالفين في عهد الرسول الأمين ﷺ وعلى الرسل أجمعين كان يصاب أحياناً بجروح بعض الأعداء المحاربين وقد يفر البعض خوفاً من أن يكون من الهالكين، وقد يصبح البعض الآخر من المستسلمين لعدم رغبته في الاستمرار في حرب المؤمنين، أو لانتهزامه أمام جنود الله المقاتلين فهل كان النبي ﷺ يستغل هذه الظروف، التي يتعرض لها هؤلاء الأعداء المجرمين مع ما فيها من مظاهر ضعف وذلة ومهانة لهؤلاء الكافرين فيأمر بقتلهم أجمعين؟ بالطبع لا، وهو الذي أرسل رحمة للعالمين، بل كان ﷺ ينهى عن قتلهم فيصبحوا من الآمنين، لأن رحمته ﷺ تأبى استغلال ظروف المصابين ورأفته تقتضي ألا يجهز على الفارين، أو يحارب المستسلمين، ولا يقاتل عدوه إلا إذا كان من المقاتلين، وكانوا في موطن قوة، وليسوا من الضعفاء المستكينين أو عن الحرب غافلين، والأصل في هذا الباب ما رواه أبو سفيان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح المبين: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»^(١) وزاد أبو داود بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»^(٢) وقد استدلل العلماء بهذا الحديث «على عدم جواز مقاتلة البغاة إذا كانوا في بيوتهم، أو طلبوا منا الأمان لأنهم إذا أغلقوا على أنفسهم فليسوا ببغاة في ذلك الوقت، واتصافهم بذلك الوصف شرط جواز مقاتلتهم، كما في الآية، وإذا طلبوا الأمان، فقد فاءوا إلى أمر الله تعالى، وهي الغاية التي أذن الله بالقتال إلى حصولها وقد حصلت»^(٣). ويدل

(١) صحيح مسلم: ١٤٠٧/٣ حديث رقم: ١٧٨٠ كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة.
(٢) سنن أبي داود: ٦٣٤/٤ حديث رقم: ٣٠٢٢ وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط): صحيح لغيره.
(٣) نيل الأوطار للشوكاني: ٢٠١/٧.

أيضاً: «على أنه لا يجهز على جريحهم بل يترك على ما هو عليه إلا إذا كان المدبر أو الجريح ممن له فئة جاز قتله»^(١).

والأصل في هذا الباب -أيضاً- ما أخرجه ابن أبي شيبة بسنده عن حصين أن رسول الله ﷺ: قال يوم فتح مكة: «ألا لا يقتل مدبراً، ولا يجهز على جريح»^(٢) ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن»^(٣).

وقد آمن رسول الله ﷺ أهل مكة عندما أكرمه الله ﷻ بالفتح المبين وأطلق سراحهم لما جاءوا إليه مستسلمين وعفا عنهم ورحمهم ولم يعاملهم بالمثل أجمعين فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال لما فتح مكة: «يا معشر قريش، ما تقولون؟» قالوا: نقول: ابن أخ، وابن عم رحيم كريم، ثم عاد عليهم القول، قالوا مثل ذلك، قال: «فإني أقول كما قال أخي ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(٤) [يوسف: ٩٢]، فخرجوا فبايعوه على الإسلام»^(٥).

يقول المستشرق الأمريكي واشنطن إيرقنج مادحاً موقف النبي ﷺ من أهل مكة بعد فتحه لها: «كانت تصرفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»^(٥) والفضل ما شهدت به الأعداء.



- (١) المرجع السابق.
- (٢) أي لا يقتل جريح: يقال أجهز على الجريح يجهز، إذا أسرع قتله، النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ٣٢٢.
- (٣) المصنف لابن أبي شيبة: ٤٩٨/٦ حديث رقم: ٢٣٢٧٦، وأورد مثله ابن حجر عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفاً، وعزاه لابن أبي شيبة وصحح إسناده: فتح الباري: ١٣/ ٥٧.
- (٤) السنن الكبرى لأحمد بن شعيب النسائي: ١٠/ ١٥٤ حديث رقم: ١١٢٣٤ كتاب التفسير - باب قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٨) [الأنبياء: ٨١]، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- (٥) قالوا عن الإسلام لعماد الدين خليل: ص: ٩٤ الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

المبحث الثاني رحمته ﷺ في حماية المستكرهين على الحرب والمستأمنين

قد يُكره بعض الأعداء على قتال المسلمين أو يطلب بعضهم الأمن والأمان وهؤلاء وهؤلاء عمتهم رحمة النبي ﷺ فمنه عن قتل المكره على الحرب، وأمن المستأمن على نفسه وماله وعرضه، كما سيتضح في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول رحمته ﷺ في حماية المستكرهين على الحرب

المستكروهون هم الذين لا رغبة لهم في الحرب وإنما خرجوا إليها عنوة وإكراها وهؤلاء -أيضاً- وسعتهم رحمة النبي ﷺ فحرص على حياتهم ونهى عن قتلهم: "من ذلك ما فعله رسول الله ﷺ في غزوة بدر حيث نهى عن قتل من خرج مستكراً من المشركين برغم أن ذلك في ميدان القتال والحرب والمتعارف عليه عند جميع البشر أن من يقاتلك تقاتله ولكن الرسول ﷺ كان يأخذ بروح القاعدة وليس بنصها لذا فهو يأسر المستكروه لكي يجتنب مقاتلته ويجنبه القتال أيضاً لكن لا يقتله إلا إذا أصر على

القتال“^(١) فقد روى عبد الله ابن عباس، أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر ”إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البخثري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكراً“^(٢) فهل هناك رحمة أعظم من هذه؟ كيف لا وهو الرؤوف الرحيم الذي فاقت رحمته رحمة بني البشر.

المطلب الثاني

رحمته ﷺ في حماية المستأمنين

المستأمنون جمع مستأمن، وهو «مَنْ قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو مستجيراً، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، ويعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يُعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حريباً كما كان»^(٣)، ولقد شملت رحمة النبي ﷺ هؤلاء المستأمنين وعمتهم رأفته فأمن من طلب الأمان منهم على

(١) راغب السرجاني: الرحمة في حياة الرسول ﷺ ص: ٢٩٠.

(٢) السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) إسماعيل بن عمر أبو الفداء الدمشقي: ٢/ ٤٢٦ تحقيق: مصطفى عبد الواحد - الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، وأخرجه مختصراً الحاكم في المستدرک على الصحيحين: ٣/ ٢٤٠ حديث رقم: ٤٩٨٨.

(٣) مجموع الفتاوى، لأحمد ابن تيمية: ٢٨/ ٣٧٨، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ١٠٠، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، أحكام أهل الذمة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية: ٢/ ٨٧٤، الناشر: رمادى للنشر، الدمام.

نفسه وماله وأجار من استجاره ﷺ كما أمره ربه ﷻ في قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] وقد دلت الآية على «أن المستأمن لا يؤذى، بل يجب على المسلمين حمايته في نفسه وماله وعرضه ما دام في دار الإسلام»،^(١) وهذا ما طبقه النبي ﷺ قولاً وفعلاً كما سيتضح فيما يلي مظاهر رحمته ﷺ بالمستأمنين:

من مظاهر رحمته ﷺ بالمستأمنين ما يلي:

١. إعلان النبي ﷺ براءته ممن يقتل المستأمن أو يغدر به وترهيب المسلمين من ذلك فقال: «أيا رجل أمن رجلا على دمه ثم قتله، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً»^(٢)، وزاد الأمر ترهيباً وتحذيراً فقال ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ رجلا على دمه، فقتله، فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة»^(٣).

٢. تأمينه ﷺ لرسول قريش يوم الحديبية قال ابن كثير: "كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فأرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي: ٦/ ٢١٠ - ٢١١ الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد ترتيب: الأمير علاء الدين علي الفارسي: ١٣/ ٢٢٠ حديث رقم ٥٩٨٢، الناشر: مؤسسة الرسالة، وقال المحقق: إسناده حسن.

(٣) سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد المعروف بابن ماجه: ٣/ ٦٩٣ حديث رقم: ٢٦٨٨ أبواب الديات، باب مَنْ أَمَّنَ رجلاً على دمه فقتله تحقيق: شعيب الأرنؤوط - الناشر: دار الرسالة العالمية، وقال المحقق: إسناده صحيح.

قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم^(١).

٣. تأمينه ﷺ لرسولي مسيلمة الكذاب على أنفسهما مع أنهم كافرون به مؤمنون بمسيلمة الكذاب، مدعي النبوة فعن عبد الله بن مسعود، قال: "جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ، فقال لهما: "أتشهدان أني رسول الله؟"، قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبي ﷺ: "أمنت بالله ورسله، لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما" قال عبد الله: فمضت السنة أن الرسل لا تقتل^(٢).

٤. إجارته ﷺ من أجاره بعض المسلمين، وتأمينه على نفسه وماله وعرضه، وإسماعه لكلام الله تعالى، فقد أجار الله ﷺ رجلاً كانت قد أجارته أم هانئ بنت أبي طالب يوم فتح مكة فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت له بعد أن سلمت عليه: «يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلا قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ»^(٣).



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤ / ١٠٠، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣١١ - ٣١٤.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٦ / ٢٠٦ حديث رقم: ٣٧٦١ وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط): حديث صحيح.

(٣) صحيح البخاري: ١ / ٨٠، ٨١ حديث رقم: ٣٥٧ كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحقاً به، صحيح مسلم: ١ / ٤٩٨ حديث رقم: ٣٣٦ ب كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى.

المبحث الثالث

رحمته ﷺ في حماية المدنيين في أثناء الحرب

المدنيون هم الذين لا رغبة لهم في الحرب من كبار السن والنساء والأطفال والعباد أصحاب الصوامع والعلماء المنقطعين للعلم والعمال المستأجرين وغيرهم وتظهر رحمة رسول الله ﷺ بهم في المطلبين الآتين:

المطلب الأول

رحمته ﷺ بالمدنيين في عدم الإغارة على العدو ليلاً حتى لا يروعهم

من رحمته ﷺ بأعدائه أنه كان لا يطاردهم ولا يهاجمهم ليلاً حتى لا يروع مرضاهم وأطفالهم ونساءهم وكبار السن منهم وغيرهم من المدنيين، وحتى لا يأخذهم على حين غفلة من أمرهم وكان هذا ديدنه ﷺ مع أعدائه في الحروب، ونلاحظ أنه يفعل معهم هذا وهم أعداؤه الذين لو ظفروا به أو بأصحابه ﷺ لقضوا عليهم جميعاً، حقاً إنها أخلاق النبوة ورحمة الرسالة، فعن أنس ﷺ: «أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر، فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً ليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح

خرجت يهود بمساحيهم^(١) ومكاتلهم^(٢)، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس^(٣)، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصفاء: ١٧٧]»^(٤). «وفي هذا الحديث فوائد كثيرة: منها: أن النبي ﷺ كان لا يغير على العدو، والإغارة: تبيت العدو ليلاً ومنها - وهو المقصود بهذا الباب أنه ﷺ - كان يجعل الأذان فرق ما بين دار الكفر ودار الإسلام، فإن سمع مؤذناً للدار كف عن دماءهم وأموالهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم بعد ما يصبح.»^(٥) وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك - أيضاً - قال: «كان رسول الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار فسمع رجلاً يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «على الفطرة» ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «خرجت من النار»^(٦).

تأمل هذا وقارن بينه وبين ما يفعله أولئك الإسرائيليون بأهل فلسطين من شن هجمات عليهم بالطائرات والصواريخ في ظلمات الليل وهم نائمون، فتزهق الأرواح، وتقطع الأجساد إرباً إرباً، ويُدمر الأخضر واليابس، وتُهدم البيوت على من فيها بلا رحمة ولا رأفة، إنها القسوة التي وصف الله قلوبهم بها في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

- (١) بمساحيهم: بسكون الباء جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد، والميم مكسورة، انظر: فتح الباري لابن حجر: ١ / ١٣٠.
- (٢) المكاتل: وهي الزبيل والقفاف، وهي من آلات الحراث، فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب: ٥ / ٢٢٢، مكتبة الغرباء - المدينة النبوية
- (٣) الخميس: هو الجيش، وسمي الجيش خميساً؛ لأنه ينقسم خمس أجزاء: مقدمة، وساقة، وميمنة، وميسرة، وقلب. المرجع السابق نفس الجزء والصفحة
- (٤) مسند الإمام أحمد: ٢٠ / ٣٩١ حديث رقم: ١٣١٤٠، صحيح البخاري: ٤ / ٤٨ حديث رقم: ٢٩٤٥ - كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، واللفظ له.
- (٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب: ٢ / ٢٢٢، ٢٢٣ بتصرف.
- (٦) صحيح مسلم: ١ / ٢٨٨ حديث رقم: ٢٨٢، كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر، إذا سمع فيهم الأذان.

وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة: ٧٤]. يفعلون كل هذا، ثم يصفون الإسلام والمسلمين بالإرهاب، وهم الذين ابتدعوا هذه البدعة، واستخدموها مع رسول الإسلام ﷺ ومع المسلمين منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، فهم الذين حاولوا قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة وحاربوا المسلمين حروباً عسكرية مباشرة أو بمظاهرة أعدائهم عليهم في الحرب ثم أيضاً قارن بين موقف رسول الله ﷺ مع أعدائه في عدم الإغارة عليهم ليلاً وهم نائمون ساكنون آمنون مطمئنون هم وأهلهم وبين أولئك المتأسلمين الذين يحملون السلاح ليل نهار، يُقْتَلُونَ وَيُدَبَّحُونَ ويفتصبون النساء في وضح النهار، وفي ظلمة الليل، بحجة إقامة دولة إسلامية، والدفاع عن الإسلام، والإسلام منهم برئى أو رغبة في نشر فكر معين أو مذهب معين، ما أنزل الله به من سلطان: ستجد البون بينهم بعيداً والفرق شاسعاً فشتان بين من أمدّه الله برحمة من عنده وأرسله رحمة للعالمين ووهبه اسمين من أسمائه ” الرؤوف الرحيم ” وبين قست قلوبهم حتى فاقت الصخور في قسواتها.

المطلب الثاني

رحمته ﷺ في التحذير قتل المدنيين في الحرب

إن قلب النبي ﷺ الرحيم رحم المدنيين من الأعداء في الحرب ككبار السن والنساء والصبيان والعباد أصحاب الصوامع الذين حبسوا أنفسهم عن الناس، وانقطعوا عنهم، وأمن المسلمون من ناحيتهم، وكذا الأجير المستأجر عند أهل الحرب للعمل والعييد، الذين لا يشاركون في الحرب ضد المسلمين، وغيرهم ممن لا حول لهم ولا قوة، أو ممن لا رغبة لهم

في القتال أو الإعانة عليه قولاً أو فعلاً، فأبى النبي قتالهم وقتلهم ما لم يقاتلوا أو يشاركوا في تجهيز الجيش أو يظاهروا على حرب المسلمين، متبعاً قول الله ﷻ، وهو الأصل في هذا الباب: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].
والأصل في هذا الباب من السنة ما رواه أنس بن مالك ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَحْذَرًا مِنْ قَتْلِ الْمَدِينِيِّينَ: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾» [البقرة: ١٩٥] (١).

وما رواه ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال: "أخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله، من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع" (٢).

وما رواه حنظلة الكاتب ﷺ أن رسول الله ﷺ أرسل رجلاً إلى خالد بن الوليد ﷺ في إحدى الغزوات فقال له: «انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن لا تقتل ذرية ولا عسيفاً» (٣) (٤).

أرايتم كيف كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على أرواح المدنيين الأبرياء من الأعداء المخالفين له في الدين في أثناء الحرب، لذا لم يكن في حروبه ﷺ ضحايا مدنيين، إلا ما ندر، وبدون علم رسول الله ﷺ،

(١) سنن أبي داود: ٤ / ٢٥٦ كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن لغيره.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣ / ٢١٨ حديث رقم: ٢٧٢٨ وقال المحقق: إسناده حسن، المصنف لابن أبي شيبة: ٦ / ٤٨٤ حديث رقم: ٢٣١٣٢، مسند أبي يعلى لأحمد بن علي بن المشي، الموصلي: ٥ / ٥٩ حديث رقم: ٢٦٥٠، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، وقال المحقق إسناده صحيح.

(٣) العسيف هو: الأجير والعبد المستهان به انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر لأبي القاسم جار الله الزمخشري: ٢ / ٥٢٣ الناشر: دار المعرفة - لبنان

(٤) مسند الإمام أحمد: ٢٩ / ١٥١ حديث رقم: ١٧٦١٠ وقال المحقق: (شعيب الأرنؤوط): صحيح لغيره.

وإذا علم بذلك أنكروه فعندما رأى ضحية مدنية غضب غضباً شديداً وأنكر على الصحابة هذا الفعل الذي لا يتفق مع الرحمة والرفق، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: ” أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان“^(١)، وفي رواية «فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان»^(٢)، وقد «أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا فإن قاتلوا قال جماهير العلماء: يقتلون، وأما شيوخ الكفار فإن كان فيهم رأي قتلوا»^(٣).

و في غزوة حنين عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحابة قد بالغوا في القتل حتى قتلوا الصبيان، غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وعن ارتكاب مثل هذا الفعل مرة أخرى، فعن الأسود بن سريع، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت معه فأصبت ظهراً، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان -وقال مرة: الذرية-، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ” ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم، حتى قتلوا الذرية ” فقال رجل: يا رسول الله، إنما هم أولاد المشركين، فقال: ” ألا إن خياركم أبناء المشركين “ ثم قال: ” ألا، لا تقتلوا ذرية، ألا، لا تقتلوا ذرية “ قال: ” كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها“^(٤).

هذه هي رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وهي رحمة وسعت جميع المدنيين في الحرب، ولت أعداء الإسلام عاملوا المسلمين في الحروب بمثل ما عامل به النبي

(١) صحيح البخاري: ٤ / ٦١ حديث رقم: ٣٠١٤ كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، صحيح مسلم: ٢ / ١٣٦٤ حديث رقم: ١٧٤٤ كتاب الجهاد والسير - باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب.

(٢) صحيح مسلم: ٢ / ١٣٦٤ حديث رقم: ١٧٤٤ كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي: ٢ / ٤٨.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٢٤ / ٣٥٧ حديث رقم: ١٥٥٩٠ وقال المحقق: رجاله ثقات، رجال الشيخين، لكن سماع الحسن من الأسود لا يثبت عند بعضهم

أسلافهم - من حماية للمدنيين، والحفاظ على أرواحهم، وحقن دمائهم، ولكن نجدهم منذ بزوغ شمس الإسلام وسطوع نوره إلى يومنا هذا لا يألون جهداً في أذى المدنيين الضعفاء الذين لا حول لهم لا قوة، بداية من تعذيب المسلمين الضعفاء نساءً ورجالاً إلى قتلهم لسمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنه (١) وما فعلوه في جميع الحروب التي شنوها ظلماً وعدواناً على بلاد المسلمين من إزهاق لأرواح المدنيين، والاعتداء عليهم، إلى ما يفعلونه في هذا العصر فتراهم يلقون القذاف بالطائرات ويلقون الصواريخ على مدارس أطفال، فيقتلون الكثير منهم بلا رحمة ولا هوادة، وعلى البيوت، فيقتلون من فيها من الشيوخ والنساء والصبيان بلا ذنب ولا جريرة، غير أنهم مسلمون.



المبحث الرابع رحمته ﷺ في حماية البيئة في أثناء الحرب

وفيه مطلبان وهما:

المطلب الأول تعريف البيئة

١. تعريف البيئة في اللغة: البيئة لغة (هي منزل القوم في كل موضع يقال: تَبَوَّأْتُ مَنْزَلاً: أي نزلتُه، وَبَوَّأْتُ لِلرَّجُلِ مَنْزَلاً وَبَوَّأْتُهُ مَنْزَلاً بمعنى، أي هَيَّأْتُهُ وَمَكَّنْتُ لَهُ فِيهِ. واستبَاءه، أي اتخذَه مَبَاءةً، وَبَوَّأْتُهُ مَنْزَلاً، إِذَا أَسْكَنْتَهُ إِيَّاهُ) (١).

٢. تعريف البيئة في الاصطلاح: البيئة في اصطلاح العلماء كلمة جامعةٌ تشمل جميع مناحي الحياة، وقد تتسع البيئة لتشمل الأرض التي تَقْلُنَا، وَالسَّمَاءَ التي تَظْلُنَا، وقد تضيق لتُخَصَّ بِبَيْتِ الْإِنْسَانِ، وموقع عمله، وَسُكْنَاهُ، وهي باختصار: «كل شيءٍ يحيطُ بِالْإِنْسَانِ، مِنْ مَوْجُودَاتٍ، مِنْ مَاءٍ، وَهَوَاءٍ، وَكَائِنَاتٍ حَيَّةٍ، وَجَمَادَاتٍ، وَهِيَ الْمَجَالُ

(١) مجمل اللغة لأحمد بن زكريا المعروف بابن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ): ١/ ١٢٨ تحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الصغاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري: ١/ ٣٧ تحقيق: أحمد عبدالغفور - الناشر: دار العلم للملايين - بيروت.

الطبيعي الذي يُمارس فيه الإنسان حياته، ونشاطاته المختلفة؛
ليُحوّلها إلى بيئة مشيدة»^(١).

المطلب الثاني

مظاهر رحمة النبي ﷺ

في حماية بيئة الأعداء عند الحرب

تتمثل حماية الرسول ﷺ للبيئة عند نشوب الحرب فيما يلي:

مظاهر رحمة النبي ﷺ في حماية البيئة في أثناء الحرب:

أولاً: رحمته ﷺ في التحذير العام من الإفساد في الأرض في
أثناء الحرب حفاظاً على بيئة الأعداء:

لقد ورد عن رسول الله ﷺ الترهيب والتحذير من الإفساد في الأرض
في أثناء الحرب حماية للبيئة ومكوناتها ورحمة بالأعداء، حتى تبقى
مقومات حياتهم من ماء وزروع ونباتات وحيوانات تنمو وتزاد، ويستغلونها
في حياتهم المعيشية فلا يموتون جوعاً أو عطشاً:

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الغزو غزوان،
فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك،
واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخراً ورياءً
وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بكفاف...»^(٢).

(١) موقف الإسلام من العبث البيئي، لمولاي المصطفى البرجاوي: مقال على هذا الرابط: <http://www.alukah.net/culture/0/36923/#ixzz3giX49Wei>، وانظر: رعاية البيئة في شريعة الإسلام

ليوسف القرضاوي "ص: ٣٠ الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ط: دار الشروق.

(٢) المستدرک على الصحیحین للحاکم: ٢/ ٩٤ حديث رقم: ٢٤٣٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي

وهذا الترهيب والتحذير من إفساد البيئة في أثناء الحرب جزء من النهي العام عن الإفساد في الأرض، وتخریب البيئة السليمة، الذي نص عليه الله ﷻ في كثير من آيات القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٧٧].

ثانياً: رحمته ﷻ في النهي عن إفساد الماء:

إن الماء عنصر مهم من عناصر البيئة وله أهمية كبيرة بالنسبة للبشر، إذ أنه شريان الحياة، ولما له من أهمية للناس بما فيهم الأعداء، فقد نهى النبي ﷺ عن إتلاف هذا العنصر، رحمة بالأعداء وبنسائهم وأطفالهم وشيوخهم ودوابهم، فإنه إذا أُلّف بأي وسيلة هلكوا جميعاً، وليس هذا هو هدف الرسول ﷺ من الغزو والحرب، وإنما هدفه ﷺ كان الهداية أولاً ثم قتال من قاتله بلا غدر ولا خديعة، ولا على حين غفلة من أمرهم وفغايته ﷺ الإصلاح وليس الإفساد، لذا نجده ﷺ يحذر تحذيراً شديداً وينهى نهياً أكيداً عن إفساد الماء على الأعداء بإلقاء السم فيه فقد روي عن سمرة بن جندب، أن النبي ﷺ «نهى أن يلقي السم في آبار المشركين»^(١). وكان دائماً يحذر ﷺ جيوشه وسرياه من تغيير أعين الماء في باطن الأرض رحمة بالأعداء، وحماية لهذا العنصر المهم من عناصر البيئة، فعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: كان نبي الله ﷺ إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين قال: «انطلقوا باسم الله»، فذكر الحديث، وفيه: «ولا تقتلوا وليداً طفلاً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً، ولا تغورن عيناً...» الحديث^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين أبي بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ): ٩ / ١٥٤ حديث رقم: =

ثالثاً: رحمته ﷺ في النهي عن قطع الأشجار وهدم البيوت وذبح الحيوانات، بلا وجه حق:

إن من مكونات البيئة الزروع والنباتات والأشجار والدواب والدور، وهذه الأشياء نعم أنعم الله تعالى بها على بني البشر، ولا غنى لهم عنها وإتلافها يلحق أضراراً كثيرة بهم، لذا نجد رسول الله ﷺ ينهى عن التعدي على هذه المقومات، حتى ولو كانت على أرض العدو حماية لها ورحمة بالأعداء ورأفة بهم، فعن عبدالله بن حبشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سدره صوب الله رأسه في النار»^(١) سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث، فقال: «هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل، والبهائم عبثاً، وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار»^(٢) وهذا نهى عام ولم يخص النبي ﷺ هذا النهي بأرضنا أو بأرض العدو في السلم أو في الحرب.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان نبي الله ﷺ إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين قال: «انطلقوا باسم الله»، فذكر الحديث، وفيه: «ولا تقتلوا وليداً طفلاً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً، ولا تغورن عيناً، ولا تعقرن شجرة إلا شجرةً يمنعكم قتالاً أو يحجز بينكم وبين المشركين، ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة، ولا تغدروا، ولا تغلوا»^(٣). فينهي النبي ﷺ في هذا الحديث عن التعدي على الأشجار إلا للضرورة حماية لبيئة الأعداء وحفاظاً على مكوناتها.

= ١٧٧٠١ كتاب السير، باب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما المحقق: محمد عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، أخرجه بإسناده، ثم قال: في هذا الإسناد إرسال وضعف، وهو بشواهد مع ما فيه من الآثار يقوى، والله أعلم.

(١) سنن أبي داود: ٥٢٢/٧ كتاب الأدب - باب في قطع السدر وقال الألباني: الحديث صحيح بما له من الشواهد، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فوائدها: ١٧٣/٢ حديث رقم: ٦١٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سبق تخريجه.

ومن الأحاديث التي حذر فيها رسول الله ﷺ من التعدي على مكونات البيئة ما رواه ثوبان مولى رسول الله، ﷺ أنه سمع رسول الله، ﷺ يقول: "من قتل صغيراً أو كبيراً أو أحرق نخلاً أو قطع شجرة مثمرة أو ذبح شاة لأهلها لم يرجع كفافاً" (١).

وعن القاسم مولى عبدالرحمن أنه قال: استأذن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في الغزو فأذن له فقال: «إن لقيت فلا تجبن، وإن قدرت فلا تغل، ولا تحرقن نخلاً، ولا تعقرها، ولا تقطع شجرة مطعمة، ولا تقتل بهيمة ليست لك فيها حاجة، واتفق أذى المؤمن» (٢).

وهذه الوصايا والتحذيرات: «تُعَدُّ دُسْتُورًا لِآدَابِ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ، وَاسْتَمَلَّتْ عَلَى تَشْرِيعَاتٍ لِلْحِفَاظِ عَلَى الْبَيْئَةِ، حَتَّى فِي الْأَوْقَاتِ الْحَرَجَةِ، بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ: هَلْ تَسْتَحْضِرُ دَوْلَةَ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ مِثْلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ وَالْمَبَادِئِ فِي اغْتِصَابِ أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَانْتِهَاكِ أَعْرَاضِهِمْ، أَلَمْ تَقْتُلِ الْأَطْفَالَ الرُّضْعَ، وَالشُّيُوخَ الرُّكَّعَ» (٣).

من خلال ما سبق ندرك أن حروب النبي ﷺ لم تكن أبداً "حروب تخريب كالحروب المعاصرة، التي يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان النبي ﷺ والمسلمون يحرصون أشد الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم" (٤).

- (١) مسند الإمام أحمد: ٢٧ / ٥٢ حديث رقم: ٢٢٣٦٨. وقال المحقق: إسناده ضعيف. وأقول: هذا الحديث وإن كان سنده ضعيفاً إلا أن الحديث السابق الذي رواه البيهقي في السنن الكبرى يقيه.
- (٢) سنن سعيد بن منصور: ٢ / ١٨٣ حديث رقم: ٢٣٨٤ - كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به الجيوش إذا خرجوا، الناشر: الدار السلفية - الهند.
- (٣) موقف الإسلام من العتب البيئي لمولاي المصطفى البرجواي مقال على هذا الرابط: <http://www.alu.k>
- (٤) أخلاقيات الحروب في الإسلام راغب السرجاني متاح على هذا الرابط: <http://www.ansarsunna.com/vb/showthread.php?t=10846>



رابعاً: رحمته ﷺ في الأمر بدفن قتلى الحرب حفاظاً على البيئة:

حفاظاً على البيئة من التلوث وخوفاً من انتشار الوباء والأمراض التي تنتج عن بقاء القتلى في العراء ومراعاة لتكريم الله تعالى لبني آدم أحياءً وأمواتاً، كان النبي ﷺ يحرص على دفن شهداء الحرب من المسلمين والقتلى من المشركين، ففي غزوة بدر دفن رسول الله ﷺ الشهداء ثم دفن قتلى المشركين ببئر بدر، ثم وقف يخاطبهم، ويسألهم عن وعيد الله تعالى لهم فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: إن رسول الله ﷺ قام على القليب، وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»^(١).

ولهذا السبب أيضاً نهى رسول ﷺ عن التمثيل بجثث القتلى من الأعداء وتركهم في العراء، حتى لا يصيروا جيفة تفوح رائحتهم، فكان ﷺ مما يوصي به سراياه: ”ولا تمثلوا“^(٢).



(١) صحيح البخاري: ٥ / ٧٧ حديث رقم: ٣٩٧٨ كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل، صحيح مسلم: ٢ / ٦٤٣ كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

(٢) سبق تخريجه.

المبحث الخامس

رحمته ﷺ بأسرى الحرب من المخالفين له في الدين

ويشتمل على خمسة مطالب، وهي:

المطلب الأول

المراد بالأسرى وموقف القرآن الكريم منهم

١. المراد بالأسرى:

«الأسرى هم المقاتلون من الكفار، إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياء»^(١)
سواء أكان ذلك في أثناء نشوب الحرب أو بعد انتهائها.

٢. موقف القرآن الكريم منهم:

لقد بين الله تعالى في كتابة العزيز ثلاثة أوجه في شأن الأسرى:

الأول: التلطف معهم وترغيبهم في الإسلام. وقد جاء هذا الوجه في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ ۚ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَفُورٌ

(١) الأحكام السلطانية لعلي بن محمد أبي الحسن الماوردي ص: ٢٠٧- الناشر: دار الحديث - القاهرة.

رَجِيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠] والذي يؤخذ من الأسرى هو حریتهم بوقوعهم في الأسر، وحرمانهم العودة إلى أهليهم. ومغفرة الله لهم لا تكون إلا بعد إسلامهم وصلاح عقيدتهم، واستقامتهم على صراط الله المستقيم.

والوجه الثاني: هو إطلاق سراحهم مجاناً بشرط ألا تخشى منهم خطراً في المستقبل، وهذا يرجع إلى إمام المسلمين.

أما الوجه الثالث: فهو أخذ الفدية منهم شخصياً أو من دولتهم. وتقدر الفدية حسب ما يراه ولي أمر المسلمين، شريطة ألا يكون فيها إجحاف أو تعجيز للأسير عن دفعها، وهذان الوجهان وردا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَّخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ [محمد: ٤].

هذا ما ورد في القرآن الكريم، وقد أضاف الفقهاء وجهين آخرين هما: الاسترقاق، أي بقاؤهم في الأسر مملوكين لمن أسره ملك يمين، والقتل، إذا خشى منهم الضرر في المستقبل على المسلمين.

أما النساء فلا يجوز قتلهن ولا قتل الذراري الصغار، ويكون التصرف معهم إما بالعفو مجاناً، أو أخذ الفدية، أو البقاء في الاسترقاق^(١). هذا هو موقف القرآن الكريم من الأسرى، والنبى ﷺ كان خير منفذ للأوامر القرآنية، ومتبعاً للتعاليم الربانية، يتضح هذا من خلال المطالب التالية، التي نقف فيها على مظاهر رحمته ﷺ بأسرى الحرب.

(١) معاملة الأسرى في الإسلام لعبد العظيم المطعني متاح على هذا الرابط <http://www.muslim.net/vb/showthread.php?t=242047>

المطلب الثاني

رحمة النبي ﷺ بالأسرى في دعوتهم إلى الإسلام

كان رسول الله ﷺ إذا وقع الأسرى في قبضته، لا يتركهم في غيهم يعمهون، وفي ضلالاهم يترددون، بل كان يتعهدهم ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام رجالاً ونساءً، بلا إكراه، كما أمره الله ﷻ ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، رحمة بهم في الدنيا والآخرة، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١. أن النبي ﷺ في غزوة بني قريظة قبل قسمة السبايا اصطفى ﷺ ريحانة من بني عمرو بن قريظة، وعرض عليها الزواج بها ويضرب عليها الحجاب فأبت، وقالت: يا رسول الله.. أتركني في ملكك فهو أحق عليّ وعليك» فتركها، وعرض عليها الإسلام فأبت إلا اليهودية؛ فعزلها ووجد في نفسه ذلك من أمرها... فبينما هو مع أصحابه إذ سمع نعلين خلفه فقال: «إن هذا لثعلبة يبشرنني بإسلام ريحانة»، فجاء فقال: «يا رسول الله قد أسلمت ريحانة»، فسره ذلك من أمرها فكانت عنده ﷺ حتى توفي وهي في ملكه ﷺ^(١) «فلم يأمرها النبي ﷺ بالزواج به، بل عرض عليها، ولم يُجبرها على الزواج بعد رفضها، برغم أنها أسيرة، لا حول لها ولا قوة؛ ولم يُكرهها على الإسلام، بل أعطاها حرية الاختيار، حتى اختارت الإسلام، واختارت أيضاً عدم الزواج منه ﷺ بعد إسلامها، فأى احترام هذا لحقوق الأسرى؟!»^(٢).

٢. لما أسرت السيدة صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود دعاها

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٢٤٥، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لليبهي: ٤/ ٢٤. المحقق: د. عبدالمعطي قلعجي الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) أخلاق النبي ﷺ في الحرب، لأماني زكريا الرمادي ص: ١٥٤، ١٥٥. متاح على هذا الرابط: www.rasoulallah.net

الرسول ﷺ للإسلام رفقا ورحمة بها، وخيرها بين إطلاق سراحها وإلحاقها بقومها إن أرادت البقاء على يهوديتها، وبين الزواج منه فقال لها: «إن أقمت على دينك لم أكرهك، وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك، قالت: أختار الله ورسوله والإسلام. فأعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني وجعل عتقي مهري ﷺ»^(١).

المطلب الثالث

رحمة النبي ﷺ في العفو عن أسرى الحرب وإطلاق سراحهم بلا فداء

لقد اهتم النبي ﷺ بأمر أسرى الحرب، ووصى بإطلاق سراحهم والمن عليهم، فقال: «فكوا العاني، يعني: الأسير، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»^(٢) وطبق ﷺ هذا عملياً في حروبه وغزواته فكان كثيراً ما يطلق سراح الأسرى بلا فدية مالية أو تبادل أسرى رحمة بهم وشفقة عليهم وعلى حسب ما تقتضيه المصلحة، وحدث عن هذا ولا حرج فقد أطلق النبي ﷺ بلا مقابل سراح ستة آلاف أسيراً من سبي هوازن من النساء والصبيان والرجال في غزوة حنين وقعوا في الأسر^(٣).

ومن رسول الله ﷺ بغير فداء -أيضاً- على ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ وأصحابه من جبال التتعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ سلماً "فأعتقهم رسول الله ﷺ"^(٤).

(١) الواقدي: المغازي: ٢/ ٦٧٤، ٦٧٥.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ٦٨ حديث رقم: ٣٠٤٦ كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٦/ ٢٧٥ حديث رقم: ٦٧٢٩ وقال المحقق (أحمد شاكر): إسناده صحيح، الأموال لحميد بن مخلد بن قتيبة المعروف بابن زنجويه ص: ٣١٢ حديث رقم: ٤٨٣، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

(٤) صحيح مسلم: ٢/ ١٤٣٣-١٤٣٦ حديث رقم: ١٨٠٧ كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد =

وأطلق ﷺ سراح ثلاثين شاباً من شباب المشركين كانوا قد أغاروا بسلاحهم على رسول الله ﷺ وأصحابه في أثناء عقد صلح الحديبية، فوقعوا أسرى في قبضة النبي ﷺ، لكنه صلوات الله وسلامه عليه رحمهم، وأطلق سراحهم، بلا عوض ولم ينتقم منهم ويأخذهم بجريرتهم بل عفا عنهم وأحسن إليهم، وفك أسرهم..^(١) «فهذا عفو في موقف عجيب، فالمسلمون ممنوعون من دخول مكة، وقريش قد أعدت لهم العدة لحربهم، ومع ذلك لم يأخذ الرسول ﷺ هؤلاء الأسرى رهينة بل يمن عليهم بغير فداء، ولا يجعلهم ورقة ضغط على المشركين، حتى في هذا الموقف الصعب، إنها الرحمة في أرقى صورها»^(٢).

وأطلق ﷺ أيضاً - سراح ثمامة بن أثال الحنفي بلا عوض، بعد أن أسره الصحابة رضياً، وربطوه في سارية من سواري المسجد، فقال لهم النبي ﷺ "أطلقوا ثمامة"، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، "يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله، ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله، ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ"^(٣). فإطلاق سراحه كان سبباً في إسلامه.

=وغيرها، سنن أبي داود: / ٦١ حديث رقم: ٢٦٨٨ كتاب الجهاد، باب في المن على الأسير بغير فداء، واللفظ له.

(١) راجع القصة في مسند الإمام أحمد: ٢٧ / ٣٥٤، ٣٥٥ وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط): إسناده صحيح.

(٢) الرحمة في حياة الرسول ﷺ لراغب السرجاني ص: ٣١٦.

(٣) صحيح البخاري: ١ / ٩٩ حديث رقم: ٤٦٢، كتاب الصلاة، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضاً في المسجد، صحيح مسلم: ٣ / ١٢٨٦ حديث رقم: ١٧٦٤، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه، واللفظ لمسلم.

المطلب الرابع

رحمته ﷺ في إطلاق سراح أسرى الحرب بفداء

لقد فك رسول الله ﷺ أسر الكثير من المشركين رحمة بهم وشفقة عليهم وعلى ذويهم بقدية مالية أو علمية، اقتضتها الحكمة والمصلحة أو بصفقة تبادل الأسرى مع المشركين من ذلك إطلاقه ﷺ سراح أسرى بدر، فمنهم من أطلق سراحه بلا فدية، ومنهم من فك أسره بقدية، سواء أكانت مالية أو تعليمية، حيث "من ﷺ على أبي عزة الشاعر يوم بدر، فأطلق سراحه بلا عوض"^(١) و«فأدى بعض أسرى بدر بالمال بأربعة آلاف إلى أربع مئة»^(٢) وقد راعى النبي ﷺ في الفدية المالية الظروف المادية لكل أسير، فمن لم يكن معه مال جعل رسول الله ﷺ فداءه أن يعلم عدداً من أولاد الأنصار القراءة والكتابة فعن ابن عباس، قال: "كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة"^(٣) وهذه أسهل مهمة بالنسبة للأسير، ولم يسبق إليها رسول الله ﷺ، يتطلع إلى دولة العلم والتفكير الصحيح والاعتقاد بالتوحيد، وللأسف فإن الإنسانية لم تتبته حتى يومنا هذا إلى هذا الحكم النبوي الكريم، الذي طبقه سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام منذ أربعة عشر قرناً، في وقت لم تكن للثقافة قيمة ولا للأسير حاجة، ولا توجد جمعيات دولية أو منظمات تهتم بالأسرى»^(٤).

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ٦/ ٥٢٠ حديث رقم: ١٢٨٣٩ وقال: هذا إسناد فيه ضعف، وهو مشهور عند أهل المغازي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية: ٥/ ٦٠ - الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ومصنف عبدالرزاق: ٥/ ٢١١، وأشار إليه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود: ٤/ ٣٢٨ وحسن إسناده، وعزاه لابن سعد في الطبقات، وصحح إسناده.

(٣) مسند الإمام أحمد: المسند: ٤/ ٩٢ حديث رقم: ٢٢١٦ وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط): حديث حسن.

(٤) حقوق الأسرى في الإسلام صالح عبدالله الشثري متاح على هذا الرابط: <http://www.islamto-day.net/bohooth/artshow-861314.htm>

وممن أطلق النبي ﷺ سراحهم بتبادل أسرى في غزوة بدر عمرو بن أبي سفيان بن حرب حيث أطلق سراحه مقابل أن يطلق المشركون سراح سعد بن النعمان بن زيد بن أكال، أحد بني عمرو بن عوف، كان قد وقع أسيراً في يد أبي سفيان وهو يعتنق^(١).

يقول المفكر البريطاني اللورد هدلي، وهو يعلق على معاملة النبي ﷺ لأسرى غزوة بدر "أفلا يدل هذا على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة، ولا متعطشاً للدماء، كما يقول خصومه، بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء قدر المستطاع"^(٢).

وقد أطلق الرسول ﷺ سراح رجل من بني عقيل مقابل أن يطلق بنو ثقيف - وقد كانوا حلفاء لبني عقيل - سراح رجلين من الصحابة كانوا قد أسروهما رحمة ورأفة بهم جميعاً، فعن عمران بن حصين، قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وأسروا أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «إعظاماً لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف»، ثم انصرف عنه، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فرجع إليه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني مسلم، قال: «لو قتلها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»، ثم انصرف، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، قال:

(١) إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لأحمد بن علي بن عبد القادر، أبي العباس المقرئ: ١/ ١١٤، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة لحسين حسيني معدي ص: ١٠٤، الناشر: دار الكتاب العربي - دمشق ط١ - ١٤١٩هـ.

«هذه حاجتك»، ففدي بالرجلين»^(١) ومن الفوائد المستتبطة في هذا الحديث: (رحمة الرسول ﷺ ورفقه كما هو ظاهر، وقد أشار إلى ذلك الصحابي، عندما قال: وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً وحلمه وصبره ﷺ فقد ناداه الأسير عدة مرات باسمه يا محمد، دون صفته يا رسول الله . وهو يجيبه في كل مرة ويأتيه ويقول له: ما شأنك؟..)^(٢).

المطلب الخامس

رحمته ﷺ بالأسرى في حال الاحتفاظ بهم

لقد تعددت مظاهر رحمة الرسول ﷺ بالأسارى في حال الاحتفاظ بهم، وعدم إطلاق سراحهم بعبء أو بدون عبء، أو في حال الاحتفاظ بهم، إلى أن يطلق سراحهم، من هذه المظاهر ما يلي:

مظاهر رحمة الرسول ﷺ بالأسرى في حال الاحتفاظ بهم:

أولاً: رحمته ﷺ في الوصية بهم خيراً:

«لقد كانت القاعدة العامة التي حثَّ عليها رسول الله ﷺ في أول غزوة غنم فيها المسلمون أسرى هي: «اسْتَوْصُوا بِهِمْ - أَيِ بِالْأَسْرَى - خَيْرًا»^(٣). وهذه المعاملة الحسنة التي أمر بها رسول الله ﷺ للأسرى لم تكن مجرد قوانين نظرية ليس لها تطبيق في واقع الحياة، ولكنها تمثلت في مظاهر كثيرة

(١) صحيح البخاري: ٤ / ٦٨ حديث رقم: ٣٠٤٦ كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، صحيح مسلم: ٣ / ١٢٦٢ حديث رقم: ١٦٤١ كتاب النذور، باب لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد.

(٢) شرح كتاب الجهاد من (صحيح الترغيب والترهيب) الفرع الثاني: آداب القتال في أثناء المعركة لعبدالله قادي الأهدل ص: ٨٧ متاح على هذا الرابط <https://www.saaaid.net/Doat/ahdal/016.htm>.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني: ٢٢ / ٣٩٣ حديث رقم: ٩٧٧ المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، وقال الهيتمي: إسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٦ / ٨٦ حديث رقم: ١٠٠٠٧، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة.

تتبئ عن قلوب ملأتها الرحمة، وعن مشاعر فاضت بالعطف والحنان^(١). وسيظهر هذا من خلال النقاط الآتية:

ثانياً: رحمته ﷺ في الحرص على سلامة الأسرى البدنية، وعدم التعرض لهم بأذى:

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على حياة الأسرى، وسلامة أبدانهم وأرواحهم، وعدم التعرض لهم بقتل أو أذى، لذا نجده ﷺ ينهى عن قتلهم يوم فتح مكة عندما بعث ﷺ مناديه ينادي في الصحابة ﷺ، قائلاً: «ألا لا يجهز على جريح، ولا تتبعن مدبراً، ولا تقتلن أسيراً، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»^(٢). انظر: كيف كرم رسول الإسلام الأسير، وضمن له الحفاظ على حياته، وأنه لا يمكن أن يتعرض له أحد بأذى، فلا يجوز في الإسلام لمن أسر أسيراً أن يقتله، بل عليه أن يسلمه لإمام المسلمين، ويتشاور الإمام مع قاداته، وأصحاب الرأي عنده: كيف يعاملون الأسرى، بل إن القرآن الكريم حثنا على أن نحسن إلى الأسرى، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَاتِهِمْ وَيَتِيمَاتِهِمْ وَأَسْرِيَائِهِمْ﴾ [الإنسان: ٨]. ومما ورد في السنة العملية أن النبي ﷺ على الرغم من كل ما صنعه يهود بني قريظة^(٣) من عداء وخيانة للمسلمين، فقد أبى ﷺ أن يبقوا في شدة الحر، بل أمر أصحابه أن يتركوهم في وقت القيلولة، وأن يسقوهم ماءً بارداً....^(٤).

بل إن الأمر وصل إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث منع النبي ﷺ تعذيب الأسير لإدلاء بمعلومات عن العدو، فقد أنكر النبي ﷺ على بعض الصحابة عندما ضربوا غلامين من قريش، وقعا أسيرين في أحداث

(١) الرحمة في حياة الرسول ﷺ لراغب السرجاني ص: ٢٢٢، ٢٢٤.

(٢) الأموال لابن زنجويه ص: ٢٩١ حديث رقم: ٤٥٠.

(٣) المغازي للواقدي: ٢/ ١١٤ وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل القصة.

(٤) معاملة الأسرى، محمد راتب النابلسي، متاح على هذا الرابط: <http://www.nabulsi.com/blue/ar/>

[art.php?art=4858&id=44&sid=46&ssid=48&ssid=49](http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=4858&id=44&sid=46&ssid=48&ssid=49)

غزوة بدر، فقال لهم منكرًا عليهم فعلهم هذا: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٌ. «مع أن هذين الغلامين اللذين ضُربًا كانا يمدان الجيش المعادي بالماء»^(١).

ولما حدث ما حدث من قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه لأناس من بني جذيمة وأسر منهم، وأمر بقتل الأسرى غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا وتبرأ من فعله هذا، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم "بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا: صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم اني أبرأ إليك مما فعل خالد مرتين"^(٢).

ثالثًا: رحمته صلى الله عليه وسلم في الحرص على سلامة الأسرى النفسية والروحية:

«إن الإسلام يرفع من قيمة البشر، ويحترم المشاعر الإنسانية احتراماً كبيراً سواءً مع المسلمين أو مع غيرهم، قد وجدنا تطبيقات عملية كثيرة لهذا الأمر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر هذا الأمر بوضوح في أوقات الشدائد وبعد الحروب خاصة فنجد النبي صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه الكرام توجيهات إنسانية راقية، في شأن التعامل مع الأسرى من النساء والأطفال، فينهاي عن التفريق بين الأم وطفلها»^(٣) فعن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: كنا في البحر، وعلينا عبد الله بن قيس الفزاري، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فمر بصاحب المقاسم وقد أقام السبي، فإذا امرأة تبكي، فقال: ما شأن هذه؟

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١ / ١٦٦. وانظر: هذا الرابط: <http://islamstory.com/ar>.

(٢) صحيح البخاري: ٩ / ٧٣ حديث رقم: ٧١٨٩ كتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد.

(٣) الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لراغب السرجاني ص: ٢٢٨، ٢٢٩.

قالوا: فرقوا بينها وبين ولدها، قال: فأخذ بيد ولدها حتى وضعه في يدها، فانطلق صاحب المقاسم إلى عبدالله بن قيس فأخبره، فأرسل إلى أبي أيوب، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين الأحبة يوم القيامة"^(١).

وإليك أخي القارئ الكريم هذه القصة التي تدل على مدى رقة قلب النبي ﷺ ورحمته، خاصة بالنساء من الأسرى، ومراعاة مشاعر الأم التي يكاد ينفطر قلبها عند فراق وليدها، فعن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن أبا أسيد الأنصاري، قدم بسبي من البحرين فصفوا، فقام رسول الله ﷺ فنظر إليهم، فإذا امرأة تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: بيع ابني في بني عبس، فقال رسول الله ﷺ لأبي أسيد: «لتركبن فلتجيئن به»، فركب أبو أسيد فجاء به»^(٢).

«لقد رق قلب النبي ﷺ للمرأة الأسيرة، فأرسل أحد جنوده إلى بلد بعيد، ليأتي لها بابنها، حتى يهدأ بالها، وتجف دموعها.

ولعل السؤال الأبرز هنا الذي يخطر على بالنا الآن: هل هناك قائد عسكري في العالم ينتصر في معركة، فيشغل نفسه وجنوده لإسعاد امرأة أسيرة بسيطة لا يعرفها أحد؟.

الإجابة التي يعرفها الجميع: هي أن ذلك أبداً لا يكون، إلا أن يكون هذا القائد هو محمد رسول الله ﷺ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ^(٣).

ولما وقعت السيدة صفية بنت حيي بن أخطب، في الأسر بعد فتح

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٨ / ٤٨٥، ٤٨٦ حديث رقم: ٢٣٤٩٩ وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط) (إسناده حسن.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ٣ / ٥٩١ حديث رقم: ٦١٩٣ هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه وقال الذهبي بهامش المستدرک: مرسل.

(٣) الرحمة في حياة لرسول ﷺ لراغب السرجاني ص: ٢٢٩.

خيبر، وكان أبوها وأخوها وزوجها قد قُتلوا في المعركة وجاءت مع الأسرى، فبعث بها رسول الله ﷺ مع بلال إلى رحله، فمر بلال بها وبابنة عمها على القتلى، فصاحت ابنة عمها صياحا شديداً، فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال، وقال له: «أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟» فقال بلال: «يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحبيت أن ترى مصارع قومها»^(١).

فتأمل كيف حرص النبي ﷺ على مشاعر هذه الجارية التي اضطربت مشاعرها عندما رأت جثة أبيها وأخيها وزوجها وغضب غضباً شديداً لذلك وصرح بأن هذا مناقض للرحمة ومراعاة المشاعر والأحاسيس.

رابعاً: رحمته ﷺ في الإنفاق على الأسرى:

«إن الإنفاق على الأسير ومساعدته مما يُثاب عليه المسلم؛ وذلك بحكم ضَعْفِهِ وانقطاعه عن أهله وقومه، وشِدَّة حاجته للمساعدة، وقد قرن القرآن الكريم برَّه بَبِرِّ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ؛ فقال في وصف المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]^(٢)، وهذا حق من حقوق الأسرى ومن منطلق رحمته ﷺ حرص على مراعاته، وتتمثل رحمته ﷺ في مراعاة هذا الحق فيما يلي:

١. رحمته ﷺ في توفير الطعام والشراب للأسرى:

لقد حرص النبي ﷺ على توفير الطعام والشراب للأسرى رحمة بهم وشفقة عليهم حتى لا يموتوا جوعاً أو عطشاً إذ إنهم من الفئات الضعيفة التي تستحق العطف والشفقة والإحسان والمعاملة الإنسانية،

(١) المغازي للواقدي: ٢ / ٦٧٤.

(٢) أخلاقيات الحروب في الإسلام راغب السرجاني متاح على هذا الرابط: <http://www.ansarunna.com/vb/showthread.php?t=10846>

التي تحفظ كرامتهم، وترعى حقوقهم، فكان ﷺ يطعم الأسرى ويحسن إليهم ويحث الصحابة ﷺ على إطعامهم والإحسان إليهم، فكانوا يقدمون لهم أجود الطعام، وهو أحب إليهم وقد يكونوا في أشد الحاجة إليه، لذا استحقوا ثناء الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَخِّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فعندما أسر الصحابة رجلاً من بني عقيل، وقد كانوا حلفاء بني ثقيف، قال هذا الأسير: «يا محمد، يا محمد، فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني جائع فأطعمني، وظلمآن فأسقني، قال: «هذه حاجتك»^(١) وإليكم شهادة من أحد الأسرى تظهر رحمة النبي الكريم بهم، وطاعة أصحابه الأبرار لأوامره ﷺ، فعن أبي عزيز بن عمير، أخي مصعب بن عمير قال: كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً، وكنت في نذر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم»^(٢) إنها الرحمة والإيثار.

٢. رحمته ﷺ في توفير الكسوة للأسرى:

لم يقتصر الإنفاق على الأسرى على إطعامهم أو سقيهم، بل شمل أيضاً كسوتهم وستر أبدانهم وعوراتهم وهذا ما فعله النبي ﷺ معهم، ووصى به أصحابه ﷺ رحمة بهم وعطفاً وشفقة عليهم حتى يقوا أنفسهم حر الصيف أو برد الشتاء: فعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: "لما كان يوم بدر أتى بأسارى، وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٢٦٢ حديث رقم: ١٦٤١ كتاب النذور، باب لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد

(٢) المعجم الكبير، للطبراني: ٢٢/ ٣٩٣ حديث رقم: ٩٧٧، وقال الهيثمي: إسناده حسن: مجمع

الزوائد: ٦/ ٨٦ حديث رقم: ١٠٠٠٧

قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه،
فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه» قال ابن عيينة كانت له عند
النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه^(١) ولم يكسه النبي ﷺ لأنه عمه فقط، بل
لأنه أسير لا حول له ولا قوة ولا يجد ما يكسو به نفسه.

وأمر النبي ﷺ لأسرى هوازن في غزوة حنين بكسوتهم وتوفير الثياب
لهم فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه: ”أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً أن يقدم مكة
فيشتري للسبي ثياب المعقد، فلا يخرج الحر منهم إلا كاسياً“^(٢) وما ذلك
إلا رحمة بهم وشفقة عليهم.

٣. رحمته ﷺ في توفير المأوى والمسكن للأسرى:

من رحمة النبي ﷺ بالأسرى أنه كان لا يتركهم موثقين في العراء بلا
سكن ولا مأوى، بل كان ﷺ يوفر لهم السكن والمأوى، لأنهم قد فارقوا
أهلهم وأوطانهم وسكنهم، فلا مأوى لهم يؤويهم، ولا سكن يقيهم حر
الصيف أو برد الشتاء، فكان يُسكنهم أحياناً في المسجد حتى يطلعوا على
عبادة المسلمين وأخلاقهم ومعاملتهم، لعلهم يتأثرون بها ويدخل الإيمان
في قلوبهم كما حدث مع ثمامة بن أثال الحنفي^(٣)، حيث كان موثقاً في
المسجد كما أمر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ
حَتَّىٰ إِذَا ائْتَمَتُوهُمْ قُتِلُوا فَمَنْ مَاتَ فَمَنْ مَاتَ فَمَنْ مَاتَ فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَأَنْصَرَفْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٤)
[محمد:٤] فلما أطلق النبي ﷺ سراحه أسلم في الحال لما رأى من رحمة
النبي ﷺ به ولما رآه من حسن أخلاق الصحابة وطاعتهم لربهم.

وأحياناً كان ﷺ يُسكن الأسير بيتاً من بيوت الصحابة رضي الله عنهم فعن

(١) الإمام البخاري: صحيح البخاري: ٤ / ٦٠ حديث رقم: ٣٠٠٨ كتاب الجهاد والسير، باب الكسوة
للأسارى.

(٢) البيهقي: دلائل النبوة: ٥ / ١٩٣ باب وفود وفد هوازن على رسول الله ﷺ.

(٣) سبقت قصة ثمامة رضي الله عنه ص: ٢٩

الحسن البصري قال: "كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه"^(١).

خامساً: رحمته ﷺ في الرفق بالأسرى واحترام آدميتهم:

لقد كان النبي ﷺ يرفق بالأسرى ويحترم آدميتهم ولا يمتن كرامتهم فعندما رأى النبي ﷺ أسرى يهود بني قريظة موقوفين في العراء، عطشى في يوم شديد الحر نهى ﷺ عن تعذيبهم وامتهان كرامتهم، وأمر بأن يحسنوا إليهم ويقلوهم من حر الشمس، ويسقوهم حتى يرووا ظمأهم، رفقاً ورحمة بهم واحتراماً لآدميتهم فقال مخاطباً للصحابة المكلفين بحراستهم: «أحسنوا إيسارهم، وقيلوهم، واسقوهم، حتى يبردوا، فتقتلوا من بقي، لا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح» وكان يوماً صائفاً، فقلوهم وسقوهم»^(٢).

ولما أسر بعض الصحابة غلامين من قريش أحدهما لبني الحجاج والآخر لبني العاص بن سعيد، وأخذوا يضربوهما، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما. فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما. وركع رسول الله ﷺ سجد سجدتيه، ثم سلم، وقال معاتباً لهم: "إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش"^(٣).

وفي غزوة الخندق نوفل بن عبد الله تردى به فرسه فقتل، فبعث أبو

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد ابن جزي الكلبي: ٤٣٨/٢، الناشر: شركة دار الأرقم بن

أبي الأرقم - بيروت، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري: ٤١٣ /٦، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، وهو حديث مرسل.

(٢) المغازي للواقدي: ١١٤ /٢، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي:

١٣ /٥ ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام: ١ /١٦٦.

سفيان إلى النبي ﷺ بديته مئة من الإبل، فأبى النبي ﷺ وقال: «خذوه؛ فإنه خبيث الدية، خبيث الجثة»^(١).

فانظر: كيف رحم النبي ﷺ هؤلاء الأسرى وعاملهم بالرفق واحترم إنسانيتهم وأدميتهم حتى بعد موتهم مع أنهم أعداء له ولو ظفروا به أو بأحد من أصحابه قبل أسرهم أو موتهم ما رحموهم حقاً إنه الرؤوف الرحيم صاحب الخلق العظيم والرفق العميم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

هذه هي معاملة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ للأسرى من الأعداء المخالفين في الدين، إنها معاملة تفيض بالرحمة والرفقة وتتبع من قلوب رحيمة، معاملة تحفظ حقوق الأسرى المادية والنفسية والبدنية وحرية الاعتقاد، وتحفظ مشاعرهم وكرامتهم وأدميتهم، معاملة قائمة على العدالة والمساواة، فهل هناك قائد من القادة غير المسلمين أو جنوده تعاملوا مع أسرى المسلمين مثلما تعامل النبي ﷺ وأصحابه مع أسرى المخالفين أعداء الدين؟ أبداً لم يحدث هذا، بل تعاملوا معهم معاملة تقشعر لها الأبدان، ويثيب لها الولدان، وتضع لها ذات الحمل حملها، عاملوهم بكل عنف ووحشية وقسوة وإرهاب، قطعوهم إرباً أفراداً وجماعات ومزقوهم كل ممزق، وأحرقوهم بالنار، وسلطوا عليهم الكلاب العقور تآكل أجسادهم، وتقطع أعضائهم، وحبسوهم في سجون غير آدمية ومنعوا عنهم الطعام والشراب والكساء في حر الصيف وبرد الشتاء، وحرمو ذويهم وأهلهم من رؤيتهم، دون مراعاة لأي حقوق إنسانية أو رحمة قلبية والتاريخ والواقع خير شاهدان على هذا، وحسبي الله ونعم الوكيل^(٢).



(١) المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة: ١٠/ ٤٥٥ أثر رقم: ٣٠١٠١.

(٢) إن أردت الاطلاع على هذه الجرائم ضد الأسرى فارجع إلى العلاقات الدولية في الإسلام لمحمد أبي زهرة ص: ١١٠، ١١١ ط: دار الفكر العربي - القاهرة - مصر، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، أسرى الحرب عبر التاريخ عبدالكريم فرحان ط: دار الطليعة - بيروت.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد شاء الله العلي القدير ﷺ أن أتحدث في بحثي هذا عن خلق
من أخلاق الرسول ﷺ وصفة من صفاته الكريمة، ألا وهي رحمته ﷺ
بالمخالفين له في الدين والعقيدة في أثناء الحرب والقتال وها أنا قد
انتهيت من الكتابة فيه، وأرجو أن أكون قد تناولت هذا الموضوع المهم
من جميع جوانبه، وبينت جميع عناصره، وأحسنت في اختيار تعبيراتي
وانتقاء ألفاظي، فإن كنت قد أحسنت فمن الله المتصف بصفات الكمال
وكمال الصفات، وإن كنت قد أسأت فمن نفسي ومن الشيطان، أعوذ
بالله من نفخه ووسوسته ونفته ولماته.

هذا وقد أثمر البحث عن عدة نتائج أهمها:

1. أن رحمة النبي ﷺ بالمخالفين له من الأعداء في الحرب جزء
من الرحمة العامة، التي أرسله الله من أجلها، قال تعالى: ﴿ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢. أن رحمة الرسول ﷺ بالأعداء المخالفين له عامة، وفي الحرب خاصة ليست صفة عارضة بل هي من جوهر شخصيته ﷺ، التي صبغت حياته، وسبقت سائر صفاته.

٣. أن الرحمة في ميدان الحرب والقتال مجال عظيم لا تصدر إلا من نبي، وهي أمر غير متوقع أن يحدث، ولكن الرسول ﷺ كان على غير الظن والتوقع، لأنه صاحب القلب الرحيم، الذي أرسله ربه رحمة للعالمين: المسلمين وغير المسلمين ففاقت رحمته الوصف، وزادت عن الحد.

٤. أن رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين له في الدين والعقيدة هي أبلغ رد على المغرضين الذين يصفون الإسلام ونبيه ﷺ بالعنف والتطرف والإرهاب.

٥. أن رحمة الرسول ﷺ بالأعداء المخالفين له في ميدان الحرب والقتال شملت المحاربين والمستكرهين على الحرب والمستأمنين والفارين منها والمستسلمين والمدنيين وكذا بيئتهم والأسرى منهم.

٦. أن رحمة النبي ﷺ بالأسرى ومراعاة حقوقهم رحمة عظيمة لن يصل إليها قانون دولي ولا منظمة دولية.

ومن أهم التوصيات ما يلي:

١. إبراز جانب الرحمة في حياة الرسول ﷺ خاصة بالمخالفين له في الدين والعقيدة عن طريق نشر البحوث والمقالات المختصة بذلك باللغة العربية واللغات الأخرى، ليطلع عليها القاصي والداني من غير المسلمين، فيتعرفوا على رسول الرحمة ونبي الإنسانية ﷺ ويكفوا عن الإساءة إليه، إذ إن الإنسان عدو ما يجهل.

٢. الإكثار من عقد المؤتمرات الدولية التي تهتم بالعلوم والأخلاق الإسلامية العظيمة ونشر أعمال هذه المؤتمرات عبر وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وكذا شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) باللغة العربية ولغات متعددة بصفتها وسيلة من وسائل الدعوة ونشر العلوم والمعارف والأخلاق الإسلامية السامية.

وصلى الله وسلم على نبي الرحمة ورسول الهدى وعلى آله وصحبه
مصاييح الدجى.



فهرس المراجع والمصادر

١. آداب الحرب في الإسلام: أحمد هاشم: متاح على هذا الرابط:
<http://www.masrawy.com/Islameyat/Makalat-Other/details/2015/2/16/461614>
٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - محمد بن حبان أبو حاتم البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت
٣. أحكام أهل الذمة - محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: يوسف بن أحمد البكري، الناشر: رمادى للنشر - الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٤. الأحكام السلطانية - علي بن محمد بن محمد البغدادي، أبو الحسن الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) - الناشر: دار الحديث - القاهرة.
٥. أخلاق الحروب في السنة النبوية - راغب السرجاني، الناشر - مؤسسة اقرأ - القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ.
٦. أخلاق النبي ﷺ في الحرب: أماني زكريا الرمادي: متاح على هذا الرابط: www.rasoulallah.net
٧. أخلاقيات الحروب في الإسلام- راغب السرجاني متاح على هذا الرابط: <http://www.ansarunna.com/vb/showthread.php?t=10846>
٨. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: أحمد بن علي أبو العباس المقرئزي (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٩. الأموال - حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله المعروف بابن زنجويه (المتوفى: ٢٥١هـ)، تحقيق الدكتور: شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
١٠. التَّحْبِيرُ لِإِيضَاحِ مَعَانِي التَّيْسِيرِ - محمد بن إسماعيل بن صلاح، الأمير الكحلاني (المتوفى: ١١٨٢هـ)، تحقيق: مُحَمَّدٌ صُبْحِي حَسَن - الناشر: مَكْتَبَةُ الرُّشْدِ، الرياض - المملكة العَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ - الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ.
١١. التسهيل لعلوم التنزيل - محمد بن أحمد بن محمد الكلبي (المتوفى: ٧٤١هـ):، المحقق: عبد الله الخالدي - الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
١٢. تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ): المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٩هـ.
١٣. التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة.
١٤. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم - عبدالرحمن بن أحمد البغدادي، ثم الدمشقي، المعروف بابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ط٧.
١٥. الرحمة في حياة الرسول ﷺ راجب السرجاني، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
١٦. حقوق الأسرى في الإسلام - صالح عبد الله الشثري: متاح على هذا

الرابط: <http://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-861314.htm>

١٧. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٨. دلائل النبوة: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. عبدالمعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٩. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: حسين حسيني معدي، الناشر: دار الكتاب العربي دمشق ط ١٤١٩هـ.
٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد محمد ابن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ.
٢١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها - محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، أبو عبدالرحمن الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى.
٢٢. سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط - الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٢٣. سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث بن إسحاق أبو داود السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٢٤. سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد - محمد بن يوسف الصالحي الشامي ت ٩٤٢هـ، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود - ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٥. رعاية البيئة في شريعة الإسلام - يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ط: دار الشروق.
٢٦. سنن الترمذي - محمد بن عيسى بن سَوْرَة أبو عيسى الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ)، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي وآخرون.
٢٧. سنن سعيد بن منصور - سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (المتوفى: ٢٢٧هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي - الناشر: الدار السلفية - الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.
٢٨. السنن الكبرى - أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة.
٢٩. السنن الكبرى - أحمد بن شعيب بن علي، أبو عبد الرحمن النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي - الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٣٠. السيرة النبوية - عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
٣١. السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ): تحقيق: مصطفى عبد الواحد - الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.
٣٢. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) - شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض) ط ١.



٣٣. شرح كتاب الجهاد من (صحيح الترغيب والترهيب) الفرع الثاني:
آداب القتال في أثناء المعركة - عبدالله قادري الأهدل متاح على

هذا الرابط <https://www.saaaid.net/Doat/ahdal/016.htm>

٣٤. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد أبو نصر
الجوهري (المتوفى: ٣٩٣هـ)؛ تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار-

الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري - محمود بن أحمد بن موسى
الحنفي المعروف بالبدر العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)؛ الناشر: دار

إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٦. غرائب القرآن و رغائب الفرقان - نظام الدين الحسن بن محمد بن
حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ) المحقق: الشيخ زكريا

عميرات - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ.

٣٧. الفائق في غريب الحديث والأثر - محمود بن عمرو بن أحمد،
أبو القاسم الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد

البجاوي - الناشر: دار المعرفة - لبنان الطبعة الثانية.

٣٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

٣٩. قالوا عن الإسلام - عماد الدين خليل؛ الناشر الندوة العالمية للشباب
الإسلامي، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى،

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري - عبدالرحمن بن أحمد بن رجب
البغدادي، ثم الدمشقي، المعروف بابن رجب الحنبلي (المتوفى:

٧٩٥هـ)؛ مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية - الطبعة الأولى،

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

- ٤١ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : - علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي - الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة - عام النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .
- ٤٢ . مجمل اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان. دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٤٣ . مجموع الفتاوى - أحمد بن عبدالحليم أبو العباس المعروف بابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ) الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم .
- ٤٤ . المستدرك على الصحيحين: الحاكم محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ) ،، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٤٥ . المسند: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى، الموصلية (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد - الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ .
- ٤٦ . المسند - أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م تحقيق شعيب الأرنؤوط .
- ٤٧ . مسند الشاميين - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ .
- ٤٨ . المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي .



٤٩. المصنف - عبدالرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: المجلس العلمي - الهند - المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٥٠. المصنف في الأحاديث والآثار - عبدالله بن محمد بن إبراهيم أبو بكر المعروف بابن أبي شيبة العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت - الناشر: مكتبة الرشد - الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥١. مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ سارة آدم إعداد زيد عمر العيص بدون طبعة
٥٢. معاملة الأسرى في الإسلام عبدالعظيم المعطني متاح على هذا الرابط: <http://www.muslm.net/vb/showthread.php?t=242047>
٥٣. معاملة الأسرى - محمد راتب النابلسي: متاح على هذا الرابط: <http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=4858&id=44&sid=46&ssid=48&sssid=49>
٥٤. المعجم الكبير سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.
٥٥. المغازي - محمد بن عمر بن واقد السهمي المدني، أبو عبدالله (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس الناشر: دار الأعلمي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٩٨٩/١٤٠٩.
٥٦. موقف الإسلام من العبث البيئي - مولاي المصطفى البرجاوي: مقال على هذا الرابط: <http://www.alukah.net/culture/0/36923/#ixzz3giX49Wei>
٥٧. هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب - جابر أبو بكر الجزائري، ط: دار الشروق - جدة دار الخاني - الرياض.

٥٨. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - يحيى بن شرف أبو زكريا
محيي الدين النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث
العربي - بيروت، الطبعة، الثانية، ١٣٩٢هـ.
٥٩. النهاية في غريب الحديث والأثر - المبارك بن محمد بن محمد
الشييباني المعروف بابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة
علمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي.
٦٠. نيل الأطار - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)،
تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة
الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م. ٦٢.



رحمة النبي ﷺ بالأسارى

إعداد:

د. محمد إبراهيم الشربيني صقر

كلية بهنج الإسلامية السلطان أحمد شاه بماليزيا

KIPSAS



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المجاهدين محمد ﷺ ورضى الله عن الصحابة الأطهار، الأبرار، ورضي الله عن التابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.
وبعد...

فقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ؛ رحمة للعالمين، وجمع في شخصيته العظيمة الكمال البشري؛ فتألفت روحه الطاهرة بعظيم الشمائل والخصال الكريمة، ومن هذه الصفات الكريمة؛ خلق الرحمة، فقد كان ﷺ ذا قلب رحيم، بزوجاته، وأولاده، وأصحابه، وقومه وعشيرته، وشملت رحمته غير المسلمين، وخاصة الأسارى منهم، وفي الوقت الذي كانت فيه الحروب في الجاهلية لا تعرف أخلاقيات الحرب، ظهرت رحمته ﷺ في هذا الميدان؛ لتشرع للعالمين تصوراً شاملاً للتعامل مع الأسارى على أساس الرحمة والرفقة والعدل.

وفي هذا العصر الذي كثرت فيه الإساءة إلى الأسير، وعدم احترام المواثيق الدولية، ممن يدعون المحافظة على حقوق الإنسان، ويرفعون

شعارات الحرية والإنسانية، نبرز في هذا البحث تفوق نبي الرحمة ﷺ، وسبقه هذه القوانين الدولية، في تقرير حقوق وضمانات الأسير والرحمة به.

والهدف من هذا البحث:

التعريف بمصطلحي: الرحمة، والأسير، ومدلولاتهما اللغوية والإصطلاحية، وإبراز رحمة النبي ﷺ بالأسارى، والتعامل الكريم معهم.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة المتواضعة على: المنهج التاريخي النقلي، وعلى المنهج التحليلي المتمثل في عرض ماورد عن النبي ﷺ من رحمته بالأسارى، والرجوع في ذلك إلى المصادر الصحيحة المعتمدة وتحليلها وتوجيهها.

وتشتمل خطة البحث على:

مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر

التمهيد يشتمل على التعريف بالمصطلحين الآتين:

أولاً: التعريف بمصطلح الرحمة في اللغة والاصطلاح.

ثانياً: التعريف بمصطلح الأسير في اللغة والاصطلاح.

المبحث الأول: رحمة النبي ﷺ بالأسارى، وقبول الفداء منهم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بالأسارى وعفوه عنهم

١. رحمة النبي ﷺ بأسرى بني المصطلق وعفوه عنهم

٢. رحمة النبي ﷺ بأسرى الحديبية وعفوه عنهم

٣. رحمة النبي ﷺ بأسرى مكة وعفوه عنهم

٤. رحمة النبي ﷺ بأسرى هوازن وعفوه عنهم

٥. رحمة النبي ﷺ بأبي العاص بن الربيع ﷺ وعفوه عنه

٦. رحمة النبي ﷺ بثمامة بن أثال ﷺ وعفوه عنه

المطلب الثاني: رحمته ﷺ بقبوله الفداء من الأسارى

المبحث الثاني: رحمة النبي ﷺ في التعامل مع الأسرى وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إكرام النبي ﷺ للأسرى

المطلب الثاني: رفق النبي ﷺ بالأسرى وعدم إيذائهم

ثم الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس للمراجع والمصادر.

اللهم أسأل أن يتقبل مني هذا العمل المتواضع، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يحشرنا مع الحبيب المصطفى ﷺ وصحابته الأطهار الأبرار.



التمهيد

قبل الحديث عن مبحث رحمة النبي ﷺ عن الأسارى وقبول الفداء منهم؛ كان لزاماً علينا أن نلقي الضوء حول مصطلحي: الرحمة، والأسير؛ في اللغة، ثم ننقل إلى المعنى الاصطلاحي؛ وذلك لأن تحديد المفاهيم من أوليات المهام في البحث العلمي.

أولاً: التعريف بمصطلح الرحمة في اللغة والاصطلاح:

تعريف الرحمة في اللغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة تعريف كلمة الرحمة كالتالي: الرَّأءُ وَالْحَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ.

يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ (١).

وَالرَّحْمَةُ: الْمَغْفِرَةُ... وَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ أَي قُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ: دَعَا لَهُ بِالرَّحْمَةِ. وَاسْتَرَحَّمَهُ: سَأَلَهُ الرَّحْمَةَ. وَرَجُلٌ مَرَحُومٌ وَمَرَحَمٌ؛ شَدَّدَ لِلْمُبَالَغَةِ... وَسَمَّى اللَّهُ الْغَيْثَ رَحْمَةً؛ لِأَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ... وَالرَّحْمَةُ فِي بَنِي آدَمَ عِنْدَ الْعَرَبِ: رِقَّةُ الْقَلْبِ وَعَطْفُهُ. وَرَحْمَةُ اللَّهِ: عَطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ وَرِزْقُهُ (٢).

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ط ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٤٩٨، مادة (رح م).

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٣ - ١٤١٤هـ، ج ١٢، ص ٣٢٠، مادة (رحم).

ومما سبق عرضه لبيان كلمة الرحمة في بعض معاجم اللغة؛ يتضح أنها تدور حول هذه المعاني: رقة القلب، والعطف، والرأفة، والمغفرة، والغيث، والإحسان، والرزق.

تعريف الرَّحْمَةِ في الاصطلاح:

وردت عدة تعريفات لمصطلح الرحمة في الاصطلاح؛ منها:

التعريف الأول: أن الرحمة هي: "إرادة إيصال الخير".^(١)

التعريف الثاني: أن الرَّحْمَةَ: حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان.^(٢)

التعريف الثالث: الرَّحْمَةُ: "رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رَحِمَ اللهُ فلاناً. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة".^(٣)

والرحمة وإن كانت حقيقتها القلب، والانعطاف النفسي المقتضي إلى المغفرة والإحسان؛ فإنها لن تكون مجرد عاطفة نفسية، لا أثر لها في الخارج؛ بل إنها ذات آثار خارجية ومظاهر حقيقية، تتجسم فيها في عالم الشهادة، فمن آثار الرحمة الخارجية: العفو عن ذي الزلة، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، ومواساة الحزين.^(٤)

(١) الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٠٠٢، ١٤١٤ هـ، ١٩٨٣ م، ص ١١٠.

(٢) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٩٣ م، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، ط ١ - ١٤١٢ هـ، ج ١، ص ٣٤٧.

(٤) الجزائري، أبو بكر جابر، منهاج المسلم، المنصورة، مكتبة الإيمان، د.ت، ص ١٢٢.

والملاحظ على هذه التعريفات للمعنى الاصطلاحي للرحمة:

أن التعريفين الأول والثاني: مقصور على قصد فعل الرحمة والاتجاه إليه فقط؛ فقد عبر به بكلمة الإرادة، وهي غير الفعل، ولا معنى لصفة الرحمة بدون تحقيق مرادها تحقيقاً عملياً، واقعيًا.

والتعريف الثالث: أرى أنه مناسب لتعريف مصطلح الرحمة، شارح لحقيقتها، والتي تقتضي القصد والفعل معاً.

ويمكن تعريف مصطلح الرحمة بأنها: رقة في القلب، وحب لإيصال الخير؛ يقتضي الإحسان العملي للآخرين.

ثانياً: التعريف بمصطلح الأسير في اللغة والاصطلاح.

تعريف الأسير في اللغة:

جاءت كلمة الأسير في اللغة بعدة معانٍ، منها، الأسير: أي المقيّد يُقال: أَسْرَتُ الرَّجُلَ، أَسْرًا وَإِسَارًا، فَهُوَ: أَسِيرٌ وَمَأْسُورٌ. وكلُّ مَحْبُوسٍ فِي قَدِّ أَوْ سِجْنٍ: أَسِيرٌ.^(١)

والأَسْرُ، معناه في اللغة: الشَّدُّ. يُقال: أَسْرَتُ الشَّيْءَ أَسْرَهُ أَسْرًا: إِذَا شَدَّدْتَهُ^(٢)، وَأَسَرَ قَبْلَهُ يَأْسِرُهُ أَسْرًا: شَدَّهُ بِالْإِسَارِ، وَهُوَ الْقَدُّ. ومنه سَمِيَ الْأَسِيرُ، وَكَانُوا يُشَدُّونَهُ بِالْقَدِّ، فَسَمِيَ كُلُّ أَحْيَدٍ أَسِيرًا؛ وَإِنْ لَمْ يُشَدَّ بِهِ^(٣)، وَالْجَمْعُ (أَسْرَى) وَ(أَسَارَى)، وَهَذَا لَكَ (بَأْسَرِهِ) أَي: بِقَدِّهِ يَعْنِي جَمِيعَهُ؛ كَمَا يُقَالُ بِرُمَّتِهِ^(٤) وَالْأَسِيرُ: الْمَسْجُونُ^(٥).

(١) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، دار الهداية، ط ١٩٦٦م، ج ١٠، ص ٥٠.

(٢) الأنباري، محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ج ٢، ص ٧٧.

(٣) الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٥٧٨.

(٤) الرازي، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ، بيروت، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ط ٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ١٨.

(٥) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل، تحقيق: عبد الحميد هندواي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ج ٨، ص ٥٤٢.



ويستتبط مما سبق ذكره من المعاني اللغوية لكلمة الأسير؛ أنها تعني: الشَّدُّ، والإنسان المقيَّد، والإنسان المحبوس، والمسجون.

تعريف الأسير في الاصطلاح:

جاء تعريف الأسارى عند فقهاء الشريعة، بأنهم: «الرجال الْمُقَاتِلُونَ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا ظَفَرَ الْمُسْلِمُونَ بِأَسْرِهِمْ أَحْيَاءً»^(١)

ويعرف الأسير عند فقهاء القانون الدولي بأنه:

«كل شخص يؤخذ لا لجريمة ارتكبها؛ وإنما لأسباب عسكرية.»^(٢)

والملاحظ في تعريف علماء الفقه الإسلامي، أنه أدق من التعريف الآخر لفقهاء القانون الدولي، حيث خص الفقه الإسلامي الرجال دون غيرهم، وهذا هو الأصل ما لم يشارك غير الرجال في الحرب، بأي نوع من تلك المشاركة، بينما النظام الوضعي أطلق ذلك ولم يقيده. والفقه الإسلامي حصر الأسر في الكفار؛ متى ظفر بهم المسلمون، بينما النظام الوضعي أطلق ذلك، ولم يعتبر الديانة موجبة أو مانعة من الأسر.^(٣)



(١) الماوردى، أبو الحسن بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م. ص ١٧٦، ابن الفراء، محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢٠١٤ هـ، ٢٠٠٠ م.

(٢) الزحيلي، وهبة، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ط ٣، ١٤٩١ هـ، ١٩٨٩ م، ص ٤٠٣.

(٣) التويجري، صالح عبدالعزيز، أحكام الأسر في الفقه الإسلامي والنظام الوضعي، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١٤١٢ هـ، ص ٢٢.

المبحث الأول

رحمة النبي ﷺ بالأسارى وقبول الفداء منهم

كان النبي ﷺ رحيماً رقيقاً، قد بلغ القمة والدرجة العالية في العفو والصفح، وكذلك حاله ﷺ في كل شئمة من شئمة الكريمة. وقد شملت رحمته وعطفه جميع الناس، فهو ﷺ رحمة للعالمين، فشملت رحمته الأعداء فضلاً عن الأصدقاء.

وفي هذا المبحث نتعرض فيه لعفو النبي ﷺ عن الأسارى، وقبول الفداء منهم، حيث سطر التاريخ مواقف كريمة لنبي الرحمة ﷺ، فقد عفا النبي ﷺ عن أسرى بني المصطلق، وأطلق سراحهم، وعفا ﷺ في الحديبية عن مجموعة من الشباب المسلح، غدوا على حرد؛ يريدون قتله ﷺ وصحابته ﷺ، فأسرهم الصحابة ﷺ، وأطلق سراحهم رسول الإنسانية ﷺ، كذلك دخل النبي ﷺ مكة المكرمة فاتحاً، وعفا عن أهلها، وتسطر السيرة النبوية موقفه النبيل من أسرى هوازن وعفوه عنهم، وموقفه العظيم مع زوج ابنته أبي العاص بن الربيع ﷺ، وموقفه الكريم مع سيد بني حنيفة. وهذا ما سنوضحه في السطور التالية.

المطلب الأول

رحمة النبي ﷺ بالأسارى وعفوه عنهم

رحمة النبي ﷺ بأسرى بني المصطلق وعفوه عنهم

غزا النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة، وقيل: كانت

في شعبان سنة خمس، والأول أصح، وهو قول ابن إسحاق وغيره، فأغار عليهم وهم غارون على ماء لهم يسمى المريسيع^(١)، فقتل من قتل منهم، وسبى النساء والذرية... وكان من السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ملك بني المصطلق، وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فصارت أم المؤمنين، فأعتق المسلمون بسبب ذلك مئة بيت من بني المصطلق قد أسلموا^(٢). وتصور لنا السيدة عائشة هذه القصة فتقول: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي الْمَصْطَلِقِ، وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ - أَوْ لِابْنِ عَمِّ لَهُ - وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَاحَةً لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَكْرَهْتُهَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيْرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضَرَّارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ - أَوْ لِابْنِ عَمِّ لَهُ - فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي. قَالَ: «فَهَلْ لَكَ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟». قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَقْضِي كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ» قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ». قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبْرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتُ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ، قَالَتْ: فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِجِهِ إِيَّاهَا مِئَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمَصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَهً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا^(٣)

(١) بالضم، ثم الفتح، وياء ساكنة، وسين مهملة مكسورة، وياء أخرى، وآخره عين مهملة. ورواه بعضهم بالغين المعجمة: ماء من ناحية قديد إلى الساحل به غزوة النبي عليه السلام إلى بني المصطلق من خزاعة، فقاتلهم وسباهم واصطنى منهم جويرية فتزوجها (ابن شمائل القطيعي البغدادي، عبدالمؤمن بن عبدالحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٢ هـ، ج٢، ص ١٢٦٣).

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، الفصول في السيرة، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، بيروت، مؤسسة علوم القرآن ط٢، ١٤٠٣ هـ، ج ١، ص ١٧٩.

(٣) ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة ط١، =

إن زواجه ﷺ من السيدة جويرية بنت الحارث؛ كاف لأن يدع المسلمون ما بأيديهم من الأسرى والسبايا، إذ عتق بزواجها رجال مئة دار من العرب^(١)، وترتب على هذا التكريم العظيم وهذه المعاملة الحسنة، أن أسلم بنو المصطلق عن آخرهم وأصبحوا قوة تنشر الإسلام وتدافع عنه وتحميه، بعد أن كانوا قوة تناوئ الإسلام وتحاربه وتعاديه^(٢).

ولعل سائل يسأل: وما علاقة عتق الصحابة ﷺ لأسرى بني المصطلق؛ برحمة النبي ﷺ وعفوه؟

إن النبي ﷺ منذ أن بعثه الله تعالى إلى الناس جميعاً، وهو يرسخ في قلوب أصحابه ﷺ وأتباعه مكارم الأخلاق، ومن هذه المكارم خلق الرحمة؛ فقد ربي صحابته على هذا الخلق الكريم، وأخذ يعمقه في نفوسهم، وجعله من دلائل الكمال؛ وذلك ليتراحموا فيما بينهم.

فضرب الصحابة ﷺ أروع المثل فيما بينهم بتحقيق هذا الخلق، وتعدى ذلك إلى غيرهم من غير المسلمين؛ تأسياً بأخلاق الرسول الكريم ﷺ واتباعاً لأوامره، وصار هذا الخلق سجية عند الصحابة ﷺ؛ مما جعلهم في هذا الموقف يطلقون سراح هؤلاء الأسرى؛ حباً في النبي ﷺ، ورحمة بهؤلاء الأسارى، وطمعاً في إسلامهم.

رحمة النبي ﷺ بأسرى الحديبية وعفوه عنهم

في السنة السادسة من الهجرة النبوية، وحينما كان النبي ﷺ يعقد الصلح مع قريش؛ قرر مجموعة من شباب قريش، أن يحولوا بينهم وبين

١ = ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج٤، ص٣٨٥، برقم: ٢٦٣٦٥، وقال محققوه: إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا فانتفت شبهة تدليسه. وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد الزهري.

(١) أبو زهرة، محمد بن أحمد، خاتم النبیین ﷺ، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٥٢٥هـ، ج٢، ص٧٢٦.

(٢) النجار، محمد الطيب، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ﷺ، بيروت، لبنان، دار الندوة

الجديدة، دت، ج١، ص٢٩٨.



الصلح، فقررُوا إيذاء النبي ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الصحابة رضي الله عنهم فطنوا لذلك، وأخذوهم إلى النبي ﷺ، ولكن نبي الرحمة عفا عنهم وأطلق سراحهم، ويصور هذا المشهد الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْظَلٍ الْمُرْنِيُّ رضي الله عنه فيقول: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(١)، وَكَانَ يَقَعُ مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: «اَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فَأَخَذَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِيَدِهِ، فَقَالَ: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَانَ الرَّحِيمَ، اَكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ، قَالَ: «اَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». فَكَتَبَ: «هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ». فَأَمَسَكَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِيَدِهِ، وَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولَهُ، اَكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ. فَقَالَ: «اَكْتُبْ هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ»، فَكَتَبَ.

فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا ثَلَاثُونَ شَابًا عَلَيْهِمُ السَّلَاحُ، فَتَارُوا فِي وُجُوهِنَا، فَدَعَا عَلَيْهِمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَدِمْنَا إِلَيْهِمْ فَأَخَذْنَاهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدٍ أَحَدٍ، أَوْ هَلْ جَعَلْ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا؟» فَقَالُوا: لَا، فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَانزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿رَهُوُ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [٢٤] [الفتح: ٢٤]، وهذا موقف عظيم من مواقف رحمة النبي ﷺ، بالأسارى، فهؤلاء الشباب من المشركين أرادوا قتل النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وكان باستطااعته ﷺ أن يقتلهم، ولكنه ﷺ عفا عنهم، وأطلق سراحهم، لعل

(١) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

(٢) مسند الإمام أحمد، ص ٨٦، (١٦٨٠٠) وقال محققوه: حديث صحيح، وانظر الهيثمي، أبو الحسن نور الدين، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ط: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، ج ٦، ص ١٤٥، (١٠١٨٢) وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصَّحِيح.

ضمايرهم تستيقظ؛ ويفكروا في هذا الموقف؛ فيكرمهم الله بالإسلام. وهذه قمة الرحمة والعفو من المصطفى ﷺ.

وبعد صلح الحديبية، يحدث موقفاً آخرًا مع المشركين، تتجلى فيه رحمة النبي ﷺ؛ فيصور لنا هذا الموقف الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه فيقول: (... ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَأَسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ، وَأَصْطَلَحْنَا، قَالَ -سَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ-: وَكُنْتُ تَبِيعًا^(١) لَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَسْقَى فَرَسَهُ، وَأَحْسَهُ^(٢)، وَأَخْدَمَهُ، وَأَكَلَ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ رضي الله عنه .

قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجْرَةَ فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا^(٣) فَاصْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ رضي الله عنه، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجْرَةِ أُخْرَى، وَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَأَصْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٌ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ^(٤)، قَالَ: فَأَخْتَرْتُ سَيْفِي^(٥)، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أَوْلِيكَ الْأَرْبَعَةَ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضَغْثًا^(٦) فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَهُ مُحَمَّدٌ رضي الله عنه، لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ

(١) وَكُنْتُ تَبِيعًا: أي خديماً له أتبعه. (عياض، أبو الفضل بن موسى، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، مصر، دار الوفاء، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج ٦، ص ١٩١).

(٢) وَأَحْسَهُ: أنفض عنه التراب. (عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٩١)

(٣) أي قطعته (ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، الرياض، ط دار الوطن، بدون تاريخ، ج ٢، ٢٠٦).

(٤) يقول ابن الجوزي: قوله قتل ابن زنيم؛ ما نحفظ من الصحابة من يقال له ابن زنيم غير شخصين:

سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر وهو الذي قال عمر: يا سارية الجبل وأخوه أنس بن زنيم (ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠٦).

(٥) أي: سلَّته (النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٣٩٢، ج ٦، ص ٢٦٧).

(٦) الضَّغْثُ: العزْمة (النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٦٧).



جِئْتُ بِهِمْ أَسْوَقَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ^(١) بَرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ^(٢) يُقَالُ لَهُ: مَكْرَزُ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ، مُجَفَّفٌ^(٣) فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ، وَتِنَاهُ"^(٤)، فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (...)^(٥)

إن هؤلاء المشركين الأربعة جعلوا ينالون من رسول الله ﷺ، كما يحكي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه؛ حتى إنه قال: فأبغضتهم؛ وهذا دليل على شدة إيذائهم بالكلام في حق النبي ﷺ، ومع ذلك لما ساقهم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ لم يفعل بهم مثل ما يفعل قادة الحروب إذا سُبوا، أو نيل منهم؛ ولكنه ﷺ نظر إليهم نظرة رحمة وشفقة، فعفا عنهم، وأطلق سراحهم؛ وصدق من قال عنه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٧) [الأنبياء: ١٠٧]، وهنا تتجلى رحمة النبي ﷺ وعفوه، فلم ينتقم منهم رسول الله ﷺ، وكان بمقدوره ذلك؛ لكنه ﷺ عفى عنهم.

رحمة النبي ﷺ بأسرى مكة، وعفوه عنهم.

في العام الثامن من الهجرة؛ دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً، وبعد دخولها أمر الرسول ﷺ بلائلاً أن يؤذن على ظهر الكعبة، فكان يوماً مجموعاً له الناس، وكان يوماً مشهوداً.

- (١) عامر بن سنان الأنصاري.
- (٢) العَبَلَات: وهم حيٌّ من قريش ينتسبون إلى أمِّ يقال لها عَبْلَةٌ (ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ٦٤).
- (٣) هُوَ يَفْتَحُ الْجَيْمَ وَيَفْتَحُ الْفَاءَ الْأُولَى الْمَشْدَدَةَ، أَي عَلَيْهِ تَجَفَّافٌ بِكَسْرِ التَّاءِ، وَهُوَ نَوْبٌ كَالْحُلِّ يَلْبَسُهُ الْفَرَسُ لِيَقِيَهُ مِنَ السَّلَاحِ، وَجَمَعَهُ: تَجَافَيْفٌ. (النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٦٧).
- (٤) الْبَدْءُ فَيَفْتَحُ الْبَاءَ وَإِسْكَانَ الدَّالِّ وَبِالْهَمْزِ، أَي ابْتَدَأُوهُ، وَتِنَاهُ: أَي عَوْدَةٌ ثَانِيَةٌ، (النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٦٧).
- (٥) مسلم، أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، ط دار إحياء التراث العربي، دت، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، برقم (١٨٠٧).



وكان من الحق على المسلمين أن يتخذوا هذا اليوم عيداً، يحمدون الله فيه على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

بعد أن تم فتح مكة، واجتمع الناس حول رسول الله ﷺ، وكان منهم من أئتمروا به ليقتلوه، ومن قاتلوه في بدر، وفي أحد، وحاصروه في غزوة الخندق، وعذبوه وأصحابه، نظر إليهم وهم جميعاً في قبضة يده: أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم رهن كلمة ينطق بها، فلم يأخذه العجب والغرور بما وصل إليه من مجد وسلطان، ولم يطف بنفسه ما يملك نفوس الناس ساعة النصر والظفر من ظلم وطغيان، بل وحتى لم يفكر في الانتقام لنفسه والمسلمين عما أصابهم على أيدي قريش من الأذى والعدوان، ولكنه نظر إليهم نظرة كلها عفو ورحمة، وقال لهم^(١): (... يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَحْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعْظَمَهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمَ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣] ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخَ كَرِيمٍ، وَابْنُ أَخِ كَرِيمٍ، قَالَ: أَذْهَبُوا فَانْتَمِ الْطُلُقَاءُ. »^(٢) (٣) فأعتقهم ﷺ جميعاً ولم يسب ذراريهم، وكان الله قد أمكنه منهم، فكانوا له فيئاً، فبذلك سمى أهل مكة الطلقاء^(٤)، أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا، ولم يؤسروا، والطلاق

(١) النجار، محمد الطيب، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، بيروت، لبنان، دار الندوة الجديدة، دت، ج١، ص ٣٥١.

(٢) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، ج٢، ص ٤٠١٢.

(٣) قال الحافظ العراقي -رحمه الله-: "رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وفي ذم الغضب، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الوفاء وفيه ضعف، وذكره ابن السبكي في الأحاديث التي لم يجد لها إسناداً في إحياء علوم الدين، وضعفه الشيخ الألباني -رحمه الله- بقوله: "... وهذا سند ضعيف مرسل. لأن شيخ ابن إسحاق لم يدرك أحداً من الصحابة، بل هو يروي عن التابعين وأقرانه، فهو مرسل أو معضل سلسله الأحاديث الضعيفة (٢/ ٣٠٨) وذكره الطبري في "التاريخ" (١٢٠/ ٣) قال: فحدثني بعض أهل العلم فنذكره، ونقله الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٤/ ٣٠٠ - ٣٠١) ساكناً عليه.

(٤) الطهطاوي، رفاعة رافع، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، القاهرة، دار الذخائر - القاهرة، ط١ - ١٤١٩ هـ، ص ٣٦٠.



هو الأسير إذا أطلق.^(١) وأنتم الطلقاء: أي: أنتم الخلاء من قيد الأسر، فإنهم كانوا حينئذ أسرى.^(٢)

هذه هي محبة الأعداء، والعمو عنهم. وهذا ما حققه محمد رسول الله ﷺ، وضرب به المثل للسماحة، التي لا عهد للدنيا بمثلها، فذلك هو العفو والصفح، وتلك هي دماثة الخلق، وسعة الصدر، وكرم المعدن.

إنه لم يدع الناس إلى فضيلة إلا بدأ بها بنفسه. لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس، ولكنها كانت عملاً يتقدم به إلى الإنسانية؛ ليكون لها منه أسوة وقدوة.^(٣)

والنبي ﷺ بعفوه عن أهل مكة أنهى الأحقاد، ووضعها دبر أذنه، ليستقبلوا عهداً جديداً في الإسلام.

إن الداعي بدعاية الحق، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين: أحدهما أدران التآلم من الناس لأذى سبقوا به، أو لحسك الصدور، أو فحش كان منهم، فإنه جاء لهدايتهم، لا لمقابلة إساءة بمثلها، ولا ليشغل نفسه بالنقمة بهم، وإن كانت حقاً أو أخذ حق، ولا علاج لذلك إلا بأن يجعل نسيان الماضي، والتسامح، هو السبيل لهذا النسيان، والعفو عما سلف من سيئات هو الذي يمكن الداعي من الخلاص إلا من الحق.

ثانيهما: أن يبعد الأثرة عن نفسه، فلا يفكر في العمل لنفسه، وذلك يقتضى الإيثار، والفناء في دعوته التي يدعو إليها، وإن تطهير النفس من الأثرة، إنما يكون بتغليب ترك الحقوق إذا لم يكن في تركها إقامة لباطل، أو خفض لحق، أو سكوت عن حق عام، فالداعي ينسى حقوقه

(١) القسطلاني، أحمد بن محمد، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، القاهرة، المكتبة التوفيقية، دت، ج ١، ص ٢٨٥.

(٢) اللّحجي، عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي، منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ، جدة، دار المنهاج، ط ٢، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ج ٢، ص ٥٠١.

(٣) الندوي، السيد سليمان، الرسالة المحمدية، دمشق، دار ابن كثير، ط ١٤٢٣ هـ، ص ١٧١.

الشخصية، بل يهملها من غير تهاون، ولا يترك حقاً عاماً، ولا أمراً من موجبات دعايته، فإن تساهل في حقوقه، فلكي يتفرغ بكله للحقوق العامة. وإذا كان ذلك ما ينبغي أن يكون عليه دعاة الحق، والناصرين له من الناس، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العالمين، إنه ينسى حقوق نفسه، فيعضو عنها، ويذكر حقوق الناس فلا يفرط في أي جزء منها.

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَاحْشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ^(١). وفي الجملة ما كان يحمل إلا الخير، وينفي عن نفسه كل ما يثيرها على أحد، فلا يكون منه إلا النفع، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكرهية إلا أن يكون لله^(٢).

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى هوازن وعضوه عنهم

جاء وفد هوازن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة حنين، وكان قد أسر منهم العدد الكثير، فقد ذكر ابن كثير أنهم كانوا ستة آلاف من الذراري والنساء ومن الابل والشاء ما لا يدري عدته. فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا أَهْلُ وَعَشِيرَةٌ، وَقَدْ أَصَابْنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَاْمَنْنَ عَلَيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ^(٣).

وَقَامَ خَطِيبُهُمْ زُهَيْرُ بْنُ صُرَدٍ أَبُو صُرَدٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا فِي الْحِطَائِرِ مِنَ السَّبَايَا خَالَاتُكَ وَحَوَاضِنُكَ اللَّاتِي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ..... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «نَسَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ خَيْرَتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا؟ بَلْ أَبْنَاؤُنَا وَنَسَاؤُنَا أَحَبُّ

(١) مسند أحمد، ج٤، ص٢٥٦، برقم: ٢٥٤١٧، وقال محققوه: اسناده صحيح.

(٢) أبو زهرة، محمد بن أحمد، خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ط١٤٢٥هـ، ص١٨٦.

(٣) انظر رواية أخرى لهذا الحديث (الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد، المغازي، تحقيق:

مارسدن جونس، بيروت، عالم الكتب، ج٣، ص٩٥٠).

إِلَيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا أَنَا صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ فَقُومُوا، فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أبنَائِنَا وَنِسَائِنَا؛ فَإِنِّي سَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ الظَّهَرَ قَامُوا فَقَالُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: " أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا. وَقَالَ عِيْنَةُ -بن حِصْنِ الْفَزَارِيِّ-: أَمَّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا. وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسِ السُّلَمِيِّ: أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا؛ فَقَالَتْ بَنُو سُلَيْمٍ: بَلْ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ: يَقُولُ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسِ لِبَنِي سُلَيْمٍ: وَهَنْتُمُونِي؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَمْسَكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتَّةَ فَرَائِضٍ مِنْ أَوْلَى فِي نَصِيْبِهِ. فَارْجِعُوا إِلَى النَّاسِ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ. (١)

هذا موقف كريم تتجلى فيه أسمى معاني الرحمة، والشفقة؛ بأناس عاش معهم النبي ﷺ وهو رضيع؛ فقد كان مسترضعاً في بني سعد بن بكر بن هوازن، وكانت مرضعته السيدة حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، وقد جاء وفد هوازن يطلب العفو من النبي ﷺ؛ فقام خطيبهم راجياً العفو والمنة من النبي ﷺ ذاكراً له حرمة الأهل والعشيرة وصلة الرحم، وأن في الأسارى من هم خالاته وحواضنه ﷺ، وكانت حرمة الرضاع منتشرة ومرعية عند العرب، فتذكر النبي ﷺ هذه الأيام؛ فرق لهم رقعة شديدة،

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ط ١٣٩٥ هـ -

وعزم على العفو عنهم؛ وهو يملك ذلك؛ فهو نبي الله تعالى ومصطفاه، وهو قائد المسلمين؛ فإذا أمر بشيء تسارع الصحابة لإجابته، ولكنه ﷺ راع وكل راع مسؤول عن رعيته، وناظر في أمر المسلمين، والأمر شورى، وهذه حقوق المسلمين جميعاً؛ وهذه رحمة منه ﷺ بصحابته، في مراعاة رأيهم ومشاعرهم وحقوقهم؛ ففكر النبي ﷺ في أمر وسط، يجبر به كسر هؤلاء الأسارى، ويراعي به الرحم والصلة، وأمر آخر يحفظ به حقوق المسلمين، ولا يجبرهم على شيء لا يريدونه، فأمر النبي ﷺ وقد هوأذن أن يستشفعوا به ﷺ إلى المسلمين، وأن يطلبوا شفاعته للمسلمين لرسول الله ﷺ .

وبهذا أقتنع النبي ﷺ صحابته بترك هؤلاء الأسرى وإطلاق سراحهم، وترك الغنائم لهم، وهذا دليل على قمة الرحمة والعفو.

رحمة النبي ﷺ بأبي العاص بن الربيع ﷺ وعفوه عنه.

أبو العاصي بن الربيع ﷺ زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ، والذي وقف موقفاً كريماً حينما تصدى بكل قوة للضغوط التي مارستها عليه قريش ليطلق زوجته، ويفعل كما فعل ابنا أبي لهب حينما طلقا ابنتي رسول الله ﷺ وساوموه في ذلك أكثر من مرة، عارضين عليه الزواج بأى امرأة يريدونها ولكن يرفض بكل قوة قائلاً: "لا والله لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لي بها امرأة من قريش" (١).

ويقع أبو العاص بن الربيع ﷺ أسيراً في أيدي المسلمين في غزوة بدر فتبعث زوجته في فدائه بمال ضمنته قلادة كانت لأمرها السيدة خديجة ﷺ وهبتها لها عند زواجها؛ فلما رآها رسول الله ﷺ؛ رق قلبه رقة شديدة لذكرى الزوجة الحنون، وكان يمكن له ﷺ أن يصدر قراراً بالعفو التلقائي عن زوج ابنته ولكن ﷺ برغم وفائه لذكرى زوجته الغالية،

(١) الكلاعي، سليمان بن موسى، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، عالم الكتب، ط الأولى ١٤١٧ هـ - ٢٠٢٠ - ص ٢٦.

ورغم حبه لابنته العزيزة، ورغم تقديره لزوج ابنته، رغم هذا كله يريد أن يربي أولاده وأن يعطي الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى للعالمين كلها فلا يستخدم حقه في العفو عن زوج ابنته أبي العاص وإطلاق سراحه دون فداء بمال - كما فعل مع بعض الأسرى في غزوة بدر، ولكن يعرض الأمر على أصحابه ويفوضهم في إصدار القرار قائلًا: (إِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ تَطَلَّقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرَدُّوا إِلَيْهَا مَتَاعَهَا فَعَلْتُمْ، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاطَّلَقُوا أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَرَدُّوا عَلَى زَيْنَبَ قِلَادَتَهَا وَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي الْعَاصِ ﷺ أَنْ يُخْلِيَ سَبِيلَهَا إِلَيْهِ، فَوَعَدَهُ ذَلِكَ فَعَلَّ).^(١) وكان أبو العاص وفيًا كريمًا فأوفى بعهده.

وَأَقَامَ أَبُو الْعَاصِ ﷺ بِمَكَّةَ وَأَقَامَتِ زَيْنَبُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ حِينَ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْإِسْلَامُ حَتَّى إِذَا كَانَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ وَكَانَ رَجُلًا مَأْمُونًا بِمَالٍ لَهُ وَأَمْوَالٍ لِرِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أَنْ يَضَعُوهَا مَعَهُ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ وَأَقْبَلَ قَافِلًا، لَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَصَابُوا مَا مَعَهُ وَأَعْجَزَهُمْ هَارِبًا، فَلَمَّا قَدِمَتِ السَّرِيَّةُ بِمَا أَصَابُوا مِنْ مَالِهِ، أَقْبَلَ أَبُو الْعَاصِ تَحْتَ اللَّيْلِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَجَارَ بِهَا، فَأَجَارَتْهُ، وَجَاءَ فِي طَلَبِ مَالِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الصَّبْحِ، فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ صَرَخَتْ زَيْنَبُ مِنْ صِفَّةِ النِّسَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ. قَالَ فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمْ إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ. ثُمَّ أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ فَقَالَ أَيُّ بَيْتَةٍ: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ لَا تَحْلِينَ لَهُ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَصَابُوا مَالَ أَبِي الْعَاصِ ﷺ

(١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط ١ - ١٩٦٨م ج ٨، ص ٢١.

فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَنَا حَيْثُ قَدَ عَلِمْتُمْ، وَقَدَ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا، فَإِنْ تَحَسَّنُوا وَتَرَدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ؛ فَإِنَّا نَحِبُّ ذَلِكَ. وَإِنْ أَيْبَيْتُمْ فَهُوَ فِيءُ اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلْ نَرُدُّهُ عَلَيْهِ، فَرَدَّوهُ عَلَيْهِ... ثُمَّ احْتَمَلَ إِلَى مَكَّةَ فَادَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ... ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ؟ قَالُوا: لَا فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدَّ وَجَدْنَاكَ وَفِيَّا كَرِيمًا قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفٌ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَكُلَ أَمْوَالَكُمْ فَلَمَّا أَدَّاهَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَفَرَعْتُ مِنْهَا أَسْلَمْتُمْ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

يتضح من هذا الموقف الكريم؛ رحمة النبي ﷺ بزواج ابنته أبي العاص بن الربيع ﷺ، هذا الرجل الذي وقف موقفًا بطوليًا تحدى فيه صنائيد الشرك بمكة، وأبى أن يتخلى عن زوجته السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ، وهو يقع الآن في محنة عظيمة، ألا وهي محنة الأسر، وهنا تتجلى الرحمة النبوية، فيسعى النبي ﷺ لفك هذا الأسير، رحمة به ورحمة بابنته السيدة زينب؛ وقد كان لنبينا ﷺ عناية فريدة ببناته تتضح لكل من طالع سيرته. وهنا تظهر رحمة الأب الكريم بابنته، الحريص على حل مشاكلاتها وإهدائها السعادة الدنيوية والأخروية، سعادة الدنيا في حل مشكلة زوجها بإطلاق سراحه، وسعادة الآخرة برضا الله تعالى، فالنبي ﷺ يريد لها الخير والنجاة من الكفر؛ لذلك حذرهما فقال لها: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ لَا تَحْلِينَ لَهُ.

وفي هذا الموقف تظهر رحمة النبي ﷺ بزوجته السيدة خديجة ﷺ

(١) الحلبي، علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، بيروت، دار المعرفة، ط ٤٠٠هـ، ج ٣، ص ١٧٦، السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبدالسلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ١٠٩.

عندما رأى قلاذتها تُرسل لتكون فداءً، لزوج ابنتها، فرق لها قلب النبي ﷺ رحمة وشفقة ووفاءً لهذا الزوج الكريمة الوفية، فأراد أن تبقى هذه القلاذة مع ابنته وفاءً لأمها ﷺ.

ويظهر لنا في هذا الموقف جانباً آخر من جوانب رحمته ﷺ بصحابته ﷺ والخوف عليهم من أنهم يظنون أنه ﷺ يحابي زوج ابنته، ففوض الأمر لهم في اتخاذ القرار بشأن زوج ابنته، فكان قرار الصحابة ﷺ قراراً رحيماً، فأروا إطلاق سراحه، حباً لرسول الله ﷺ؛ وهذا يرجع إلى تربيتهم في مدرسة الرحمة النبوية.

وكانت هناك آثار عظيمة لرحمته ﷺ بهذا الأسير أبي العاص بن الربيع ﷺ حيث لم يتردد في إعلان إسلامه، تأثراً بما رآه من أخلاق النبي ﷺ وأخلاق أصحابه ﷺ.

رحمة النبي ﷺ بثمامة بن أثال ﷺ وعفوه عنه

أعد النبي ﷺ سرية من أصحابه بلغ عددها: ثلاثين راكباً، ووجههم إلى (القرطاء) في أرض نجد، ناحية خيرية البكرات⁽¹⁾، وذلك لعشر ليالٍ خلت من المحرم سنة ست من الهجرة؛ لتأديب بني بكر أحد بطون بني كلاب بعدما تأمروا على قتل رسول الله ﷺ، وأعدوا لذلك رجالاً منهم؛ فلما وصلت السرية إلى ديار بني بكر، وشعر القوم بها هربوا، وتركوا أنعامهم وأموالهم، فغنم المسلمون منها ما استطاعوا، وعادوا إلى المدينة في آخر المحرم، وتمكنوا عند رجوعهم من أسر رجل من بني حنيفة يقال له (ثمامة بن أثال) وأحضره معهم إلى المدينة.

ونترك أبا هريرة ﷺ يحكي قصته؛ فيقول: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلاً قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ ﷺ، سَيِّدٌ

(1) موضع جهة نجد قريب من مكة.

أَهْلَ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدٌ خَيْرٌ، إِنْ تَقَتَّلَ تَقَتَّلَ ذَا دَمٍ^(١)، وَإِنْ تَنَعَّمَ تَنَعَّمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قَلْتُ لَكَ، إِنْ تَنَعَّمَ تَنَعَّمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقَتَّلَ تَقَتَّلَ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْعَدِ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قَلْتُ لَكَ، إِنْ تَنَعَّمَ تَنَعَّمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقَتَّلَ تَقَتَّلَ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَطْلِقُوا ثَمَامَةَ»، فَاَنْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاعْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ ﷺ: وَاللَّهِ، مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضُ وَجْهٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ، مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ، مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنْ خِيَلُكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ، لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

إن رحمة النبي ﷺ لتتجلى في هذا الموقف، مع زعيم بني حنيفة

(١) إِنْ تَقَتَّلَ تَقَتَّلَ صَاحِبُ دِمٍّ لِدَمِهِ، مَوْقِعٌ يَشْتَفِي بِقَتْلِهِ قَاتِلَهُ، وَيُدْرِكُ قَاتِلَهُ بِهِ ثَأْرَهُ. أَي: لِرِيَّاسَتِهِ وَقُضِيلَتِهِ، وَحُدُفٌ هَذَا لِأَنَّهُمْ يَهْمُونَ فِي عَرَفِهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ تَقَتَّلَ مَنْ عَلَيْهِ دَمٌ وَمَطْلُوبٌ بِهِ، وَهُوَ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ فَلَا عَتَبَ عَلَيْكَ فِي قَتْلِهِ. (النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢١٤).

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ، كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضا في المسجد، برقم: ٤٥٠، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، برقم: ١٧٧٤.



وقائدها؛ ثمامة بن أثال، لقد أدرك النبي ﷺ أن الرجل سيد قومه، وها هو قد وقع في الأسر، فبعد السيادة والقوة، أصبح ذليلاً ضعيفاً، وهذا أمر عسير على هذه النفس؛ لذلك نظر إليه النبي ﷺ نظرة شفقة ورحمة قائلاً له: ماذا عندك يا ثمامة؟ فوقعت هذه الكلمات الرحيمة الحانية في قلب ثمامة، وكانت برداً وسلاماً، اهتزت مشاعره ورق قلبه، ويعاود النبي ﷺ ويقول له: ماذا عندك يا ثمامة؟ فتسكب الكلمات في قلبه، ويشعر بحنوها.

إن ثمامة كان يعتقد أن النبي ﷺ سينتقم منه أو يذله، كما يفعل القادة الكبار بالأسارى، ولكنه رأى شيئاً آخر غير معهود، رأى الرحمة والشفقة والمودة، وطيب الحديث، وحسن المعاملة، لم يتردد ثمامة في إعلان إسلامه، وهو يرى هذا الحب والعطف والرحمة، فينطلق ويغتسل ويدخل المسجد مرة أخرى، ولكن مسلماً موحداً، ما أعظم هذه الرحمة التي تقود العاصي الكافر إلى الطريق المستقيم والدين القويم.

المطلب الثاني

رحمته ﷺ بقبوله الفداء من الأسارى

لما وقعت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة النبوية، وكان النصر فيها للفئة القليلة المؤمنة، على الفئة الكثيرة الكافرة، وقتل فيها الكثير من المشركين، وأسر من أسر، استشار النبي ﷺ صحابته ﷺ في أمر الأسرى فقد قال النبي ﷺ: «لَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمْكِنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمْكِنَ عَلَيَّ رضي الله عنه مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَتُمْكِنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ رضي الله عنه، فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَاعِدَيْنِ بِيَكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةِ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخِزَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ ^(١).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الفداء من الأسارى حسب قدرتهم وحالتهم: ومن هؤلاء العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَعَلِمَ بِإِسْلَامِكَ؛ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ؛ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ بِذَلِكَ فَأَمَّا ظَاهِرًا مِنْكَ فَكَانَ عَلَيْنَا.

فَإِذَا نَفْسُكَ وَأَبْنَى أَخِيكَ نَوَفَلَ بِنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَقِيلَ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فَهْرٍ، قَالَ مَا إِخَالَ ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَإِنَّ الْمَالَ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ؛ فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ أُصِيبَتْ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي: الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَقَتْمِ بْنِ الْعَبَّاسِ! فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، برقم (٣٣٠٩)، وانظر ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ج ٢، ص ٣٦٢.

رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا شَيْءٌ مَا عَلَّمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرَ أُمِّ الْفَضْلِ، فَاحْسَبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أَوْ قِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا، ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ، فَضَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخُوِيَّةَ وَحَلِيفَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَعْفُرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٧٠] فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ الْعِشْرِينَ الْأَوْقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عِشْرِينَ عَبْدًا كُلَّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١) وَمِنَ الْأَسْرَى: أَبُو عَزِيزِ بْنِ عَمِيرٍ، وَقَدْ بَعَثَ أُمَّهُ بِفِدَائِهِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ^(٢). وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَكْتُبُونَ وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ لَا يَكْتُبُونَ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِدَاءٌ دَفَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةَ غُلَمَانَ مِنْ غُلَمَانِ الْمَدِينَةِ يُعَلِّمُهُمْ، فِإِذَا حَذِقُوا - اتَّقَنُوا الْكِتَابَةَ - فَهُوَ فِدَاؤُهُ^(٣).

ويتضح من هذا الموقف رحمة النبي ﷺ بأهله وعشيرته، فلقد استشار النبي أصحابه في أمر الأسرى؛ فكان الجواب بأمرين، الفداء أو ضرب العنق، ولقد اختار النبي ﷺ الفداء؛ رحمة بأهله وقومه، ففي الأسرى أقاربه، بنو عمومته وغيرهم، وفي الأسرى عمه العباس بن عبدالمطلب الذي كان يدافع عنه، ويمنعه من المشركين، وهو الذي ذهب مع النبي ﷺ ليستوثق له من أهل يثرب قبل الهجرة، كل هذه الأمور كانت تدور بخلد النبي ﷺ؛ لذلك رجح النبي ﷺ رأي أبي بكر الصديق ﷺ؛ رعاية وشفقة ورحمة بالأهل والأقارب.

وقد كان لهذه الرحمة تأثير كبير في نفوس هؤلاء الأسرى؛ حيث

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١ - ١٤٠٥ هـ، ج٣، ص ١٤٢.

(٢) الخضري، محمد بن عفيفي الباجوري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دمشق، دار الفيحاء ط٢، ١٤٢٥ هـ، ص ١١١.

(٣) ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمرى، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، بيروت، دار القلم، ط١، ١٤١٤/١٩٩٣ م، ص ٣٣٢.

أسرع مجموعة من كبراء الأسرى وأشرافهم إلى الإسلام، فأسلم أبو
عزیز بن عمیر عقب غزوة بدر وكثیر غیره، وعاد هؤلاء الأسرى إلى
بلادهم يتحدثون عن رحمته ﷺ وكريم أخلاقه.



المبحث الثاني رحمة النبي ﷺ في التعامل مع الأسرى

لعل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التي دافع بها ﷺ عن المؤمنين؛ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؛ هي حرب لتعليم الناس أن الخلق الكريم يلازمها، وأن الفضيلة تظلمها في كل أدوارها، هو معاملة النبي ﷺ للأسرى.

لقد كان النبي ﷺ رحيماً بالأسرى لا يهدر آدميتهم، ولا يعرف تاريخ الإنسانية محارباً كان رفيقاً بأسراه كمحمد ﷺ، فقد كان ﷺ يوصى بالأسرى، ولما أُسر من أسر في غزوة بدر، نزلوا في بيوت الأنصار، وكأنهم في ضيافة؛ لا في أسر، وذلك لوصية النبي ﷺ بهم: حيث قال ﷺ: (استوصوا بهم - أي بالأسارى - خيراً)⁽¹⁾

ولماذا كان النبي ﷺ يوصى بالأسرى، ويبالغ في الإيصال بهم؟ والجواب عن ذلك:

أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين، فيكون الاعتداء عليه متوقعاً وغلظاً لشدة الغيظ، وانبعاث الرغبة في الانتقام، كما فعل الأوروبيون والأمريكان فيمن سموهم مجرمي الحرب.

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ج ٢، ص ١١٩.

فالنبي ﷺ، وهو يضرب الأمثال السامية في تلك الحرب النبوية منع إيذاء الأسرى، وأمر بإكرامهم منعاً لتلك الروح الانتقامية الغليظة.

وقد أخذ المسلمون في أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة، حتى إن الذين قد نزلوا في ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام. وإن أولئك الكرام كانوا في جهادين:

أولهما: جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة، حتى إذا انطفأت كان الجهاد الثاني، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ، لئلا يكون منها ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمغلوبين، وخصوصاً الأسرى.^(١) وقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ، ووصيته بالأسارى، ومنها:

فَعَنَّ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُكُّوا الْعَانِي^(٢)، يَعْني: الْأَسِيرَ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ»^(٣)، وقد حث النبي ﷺ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على حسن معاملة الأسير، فقد قال لصحابته عندما أُسِرَ ثَمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ: (أَحْسِنُوا إِسَارَهُ)^(٤) وهذه قاعدة عامة من رسول الله ﷺ لجميع الأسرى.

وفي السطور التالية نتحدث عن مظاهر رحمته ﷺ في معاملة الأسارى، من إكرامهم، والرفق بهم وعدم إيذائهم، واحترامهم.

- (١) أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٢٣.
- (٢) بالعين المهملة وبعد الألف نون على وزن القاضي قال جرير أبو قتيبة (يعني الأسير) أي من المسلمين من بيت المال (القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٢ هـ، ج٥، ص ١٦٦).
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، برقم: ٢٨٨١.
- (٤) السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبدالسلام السلمي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م، ج٧، ص ٥٥١.



المطلب الأول إكرام النبي ﷺ للأسرى

ضرب النبي ﷺ المثل الأعلى في رحمته بالأسارى؛ حيث أمر ﷺ بإطعامهم وكسوتهم وإيوائهم امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامًا عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان]: يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: (.. رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ الْأَسَارَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيَحْفَظُوا وَلِيُقَامَ بِحَقِّهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجِبُ إِطْعَامُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَرَى الْإِمَامُ رَأْيَهُ فِيهِمْ مِنْ قَتْلِ أَوْ فِدَاءٍ أَوْ اسْتَرْقَاقٍ، وَلَا يَمْتَنِعُ أَيضًا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هُوَ الْأَسِيرُ كَافِرًا كَانَ أَوْ مُسْلِمًا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَ الْكُفْرِ يَجِبُ إِطْعَامُهُ فَمَعَ الْإِسْلَامِ أَوْلَىٰ).^(١)

ويقول ابن كثير: «قال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء».^(٢)

ويقول الشوكاني: «وَإِطْعَامُ الْأَسِيرِ لِحِفْظِ نَفْسِهِ».^(٣)

ويقول صاحب الظلال في معنى هذه الآية: «... هي تصور شعور البر والعطف والخير، ممثلاً في إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه. فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم. إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحاويج.

وهذه اللفتة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين، وأنها كانت لا

(١) الرازي، التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣ - ١٤٢٠ هـ، ج ٣٠، ص ٧٤٦.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩ هـ، ج ٨، ص ٢٩٤.

(٣) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٤ هـ، ج ٥، ص ٤١٩.

تفضي بشيء للمحاويج الضعاف، وإن كانت تبذل في مجالات المفاخرة الشيء الكثير.

فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة. وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلص نية. واتجاه إلى الله بالعمل، يحكيه السياق من حالهم، ومن منطوق قلوبهم»^(١).

وقال الثعالبي في تفسيره: «سئل مالك عن الأسير في هذه الآية أم مسلم هو أم مشرك؟ فقال: بل مشرك، وكان ببدر أسارى، فأنزلت فيهم هذه الآية. فقال ابن رشد: والأظهر حمل الآية على كل أسير، مسلماً كان أو كافراً.

يعني: وإن كان سبب نزولها ما ذكر فهي عامة في كل أسير إلى يوم القيامة»^(٢).

ويقول القرطبي: «ويكون إطعام الأسير المشرك قرية إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا»^(٣). وقال صاحب روح المعاني: «... أخرج ابن عساكر عن مجاهد أنه قال لما صدر النبي ﷺ بالأسارى من بدر أنفق سبعة من المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ على أسارى مشركي بدر. فقالت الأنصار قتلناهم في الله وفي رسوله ﷺ وتعينونهم بالنفقة فأنزل الله تعالى فيهم أربع عشرة آية^(٤)،... ففيه دليل على أن إطعام الأسارى

(١) حسين، سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢ هـ، ج ٦، ص ٣٧٨١.

(٢) الثعالبي، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٨ هـ، ج ٥، ص ٥٢٨.

(٣) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٣ م، ج ١٩، ص ١٢٧.

(٤) من الآية (٤) إلى الآية (١٨) سورة الانسان.



وإن كانوا من أهل الشرك حسن ويرجى ثوابه»^(١)، وقد ظهر تحقيق قول الله تعالى^(٢): ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِمًّا وَأَسِيرًا﴾ [الأنسان: ٦]

في أخلاق الصحابة رضي الله عنهم فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير رضي الله عنه يحدثنا عما رأى قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالأسارى خيراً)^(٣)، وكنت في نفر من الأنصار؛ فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البرّ لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤)

وهذا أبو العاص بن الربيع رضي الله عنه يحدثنا قال: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشنا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليّ^(٥)، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون^(٦).

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكر به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فاتخذوه خلقاً، وكان لهم طبيعة، قد أثر في إسراع مجموعة من أشرف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وأسلم معه السائب بن عبيد بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحدثون عن محمد

(١) الألويسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٢٩، ص ١٥٥.

(٢) الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية - عرضٌ وقائعٌ وتحليلٌ أحداث، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣٠.

(٣) راجع تعليق رقم (٥٩).

(٤) مجمع الزوائد (٨٦ / ٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

(٥) راجع: حسن معاملة الصحابة للأسرى (الصوياني، أبو عمر محمد بن حمد، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، مكتبة العبيكان، ط ١ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ج ٢، ص ١٢٢).

(٦) الواقدي، المغازي، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٩.

ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير. (١)

إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام في معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار.

ولم يقتصر إكرام النبي ﷺ للأسرى على إطعامهم، بل أمر النبي ﷺ بكسوتهم، وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه، باب الكسوة للأسرى، وذكر حديثاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأَسَارِيٍّ وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ فَمِيصًا، فَوَجَدُوا فَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَقْدَرُ عَلَيْهِ) (٢) فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ. قَالَ ابْنُ عِيَيْنَةَ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَكْفِيَهُ. (٣)

وأمر النبي ﷺ لأسرى هوازن بالكساء؛ فقد أمر بسر بن سفيان الخزاعي ﷺ يقدّم مكة فيشتري للسبي ثياباً يكسوها، ثياب المعقد فلا يخرج المرء منهم إلا كاسياً، فاشتري بسر كسوة فكسا السبي كلهم (٤)

(١) عرجون، محمد الصادق، محمد رسول الله، بيروت، بيروت، دار القلم، ط٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج٣، ص ٤٧٤.

(٢) يَقْدَرُ عَلَيْهِ: بفتح الياء وضم الدال، وبضم الياء أيضاً وفتح القاف والدال أيضاً، وبالوجهين، أي: على قدره. (ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، مطالع الأنوار على صحاح الآثار، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠١٢ م، ج٥، ص ٣١٢) ولم يرد ﷺ أن يسأل من أخذ قميص العباس، ولا حيث صار في المقاسم؛ لئلا يحصل بذلك تأذ لغيره من قريش، وكان العباس طوالاً كأنه فسطاط، وكان أبوه عبدالمطلب أطول منه، وكان ابنه عبدالله إذا مشى مع الناس كأنه راكب والناس مشاة، والعباس أطول منه. (ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دمشق، دار النوادر، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج١٨، ص ١٧٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كسوة الأسرى، برقم: ٢٨٤٦.

(٤) الواقدي، المغازي، مرجع سابق، ج١، ص ٩٤٤.

إن اهتمام النبي ﷺ بإطعام الأسارى وكسوتهم؛ دليل على عظمته ﷺ؛ فلقد أحس النبي ﷺ بهؤلاء الأسارى، وأدرك أنهم في محنة الأسر يحتاجون إلى الرحمة والشفقة، ويحتاجون كما يحتاج كل إنسان إلى الطعام والشراب، والملبس، وحسن التعامل، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، فأوصى النبي ﷺ صحابته ﷺ بإطعام الأسارى وكسوتهم، فاستجابوا لأمر النبي ﷺ، وضربوا أروع الأمثلة في ذلك، حتى إنهم كانوا يؤثرون الأسرى على أنفسهم، مما جعل الأسرى يتعجبون من صنعهم، ويتحدثون عن هذه الأخلاق السامية بعد رجوعهم لأهلهم، وكان لها الأثر العظيم في إسلام أكثرهم.

لقد كان النبي ﷺ رحيماً في تعامله مع الأسرى؛ حتى إنه ﷺ أشرف بنفسه على كسوتهم وراحتهم، وأخذ ينظر بعين الرحمة إلى كل أسير، وما يحتاجه في الأسر من كسوة، فشملت رحمته كل الأسارى، فأطعم جائعهم وكسى عاريهم؛ رحمة وشفقة بهم.

المطلب الثاني

رفق النبي ﷺ بالأسرى وعدم إيذائهم

لم يشهد التاريخ قائداً كان رحيماً بأعدائه مثل النبي ﷺ، وقد بلغت هذه الرحمة مبلغاً عظيماً؛ حتى إنه ﷺ يستمع بنفسه لشكوى الأسير، ويحاوره ويتحمله، وهذا موقف يرويه عمران بن حصين ﷺ بين ذلك؛ فيقول: كَانَتْ تَقِيْفُ حُلَفَاءِ لِبْنِي عُقَيْلٍ فَاسْرَتَتْ تَقِيْفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَسْرَأَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعُضْبَاءَ^(١) فَآتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْوَتَاقِ، قَالَ يَا مُحَمَّدُ .

(١) هُوَ عَلِمَ لِنَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةُ عُضْبَاءَ: أَيُّ مَشْقُوقَةِ الْأُذُنِ، وَلَمْ تَكُنْ مَشْقُوقَةً =

فَاتَاهُ فَقَالَ «مَا شَأْنُكَ»^(١). فَقَالَ بِمَ أَخَذْتَنِي وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ (١)
فَقَالَ إِعْظَامًا لِذَلِكَ: «أَخَذْتِكَ بِجَرِيرَةِ حُلْفَائِكَ ثَقِيفًا»^(٢). ثُمَّ أَنْصَرَفَ

عَنْهُ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا
رَقِيقًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «مَا شَأْنُكَ». قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ. قَالَ: «لَوْ قُلْتَهَا
وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ» ثُمَّ أَنْصَرَفَ فَنَادَاهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ
يَا مُحَمَّدُ.

فَاتَاهُ فَقَالَ «مَا شَأْنُكَ». قَالَ إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي وَظَمَانٌ فَاسْقِنِي.
قَالَ: «هَذِهِ حَاجَتُكَ»^(٣).

انظر إلى رحمة النبي ﷺ بهذا الأسير؛ فعندما طلب من رسول الله
ﷺ الطعام والشراب، كان الجواب من الرحمة المهداة: هذه حاجتك.
وهذه الكلمة تدل على كمال رحمته ﷺ بالخلق جميعاً وبهذا الأسير.

إن النبي ﷺ بهذه الرحمة يرسى قواعد التعامل الرحيم مع الأسرى،
من تلبية حوائجهم، وحسن التعامل معهم، والرفق بهم، وكل هذه الأمور
يحتاجها اليوم دعاة التقدم والحضارة: في مجتمعات غابت فيها الرحمة
والرفق والعدل!

ومن كمال رفقته ورحمته بالأسارى ﷺ أنه نهى عن التفريق بين

= الأذن. (ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق:
طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ -
١٩٧٩م، ج ٣، ص ٢٥١).

أَرَادَ بِسَابِقَةِ الْحَاجِّ نَاقَتَهُ كَأَنَّهَا كَانَتْ تَسْبِقُ الْحَاجَّ لِسُرْعَتِهَا. (١)

الجريرة: الجناية. (المازري، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي، المُعْلَمُ بفوائد مسلم، تحقيق:
فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، تونس، الدار التونسية للنشر، ط ١، ١٩٨٨ م، ج ٢، ص ٣٦١).

مَعْنَى قَوْلِهِ "هَذِهِ حَاجَتُكَ": أَي حَاضِرَةٌ يُؤْتَى إِلَيْكَ بِهَا السَّاعَةَ. (الشوكاني، نيل الأوطار،
محمد بن علي بن محمد، تحقيق: عصام الدين الصبايطي، القاهرة، دار الحديث، ط ١،
١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ج ٧، ص ٣٦٠).

صحيح مسلم، كتاب النذر، باب لاوفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد، برقم:

١٦٤١.



الأسارى إذا كانوا من بيت واحد؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِالسَّبْيِ، أَعْطَى أَهْلَ الْبَيْتِ جَمِيعًا، كَرَاهِيَةً أَنْ يُفْرَقَ بَيْنَهُمْ^(١). بل إن النبي ﷺ كان يتفقد أحوال الأسارى، وينظر إليهم بعين الرحمة ويرق لهم، فقد روى عن أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَدِمَ بِسَبْيِ مَنْ الْبَحْرَيْنِ فَصَفُوا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فنظر إليهم فإذا امرأة تبكي فقال: «مَا يُبْكِيكِ؟» فقالت: بيع ابني في بني عَبَسٍ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي أُسَيْدٍ ﷺ: «لَتَرْكَبَنَّ فَلْتَجِئَنَّ بِهِ» فَرَكِبَ أَبُو أُسَيْدٍ فَجَاءَ بِهِ^(٢).

وقد أوصى النبي ﷺ صحابته ﷺ بالرفق بالأسارى، وعدم إيذائهم، وحسن معاملتهم وإكرامهم، وقد امتثل الصحابة لأمر النبي ﷺ، وضربوا الأمثلة الرائعة في ذلك، فقد أعطى النبي ﷺ أبا الهيثم بن التيهان أسيرًا وقال له:

(خُذْ هَذَا، وَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا، فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي، وَإِنِّي نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ، فَأَخَذَهُ أَبُو الْهَيْثَمِ فَاَنْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْصَانِي بِكَ خَيْرًا فَانَّتِ حُرٌّ لَوْجَهُ اللَّهُ -وفي رواية أخرى- قَالَ لَهُ: أَنْتَ حُرٌّ لَوْجَهُ اللَّهُ، وَلَكَ سَهْمٌ مِنْ مَالِي)^(٣)

ومن صور الرحمة التي طبقتها الصحابة ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ ما رواه عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيُّ قَالَ: كُنَّا فِي الْبَحْرِ وَعَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ

(١) ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دمشق، بيروت، دارالرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ج ٣، ص ٣٥٧، برقم: ٢٢٤٨، وقال محققوه: حسن لغيره.

(٢) المستدرک علی الصحیحین، الحاكم، ج ٢، ص ٥٩١، برقم (٦١٩٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرَجْ، وَتَعْقِبُهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: "مرسل". أخرجه البيهقي في سننه (١٢٦/٩) في السير، باب التفريق بين المرأة وولدها، من طريق الحاكم، به مثله. ثم قال البيهقي عقب الحديث: "هذا وإن كان فيه إرسال، فهو مرسل حسن."

(٣) البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ج ٦، ص ٢٢٤، برقم: ٤٦٠٦.

الْفَزَارِيُّ وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه، فَمَرَّ بِصَاحِبِ الْمَقَاسِمِ وَقَدْ أَقَامَ السَّبْيَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟

قَالُوا: فَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ وَلَدِهَا حَتَّى وَضَعَهُ فِي يَدِهَا، فَنَاطَقَ صَاحِبُ الْمَقَاسِمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي أَيُّوبَ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)

ومما سبق عرضه يتضح:

كيف كان نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم يتعامل مع الأسارى، ويرفق بهم، ويرق قلبه لهم، ويتحاور معهم، ويأمر صحابته بالإحسان إليهم، وإطعامهم وكسوتهم، واحترامهم، ولقد نفذ الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وضربوا أروع الأمثلة في الإيثار والعطف على أسراهم، مما جعل هؤلاء الأسرى يسرعون للدخول في الإسلام أفواجا.



(١) مسند الإمام أحمد، ج ٢٨، ص ٤٢٦، برقم (٢٣٤٩٩)، سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، بَابُ فِي كَرَاهِيَةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ السَّبْيِ، ج ٤، ص ١٣٤، برقم: ١٥٦٦، وقال الترمذي: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَغَيْرِهِمْ، كَرَهُوا التَّفْرِيقَ بَيْنَ السَّبْيِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ الْوَالِدِ وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ. وَصَحَّحَهُ الْعَلَمَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ بِرَقْمِ: ٦٤١٢، وَقَالَ عَنْهُ حُسَيْنٌ سَلِيمٌ أَسَدٌ فِي سُنَنِ الْإِمَامِ الدَّارِمِيِّ " ٢٤٧٩ " : إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، و صلى اللهم على سيدنا محمد ﷺ خير خلق الله، خاتم النبيين والمرسلين، ورضي الله عن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

قد انتهيت -بتوفيق الله تعالى- من دراسة هذا البحث، والذي كان بعنوان: (رحمة النبي ﷺ بالأسارى) وقد خرجت من هذه الدراسة بنتائج وتوصيات أهمها:

أولاً: النتائج:

إن كلمة الرحمة في معاجم اللغة؛ تدور حول هذه المعاني: رقة القلب، والعطف، والرأفة، والمغفرة، والغيث، والإحسان، والرزق. ويمكن تعريف مصطلح الرحمة بأنها: رقة في القلب، وحب لإيصال الخير؛ يقتضي الإحسان العملي للآخرين.

٥٢٧

جمع النبي ﷺ بين الرحمة والعدل في كثير من المواقف، ويتضح ذلك في رحمته بأسرى هوازن عندما رفق بهم وتنازل عن حقه لهم، وبين

تخيير بقية المسلمين في التنازل عن حقوقهم، وظهرت رحمته في سعيه لإطلاق سراح أبي العاص مع جعله القرار الحاسم بأيدي الصحابة، واختياره الفداء للأسرى بدر مع عدم إعفاء قرابته وعمومته منه.

ظهرت رحمته ﷺ الشاملة في الموقف الواحد، فنجاه ﷺ في إطلاق سراح أبي العاص بن الربيع، كان رحيماً به، وبزوجته السيدة زينب، وزوجته السيدة خديجة؛ حتى بعد وفاتها، ورحيماً بصحابته ﷺ.

إن معاملة النبي للأسرى، ورحمته بهم، وعفوه عنهم، جعلت الكثير منهم يفكر في الدخول في الإسلام، وهذا ما حدث؛ فقد تأثر أبي العاص بن الربيع ﷺ بحسن معاملة النبي ﷺ وأسلم، وكذلك ثمامة بن أثال ﷺ، وغيرهم ممن عفا عنهم رسول الإنسانية ﷺ في الوقت الذي كانت فيه الحروب في الجاهلية لا تعرف أخلاقيات الحرب، ظهرت رحمته ﷺ في هذا الميدان؛ لتشرع للعالمين تصوراً شاملاً للتعامل مع الأسارى على أساس الرحمة والرأفة والعدل.

اقتدى الصحابة ﷺ برسول الله ﷺ في معاملة الأسرى؛ وكانت هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام في معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار.

ثانياً: التوصيات:

رد الشبهات التي أثرت عن الإسلام؛ وأنه انتشر بحد السيف، وأن المسلمين كانوا متعطشين للدماء، مع بيان المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ إلى الأسرى والعفو عنهم واحترامهم.

ضرورة اهتمام الباحثين بأخلاق النبي ﷺ وإبرازها في أبحاثهم، مع ضرورة الاهتمام بتطبيقها.

أسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله في ميزان الحسنات
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
٣. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٥ م
٤. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، الرياض، ط دار الوطن، دت.
٥. ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
٦. ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط ١ - ١٩٦٨م
٧. ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمري، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، دار القلم، ط ١، ١٤١٤/١٩٩٣م
٨. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠
٩. ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ط ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٤٩٨
١٠. ابن الفراء، محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه:



- محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م
١١. ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، مطالع الأنوار على صحاح الآثار، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
١٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
١٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ، ج ٨، ص ٢٩٤
١٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ط ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م
١٥. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، الفصول في السيرة، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو مؤسسة علوم القرآن ط ٣، ١٤٠٣هـ، ج ١، ص ١٧٩
١٦. ابن ماجة أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دمشق، بيروت، دارالرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
١٧. ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دمشق، دار النوادر، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
١٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٣ - ١٤١٤هـ
١٩. ابن هشام، عبدالملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا



- وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط ٣، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م
٢٠. أبو زهرة، محمد بن أحمد، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، القاهرة، دار الفكر العربي، ط ١٤٢٥هـ
٢١. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى ١٤١٧هـ
٢٢. الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي
٢٣. الأنباري، محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
٢٤. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ
٢٥. البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م
٢٦. البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
٢٧. البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٠٥هـ
٢٨. التويجري، صالح عبدالعزيز، أحكام الأسر في الفقه الإسلامي والنظام الوضعي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١٤١٢هـ
٢٩. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل



أحمد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٨هـ، ١هـ

٣٠. الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، بيروت، دار الكتب

العلمية، ط ١٤١٠هـ، ١٩٨٣م

٣١. الجزائري، أبو بكر جابر، منهاج المسلم، المنصورة، مكتبة الإيمان، د.ت

٣٢. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، بيروت، دار العلم للملايين،

ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

٣٣. الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، المستدرک

على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب

العلمية - بيروت، ط ١٤١١، ١٩٩٠م

٣٤. حسين، سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، بيروت، دار الشروق،

ط ١٤١٢هـ، ١٧

٣٥. الحلبي، علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية في سيرة الأمين

المأمون، بيروت، دار المعرفة، ط ١٤٠٠هـ

٣٦. الخضري، محمد بن عفيفي الباجوري، نور اليقين في سيرة سيد

المرسلين، دمشق، دار الفيحاء ط ٢، ١٤٢٥هـ

٣٧. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد

بن أحمد، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

٣٨. الرازي، التفسير الكبير، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن

الحسين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢ - ١٤٢٠هـ

٣٩. الرازي، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف

الشيخ، بيروت، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ط ٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

٤٠. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب

القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، ط ١ -

١٤١٢هـ



٤١. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، دار الهداية، ط ١٩٦٦ م
٤٢. الزحيلي، وهبة، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ط ٣، ١٤٩١هـ، ١٩٨٩م
٤٣. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
٤٤. السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبدالسلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م
٤٥. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله، فتح القدير، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١ ١٤١٤ هـ
٤٦. الشوكاني، نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، القاهرة، دار الحديث، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م
٤٧. الصوياني، أبو عمر، محمد بن حمد، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، مكتبة العبيكان، ط ١ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م
٤٨. الطهطاوي، رفاعة رافع، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، القاهرة، دار الذخائر - القاهرة ط ١ - ١٤١٩ هـ
٤٩. عرجون، محمد الصادق، محمد رسول الله ﷺ، بيروت، بيروت، دار القلم، ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
٥٠. عياض، أبو الفضل بن موسى، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، مصر، دار الوفاء، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م
٥١. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م



٥٢. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣ هـ
٥٣. القسطلاني، أحمد بن محمد، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، القاهرة، المكتبة التوفيقية، دت
٥٤. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣ م
٥٥. اللّحجي، عبدالله بن سعيد بن محمد عبادي، منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ جدة، دار المنهاج، ط٣، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م
٥٦. المازري، أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر التميمي، المُعلم بفوائد مسلم، تحقيق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، تونس، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٨٨ م
٥٧. الماوردي، أبو الحسن بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م
٥٨. مسلم، أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ط دار إحياء التراث العربي، دت
٥٩. النجار، محمد الطيب، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، بيروت، لبنان، دار الندوة الجديدة، دت
٦٠. الندوي، السيد سليمان، الرسالة المحمدية، دمشق، دار ابن كثير، ط١٤٢٣ هـ
٦١. النووي، أبوزكريا يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١٣٩٢ هـ
٦٢. الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت، عالم الكتب، دت.

٦٣. الهيتمي، أبو الحسن نور الدين، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق:
حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ط: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م



فهرس البحوث



• بحث: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف وأثرها على المدعوين.

د. مصطفى بن عبد الرحمن البار.

المقدمة	٧
المبحث الأول: الإشارة إلى أهمية ومكانة الرحمة في الإسلام	١٥
المبحث الثاني: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المسلمين	٢٢
المبحث الثالث: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع غير المسلمين	٣٦
الخاتمة	٤٣



• بحث: الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ

د. خالد بن محمد بن عقيل البداح.

المقدمة	٥٣
المبحث الأول: رحمة الرسول ﷺ بأصحابه ﷺ	٥٧
المبحث الثاني: رحمة الرسول ﷺ بأمتة وطلبه من ربه التخفيف في الشرائع	٦٥
المبحث الثالث: رحمة الرسول ﷺ بأمتة من بعده	٧٠
المبحث الرابع: رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين	٧٤
الخاتمة	٨١



• بحث: الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية .
د. محمد عويس عبدالرحيم محمود.

المقدمة	٩٩.....
التمهيد: حديث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ	١٠٤.....
المبحث الأول: حكمة الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية	١٠٨.....
المبحث الثاني: جملة من صور الرحمة بالعجماءات في السنة النبوية	١١٣.....
الخاتمة	١٣١.....



• بحث: دور البرامج الدينية الفضائية في التعريف بخلق
الرحمة عند النبي محمد ﷺ - دراسة تحليلية.
د. رقية بوسنان.

المقدمة	١٤١.....
المبحث الأول: الجانب المنهجي	١٤٤.....
المبحث الثاني: الجانب النظري	١٥٧.....
المبحث الثالث: الجانب التحليلي	١٦٧.....
الخاتمة	١٨٧.....



- بحث: رحمة الإسلام بأهل الكتاب - دراسة استقرائية في
سيرة النبي ﷺ وصحابته رضِيَ اللهُ عنهم -
د. حمود بن إبراهيم السلامة.

المقدمة	١٩٥
التمهيد : بيان المراد بأهل الكتاب، ومدخل للرحمة في الإسلام ...	١٩٩	
المطلب الأول : حرمة دماء وأموال أهل الكتاب	٢٠٣
المطلب الثاني : العدل مع أهل الكتاب	٢٠٥
المطلب الثالث : العفو والتسامح مع أهل الكتاب	٢٠٩
المطلب الرابع : الإحسان إلى أهل الكتاب	٢١٤
المطلب الخامس : التعامل مع أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام	٢٢١
الخاتمة	٢٢٤



- بحث: رحمة الإسلام والمسلمين بالحيوان.
د. يونس بوعوام.

المقدمة	٢٣٥
المبحث الأول: هدي النبي ﷺ في الرحمة بالحيوان	٢٤٠
المبحث الثاني: تاريخ المسلمين في الرحمة بالحيوان	٢٥٢
المبحث الثالث: مظاهر قسوة بعض أهل العصر على الحيوان	٢٦١
المبحث الرابع: سبل تفعيل الهدي النبوي في عصرنا الحاضر	٢٦٥
الخاتمة	٢٦٦



• بحث: رحمة الرسول ﷺ بالحيوانات الذكي.
أ. أسماء بنت العربي بن محمد الإدريسي.

المقدمة	٢٧٥
المبحث الأول: تعريف الرحمة بالحيوان المذكي	٢٨٢
المبحث الثاني: جوانب من رحمة النبي ﷺ بالحيوان المذكي	٢٨٧
المبحث الثالث: مقارنة التذكية الشرعية بما عداها من الطرق المعمول بها من حيث تحقيق مبدأ الرحمة والرفق بالحيوان ومراعاة حقوقه	٣٠٠
الخاتمة	٣٠٨



• بحث: رحمة الرسول ﷺ بأصحابه ﷺ .
د. عبد الله بن وكيل الشيخ.

المقدمة	٣٢٥
المبحث الأول: مفهوم الرحمة	٣٢٨
المبحث الثاني: قواعد في التعامل النبوي الرحيم مع أصحابه	٣٣٢
الخاتمة	٣٥٦



• بحث: معالم الرحمة بالبيئة ومكوناتها في السنة النبوية الشريفة.

د. محمد عبد القادر الفقي.

المقدمة	٤٦٧
التمهيد	٣٧٣
المبحث الأول: الرحمة بالبيئة الطبيعية بوجه عام ائمة	٣٧٧
المبحث الثاني: الرحمة بالبيئة الحيوانية	٣٨٤
المبحث الثالث: الرحمة بالبيئة النباتية	٣٩٩
المبحث الرابع: الرحمة بالبيئة غير الحية (الجمادات).	٤٠٤
الخاتمة	٤١١



• بحث: رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين أثناء الحرب.

د. عبد المحسن أحمد محمد علي.

المقدمة	٤٢٣
المبحث الأول: رحمة النبي ﷺ بالمحاربين من الأعداء المخالفين	٤٣٠
المبحث الثاني: رحمته ﷺ في حماية المستكرهين على الحرب والمستأمنين	٤٤٦
المبحث الثالث: رحمته ﷺ في حماية المدنيين أثناء الحرب	٤٥٠
المبحث الرابع: رحمته ﷺ في حماية البيئة عند الحرب	٤٥٦
المبحث الخامس: رحمته ﷺ بأسرى الحرب	٤٦٢
الخاتمة	٤٧٨



• بحث: رحمة النبي ﷺ بالأسارى .

د. محمد إبراهيم الشربيني صقر.

المقدمة	٤٩١
التمهيد	٤٩٤
المبحث الأول: رحمة النبي ﷺ بالأسارى وقبول الفداء منهم	٤٩٨
المبحث الثاني: رحمة النبي ﷺ في التعامل مع الأسرى	٥١٧
الخاتمة	٥٢٧



